دراسة في تاريخ الخلفاء الأمويين

تأليف
أ. د محمد ضيف الله بطاينة



دار الفرقان للنشر والتوزيع

دِراسة
في
تاريخ الخُلفاء الأُمويّين



الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م



دار الفرقان للنشر والتوزيع

الإدارة والمكتبة - العبدلي - عمارة جوهرة القدس
مقابل وزارة التربية والتعليم
هاتف : ٤٦٤٠٩٣٧ - ٤٦٤٥٩٣٧ - فاكس : ٤٦٢٨٣٦٢
ص.ب : ٩٢١٥٢٦ عمان - الأردن

إربد - مقابل جامعة اليرموك - تلفاكس : ٢٧٦٥٠٦

دراسة

في

تاريخ الخلفاء الأمويين

تأليف

أ. د محمد ضيف الله بطاينة

دار الفرقان للنشر والتوزيع

الإهـــداء

أين هذا العمل من الرباط في سبيل الله والدفاع عن الإسلام وحضارته المنبعثة من عقيدة التوحيد وشرع الله، والحفاظ على الشخصية الإسلامية قائمة أبداً، . . . فهو إلى من يقبله، والله لا يضيع أجر من أحْسَن عملا .

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الاهتمام والاشتغال بالماضي ضرورة من ضرورات الحاضر، ورغم الدعوة إلى التحرر من الماضي، يظل الماضي قائماً في بناء الحاضر والمستقبل، وتبدو الصلة بين الأزمنة والعصور أكثر وضوحاً عند ملاحظة المراحل المتعاقبة في المسيرة التاريخية للأمة الواحدة والمجتمع الواحد، ففي مجال نمو الأمة وتكوين المجتمع تتيح الاستمرارية التاريخية لعمليات النمو والتكوين ملاحظة أثر وفعل السابق في بناء وتكوين اللاحق، ومن أجل القيام بتغييرات نوعية ومستقبلية في عمليات النمو والتكوين لا بد من فهم الأسس التي كانت تحكم العلاقات والآثار المتبادلة بين المراحل المتعاقبة، وهو أمر يدعو إلى مراجعة الماضي، واستيعاب حركته، واستكناه القوى الفاعلة فيه، وفي إطار هذا المنظور جاء الاهتمام بتاريخ العصر الأموي الذي يُعدّ مرحلة لاحقة للعصرين الراشدي والنبوي، ومرحلة سابقة للعصر العباسي والعصور التالية.

فالعصر النبوي، والعصر الراشدي، وهو عصر الصحابة، والعصر الأموي وهو عصر التابعين، كانت فترة التأسيس والبناء والانطلاق والانتشار.

ففي العصر النبوي، تمّت قواعد وأركان الإسلام، وأرسيت سننه فكراً وعملاً، وأجري عليها بناء الأمة وإقامة المجتمع.

وفي العصر الراشدي، رُدّت الفروع إلى الأصول، ووضحت معالم الاجتهاد، وازدادت شخصية الأمة نمواً ورسوخاً في مجال الفتح والجهاد والاقتصاد والإدارة والحكم والثقافة، وأظهر العصر قدرة فائقة في مواجهة التحديات ووضع الحلول للمشكلات المستجدة.

وأما في العصر الأموي، فشهد توسعاً في مجال الفتح والعلاقات الخارجية، وتعزيز مكانة وقوة الدولة إزاء الاتجاهات المنحرفة كالعصبية القبلية والثورات المحلية، واتباع الأسلوب الوراثي في الحكم استئثاراً بالسلطان واستجابة لداعي الجماعة في خضم الظروف الصعبة التي أخذت تهدد وحدة الأمة، كما شهد تطوراً كبيراً في مجال الإدارة، وتنظيماً واسعاً في مجال الحكم والاقتصاد، وجهوداً طيبة في مجال الخدمات والحاجات الاجتماعية والثقافية، وهي جهود وتنظيمات إذا أضيفت إلى ما تمّ إنجازه في العصرين السابقين يمكن أن يفسّر بها سر استمرار الأمة في الحفاظ على هويتها وشخصيتها، وانتماء الأجيال إلى فترة التأسيس، وجهادهم في بعث تلك الحياة وتعلقها بها من جهة، وهجوم الأعداء على معالم تلك الفترة عقيدة ورجالاً، فكراً وطريقة، والعمل على إزالة القواعد والأركان وتسويتها بالدارسات من جهة أخرى.

ولكن الكتابة في التاريخ الأموي ليست سهلة، ولعلّ الصعوبات التي تعترض المشتغلين بالتاريخ الأموي تتساوى والدواعي إلى الاهتمام به، فقد جاءت العناية بكتابة التاريخ الأموي عند المسلمين متأخرة عن العناية بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وعلومهما، ولم ينظر إليها بعين العناية التي أخذ بها القرآن والحديث وعلومهما، ولم تجر في أجواء عادية من الحياد اللازم والموضوعية المطلوبة، ناهيك عن أن سلطان الأمويين ولد في ساح القتال وزال في ساح القتال، ولم تهنأ أيامه بين البداية والنهاية بالهدوء التام والاستقرار الشامل، فقد شهدت هذه الأيام غير مرة معارك كادت تودي بسلطان الأمويين، وفي ظل هذه الأوضاع، كان من شأن الأطراف المتخاصمة أن تتناول باللسان تناولها بعضها بعضاً بالسنان، وتنشأ الروايات المتضاربة،والصور المتغيّرة، والألوان المتبدلة، والصفات المتناقضة.

ولا تتوفر المادة التاريخية اللازمة لتغطية الجوانب المختلفة من التاريخ الأموي بصورة كافية، وتستبد الحيرة بالباحث حيال المسائل التي لا يجد لها من الأخبار جواباً، وتختلط الحادثة بالتفسير في بعض الروايات أحياناً، ويكون التفسير منبثقاً عن ذهنية للراوي مُسْبَقَة

ومُوَجَّهة في بعض الأحيان، وهذا واضح في الأخبار التي تتحدث عن عصبية اليمانية والمضرية في العصر الأموي في بلاد العراق وخرسان والشام، وبينما يتوقف الحديث عن العصبية أيام العباسيين في العراق وخراسان يستمر عنها في بلاد الشام، مما يُشعِر بوجود سياسة تعمل على إشغال عرب الشام، وهم عصبية الأمويين، بالصراع القبلي عن العمل على إعادة سلطان الأمويين، ووصم العرب بالتعصب القبلي الذي لا يشجع على إعطاء العرب في ظل العباسيين المكانة القيادية السابقة لهم أيام الأمويين، وإظهار مستوى الولاء للعباسيين عند الذين ساروا في ركابهم من العرب أمثال المهالبة الأزديين وإبراز ما لحقهم من ظلم أيام الأمويين وخلافهم عليهم من جهة أخرى.

وإضافة إلى ذلك، تناول كثير من المؤرخين في العصر الحاضر تاريخ العصر الأموي، وجعل بعضهم ما عنده من النظريات والآراء المسبقة سبيلاً إلى فهم أحداثه ووقائعه، فمنهم من استعان بنظرية الجنس والعرق في تفسير أحداثه، وأعطاه لوناً قومياً، وقدّمه بصورة الصراع بين العرب والموالي فرساً وبربر وغير ذلك، ومنهم من اتخذ العصبية القبلية أساساً له ومدخلاً إلى فهمه، والبسه ثوب اليمانية والقيسية، وجعل أحداثه صورة للصراع بينهما، ومنهم من حاول أن يقحم صراع الطبقات في تفسيره، ويجعل المادية التاريخية هادِيَهُ في فهم أحداثه، وقد تركت هذه الدراسات حُجباً رانت على عقول الكثير، وحالّت دون اتصالهم بالمصادر الأولى اتصالاً بريئاً، وجعلت كثيراً من المحاولات التالية التي تعرضت للتاريخ الأموي تتعثر في فهم هذا التاريخ وتقع في محذور هذه النظريات.

وفي ظل الصعوبات السابقة وأمثالها، يتردد المؤرخ المدقق النزيه أن يطلق أحكاماً جازمة حيال المسائل والقضايا التي يتصدى لمعالجتها، ويلوذ بالظن وغلبة الظن، وهنا يخطىء الذين يجعلون التاريخ، وهذا حاله، مستندهم في الحكمِ الجَزْمِ على الأفراد والدول والمبادىء بالحسن والقبح، ومع أن التاريخ هو المجال العملي لاختبار الأفراد والدول والمبادىء، فإن الاقتراب من القول العدل في هذا الجانب يحتاج إلى تذليل وتجاوز الصعوبات والعراقيل الآنفة الذكر.

ولذلك يحتاج الباحث إلى الاطلاع على ما كتب عن العصر الأموي، وذُكِر عنه في المصادر التاريخية وغير التاريخية، الأولّية منها والثانوية، وكلما كان اطلاع الباحث عليها أوسع، كلما كانت قدرته على فهم العصر أكبر، فالسعي نحو المعرفة الكاملة غير المنقوصة والصحيحة غير السقيمة المشوّهة لأخبار العصر غرض الباحث وسبيله إلى الاقتراب من الحكم العدل.

وللوفاء بهذا المنهج، يجب على الباحث أن يقاوم العجز والكسل، ولا يجعلهما يقعدانه عن تحقيق الغرض، ويقاوم تقليد السابقين من محدثين ومعاصرين وأخذ أقوالهم عن العصر الأموي بالقبول، ويقوم بامتحان اقوالهم على ضوء ما توفر له من المعرفة والفهم.

وبخصوص ما يتجمع من الروايات لدى الباحث، فعليه أن يقوم بمناقشتها سنداً ومتناً، وبخصوص السند فإن منهج المحدثين في نقد رجال السند رضى وعون للباحث في هذا الجانب، ولكن أسانيد الروايات عن العصر الأموي يعتورها في كثير من الأحيان الانقطاع والرواة المجاهيل، مما يجعل الباحث في هذه الحالة يعطي المتن اهتماماً أكبر من ذي قبل.

أما بالنسبة للمتن، فيقوم الباحث ببيان الأخبار التي يحتويها، فقد يتعرض المتن الواحد في الرواية الواحدة لأكثر من قضية، فيفحص الباحث كل واحدة منها على ضوء المتون والأخبار الأخرى ذات العلاقة، وهو عمل قد يكشف عن مدى صحتها ومستوى التوافق والتناقض بينها، فيميز الباحث بين ما اتفق وصح منها وبين غيرها، وتصنيف المتون حسب موضوعها، ومعالجة ما جاء فيها، وملاحظة التوافق والانسجام بينها أو عدمه، يساعد على الاجتهاد والاستنباط.

وهنا يحتاج الباحث إلى معرفة الأفكار والقيم وغيرها من الاتجاهات التي كانت تشكّل الراي العام في المجتمع، وتؤثر على حركة المجتمع وسلوك أفراده، وتمارس نفوذاً وسلطاناً لا يسهل مخالفته والخروج عليه بصورة معلنة، فمعرفة الرأي العام

السائد المسيطر على حياة وروح العصر الأموي تساعد في تقييم المتن ونقد أخباره.

ولا بد للباحث أن يجتهد في معرفة وتحديد الحادثة في الرواية وتفسيرها إذا اجتمعتا، أي الحادثة والتفسير، في الرواية الواحدة والفصل بينهما، فالتفسير ليس من الحادثة وإنما هو من صنعة الراوي.

وليس من المنهج السوّي ما يقوم به البعض من إخضاع التاريخ الإسلامي للنظريات التي نشأت في أذهان الغرباء والبيئات الغريبة، وسَوْق أحداثه في طريق هذه النظرية أو تلك سوْقاً، فالنظرية التي تصلح لفهم وتفسير التاريخ الإسلامي هي التي تنشأ من داخل هذا التاريخ، وتُشاد بلبنات أحداثه، وأمّا أن تُنتَزَع أحداث التاريخ الاسلامي من سياقها التاريخي، وتُقْتَلَع من إطارها الموضوعي، وتُنظم قسراً في خيوط النظريات فعملٌ معكوس وحالٌ مقلوب كحال من يضع العربة أمام الحصان، وان قيل عن هذه النظريات أنها جاءت ثمرة جهود علماء ومفكرين أخضعوا أحوال الأمم وتاريخ المجتمعات لدراسات منهجية وأبحاث علمية، ولذلك يمكن الاطمئنان إلى تطبيق هذه النظريات في فهم التاريخ الإسلامي، فإن هذا القول مردود، والاعتذار بالمنهجية والعلمية غير مقبول، فالاختلاف بين الأمم والمجتمعات في العقائد والأفكار والنظم والمفاهيم والمشاعر يجعل تاريخ هذه الأمم والمجتمعات ومسيرتها في الحياة يختلف اختلافات جوهرية في أمور السياسة والحكم والاجتماع والثقافة، وما ينطبق على إحداها لا ينطبق على الأخرى تماماً، خلافاً لما يجري بين المعادن وينطبق عليها وتخضع له من قوانين، ولذلك كان لزاماً أن ينبثق فهم وتفسير تاريخ الأمم من داخل تاريخها، ومن داخل أحداثه ووقائعه، وليس من ترتيبات عقلية خارجة ونظرية تهمل الروايات التاريخية، أو تجعلها تابعة لها، أما الاطلاع على هذه النظريات، والانتفاع بما يمكن أن ينتفع به منها، فأمر لا بأس به، ومندوب إليه، ومرغوب فيه.

وقد حاولت في هذا الكتاب أن لا أكرر الموضوعات التي سبق الحديث عنها في كتبي الأخرى، كمسائل الاقتصاد التي ورد ذكرها في كتاب «الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى»، والقضايا الاجتماعية التي ورد ذكرها في كتاب «الحياة الاجتماعية

في صدر الإسلام» ومسائل في الحكم والإدارة وغيرها من المظاهر الحضارية التي وردت في كتاب «تاريخ الحضارة العربية الإسلامية»، وأمثال ذلك، واكتفيت في هذا الكتاب بذكر التعريف ببني أمية، ووصولهم إلى منصب الخلافة، وإيراد القدر المناسب من سيرة الخلفاء الأمويين، ومسألة استئثارهم بالخلافة، ثم الحديث عن الولايات والولاة، ورجال الإدارة، والإمارة على الجيش والحج، وصاحب الشرط ورجال القضاء، وحركة الفتوحات الإسلامية، والإنجازات والبر بالناس والتوسعة عليهم، وزوال سلطان بني أمية، ثم اتبعت ذلك بملحق عن العصبية القبلية.

والكتاب في صورته الحالية، محاولة فردية استفدت فيها من جهود السابقين، ولا تلفتني هذه المحاولة عن الدعوة إلى قيام محاولة جماعية منظمة أكثر قدرة على الوفاء بشروط البحث والدراسة للوصول إلى فهم أفضل لتاريخ العصر الأموي.

والله من وراء القصد

المؤلف

بنو أمية

بنو أمية:

ينتسب بنو أمية إلىأمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وفي عبد مناف يلتقي بنو أمية ببني هاشم، إذ كان لعبد مناف أربع بنين منهم: عبد شمس وهو أكبرهم وعمرو وهو هاشم جد الهاشميين.

كان لعبد شمس من الولد: أمية الأكبر،وأمية الأصغر، وعبد أمية، ونوفل، وعبد العزى، وربيعة، وحبيب، وهو أكبر ولد عبد شمس.

وأمية الأكبر هو الذي ينتسب بنو أمية إليه، وقد ولد له من الأولاد الذكور: أبو سفيان واسمه عنبسة، وهو أكبر ولده، وسفيان، وحرب، وأبو عمرو، والعاص، وابو العاص، وكان يقال لأبي العاص الأمير، وكان من حكماء قريش، والعيص، وأبو العيص[1].

وقد ولد لأبي العاص عفّان، وولد لعفّان عثمان، ودخل عثمان مع الزبير بن العوام على الرسول ﷺ فعرض عليهما الإسلام فآمنا وصدّقا، وكان إسلام عثمان قديماً قبل دخول الرسول -عليه السلام- دار الأرقم، وهاجر عثمان الهجرتين، وجاهد بنفسه وماله في سبيل الله، وتزوج رقية ثم أم كلثوم ابنتي الرسول ﷺ وكان له من الولد: عمرو وعبد الله وأبان وغيرهم[2].

ومن أولاد أبي العاص بن أمية: الحكم، وقد أسلم الحكم يوم الفتح وأخرجه الرسول ﷺ من المدينة إلى الطائف، وللحكم أولاد كثيرون منهم: مروان الذي كان كاتب عثمان بن عفان في خلافته وصاحب خاتمه، وتولى الخلافة، في فترة تالية، وعثمان الأكبر، وعثمان الأصغر، والحارث الأصغر، وصالح، وأبان، وحبيب، وعمرو، وأوس،

---

(١) انظر: هشام الكلبي/ جمهرة النسب: ١/ ٢٨، مؤرج بن عمرو السدوسي/ كتاب حذف من نسب قريش: ٣٠.

(٢) ابن سعد / الطبقات الكبرى: ٣/ ٥٣-٥٦.

والنعمان، وعبد الله، وداود، والحكم، وعبيد الله، ويوسف، وخالد، ويحيى الذي كان حسن المحضر للناس عند الخليفة عبد الملك بن مروان، وعبد الرحمن الذي كان شاعراً مجيداً[١].

وولد للعاص بن أمية: سعيد، وكان سعيد من أشراف قريش وجلّتها، وولد لسعيد كثير من الولد منهم: أحيحة بن سعيد، وبه كان سعيد يُكنّى، وقتل يوم الفجار. وعبيدة ابن سعيد، قتل يوم بدراً كافراً، قتله الزبير بن العوام. والعاص بن سعيد، قتل يوم بدر كافراً، قتله علي بن أبي طالب، وقد ولد للعاص بن سعيد كثير من الولد منهم:

سعيد بن العاص، ولد عام الهجرة، وهو أحد أشراف قريش وفصحائها وأجوادها وأشدّائها، أمره عثمان بن عفان بإملاء المصحف على زيد بن ثابت، واستعمله على الكوفة، وغزا بالناس طبرستان وفتحها، واعتزل أثناء الفتنة، وولاّه معاوية بن أبي سفيان المدينة، وكان يعاقب بينه وبين مروان بن الحكم في ولايتها، وعنبسة، وأبان، وغيرهم، وسعيد بن العاص جد يحيى الأموي صاحب المغازي[٢].

وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية، أسلم قديماً قيل خامس الذين أسلموا، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وقدم في فتح خيبر، وأسهم له الرسول ﷺ وحضر عمرة القضية، وحضر فتح مكة وحنينا والطائف وتبوك، واستعمله الرسول ﷺ على صدقات اليمن، وظل عاملاً عليها حتى توفي الرسول ﷺ فرجع خالد عن عمله، وفي خلافة أبي بكر الصديق كان أول لواء عقده أبو بكر إلى الشام لواء خالد بن سعيد، ثم عاد فعزله لشي بلغه عنه[٣]، ولما عزل أبو بكر خالداً خيّره بين أمراء الأجناد فاختار شرحبيل

---

(١) انظر: ابن قدامة المقدسي/ التبيين في أنساب القرشيين: ١٥٠-١٥٦.

(٢) مؤرج السدوسي/كتاب حذف من نسب قريش: ٣٥. هشام الكلبي/جمهرة النسب: ١/٣٥. المقدسي/التبيين في أنساب القرشيين:١٦٥. المقريزي/النزاع والتخاصم فيما بين أمية وهاشم: ٢٦-٢٧.

(٣) انظر قصة رجوع خالد بن سعيد من اليمن وتمزيق المسلمين جبة الديباج التي كانت عليه، وما صدر عنه بشان البيعة لأبي بكر، واعتزال بيعة أبي بكر ثم رجوعه والدخول في البيعة، ابن عساكر، =

ابن حسنة وقال: «ابن عمي- يعني يزيد بن أبي سفيان- أحب إليّ في قرابته، وهذا -يعني شرحبيل بن حسنة- أحب إليّ في ديني، فإن هذا أخي في ديني على عهد رسول الله وناصري على ابن عمي، فأحب أن أكون معه؟[1].

فلما اختار خالد أن يكون مع شرحبيل كتب أبو بكر إلى شرحبيل يوصيه بخالد، قال له: «أنظر خالداً، فاعرف له من الحق عليك مثل ما تحب ما يجب أن يعرفه لك من الحق لو خرج والياً عليك، وقد عرفت مكانه من الإسلام وأن رسول الله توفي وهو له وال، وقد كنت وليته ثم رأيت عزله، وعسى أن يكون ذلك خيراً له في دينه، ما اغبط أحداً بالإمارة، وقد خيّرته في أمراء الأجناد فاختارك على غيرك وعلى ابن عمه، فإذا نزل بك أمرٌ تحتاج فيه إلى رأي التقي الناصح فليكن أول من تبدأ به أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل وليك خالد ثالثاً[2].

وخرج خالد بن سعيد بإخوته عمرو والحكم وبأغلمته وبمواليه، وخرج أبو بكر والناس يشيعونهم، وقيل ما رأى الناس مشيَّعاً من المسلمين معه من الناس من الصالحين أكثر مما شيع خالد بن سعيد وإخوته يومئذ، ومضى خالد نحو الشام وقتل في مرج الصفر وقيل يوم أجنادين[3].

وأبان بن سعيد بن العاص بن أمية، أسلم بين الحديبية وخيبر، وهو الذي أجار عثمان ابن عفان يوم بعثه الرسول ﷺ إلى قريش عام الحديبية وحمله على فرس، ثم ركب خلفه حتى دخل مكة وقال:

أقبــل وأدبــر ولا تخــف أحــداً بنــو سعيــد أعــزة الحــرم

= تاريخ دمشق، ج١٦، ترجمة خالد بن سعيد.

(١) انظر: مؤرج السدوسي / كتاب حذف من نسب قريش: ٣٥-٣٦. البلاذري / أنساب الأشراف: ج٤، ق٢/ ١٢٥-١٢٩. ابن عساكر / تاريخ دمشق، ج١٦، ترجمة خالد بن سعيد.

(٢) انظر: ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج١٦، ترجمة خالد بن سعيد.

(٣) المصدر نفسه.

وأمّره الرسول ﷺ على بعض السرايا منها سرية إلى نجد، ثم استعمله على البحرين لما عزل العلاء بن الحضرمي عنها، ولم يزل عليها حتى توفي الرسول ﷺ فرجع عنها، فطلب أبو بكر الصديق إليه أن يرجع إلى عمله فأبى وقال: «لا أعمل لأحد بعد رسول الله»، وخرج إلى الشام غازياً فقتل يوم أجنادين، وقيل قتل يوم اليرموك[1]، وعمرو بن سعيد ابن العاص بن أمية، أسلم بعد أخيه خالد بيسير، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وقدم زمن خيبر، وحضر فتح مكة وخيبر وحنينا والطائف وغزوة تبوك، واستعمله الرسول ﷺ على قرى عربية منها تبوك وخيبر وفدك، وظل عاملاً عليه إلى أن توفي الرسول ﷺ، فرجع وخرج في خلافة أبي بكر إلى الشام غازياً، فقتل في وقعة أجنادين وقيل قتل يوم اليرموك، ومن أولاده خالد ويحيى.

وسعيد بن سعيد بن العاص بن أمية، أسلم قبل الفتح بيسير واستعمله الرسول ﷺ على سوق مكة، ثم خرج معه يوم الطائف فقاتل وقتل[2].

وعبد الله بن سعيد بن العاص بن أمية، واسمه الحكم فسماه الرسول ﷺ عبد الله، وكان كاتباً محسناً، فأمره الرسول ﷺ أن يعلّم الكتابة في المدينة، وقتل يوم اليمامة، وقيل قتل يوم مؤتة، وقيل في أولاد سعيد بن العاص بن أمية، أنه ما فتحت بالشام كورة إلاّ وجد عندها رجل من بني سعيد بن العاص ميتاً[3].

وولد لأبي العيص بن أمية، أسيد، وولد لأسيد من الأولاد: عتّاب، وأسلم عتّاب يوم الفتح، واستعمله الرسول ﷺ على مكة عام الفتح حين خرج إلى حنين، ورزقه كل يوم درهماً، وقيل للرسول ﷺ استخلفت هذا الأعرابي، فقال عليه السلام: «إني رأيته في

---

(١) أنظر: البلاذري / أنساب الأشراف: ج٤، ق٢/ ١٢٧-١٢٩. ابن عبد البر/الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ١/ ٦٢.

(٢) المقدسي / التبيين في أنساب القرشيين: ١٦٤ الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ١/ ٦٢.

(٣) المقدسي/ التبيين في أنساب القرشيين: ١٦٠. المقريزي/ النزاع والتخاصم فيما بين أمية وهاشم: ٤٦.

المنام أخذ حلقة باب الجنة ففتح له فدخل»، فكان عتّاب يأمر منادياً فينادي، لا أجد أحداً لا يصلي إلاّ ضربت عنقه، فكان المسجد يمتلىء حتى يصلي الناس خارج المسجد، ولم يزل عتّاب والياً على مكة حتى قبض الرسول ﷺ، وقام أبو بكر فأقرّ عتّاباً، وظل عتاب والياً حتى مات في اليوم الذي مات فيه أبو بكر، ولعتّاب من الولد: عبد الرحمن، قاتل يوم الجمل مع عائشة زوج النبي ﷺ فقتل، فمرّ به علي بن أبي طالب فقال: «هذا يعسوب قريش»[1].

ومن أولاد أسيد بن أبي العيص: خالد بن أسيد، أسلم يوم الفتح، وله بنون عدة منهم: عبد الله الذي ولد له خالد وأمية وعبد العزيز، وقد ولي خالد وأمية بعض الأعمال لعبد الملك بن مروان.

وولد لحرب بن أمية: صخر، وهو أبو سفيان، وكان أبوه حرب رئيس بني عبد شمس ومقدمها في حروب الفجار وغيرها، وكان أبو سفيان من أشراف قريش، وكان ذا حلم ورأي ودهاء، وقيل كان أفضل قريش رأياً في الجاهلية ثلاثة: عتبة وابو جهل وأبو سفيان، فلما جاء الإسلام أدبروا في الرأي ولم يسلموا، وبعد معركة بدر التي هلك فيها عظماء بني عبد شمس: عتبة والوليد وعقبة بن أبي معيط وربيعة وغيرهم، استقلّ أبو سفيان بشرف بني أمية والتقدم في قريش بمكة، وكان رئيسهم في حرب المسلمين في أُحد والأحزاب وما بعدها، ولم يُسلِمْ إلاّ عام الفتح، وجعل الرسول ﷺفي فتح مكة من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، وشهد ابو سفيان حنينا مع الرسول ﷺ وأعطاه الرسول ﷺ مائة بعير وأربعين أوقية وأعطى ابنه يزيد ومعاوية، وفقئت عين أبي سفيان يوم الطائف، وشهد اليرموك فأصاب عينه الأخرى حجر فشدخها فعمي، وروي عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: «فقدت الأصوات يوم اليرموك إلاّ صوت رجل واحد يقول: يا نصر الله أقترب، وكان ذلك الرجل هو أبو سفيان، وكان يقاتل تحت راية ابنه يزيد،

(١) انظر: مؤرج السدوسي /كتاب حذف من نسب قريش: ٣٦. البلاذري /أنساب الأشراف: ٤/ ١٥٠-١٥٤. هشام الكلبي /جمهرة النسب: ١/ ٣٩.

وكان يقول للناس: الله الله، إنكم ذادة العرب وأنصار الإسلام، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشر، اللهم هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك»[١]، ومات عام ٣١هـ، وقيل ٣٢هـ، وقيل٣٣هـ، وقيل٣٤هـ، ولأبي سفيان من الأولاد حنظلة، قتله حمزة بن عبد المطلب، وقيل قتله علي بن أبي طالب، يوم بدر كافراً، وعمرو بن أبي سفيان اسر يوم بدر، ويزيد بن أبي سفيان الذي يقال له يزيد الخير، ولاه أبو بكر على الأجناد الذي بعثهم على فتح الشام، ولما فتحت الشام ولاه عمر بن الخطاب على فلسطين، ولما مات معاذ بن جبل بالطاعون استخلفه على الشام، ولما مات يزيد استخلف عمر بن الخطاب أخاه معاوية بن أبي سفيان، وعتبة بن أبي سفيان، ولاه عمر بن الخطاب الطائف وصدقاتهم، وولاه معاوية بن أبي سفيان مصر بعد موت عمرو بن العاص، وعنبسة بن أبي سفيان، كان والياً على الطائف لأخيه معاوية، وعزله معاوية وولاها عتبة، ولعنبسة ولد اسمه عثمان، وكان عثمان فاضلاً، فلما مات يزيد بن معاوية أراد بنو أمية أن يبايعوه على الخلافة، ومعاوية ابن أبي سفيان الذي سبق التعريف به في غير موضع[٢].

ومن بني عبد شمس: عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن عبد شمس واسم أبي معيط هو أبان وله من الولد الوليد بن عقبة، وأسلم الوليد عام الفتح، وكان الوليد من رجال قريش ظرفاً وحلماً وشجاعة وأدباً، وكان من الشعراء المطبوعين، بعثه الرسول ﷺ على صدقات بني المصطلق، وولاه عثمان -وكان أخاه من الرضاعة ـ الكوفة، واعتزل علياً ومعاوية، ونزل الرّقّة ومات هناك، ولعقبة من الولد: عمارة بن عقبة،وخالد بن عقبة، أسلما عام الفتح[٣].

---

(١) انظر ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٢٣، ترجمة صخر بن حرب بن أمية، الذهبي/سير أعلام النبلاء، ج٢، ١٠٥-١٠٧ ترجمة أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية، المقدسي/التبيين في أنساب القرشيين ، ١٧٣-١٧٧.

(٢) انظر: مؤرج السدوسي: كتاب حذف من نسب قريش: ٣٠-٣٢، هشام الكلبي/جمهرة النسب: ١/ ٢٠، المقدسي/التبيين في أنساب القرشيين: ١٧٣-١٧٧. صلاح الدين المنجد/ معجم بن أمية: ٧٤-٨٥، ٨٦، ١٣٣.

(٣) انظر: مؤرج السدوسي: كتاب حذف من نسب قريش: ٣٨-٣٩، هشام الكلبي/جمهرة النسب: =

ومن أولاد أمية الأصغر بن عبد شمس: الحارث وابنه عبد الله الذي عاش إلى زمن معاوية، وله علي، والوليد، ومحمد، ونوفل، وعبد الرحمن، وفضالة، وعبد الملك، وعلي الأصغر، وسمرة، وعمر، وكنانة.

ومن أولاد ربيعة بن عبد شمس: عتبة بن ربيعة، وكان من سادات قريش وأشرافها وذوي أحكامها، وكان يقال له السيد المملّق، وكان أمية بن أبي الصلت يتوهم أنه يكون نبي هذه الأمة، وكان ذا رأي، ولكنه أدبر لما جاء الإسلام، وخرج هو وابنه الوليد وأخوه شيبة في بدر، فخرج إليهم حمزة بن عتبة، وقتل عليّ الوليد، وقتل عبيدة شيبة بن ربيعة[1].

ولعتبة بن ربيعة ولد آخر يدعى أبو حذيفة، واسمه هاشم، وكان أبو حذيفة من فضلاء الصحابة من المهاجرين الأولين صلى القبلتين، وهاجر الهجرتين، وشهد مشاهد الرسول ﷺ وقتل ومعه سالم مولاه يوم اليمامة، وكان له من الولد محمد بن أبي حذيفة، فلما قتل أبو حذيفة يوم اليمامة، كفل عثمان بن عفان محمداً، وخرج محمد بن أبي حذيفة إلى مصر في ولاية عبد الله بن أبي سرح.

ولعتبة بن ربيعة ولد آخر يدعى أبو هاشم، أسلم أبو هاشم يوم الفتح، وسكن الشام، وكان أبو هريرة إذا ذكر أبو هاشم، يقول: «ذلك الرجل الصالح»، وعاش أبو هاشم إلى أيام معاوية بن أبي سفيان[2]. ولعبد العزى بن عبد شمس، المحرز بن حارثة ابن ربيعة بن عبد العزى بن عبد شمس، استخلفه عتاب بن أسيد على مكة، وولاه عمر بن الخطاب في أول خلافته على مكة ثم عزله، وقتل محرز يوم الجمل، وعدي بن حارثة بن ربيعة بن عبد العزى بن عبد شمس، أسلم يوم الفتح، وله من الأولاد: عبد الله بن عدي، ولي سجستان بعد طلحة الطلحات، وعلي بن عدي، ولاه عثمان بن عفان على مكة، وقتل يوم الجمل، وكنانة بن عدي، خرج بزينب بنت الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة.

= ١/ ٤٦-٤٧، المقدسي/ البدء والتاريخ: ٥/ ٢٠١-٢٠٢.

(١) المقريزي / النزاع والتخاصم: ٢٦-٢٧.

(٢) هشام الكلبي/ جمهرة النسب: ١/ ٥١، المقدسي: التبيين في أنساب القرشيين: ١٨٨-١٨٩.

ومن أولاد عبد العزى أيضاً: عبد الله بن الوليد بن يزيد بن ربيعة بن عبد العزى، قتل يوم الجمل، وكان يحارب في جانب عائشة زوج النبي ﷺ.

وأبو العاص بن الربيع بن عبد العزى، واسمه لقيط، وكان مصافياً للرسول ﷺ، وأسر في بدر، وأطلقه الرسول ﷺ بعد أن شرط عليه أن يبعث إليه بزينب فقبل، وأخذ المسلمون تجارة كان يقودها أبو العاص، فجاء أبو العاص إلى زينب يطلب المال، فلما علم -عليه السلام- به حذر ابنته من أن يخلص إليها أبو العاص لأنه لا يحل لها، وأعطاه الرسول -عليه السلام- المال، ورجع به إلى مكة، وبعد أن عاد أبو العاص إلى مكة وقضى ما عليه، رجع عائداً إلى المدينة وأعلن إسلامه، وعمرو بن الربيع بن عبد العزى، أسلم يوم الفتح.

ومن بني عبد شمس، عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس، أسلم يوم الفتح، وفتح سجستان وكابل، وعامر بن كريز بن حبيب بن عبد شمس، أسلم يوم الفتح، وابنه عبد الله بن عامر الذي ولاه عثمان ابن عفان على البصرة وكان له فيها الفتوح الكبار[١].

نلاحظ مما سبق، أن بني عبد شمس بن عبد مناف إخوة بني هاشم بن عبد مناف، وبني المطلب بن عبد مناف، وبني نوفل بن عبد مناف، كانوا بعامة وبني أمية بخاصة كثيري العدد، وقيل سئل علي بن أبي طالب عن بني أمية وبني هاشم، فقال علي: بنو أمية أكثر.

وقد عاند بنو أمية الدعوة الإسلامية أول الأمر شأن غيرهم من قريش والقبائل العربية الأخرى، ثم عادوا ودخلوا في الإسلام، ومنهم من أسلم في مرحلة مبكرة من تاريخ الدعوة الإسلامية، والذين ماتوا منهم على حرب الإسلام ومعاداته قليل جداً، واستعان بهم الرسول ﷺ واستعملهم على الولايات والعمالات، واستعملهم الخلفاء الراشدون.

---

(١) انظر: مؤرج السدوسي / كتاب حذف من نسب قريش: ٣٦-٤٠، المقدسي/ التبيين في أنساب القرشيين: ١٩١-٢٠٠، هشام الكلبي/ جمهرة النسب: ١/ ٤٩-٥١.

وقد ناقش المقريزي في كتابه: (النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم) قضية استعانة النبي ﷺ والخلفاء الراشدين ببني أمية على العمالات والولايات دون بني هاشم، فقال: «وقد ظهر لي أن ولاية الرسول ﷺ بني أمية الأعمال كانت إشارة منه ﷺ إلى أن الأمر سيصير إليهم»[(١)].

وجعل المقريزي استعانته -عليه السلام- بهم من العوامل التي قوّت نيتهم في طلب الخلافة، قال المقريزي: «فإذا كان رسول الله ﷺ، أسس هذا الأساس، وأظهر بني أمية لجميع الناس بتوليتهم أعماله فيما فتح الله عليه من البلاد، كيف لا يقوى ظنهم، ولا ينبسط رجاؤهم، ولا يحتدّ في الولاية أملهم»[(٢)].

ولكن المقريزي في تفسير العلاقة بين الرسول -عليه السلام- وبين بني أمية، ذهب إلىأنها نزاع وتخاصم بين بني أمية وبني هاشم، وجعل وجهة نظره هذه مدخلاً لفهم كل ما يتعلق ببني أمية في تاريخ الدعوة الإسلامية وما قبلها.

فقال في تفسير وصول بني أمية إلى الخلافة دون بني هاشم: لما كانت بنو هاشم من قريش اختصها الله سبحانه بهذا الأمر أعني الدعوة إلى الله تعالى والنبوة والكتاب، فحازت بذلك الشرف الباقي، وكانت أحوال الدنيا من الخلافة والملك ونحوه زائلة، لهذا أزواها الله تعالى عنهم تنبيهاً على شرفهم وعلو مقدارهم، فإن ذلك هو خيرة الله لنبيّه محمد ﷺ»[(٣)].

وتفسير المقريزي مرجوح، فاختيار الله -عز وجل- محمداً ﷺ للرسالة لم يكن لاعتبارات عائلية هاشمية إزاء الأموية، وقد قاوم بعض بني هاشم الدعوة أول الأمر، ومنهم من مات من غير أن يسلم، ولم يقل أحد بالموازنة بين الرسالة والدعوة من جهة إزاء الخلافة والملك من جهة أخرى، أو بين محمد ﷺ رمزاً لبني هاشم إزاء الأمويين

---

(١) المقريزي / النزاع والتخاصم: ٦٣-٦٤، ٤٧.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ٥٧.

أو غيرهم، وقام بأمر الخلافة بعد الرسول ﷺ أبو بكر، وهو قرشي من بني تيم، ثم عمر بن الخطاب، وهو قرشي من بني عديّ، وخلفهما عثمان بن عفان، وهو قرشي من بني أمية، ثم خلفه علي بن أبي طالب، وهو قرشي من بني هاشم، وخلف عليا الحسن بن علي، وهو قرشي من بني هاشم، ثم آلت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان وهو قرشي من بني أمية.

ولعل وصول الخلافة إلي بني أمية من خلال الخلاف الذي وقع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، أوحى للمقريزي الاسم الذي أطلقه على كتابه الآنف الذكر، وذهب فيه ذلك المذهب من القول.

وعلي أية حال، فإن ما نأخذه من كلام المقريزي وغيره أن بني أمية كانوا كثيري العدد، وأصحاب فعاليات وخبرات، واستعانة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين بهم في الولايات والعمالات كان في بعض معانيه ومدلولاته، لما كان لبني أمية من المكانة والكفاية في الإدارة والسياسة، **قال ابن خلدون:**

«كان لبني عبد مناف في قريش جملٌ من العَدد والشرف لا يناهضهم أحد من سائر بطون قريش، وكان فخذاهم، بنو أمية وبنو هاشم جميعاً، ينتمون لعبد مناف وينتسبون إليه، وقريش تعرف ذلك وتسأل لهم الرياسة عليهم، إلاّ أن بني أمية كانوا أكثر عدداً من بني هاشم وأوفر رجالاً»[1].

---

(١) انظر: ابن خلدون/ تاريخ ابن خلدون: ٣/٣.

وصول بني أمية
إلى
منصب الخلافة

وصول بني أمية إلى منصب الخلافة

لا تعدّ خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه فاتحة سلطان بني أمية، فاختيار عثمان لم يكن لاعتبارات عائلية، وانما كان لاعتبارات اسلامية محضة أساسها السبق الى الاسلام والصحبة، ولم يخلف عثمان بن عفان في الخلافة أحد من ولده أو من بني أمية، ولولا أن الخلافة ظلت من بعد معاوية بن أبي سفيان في ولده ثم في بني أمية لما كانت خلافة معاوية بن أبي سفيان فاتحة سلطان بني أمية.

وصول معاوية بن أبي سفيان الى منصب الخلافة:

بعد وفاة الرسول ﷺ، أختير ابو بكر عام ١١هـ خلفا له، ولمّا توفي عام ١٣هـ، اجتمع المسلمون على عمر بن الخطاب، فلما طعن الطعنة التي توفي فيها عام ٢٣هـ، وعزم عليه الصحابة أن يستخلف، قال: ما أجد أحق بهذا الامر من هؤلاء النفر أو الرهط الذين توفي ﷺ وهو عنهم راض، فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن(١).

وذكر أبو جعفر الطبري: أن عمر بن الخطاب قال للرهط: واني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الامر الافيكم وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض(٢).

وهي اشارة الى أن هؤلاء الرهط كانوا من الجماعة الاسلامية في المكانة الاولى، ولعل غيرهم والحال هذه لا يقدر معهم أن يحدّث الجماعة الاسلامية عن نفسه في مسألة الخلافة فضلاً عن أن يرشّح نفسه لها، الا أن يكون ذلك من أحاديث النفس، ثم أفضت الاتصالات بالناس في عملية الشورى التي اوصى بها عمر بن الخطاب الى اختيار عثمان

(١) البخاري/ صحيح البخاري، فضائل اصحاب النبي، مناقب عمر بن الخطاب جـ٥ص١٤-١٥.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٤ ص٢٣٤.

ابن عفان، وتوفي عبد الرحمن بن عوف عام ٣٢هـ في حياة عثمان بن عفان، ثم قتل عثمان عام ٣٥هـ، واختير علي بن أبي طالب خليفة، ولكنّ قتلَ عثمان بن عفان أحدث فتنة[١] انقسمت لها الجماعة واختلفت فيها الآراء والمواقف، وكانت امتحانا عسيرا القى بين يدي المسلمين بعامة ويدي علي بن ابي طالب بخاصة قضية معقدة لم يكن البت فيها بأهون من قضية القتل نفسه، هذا الى ما كان من شكاوى الثائرين على عثمان ومطالب المعارضين له والمعترضين على ادارته.

وبعد استخلاف علي بن أبي طالب، خرج طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام تقف الى جانبهما عائشة زوج الرسول ﷺ يطلبون بدم عثمان بن عفان واصلاح الأمر[٢]، ومناقشة الروايات التي تتحدث عن طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام أنهما بايعا علي ابن أبي طالب طائعين أو مكرهين لا يغيّر من أنهما خرجا بالسبب الانف الذكر شيئاً، وقد وقع خروجهم من غير مشورة علي بن أبي طالب ورضاه[٣]، فلما بلغه خبرهم أغتمّ، وقيل انه قال: أتدرون بمن بليت؟ أطوع الناس في الناس عائشة، وأشد الناس الزبير، وأدهى الناس طلحة، وأيسر الناس يعلي بن أمية[٤]، وكان يعلى خرج معهم يطلب بدم عثمان وأمدهم بما يلزم من المال وجهزهم.

وخشي علي بن ابي طالب أن ينفتق بخروجهم فتق ويفسد الامر فخرج الى العراق يتبعهم، فلما اجتمع عنده ما اجتمع من الجند من أهل الكوفة وغيرهم سار اليهم نحو البصرة.

وفي البصرة، شق على الناس اختلافهم ولما سألوهم أجاب كل منهم أنه على حق، ولكن علي بن أبي طالب زاد على ذلك فقال: انهم بايعوني وخالفوني[٥].

---

(١) انظر ابن كثير/ البداية والنهاية جـ٧ ص٢٩٣.

(٢) ابن أبي شيبة / المصنف جـ١٥ ص٢٧١-٢٧٢، أبو جعفر الطبري / تاريخه ج٤ ص٥٠٨-٥٠٩، المقدسي / البدء والتاريخ جـ٥ ص٢١٣، ابن الأثير / الكامل في التاريخ جـ٣ ص١٢٢.

(٣) الذهبي / العبر في خبر من غبر جـ١، ص٢٧، ابن حجر / فتح الباري ج١٣ ص٦١.

(٤) ابن حجر / فتح الباري جـ١٣ ص٦١.

(٥) انظر: ابو جعفر الطبري/ تاريخه ج٥ ص٨، الهيثمي/ مجمع الزوائد جـ٧ص٢٣٦. ابن حجر/ =

وفي موضوع الخلاف، ذكر الجاحظ أنه لما حضر علي بن أبي طالب الى البصرة سفرت الرسل بين الجانبين لفض الخلاف وجمع الكلمة، وكان ممن سفر بين الجانبين عبد الله بن عباس، أرسله علي بن أبي طالب الى الزبير يسأله ويقول له: يقول لك ابن خالك، عرفتني بالحجاز وانكرتني بالعراق، فما عدا مما بدا لك؟

فقال الزبير لعبد الله، أبلغه السلام وقل له بيننا وبينك عهد خليفة، ودم خليفة، واجتماع ثلاثة، وانفراد واحد. وأم مبرورة، ومشاورة العشيرة، ونشر المصاحف فنحلّ ما أحلّت ونحرّم ما حرّمت[1].

وقد أورد ابن عساكر في تاريخه رواية مشابهة لرواية الجاحظ أسندها الى مصعب بن عبد الله بن أبيه عن موسى بن عقبة بن أبي عياش مولى الزبير بن العوام عن أبي حبيبة مولى الزبير قال: أتانا ابن عباس بالبصرة في يوم شديد الحر، فلما رآه الزبير قال: مرحبا بابن لبابة أزائرا أم سفيرا؟ قال: كل ذلك، أرسلني ابن خالك اليك فقال لك: ما عدا مما بدا؟ (أي ما الذي صرفك ومنعك وحملك على التخلف بعدما ظهر منك من التقدم في الطاعة والمتابعة)، عرفتني بالمدينة وأنكرتني بالبصرة! قال: فجعل الزبير ينقر بالمروحة في الارض ثم رفع رأسه اليه فقال: نرفع لكم المصاحف غدا، فما أحلّت حللنا وما حرّمت حرّمنا، فانصرف، فناداني ابن الزبير وهو في جانب البيت، ابن عباس، علي اقبل، قال ابن عباس، فاقبلت عليه وأنا أكره كلامه، فقال: بيننا دم خليفة، وعهد خليفة، وانفراد واحد واجتماع ثلاثة، وأم مبرورة، ومشاورة العامة، قال: يعني الثلاثة: الزبير وطلحة وسعد، أقام بالمدينة، وعهد خليفة: عمر بن الخطاب، قال: اذا اجتمعوا وتشاوروا اتّبع الاقل الاكثر، ودم خليفة: عثمان بن عفان[2].

= المطالب العالية جـ٤ ص٢٩٧-٢٩٩ ابن حجر / فتح الباري جـ١٣ ص٥٥-٥٧.

(١) الجاحظ / البيان والتبين جـ٤ ص٢٢٢.

(٢) ابن عساكر/ تاريخ دمشق -تراجم حرف العين تحقيق شكري فصل ورفاقه ص٤٢٦-٤٢٧، ترجمة عبد الله بن الزبير.

واذا صح ما ذكره الجاحظ وأورده ابن عساكر، فان طلحة والزبير وقد بايعا مكرهين[١] كانا يريدان اعادة النظر في الموقف برمته، من الطلب بدم عثمان واقامة الحد على قتلته من جهة والالتزام بشورى عمر بن الخطاب في اختيار الخليفة من جهة أخرى، وتحكيم القرآن في كل ما جرى، وهو مطلب جعل عائشة وغيرها من المسلمين يدعون اليه وينصرونه.

ولكن علي بن أبي طالب ، وقد سبقت البيعة اليه، يرى ان طلحة والزبير اكرها على الدخول في الجماعة، ولم يكرها على الدخول في الفرقة، ولذلك كان يرى الدخول في الجماعة والمحافظة على وحدتها وتعزيزها السبيل الى صلاح الامر، وباعتباره يمثل الدولة، وأن اليد العليا لا تكون الا يد الدولة، وأن الناس جميعاً في أخذ الحقوق يرجعون اليها، كان علي بن أبي طالب يرى أن يدخل الجميع في الطاعة: معاوية وآل عثمان والمطالبون بدم عثمان، ثم يحاكمون القتلة اليه، أي الى الدولة فيحملهم واياهم على ما في كتاب الله وسنة نبيه[٢].

وبالرغم من الخلاف بين الجانبين، فلم ينقل احد في معنى الخلاف انهم احدثوا بيعة[٣]، ومن أجل فض الخلاف وحل النزاع ذكر ابن أبي شيبة[٤]، أنهم ضربوا فسطاطاً بين العسكرين ثلاثة أيام، فكان علي والزبير وطلحة يأتونه فيذكرون به ما شاء الله، حتى اذا كان بعد الظهر من اليوم الثالث ولم يكونوا توصلوا الى اتفاق بدأ القتال بين الجانبين،

---

(١) ابن أبي شيبة / المصنف ١١/ ١٠٧، ١٥/ ٢٦١، ابو جعفر الطبري / تاريخه/ ٤/ ٤٢٩٤، ٤٣٤، ٤٣٥، الذهبي / سر اعلام النبلاء ١/ ٣٥.

(٢) ابن حجر/ فتح الباري جـ١٣ ص٥٦، ٦٠، ابن حزم/ الفِصَل في الملل جـ٤ ص٢٣٨-٢٤٩.
وانظر: محمد بطاينة / قتلة عثمان بين علي ومعارضيه، المَجلةالعربية، ع١٣، م٤، ١٩٨٤م، جامعة الكويت ص٢٣-٤٩، حيث انتهت الدراسة الى ان عثمان، باجتهاد علي، كان قتيل الجماعة المتأولة وليس على مِثْلهم قَودَ، وان معاوية يرفض ذلك.

(٣) ابن حجر / فتح الباري جـ١٣ ص٥٦، ٦٠، ابن حزم / الفِصل في الملل جـ٤ ص٢٣٨-٢٣٩.

(٤) ابن أبي شيبة / المصنف جـ١٥ ص٢٦٢-٢٦٣، ٢٨٦.

وقيل ان السباب وقع بين صبيان العسكرين وتراموا وتبعهم الغوغاء فحرّشوا بين الناس وأفسدوا مساعي الصلح، فلما انتشبت الحرب لم يكن بُدّ من القتال، واشتبك الناس على اية حال، واستمر القتال لساعات قتل فيها طلحة، وترك الزبير القتال ورجع، فقتل في أثناء رجوعه في الطريق(١).

وبذلك لم يبق من الرهط الذين سمّى عمر بن الخطاب للخلافة الذين توفي الرسول ﷺ وهو عنهم راض الا علي بن أبي طالب وهو الخليفة، وسعد بن أبي وقاص الذي اعتزل.

وبانتهاء معركة الجمل، أصبح العراق كله في جانب علي بن أبي طالب.

أما في بلاد الشام فكان معاوية بن أبي سفيان واليا عليه منذ أيام عمر بن الخطاب، فلّما نظر علي في أمرالولاة على البلدان قيل ان عبد الله بن عباس والحسن بن علي والمغيرة بن شعبة الثقفي كل منهم أشار على علي بن أبي طالب أن يُقرّ من كان على الولايات من العمال وبخاصة معاوية بن أبي سفيان فلا يعزلهم، فاذا بايع الناس وأتته طاعتهم أقرّ من شاء واستبدل بمن شاء، وقيل ان علي ابن أبي طالب أبدى مخاوفه من أن معاوية سيحترز بأخذ المواثيق والعهود عليه لا يعزله فلما بلغ معاوية ذلك حلف أنِ لا يلي لعلي ولا يبايعه ولا يقدم عليه(٢).

وقيل ان علي بن أبي طالب عزل معاوية باشارة اكثر أمرائه عليه ولكنّ عزله لم يستقم(٣).

---

(١) ابو حنيفة الدينوري/ الاخبار الطوال ص١٤٧، أبو جعفر الطبري / تاريخه جـ٤ ص٢٩٢، ٢٩٥، ٢٩٧، ابن أبي شيبة/ المصنف جـ١٥ ص٢٨٣، ٢٨٤، المقدسي / البدء والتاريخ جـ٥ ص٢١٣، ابن حجر/ المطالب العالية جـ٤ ص٣٠١، ابن حزم / الفِصَل في الملل جـ٤ ص٢٣٩، الذهبي / العبر في خبر من غبر جـ١ ص٧، ابن كثير/ البدايّة والنهاية جـ٧ ص٢٥٣.

(٢) انظر المقدسي/ البدء والتاريخ جـ٥ ص٢٠٩، ابن عساكر / تاريخ دمشق (مخطوط) جـ١٦ ص٧٠٣، ترجمة معاوية بن أبي سفيان، الذهبي / سير أعلام النبلاء جـ٣ ص١٣٦، ابن كثير/ البداية والنهاية جـ٧ ص٢٣٩.

(٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ٨ ص٢٢.

والمعلوم أن الولاة من عهد عثمان بن عفان كانوا من أسباب الشكوى والتذمر، وقد يكون عزلهم جاء اقتضاء للاجواء السياسية التي كانت تسيطر على المدينة وضروراتها، وقد يكون قول من قال انه أشير على علي بألاّ يعزل معاوية، قد يكون ذلك القول جاء تالياً من باب أنه لو لم يعزل عليّ معاوية ما خالفه معاوية ولا اعترض عليه، وهو على أية حال اتهام لمعاوية بأن خلافه مع علي كان غضبا للامارة فحسب.

واتهام معاوية بالحرص على الامارة فحسب في خلافه مع علي يرد في رواية يحيى ابن سليمان الجعفي[1] باسناد له قال: ان معاوية قال لجرير البجلي لما قدم عليه رسولا بعد محاولة طويلة، أكتب الى علي أن يجعل لي الشام، وأنا أبايع له ما عاش، فكتب بذلك الى علي ففشا كتابه، فكتب اليه الوليد بن عقبة:

معاوية ان الشام شامك فاعتصم　　بشامك لا تدخل عليك الافاعيا

وَحَــامِ عليك بالقنابـــل والقنا　　وَلاَتَكُ مخشوش الذراعين وانيا

فان عَليّــاً ناظــر ما تجيبـــه　　فاهد له حربا تشيب النواصيا[2]

والقول بفشو كتاب معاوية الى علي بين الناس انه يعرض عليه تلك المقايضة يهدم الركن الاساسي الذي كان يستند اليه في معارضة علي واحتجاجه عليه وألتفّ به الناس من حوله، والتضحية بهذا السند وهذه الحجة لا بد أن يقابلها ضمان، وحيث لا ضمان فهل يتصور أن يفعل معاوية ذلك!

وأما الشعر المذكور في الرواية فلا يشير الى المقايضة، وانما يؤكد أن مركز معاوية بالشام قوي ومنيع ويحضّه على نصب الحرب لعليّ والاستعداد لها ويحذّره أن يلين له أو يضعف أمامه.

---

(١) يحيى بن سليمان بن يحيى بين سعيد الجعفي الكوفي المقرىء الحافظ نزيل مصر روى له البخاري وقال عنه الحافظ في التقريب صدوق يخطىء مات سنة ٢٣٧هـ أو التي بعدها.

(٢) انظر الذهبي/ سير أعلام النبلاء جـ٣ ص١٤٠ ترجمة معاوية بن أبي سفيان.

وذكر صاحب البدء[1] أن علي بن أبي طالب بعث جرير بن عبد الله البجلي رسولا الى معاوية يدعوه الى البيعة، فكتب اليه معاوية، إنْ جعلتَ لي الشام ومصر طعمة أيام حياتك، وان حَضَرَتْكَ الوفاة لم تجعل لاحد بعدك في عنقي بيعة بايعتك، فقال علي لم يكن الله يراني أتخذُ المضلين عضدا.

وهي مثل سابقاتها من الروايات في اتهام معاوية بمخالفة علي حبّا في السلطة، ولكنها تؤكد رأي علي فيه، ولو صحت هذه الرواية لكان معاوية يعرف رأي علي فيه، ولَعَلِمَ وهو يقايضه انما يدخل معه صفقة خاسرة لا يعقل أن يقدم معاوية على ابرامها معه.

ولكن لم يَرِدْ منذ أن اسْتُخْلِف علي أن معاوية بايعه، وقيل أن أبا مسلم الخولاني جاء وأناس الى معاوية فقالوا له: أنت تنازع عليا في الخلافة، أوَ أنت مثله؟ فقال: لا والله. اني لأعلم أنه أفضل مني وأحق بالامر مني، ولكن الستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوما وأنا ابن عمه والطالب بدمه، فأتوه فقولوا له فليدفع اليّ قتلة عثمان واسلّم له، فأتوا عليا فكلموه فلم يدفعهم اليه، وقال: يدخل في البيعة ويحاكمهم اليّ فامتنع معاوية[2].

وقيل كتب علي مع جرير البجلي الى معاوية، فان بيعتي لَزِمَتْكَ وأنت بالشام لانه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوا عليه، فلم يكن لشاهد أن يختار ولا لغائب أن يرد، وانما الشورى للمهاجرين والانصار فاذا اجتمعوا على رجل وسمّوه اماما كان ذلك رضا، فان خرج من أمرهم خارج بطعن أو رغبة ردوه الى ما خرج منه، فان أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، ووصف علي بن أبي طالب تعليق معاوية البيعة على تسليم القتلة اليه بأنها خدعة الصبي عن اللبن[3].

---

(١) المقدسي / البدء والتاريخ جـ٥ ص٢١٧.

(٢) انظر أبو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص٦، أبو حنيفة الدينوري/ الاخبار الطوال ص١٥٧، نصر بن مزاحم / وقعة صفين ص٢٩، ٥٨، ٨٥، ابن عساكر / تاريخ دمشق (مخطوط) جـ١٦ ص٧٠٨، ترجمة معاوية بن أبي سفيان، ابن حجر/فتح الباري جـ١٣ ص٦٠-٦١، ٩٢، المقدسي / البدء والتاريخ جـ٥ ص٢١٠، الذهبي سير أعلام النبلاء جـ٣ ص١٤٠، ابن كثير/ البداية والنهاية جـ٧ ص٢٦٩-٢٧٠.

(٣) انظر: ابن عساكر / تاريخ دمشق (مخطوط) جـ١٦ ص٧٠٨ ترجمة معاوية بن أبي سفيان.

وذكرت بعض الروايات أن معاوية بن أبي سفيان، طلب اضافة الى تسليم القتلة اليه ان يكون الامر شورى، ذكر ابن شهاب الزهري ان معاوية دعا أهل الشام بعد حرب الجمل الى قتال علي على الشورى والطلب بدم عثمان، فبايعوه أميراً غير خليفة(١).

وذكر أبو مخنف ان وفد معاوية برئاسة حبيب بن مسلمة الفهري الى علي بن ابي طالب في صفين طلب اليه ان يدفع قتلة عثمان اليهم وأن يعتزل أمرالناس فيكون شورى بينهم(٢).

ولا يبعد ان يكون ذلك صحيحاً، فهو يتفق مع امتناع معاوية بن أبي سفيان عن البيعة لعلي من جهة، ويتفق مع الدعوة الى حق اهل الشام في المشاركة في اختيار الخليفة من جهة اخرى، فلما كتب علي الى معاوية بخصوص اهل الشورى وذكر انها انما تكون للمهاجرين والانصار، اجابه معاويه، فما بال من ها هنا، اي في بلاد الشام من المهاجرين والانصار لم يدخلوا في الامر(٣). ويبدو ان الدعوة الى جعل الامر شورى جاءت نتيجة للتطورات التي تمثلت بخروج من خرج على علي ابن ابي طالب من الصحابة.

وعلى أية حال، فان معاوية لم يبايع عليا، وأظهر الطلب بدم عثمان وأخذ القود من قتلته محتجا بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الاسراء: ٣٣].

وأما أهل الشام، فكانوا مقتنعين بوجوب أخذ القَوَد من قتله عثمان، وأن علي بن أبي طالب لم يقتص من احد منهم، وهو ما يفسر بعض أسباب وقوفهم الى جانب معاوية.

---

(١) المصدر نفسه جـ١٦ ص٧٠٧، ترجمة معاوية بن أبي سفيان.

(٢) انظر: البلاذري / أنساب الاشراف ص٣٠٢ تحقيق المحمودي، ابن أعثم / الفتوح جـ٢ ص٤١٦، حيدر اباد ١٩٧٠م، أبو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص٧، المقدسي / البدء والتاريخ جـ٥ ص٢١٧، ابن الاثير / الكامل في التاريخ جـ٣ ص١٨٤و ابن كثير / البداية والنهاية جـ٧ ص٢٦٦.

(٣) ابن كثير / البداية والنهاية جـ٧ ص٢٧٠.

واضافة الى حادثة مقتل عثمان التي اخذت من معاوية كل مأخذ، كان خروج طلحة وصحبه للطلب بدم عثمان واصلاح الامر، ووقوف اهل الشام الى جانب معاوية قد زاد معاوية قوة وشجعه على معارضة علي بن أبي طالب، وربما يكون ما رواه هو عن الرسول ﷺ قد طرق تفكيره وحدّث به نفسه في هذا الوقت اكثر من ذي قبل، قال معاوية: «ما زلت أطمع في الخلافة منذ قال رسول الله ﷺ ما قال: يا معاوية ان ملكت فأحسن»[1].

وإزاء هذا الحال الذي وقف فيه كل جانب يتمسك برأيه واجتهاده، وعجزت السفارات بينهما ان تفعل شيئاً لرفع الخلاف، صار الاحتكام الى السيف لا بد منه لاعادة وحدة الامة الممثلة بوحدة الخلافة.

سار علي بن أبي طالب بأهل العراق يريد الشام، وخرج معاوية بن أبي سفيان بأهل الشام للقائه، واجتمع الطرفان في صفين، وجرت محاولات الاصلاح ثانية بينهما وطالت الايام، ولكن مساعي الصلح فشلت مرة أخرى، وقيل ان عبد الله بن عمرو قال من الشعر في هذه المناسبة:

لو شهدت جمل مقامي ومشهدي ... بصفين يوما شاب منها الذوائب
عشية جاء أهل العراق كأنهم ... سحاب ربيع رفعته الجنائب
وجئناهـم نمشي كـأن صفوفنـا ... من البحر مَدٌّ موجـهُ متـراكـب
فـدارت رحانا واستدارت رحاهـم ... سراة النهار ما تولى المنـاكـب
اذا قلت قد ولوا سراعا بـدت لـنـا ... كتائب منهم فأرجـعت كتـائـب
فقالوا لنـا: انـا نـرى أن تبـايـعـوا ... عليا، فقلنا: بل نرى أن نضارب[2]

(١) انظر: البيهقي/ دلائل النبوة جـ٦ ص٤٤٦، ابن حجر/ المطالب العالية جـ٤ ص١٠٨، الهيثمي/ مجمع الزوائد جـ٥ ص١٨٦، ابن كثير/ البداية والنهاية جـ٧ ص١١٧، الذهبي/ سير أعلام النبلاء جـ٣ ص١٣١ ترجمة معاوية بن أبي سفيان.

(٢) انظر: ابن أبي شيبة/ المصنف جـ١٥ ص٢٩٨، اليافعي/ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان جـ١ ص١٣٧. =

ودار القتال بين الجانبين في الاول من صفر لعام ٣٧هـ، ومرت الايام والقتال يشتد فيها ضراوة، وذكر ابن كثير قال: «كان أهل صفين عربا يعرف بعضهم بعضا في الجاهلية فالتقوا في الاسلام معهم على الحمية وسّنة الاسلام فتصابروا واستحيوا من الفرار»[١] وقاتلوا حتى كرهوا القتال وكرهوا الحرب ورأوا أن الحرب تأكلهم وانهم يقطعون ايديهم بأيديهم، ويجدّون أجنحتهم بأسيافهم، فلما رفعت المصاحف من جانب أصحاب معاوية، ونودي هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم، من لثغور الشام بعد أهل الشام ومن لثغور العراق بعد أهل العراق، قال أصحاب علي ننيب الى كتاب الله، ومالوا الى الموادعة والكف وتداعوا الى الصلح والائتمار بما في القرآن وتحكيمه[٢]، وقيل ان الاشعث بن قيس كان من اكثر اصحاب علي بن ابي طالب تحمسا لوقف القتال وقبول التحكيم، وقيل انه قال من الشعر[٣]:

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا ... عليها كتاب الله خيـــر قرآن

ونـــــادوا عليا يا ابن عـــم محمد ... أما تتقي الله أن يهلك الثقلان

وجاء عن معاوية أنه كتب الى علي بن أبي طالب يقول له: ان أول من يحاسب على هذا القتال انا وأنت، وانا ادعوك الى حقن هذه الدماء والفة الدين، واطراح الضغائن، وأن يحكم بيني وبينك حكمان[٤].

وقد نسب رفع المصاحف من جانب معاوية الى عمرو بن العاص، وقيل انها فكرة ابتدعها لينقذ معاوية من الهلاك بعدما رأي أمرَ عليّ يعلو ويشتد[٥].

---

(١) انظر: ابن كثير / البداية والنهاية جـ٧ ص٢٨٨.

(٢) انظر: ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص٤٨، ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ٣ ص٣٢، أبو حنيفة الدينوري/ الاخبار الطوال ص١٨٩-١٩١، ابن عساكر/تاريخ دمشق (مخطوط) جـ١٦ ص١٧٢ ترجمة معاوية بن أبي سفيان.

(٣) انظر: المقدسي / البدء والتاريخ جـ٥ ص٢٢٠.

(٤) أبو حنيفة الدينوري/ الاخبار الطوال ص١٩١.

(٥) أبو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص٤٨.

ولكن رفع المصاحف كان قد جرى من قبل، ففي معركة الجمل قيل ان علي بن أبي طالب قال لفتى من أصحابه تطوّع ان يعرض المصحف على الناس قال له: اعرض عليهم هذا، وقل هو بيننا وبينكم من أوله الى آخره والله في دمائنا ودمائكم(١).

وقيل ان عائشة زوج رسول الله ﷺ قالت لكعب بن سور قاضي البصرة، خلّ عن البعير وتقدّم بكتاب الله عز وجل فادْعُهم اليه ودفعت اليه مصحفاً.

وقيل لما اشتد القتال في الجمل قام رجل من عبد القيس فقال: ندعوكم الى كتاب الله عز وجل.

وفي صفين اشتدت الحرب دون أن ينتصف فريق من الاخر، وكان أصحاب علي ينكشفون مرة ويزول أصحاب معاوية عن مواقعهم مرة أخرى(٢).

وروى ابو مخنف انه لما كتبت صحيفة التحكيم، أبى الاشتر أن يكتب اسمه في الشهود عليها وقال: لا صحبتني يميني ولا نفعتني بعدها شمالي أن خُطَّ لي في هذه الصحيفة اسم على صلح ولا موادعة، أو لست على بينة من ربي، ومن ضلال عدوي، أو لستم قد رأيتم الظفر لو لم تجمعوا على الجور، فقال له الاشعث بن قيس: انك والله ما رأيت ظفرا ولا جورا، هلم الينا فانه لا رغبة بك عنا(٣).

وَرَفْعُ المصاحف من جانب اصحاب معاوية دون أصحاب علي كان مظنة القول برجحان كفة علي، وأن رفع المصاحف كانت خدعة دبرها اصحاب معاوية.

كان جانب علي بن ابي طالب يمثل الدولة، وكان علي قال لمعاوية قبل نشوب القتال: حاكم القوم اليّ احملك واياهم على ما في كتاب الله وسنة نبيه، وفشلت

(١) انظر خليفة بن خياط /تاريخه ص١٨٥، أبو جعفر الطبري/تاريخه جـ٤ ص، ٥١١، ٥١٤، ٥٢٩.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص١٨، ٤١.

(٣) المصدر نفسه / تاريخه جـ ٥ص٥٥.

المفاوضات ومحاولات الصلح ووقعت الحرب بين الجانبين ظنا منهما ان يكون لاحدهما الاقتدار على الاخر فينفذ ما يرى من حكم الله في الامر، ولذلك لم يكن من المأمول ان تقوم الدولة برفع المصاحف ودعوة اصحاب معاوية الى تحكيم كتاب الله مرة اخرى وهي لم تبلغ حد الاقتدار، ولكن رفع المصاحف من جانب معاوية والدعوة الى تحكيم كتاب الله يعني انهم رجعوا الى ما دعوا اليه واستجابوا[1].

والدعوة الى تحكيم كتاب الله دون التأكيد على تسليم قتلة عثمان الى معاوية وقبول التحكيم دون التأكيد على دخول معاوية في طاعة علي والبيعة له، تطور فرضته احداث حرب صفين، اذ أن الحرب التي استمرت نحو أسبوعين واودت بحياة الكثير من المسلمين، أبرزت اتجاها جماعيا رأى أن وقف القتال وحقن الدماء ضرورة تقتضيها حماية شوكة الامة وصيانة قوتها أمام عدوها، وهو دليل على حيوية الامة ووعيها وأثرها في اتخاذ القرارات، وقيل لما رفعت المصاحف ونودي الى التحكيم لم يرض علي بن أبي طالب بذلك وحذّر اصحابه منه وأعلمهم انما هو مكيدة وخدعة، ولكن ابن أبي شيبة ذكر أنه لما استحرّ القتال في أهل الشام بصفين، قال عمرو لمعاوية: أرسل الى علي بالمصحف فلا والله لا يرده عليك، فلما جاء به رجل يحمله وينادي، بيننا وبينكم كتاب الله ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣] قال علي بن أبي طالب: نعم بيننا وبينكم كتاب الله، أنا أولى به منكم، واعترض الخوارج وكانوا يسمونهم القراء وقالوا: يا امير المؤمنين لا نمشي الى هؤلاء القوم حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فقام سهل بن حنيف وذكر قصة الحديبية، وبيّن وجه الشبه بينها وبين صفين في هذا الجانب، وذكر ان نفوس المسلمين طابت وقبلوا الصلح في الحديبية وكذلك قبل علي وقف القتال في صفين ورضي التحكيم وعدّ ذلك فتحا ورجع[2]، وقيل كان يعلق على التحكيم آمالاً في ازالة الخلاف

(١) انظر: أبو حنيفة الدينوري / الاخبار الطوال ص١٨٩، ١٩١، ابن كثير / البداية والنهاية جـ٧ ص٢٨٤.

(٢) انظر: ابن أبي شيبة / المصنف جـ١٥ ص٣١٧-٣١٨، ابن حجر / فتح الباري جـ١٣ ص٨٦.

وجمع الكلمة[١]، ولعل ما جرى لعلي من بعد التحكيم من الضعف هو الذي شُبِّهَ على الرواة في ما قالوا عن رفع المصاحف والتحكيم ووصف ذلك بالمكيدة والخديعة، ويكونون بذلك قد خلطوا في روايتهم بين الحادثة والنتائج، وجاء تفسيرهم بالحادثة يحكي النتائج اكثر مما يحكي الحادثة نفسها.

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص٦٦.

التحكيم:

عقد مؤتمر التحكيم برواية أبي مخنف[1] عام ٣٧هـ، وكذلك قال خليفة بن خياط[2] ولكن الواقدي[3]وابن سعد[4]، واليعقوبي[5] وابن عساكر[6]، ذكروا أن مؤتمر التحكيم كان عام ٣٨هـ. ومما يرجح روايتهم على الرواية السابقة أن ابن شهاب الزهري[7] قال: وانهما، أي الحكمين، يجتمعان بدومة الجندل، فان لم يجتمعا لذلك اجتمعا من العام المقبل بأذرح، أي أن الزهري ذكر ميعادين لانعقاد المؤتمر هما عام ٣٧هـ وعام ٣٨هـ، وذكر أبو مخنف[8]، أن معن بن يزيد بن الاخنس السلمي قدم من الشام في استبطاء امضاء الحكومة رسولاً من عند معاوية الى علي، ومما قال معن لعلي ان معاوية قد وفى فف أنت لا يلفتنك أعاريب بكر وتميم، وهذا يتصل بموقف الخوارج من التحكيم ومحاولاتهم في حمل علي بن ابي طالب على الغائه وثنيه عن انفاذه، وقد أشاعوا أنه رجع عن التحكيم، فأتاه الاشعث بن قيس يسأله فنفي عليّ ما نسب اليه[9]).

لهذا فقد يكون انعقاد المؤتمر قد تأخر الى عام ٣٨هـ.

وأرسل علي بن أبي طالب أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانيء، وبعث عبد الله بن عباس يصلّي بالناس ويلي أمورهم، وبعث معاوية عمرو بن العاص في اربعمائة رجل من

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص٥٤.

(٢) خليفة بن خياط / تاريخه ص١٩٢.

(٣) انظر: ابو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص٧١، ابن سعد الطبقات الكبرى جـ٣ ص٣٣، اليعقوبي/ تاريخه جـ٢ ص١٩٠، المسعودي، التنبيه ص٢٩٥،٢٩٦، ابن عساكر /تاريخ دمشق (مخطوط) جـ١٦ ص٧٠٣ ترجمة معاوية بن ابي سفيان.

(٤) ابو جعفر الطبري/ تاريخه ج٥،ص٥٧،٦٦.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه

(٧) المصدر نفسه.

(٨) المبرد/ الكامل في اللغة جـ٣ ص٢١٠-٢١١.

(٩) انظر: خليفة بن خياط /تاريخه ص١٩٢، ابو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص٥٧، ٦٩.

الشام وذكر أبو مخنف أن عليا ومعاوية لم يحضرا التحكيم، وقال الزهري وخليفة بن خياط ان معاوية حضره من دون علي[١].

واجتمع الحكمان في دومة الجندل مكان عدل بين أهل الكوفة والشام[٢] ولا بد أنهما كان يدركان ثقل المسؤولية التي انيطت بهما بعدما تقارع الناس بالسيوف وتناجزوا بالرماح، ويحرصان على ان لا يردا الناس ثانية في الفتنة[٣] ، ولكن بعض الروايات قدمت قصة التحكيم على انها مثال للدهاء والمكر والخديعة بعيدا عن نظر الاسلام ومفاهيمه والتزام الحكمين بها في تقدير مصلحة الجماعة وتقويم الافراد.

قال أبو مخنف ان عمرو بن العاص أخذ يقدّم ابا موسى الاشعري في الكلام ويقول، أنت صاحب رسول الله ﷺ وأنت أسن مني[٤] فتكلم وأتكلم، فكان عمرو قد عوّد ابا موسى ان يقدّمه في كل شيء أرادة أن يقدّمه فيخلع عليا[٥].

وهذا القول عليه ما عليه، فتقديم عمرو بن العاص أبا موسى الاشعري للصحبة والسن قول لم يصح، فعمرو وأبو موسى كلاهما صحابي، وأما السنّ فعمرو أسنّ من ابي موسى، توفي عمرو بن العاص في أرجح الاقوال عام ٤٣هـ وله مائة سنة، وتوفي ابو موسى الاشعري عام ٤٤هـ وله ثلاث وستون سنة[٦].

وقول أبي مخنف وغيره ان عمرو بن العاص خدع أبا موسى وخالف ما اتفقا عليه يضعف امام دين الرجل وصحبته وعظم المسؤولية التي ألقت بها الامة اليهما، مما يبعد

---

(١) انظر: ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص٥٤، ٥٧، ٦٦، ٦٧.
(٢) المصدر نفسه / تاريخه جـ٥، ص٦٩.
(٣) انظر: ابو حنيفة الدينوري/ الاخبار الطوال ص١٩٩.
(٤) المصدر نفسه / ص١٩٩.
(٥) ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص٧٠، ابن اعثم / الفتوح م٢ جـ٣ -٤ ص١٠.
(٦) انظر: ترجمة عمرو بن العاص وترجمة ابي موسى الاشعري عند: ابن عبد البر/ الاستيعاب في معرفة الاصحاب، ابن حجر/ تهذيب التهذيب، ابن الاثير / اسد الغابة في معرفة الصحابة.

معه ان يركب احدهما أو كلاهما سبيل الخديعة والمكر والمكيدة في هذه الظروف الحرجة، ولو فعل احدهما ذلك لَعَلِمَهُ الناسُ ولفقدت الخديعة غايتها ولأوهن الفاعل بفعلته جانب صاحبه.

فماذا بحث الحكمان في مؤتمر التحكيم، وعن ماذا اسفر اجتماع الحكمين؟ ذكر أبو جعفر الطبري[1] برواية أبي مخنف ما جاء في كتاب القضية بين علي ومعاوية وفيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، قاضى علي على أهل الكوفة، ومن شيعتهم من المؤمنين والمسلمين، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين، أنا ننزل عند حكم الله عز وجل وكتابه، ولا يجمع بيننا غيره، وان كتاب الله عز وجل بيننا من فاتحته الى خاتمته، نحيي ما أحيا، ونميت ما أمات، فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل -وهما أبو موسى الاشعري- عبد الله بن قيس - وعمرو بن العاص القرشي عملا به، وما لم يجدا فى كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة، وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من العهود والميثاق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما، والامة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه، وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه انا على ما في هذه الصحيفة، وأن قد وجبت قضيتهما على المؤمنين، فان الامن والاستقامة ووضع السلاح بينهم اينما ساروا على انفسهم واهليهم وأموالهم، وشاهدهم وغائبهم، وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه ان يحكما بين هذه الامة، ولا يردّاها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا، واجل القضاء الى رمضان وان أحبّا ان يؤخِّرا ذلك أخّراه على تراض منهما، وان توفي احد الحكمين، فان امير الشيعة يختار مكانه، ولا يألو من أهل المعدلة والقسط، وان مكان قضيتهما الذي يقضيان فيه مكان عَدْل بين اهل الكوفة واهل الشام، وان رضيا وأحبّا فلا يحضرهما فيه الا من أرادا، ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود،

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص٥٣-٥٤.

ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة، وهم انصار على من ترك ما في هذه الصحيفة واراد فيه إلحادا أو ظلما، اللهم انا نستنصرك على من ترك هذه الصحيفة.

ومما يلاحظ على هذه الصحيفة أنها أعطت الحكمين ووفرت لهما كل ما يلزم لنزاهة القضاء وحيدته وحريته من الامان على النفس والمال والأهل، والنصرة من الامة ولكنها لم تحدد القضية التي سينظر الحكمان فيها واستنباط الحكم لها من كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ، ولذلك سنحاول من خلال الروايات التي تحدثت عن مؤتمر التحكيم ان نتحرى ما دار فيه من الحديث وما نوقش فيه من القضايا.

ذكر أبو جعفر الطبري[١] برواية الزهري أن أبا موسى الاشعري وعمرو بن العاص اتفقا على أن يسمي كل منهما رجلا لولاية أمرالامة، فسمى أبو موسى عبد الله بن عمر، وسمى عمرو بن العاص معاوية بن أبي سفيان، وذكر[٢] برواية أبي مخنف، أن من الاسماء التي استعرضت للخلافة عبد الله بن عمر ومعاوية بن أبي سفيان، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وفي رواية ابي مخنف[٣] ايضاً، أن عمر بن سعد بن أبي وقاص سأل أباه سعدا أن يحضر التحكيم، فهو صاحب رسول الله ﷺ ولم يدخل في شيء كرهته قريش، وأنه أحق الناس بالخلافة.

وبمثل ما قال أبو مخنف حول خلع علي والاختلاف حول معاوية، قال اليعقوبي[٤]، وابن اعثم[٥]، كما ورد الخبر نفسه عند ابن كثير[٦].

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص٥٧-٥٩.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص٦٧-٧١.

(٣) المصدر نفسه جـ٥ ص٦٧.

(٤) اليعقوبي/ تاريخه جـ٢ ص١٩٠.

(٥) ابن اعثم/ الفتوح م٢ جـ٣-٤، ٢٠٧-٢١٠.

(٦) ابن كثير/ البداية والنهاية جـ٧ ص٢٩٣.

ولم يختلف الخبر الذي جاء عند أبي حنيفة الدينوري[1]، والمقدسي[2] في هذا الجانب عما جاء في الروايات السابقة.

والقدر المشترك بين هذه الروايات أن القضية التي كانت محور الحديث بين الحكمين هي مسألة الخلافة.

وحتى الرواية التي ذكرها القاضي ابو بكر بن العربي[3] عن الدارقطني بسنده الى حضين بن المنذر تشترك مع الروايات السابقة في تأكيد ذلك، فقد جاء فيها:

أن معاوية ارسل حضين بن المنذر الى عمرو بن العاص ليتأكد مما بلغه من الاخبار عنه، فلما جاء حضين الى عمرو سأله، قال عمرو: والله ما كان الامر على ما قال الناس، ولكنني قلت لابي موسى، ما ترى في هذا الامر، فقال: أرى انه في النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، قلت: فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ فقال: ان يستعين بكما ففيكما معونة، وان يستغني عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما.

واذا كان الحديث في مؤتمر التحكيم دار حول الخلافة، فلماذا بحث الحكمان أمراً لم تنص عليه صحيفة التحكيم؟

وحول مؤتمر التحكيم وموضوع التحكيم، قال بعض الباحثين: أما نقطة الخلاف التي تم الاتفاق على الرجوع الى كتاب الله وتحكيمه فيها فلم تكن الفصل في أي من الرجلين هو أحق بالخلافة، بل هو حكم كتاب الله في أمر تسليم القتلة واقامة الحدود فيما يتعلق بالجريمة، وعلى الرغم من هذا كله فان المصادر كلها، على ما يظهر تخفي هذه النقطة الخطيرة في خضمٍ من الكلام، وتتابعُ البحث في قصة التحكيم كأن أبا موسى الاشعري وعمرو بن العاص انما انتخبا حكمين لاختيار احد الاثنين، علي ومعاوية،

---

(١) أبو حنيفة الدينوري / الاخبار الطوال ص١٩٩-٢٠١.

(٢) المقدسي/ البدء والتاريخ جـ٥ ص٢٢٩.

(٣) أبو بكر العربي/ العواصم من القواصم ص١٧٨-١٧٩.

او واحد غيرهما خليفة، أما كيف تم الانتقال المفاجيء من تحكيمٍ في أمر تسليم القتلة الى تحكيمٍ في أمر اختيار الخليفة فمن الصعب ان نعّينه، ومن الاصعب ان نصدّقه، والارجح ان شيئاً من هذا لم يحدث قط، ولعل ما حدث فعلا هو ان الهدنة التي توصل اليها الفريقان المتخاصمان حتى يتم تحكيم كتاب الله في امر الخلاف الرئيس، اي القبض على القتلة وتسليمهم الى القضاء ادت الى وقوع الخلاف بين اتباع علي، وحال هذا الخلافُ دون تمكن علي من استئناف القتال ضد غريمه، ولا تعدو الروايات التي وصلتنا كلها كونها محاولات لتبرير موقف علي وتفسير فشله غير المنتظر(١).

وقول الباحث بعدم انعقاد مؤتمر التحكيم وان الروايات حوله مصنوعة مسار عقلي بحت لا يستند الى النقل، وحسب تصور مغاير لتصور الباحث فان العقل يجيز انعقاد المؤتمر، والروايات التي تقول بانعقاد مؤتمر التحكيم تعزز ذلك وهي كثيرة وتمثل وجهات النظر السياسية المختلفة في ذلك الوقت، ومع ضعف بعضها فان منها ما يعتد بسنده ويترك في النفس ثقة بمتنها، مثل الروايات التي وردت عند خليفة بن خياط وعند أبي جعفر الطبري وعند القاضي ابي بكر بن العربي وابن كثير(٢).

وأما ان صحيفة التحكيم لم تنص على مسألة الخلافة، فقول صحيح ولكنها لا تمنع الحكمين ان يبحثا ذلك، وأي شيء من شأنه ان يرفع الخلاف ويجمع كلمة المسلمين.

ولما كان علي بن ابي طالب يدعو معاوية واهل الشام الى البيعة والدخول في طاعته ويأبى هؤلاء إلاّ تسليم قتلة عثمان اولاً، وعلي يرفض ذلك، ويأبى منهم الا البيعة والدخول في الطاعة اولا، صار التوفيق بين الجانبين غير ممكن، وصار طلب معاوية

---

(١) نبيه امين فارس/ تطوير كتابة التاريخ عند العرب المحدثين كما تبدو في معالجتهم قضية النزاع بين علي ومعاوية ص١٧٣، الابحاث، الجامعة الامريكية، بيروت، السنة ١٦ الجزء ٢ حزيران سنة ١٩٦٣م.

(٢) انظر: ابو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص٥٧-٥٩، القاضي ابو بكر بن العربي/ العواصم من القواصم ص١٧٨، ابن كثير / البداية والنهاية جـ٧ ص٢٩٣.

واهل الشام جعل الخلافة شورى بين المسلمين له ما يبرره من وجهة نظرهم، وقد رفضوا ان يقرن علي اسمه في كتاب القضية بينهما بلقب «أمير المؤمنين»، وجاء الحكمان، فوجدا امر قتلة عثمان، وموقف معاوية واهل الشام ووحدة الامة واجتماع الكلمة، امورا كلها معصوبة بالخلافة، لذلك كانت مناقشة الاصل وهو الخلافة، محاولة منهما لحل كل فرع مرتبط بالاصل ومعصوب به بعد ما فشلت المفاوضات وفشل القتال في حل الخلاف.

فهل توصل الحكمان الى شيء؟ وهل اتفقا على شيء؟

وقبل الدخول في الحديث عن ذلك، لا بد من اخذ الامور التالية بعين الاعتبار.

- قيل ان الاحنف بن قيس ودّع أبا موسى الاشعري عند ذهاب ابي موسى الى المشاركة في مؤتمر التحكيم وقال له: واعلم بأنك ان ضيعت العراق فلا عراق(١).

- وذكر ابو مخنف عن النضر بن صالح العبسي، ان شريح بن هانىء الحارثي حدث النضر وهما معا في غزوة سجستان قال: ان علي بن أبي طالب لما بعثه على راس الجند الى مؤتمر التحكيم، أوصاه بكلمات الى عمرو بن العاص قال له: قل لعمرو ان عليا يقول لك، ان افضل الناس عند الله عز وجل من كان العمل بالحق احب اليه وان نقصه وكرثه، من الباطل وان حنّ اليه وزاده...(٢).

- كان عمرو بن العاص يرى نفسه ندّاً لمعاوية، فقد جاء في رواية الدارقطني ان عمرو بن العاص سأل ابا موسى قال: فأين تجعلني انا ومعاوية(٣)، وهناك روايات اخرى تصور عمرو بن العاص يريد ان يوهن معاوية، وان معاوية كان لا يطمئن اليه تماما(٤)، وهي روايات قد لا تصح، ولكنها تحكي الحال بين اثنين لم تكن العلاقة بينهما علاقة تبعية، وانما هي الى النّديّة أقرب.

---

(١) ابن اعثم / الفتوح م٢ جـ٣-٤ ص٢٠٦.
(٢) ابو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص٦٩.
(٣) ابن العربي / العواصم من القواصم ص١٧٨-١٧٩.
(٤) ابو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص٤٢.

- وفي مؤتمر التحكيم، ضُرِبَ فسطاط للحكمين، فكان ابو موسى وعمرو يجتمعان في كل يوم فيتحدثان وينصرفان، فأقاما على ذلك أياما كثيرة حتى ارتابت الناس وغمهم ذلك(١).

واضافة الى ما جاء في كتاب القضية من التأكيد على الحكمين ان يحكما بين الامة ولا يردّاها في حرب ولا فرقة، فان هذه الاخبار التي سبقت الاشارة اليها تؤكد انه لم يبق مجال للغفلة او الخديعة، وان القضية لم تعد بخافية على احد، ناهيك عن الحكمين، وانها اصبحت ملء السمع والبصر.

وبعد ذلك، لا بد من القول ان الحكمين تدارسا مسألة الخلافة، وكانا مهتمين في البحث عمن يكون محل اجماع الامة واتفاقها وقادرا على القيام بأعباء الخلافة، ولا شك أن عزم سعد بن أبي وقاص على الاعتزال والبعد عن الاحداث الجارية جعله لا يُلتَفَتُ اليه من جانب الروايات، وربما من جانب الحكمين ايضا، وقد يكون عبد الله بن عمر وهو ممن جعله عمر بن الخطاب في اهل الشورى ولا شيء له فيها، اقرب الناس في نظر ابي موسى الى محبة الناس والاجماع عليه، ولكن عمرو بن العاص كان لا يراه اهلا للخلافة فلم يوافق ابا موسى عليه، وطالت الاجتماعات، ويبدو ان ثقل المسؤولية والحرص على جمع الكلمة جعل الاتفاق على شخص يأمنا الاجماع عليه موضع تردد منهما، وقد وصف خليفة بن خياط ذلك بعدم الاتفاق، فقال: فلم يتفق الحكمان على شيء(٢).

وأما الذهبي، فقد فسر عدم الاتفاق تفسيراً آخر قال: لما اجتمع ابو موسى وعمرو بدومة الجندل للتحكيم لم يتفقا، لان ابا موسى وعمرو بن العاص اتفقا على خلع علي ومعاوية بينهما واختلفا امام الناس فخلعهما ابو موسى وخالفه عمرو فخلع عليا وولّى معاوية، وقول الذهبي فيما يتصل بموقف عمرو من معاوية يخالف ما جاء في رواية

---

(١) ابن اعثم/ الفتوح م٢ جـ٣-٤ ص٢٠٧-٢٠٨.

(٢) خليفة بن خياط/ تاريخه ص١٩٢.

الدارقطني وعند خليفة بن خياط، والمقدسي في البدء والتاريخ في بعض رواياته، قال المقدسي: وقال قوم، خلع عمرو عليا ولم يُدْخِلْ معاوية[1].

وسواء اعلن الحكمان ما توصلا اليه واظهراه للناس على الصورة التي حكتها بعض الروايات ام لم يفعلا ذلك، فان عدم اتفاقهما على من يقوم بأمر المسلمين جعل ما دار بينهما لا سبيل لهما به على احد من الجانبين، ولا سبيل له لاحد على احد، وحتى لو قيل اتفق الحكمان على خلع علي باعتباره الخليفة، وردّ الامر الى شورى المسلمين[2]، فان الحكمين لا يكونان قد أوفيا ما أوكل اليهما تماما من حل الخلاف، ويكونان فتحا بابا آخر للخلاف اوسع، وسوف لا يكون الحكمان مقتنعين انهما توصلا الى حل الخلاف، ويكون وصف نتائج المؤتمر بعدم الاتفاق اقرب ما يكون الى حقيقة عمل الحكمين ومباحثاتهما في مؤتمر التحكيم.

وقد بنى الشاميون، كما قال الذهبي[3]، على خلع علي جواز استخلاف معاوية.

وفي حين زال الحرج من نفوس اهل الشام،وقووا بمبايعة معاوية، ادى فشل التحكيم في ازالة الخلاف وجمع الكلمة الى استفزاز الذين كانوا اعترضوا على علي من قبل وعادوا الى الخروج ثانية وتجمعوا في منطقة النهروان بقيادة عبد الله بن وهب الراسبي عام ٣٨هـ واخذوا يعتدون، فخرج اليهم علي فاعذرهم ونصب راية أمان مع أبي ايوب الأنصاري، وناداهم ابو ايوب، من جاء هذه الراية ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن، ومن انصرف الى الكوفة او الى المدائن وخرج عن هذه الجماعة فهو آمن، فتركهم بهذا السبب كثير ممن كان معهم ومن ظل تعبأ للقتال، فقتل منهم ألفان وثمانمائة، ثم لم يلبث من كان انفصل عن أهل النهروان منهم ممن كان استأمن الى أبي أيوب أو رجع منهم الى الكوفة وغيرها من المدن ان تجمعوا ثانية بالنخيلة، فخرج اليهم علي فدعاهم

---

(١) المقدسي/ البدء والتاريخ جـ٥ ص٢٢٩.

(٢) الدينوري / الاخبار الطوال ص٢٠٠و ابن كثير / البداية والنهاية جـ٧ ص٢٩٣.

(٣) الذهبي / العبر في خبر من غبر جـ١ ص٣١.

ورفق بهم غير مرة، فلم يستجيبوا، فقاتلهم وقتلهم جميعاً[1].

ويبدو ان علي بن ابي طالب رأى في مشاعر جنده تغيّراً ازاء قتل من قتل من أبنائهم واخوانهم واقاربهم من الخوارج، فلما بلغه أنهم دفنوهم قال: أتقتلونهم، ثم تدفنونهم، وأمر بالرحيل[2]، وذكر ابن أبي شيبة عن بعض جند علي انهم قالوا: غرّنا ابن ابي طالب من اخواننا حتى قتلناهم، ولكن الناس سكنوا وفرحوا لما وجدوا جثة ذي الثدية بين قتلى الخوارج[3].

ولا شك ان مباينة الخوارج وقتلهم اضعف جانب علي كثيراً، ثم تتابعت الفتوق على علي من بعد، فخرج الخريت بن راشد، وقيل اسمه الحارث بن راشد، في قومه من بني ناجية، وكان من ولاة علي على الاهواز، فدعا الى خلع علي، فأجابه خلق كثير واحتوى على البلاد وجبى الاموال، فبعث اليه علي جيشا بقيادة معقل بن قيس الرياحي فهزمه وقتله[4].

واخذت اطراف علي تتعرض للغارات من جانب معاوية في عين التمر وهيت والانبار والقطقطانة والبصرة وتيماء والحجاز واليمن تدعو الناس الى احترام ما قضى به الحكمان بتقديرهم[5]، فوجه علي الجيوش الى صد الغارات، وطمع اهل الخراج في ناحية علي في كسر الخراج، وانتقض اهل الاهواز، ولا بد ان عليا واجه من اجل ذلك بعض الصعوبات المالية والعسكرية وقد روى عن الشعبي في هذا الخصوص قوله:

---

(١) انظر: ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص٧٢-٩٢، المبرد / الكامل في اللغة جـ٣ ص١٨٧، ١٩٥-١٩٦.

(٢) ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص٨٩.

(٣) ابن أبي شيبة / المصنف جـ١٥ ص٣١٩.

(٤) انظر: ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص١٢٢-١٢٤، ابن اعثم / الفتوح م٢ جـ٣-٤ ص٢٤٠، الهيثمي / مجمع الزوائد جـ٧ ص٢٤٦، ابن كثير / البداية والنهاية جـ٧ ص٣٢٠.

(٥) انظر: ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص١٣٣-١٣٦، ابن اعثم / الفتوح م٢ جـ٣-٤ ص٢٣٧، المقدسي/ البدء والتاريخ جـ٥ص٢٢٩، ابن كثير/ البداية والنهاية جـ٧ ص٣٣١-٣٣٤.

لما قتل علي اهل النهروان، خالفه قوم كثير، وانتقضت عليه اطرافه وخالفه بنو ناجية، وقدم ابن الحضرمي البصرة وانتقض اهل الاهواز، وطمع اهل الخراج في كسره، واخرجوا سهل بن حنيف عامل علي بن أبي طالب من فارس[1].

وفي مصر، تقدم عمرو بن العاص من الشام بجيش الى مصر، وقيل بقيادة معاوية بن حديج الكندي[2]، فلم يَـقْـوَ محمد بن ابي بكر والي مصر من قبل علي على ردّهم، ولم يقدر علي بن ابي طالب على انجاده وهزم محمد وقتل وصارت مصر الى جانب معاوية، ولا بد ان معاوية قوي جانبه بصيرورة مصر الى صفه ماليا وبشريا وعسكريا.

ولما لم تُجْدِ المحاولات التي جرت بين علي ومعاوية سلمية كانت او عسكرية في توحيد الصف وجمع الكلمة، ذكر ابو جعفر الطبري ان المكاتبات جرت بين الجانبين لوضع الحرب، ويكون لكل واحد منهما ما بيده من البلاد، قال ابو جعفر: وفي هذه السنة اي سنة اربعين للهجرة، جرت بين علي ومعاوية المهادنة، بعد مكاتبات جرت بينهما يطول بذكرها الكتاب، على وضع الحرب بينهما، ويكون لعلي العراق ولمعاوية الشام، فلا يدخل احدهما على صاحبه في عمله بجيش ولا غارة وتراضيا على ذلك[3]، ولكن المهادنة لا تذكر شيئاً عن مصر التي كانت قد دخلت في طاعة معاوية قبل ذلك، واذا صح وقوع مهادنة فان ذلك كان من قبيل قبول علي بأمرة معاوية على ما بيده من البلاد.

وبينما كان علي بن ابي طالب يدخل مسجد الكوفة صلاة الصبح من شهر رمضان لسنة اربعين للهجرة، تعرض لعملية قتل نفذها ضده رجل اسمه عبد الرحمن بن ملجم المرادي الكندي توفي على أثرها بعد يومين[4]، فهل كان وراء ذلك من احد؟

---

(١) ابو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ص١٢٢.

(٢) الذهبي / العبر في خبر من غبر جـ١ص٣٢.

(٣) ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص١٤٠.

(٤) اليعقوبي/ تاريخه جـ٢ ص٢١٢، ابو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ص١٥٢.

ذهبت بعض الروايات الى اتهام الاشعث بن قيس، قال اليعقوبي[١]: ان عبد الرحمٰن ابن ملجم نزل على الاشعث بن قيس، فأقام عنده شهرا يستحدّ سيفه.

وذكر ابن سعد في الطبقات[٢] قال: وبات عبد الرحمن بن ملجم تلك الليلة التي عزم فيها ان يقتل عليا صبيحتها يناجي الاشعث بن قيس في مسجده حتى كاد ان يطلع الفجر، فقال له الاشعث: فَضَحَكَ الصبح، فقام عبد الرحمن بن ملجم وشبيب بن بجرة فأخذا أسيافهما ثم جاءا حتى جلسا مقابل السدة التي يخرج منها علي.

لعل اتهام الاشعث بن قيس بالتواطؤ على قتل علي بن ابي طالب يتصل بما قيل عن مواقف الاشعث السابقة، قيل لما رفعت المصاحف في صفين ودعا اصحاب معاوية الى التحكيم كان الاشعث اكثر الناس تحمسا لوقوف القتال وقبول التحكيم، وقيل كان الناس يَرَوْنَ الأشعث يرى رأى الخوارج، ولم يتبينوا مباينته لهم الا عندما دعا الى المسير الى حربهم في النهروان[٣].

وعندما حض علي بن ابي طالب اهل العراق على المسير بعد النهروان الى حرب معاوية واهل الشام، لم يوافقه الاشعث بن قيس واجابه بقوله: يا أمير المؤمنين نفذت نبالنا، وكلّت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا، فارجع الى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا. . .وانكسر على علي رأيه في المسير[٤].

واما اليعقوبي، فانه يذهب ابعد من ذلك ويتهم الاشعث انه كان ممالئا لمعاوية، وان معاوية استماله الى جانبه[٥].

---

(١) اليبعوبي/ تاريخه جـ٢ ص٢١٢.

(٢) ابن سعد / الطبقات الكبرى جـ٣ ص٣٦.

(٣) ابو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص٥٥، ٨٢.

(٤) المصدر نفسه جـ٥ ص٨٩-٩٠.

(٥) اليعقوبي/ تاريخه جـ٢ ص١٨٨-١٨٩.

ويبدو ان ضعف حماسة الاشعث لحرب الشام من بعد صفين جعل البعض يتهمه هذا الاتهام، ومات الاشعث من بعد مقتل علي بأربعين ليلة، وصلى عليه الحسين بن علي بن ابي طالب[1]، وهو زوج بنت الاشعث بن قيس[2] ولم ينقل عن آل علي بن ابي طالب انهم اتهموا الاشعث بهذه التهمة او كشفوا احدا من آل الاشعث بهذا السبب، ويظل قتل علي عملا من تدبير الخوارج جاء في الارجح ثأراً لقتلى النهروان.

---

(١) ابن الاثير / الكامل في التاريخ جـ٣ ص٢٠٢.

(٢) انظر: ابن حجر / تهذيب التهذيب جـ٢ ص٣٠٠ ترجمة الحسن بن علي، ابن قدامة المقدسي/ التبين في انساب القرشيين ص١٠٦، ترجمة الحسن بن علي.

استخلاف الحسن بن علي ومصالحة معاوية:

ولما ضرب علي بن ابي طالب الضربة التي مات فيها، قيل له يا أمير المؤمنين، ان فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن؟ فقال: ما أمركم ولا أنهاكم[١].

وبويع الحسن بعد وفاة ابيه بيومين في شهر رمضان من عام اربعين للهجرة[٢] وقيل، كان قيس بن سعد بن عبادة الانصاري اول من بايعه ثم تتابع الناس وبايعوه[٣].

ولكن خلافة الحسن لم تطل، اذ لم تتجاوز الاشهر قيل سبعة اشهر واحد عشر يوما[٤] وقيل سبعة اشهر وسبعة ايام[٥]، وقيل ستة اشهر وثلاثة ايام[٦]، وقيل ستة اشهر[٧]، وقيل اربعة اشهر[٨]، وقيل شهران[٩] وهي تعود الى الاختلاف في الوقت الذي استخلف فيه الحسن، والوقت الذي تنازل فيه لمعاوية عن الخلافة وتم اجتماع المسلمين على معاوية...

وقد تجاذبت الروايات المختلفة الحديث عما جرى بين الحسن ومعاوية في هذه الفترة: فقال ابن أعثم، ان الحسن بن علي لمّا أُستُخلِفَ كتب الى معاوية كتاباً ذكر الحسنُ في مقدّمته احتجاج قريش على العرب بقرابتها من الرسول ﷺ وأنّ العرب اعترفت لهم بهذا الفضل فلم تنازعهم السلطان، ولكنّ قريشاً لم تنصف آل محمد

---

(١) ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص١٤٦-١٤٧.

(٢) المسعودي / مروج الذهب جـ٣ ص٤.

(٣) ابو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص١٥٨.

(٤) الذهبي / سير اعلام النبلاء جـ٣ ص٢٦٣، رواية الكلبي.

(٥) خليفة بن خياط / تاريخه ص٢٠٣.

(٦) المسعودي / التنبيه والاشراف ص٣٠١.

(٧) ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ١٦٣-١٦٥.

(٨) الطبراني / المعجم الكبير جـ٣ ص٢٦، اليعقوبي/ تاريخه جـ٢ ص٢١٤.

(٩) اليعقوبي / تاريخه جـ٢ ص٢١٤.

ودفعتهم عن الخلافة، ثم ذكر ابن اعثم ان الحسن خاطب معاوية فى كتابه اليه فقال، . . .والان، فلا غرو إلاّ منازعتك ايانا بغير حق فى الدين معروف ولا أثر فى الاسلام محمود، الى ان قال لمعاوية.

فأن امير المؤمنين علي بن ابي طالب لما نزل به الموت ولاّني هذا الامر من بعده فاتق الله يا معاوية، وانظر لامة محمد ﷺ ما تحقن به دماء هم وتصلح به امورهم والسلام.

ووجه الحسن الكتاب مع رجلين الى معاوية ليدعواه الى البيعة والسمع والطاعة وتمضي رواية ابن اعثم فتقول ان معاوية بعث الى الحسن جوابا على كتابه رد فيه عن المسلمين بعامة والمهاجرين والانصار بخاصة ما قرفوا به من رفع الخلافة عن آل محمد، وانهم وضعوها في افضل الناس بعد رسول الله ﷺ.

ثم التفت الى الحسن فقال يخاطبه في كتابه اليه. . . . فالحال بيني وبينك على ما كانوا عليه، ولوعلمت انك اضبط لامر الرعية واحوط على هذه الامة واحسن سياسة، وأكَيْد للعدو، واقوى على جميع الامور، لسلمت لك هذا الامر بعد ابيك، لاني قد علمت بأنك انما تدّعى ما تدّعيه نحو ابيك، وقد علمت ان اباك سار الينا فحاْربنا، ثم صار من امره الى ان اختار رجلا واخترنا رجلا ليحكما بما يصلح عليه امر الامة وتعود به الى الالفة والجماعة واخذنا على الحكمين بذلك عهد الله وميثاقه واخذا منا مثل ذلك على الرضا بما حكما، ثم انهما اتفقا على خلع ابيك فخلعنا، فكيف تدعوني الى امر انما تطلبه بحق ابيك، وقد خرج ابوك منه؟ انظر لنفسك ابا محمد ولدينك والسلام[(١)].

واتهام الصحابة على لسان الحسن بن علي في رواية ابن اعثم يدحض الثقة بهذه الرواية في هذه القضية، اذ لا يعقل ان يعرّض الحسن، وهو من هو ان يعرّض بالصحابة ويرميهم بالظلم والجور ومجانبة الحق، فضلا عن ان عام ٤٠هـ لم تتحدد فيه بعد هوية الاحزاب والفرق المذهبية، ولم تتضح معالم القواعد والدعاوي الكلامية لها او تتبلور

(١) ابن اعثم/ الفتوح م٢ جـ٣-٤ ص٢٨٧-٢٨٨.

مقالاتها على نحو المحاورة التي تديرها الرواية على لسان الحسن ولسان معاوية.

والرواية من بعد ذلك تعدّ فيما يتعلق بموقف الحسن من معاوية امتدادا للروايات التي سبق ان تحدثت عن موقف علي بن ابي طالب ودعوته معاوية الى البيعة والطاعة باعتبار علي بن ابي طالب هو الخليفة الشرعي، وتغفل الرواية الاوضاع الجديدة التي اعقبت قتل علي بن ابي طالب.

وأما فيما يتعلق بموقف معاوية، فالرواية تقدم بعض الابعاد الجديدة في موقف معاوية واهمها، ان معاوية لا يرى الحسن في مثل ضبطه للامور وحيطته وقيامه عليها وليس الحسن مثله في حسن سياسته ومكايدته للعدو، والثاني: ان خلافة الحسن بسبب خلافة علي وحقه فيها لم تَعُدْ بهذا السبب ملزمة لمعاوية بعد ما جرى خلع علي في مؤتمر التحكيم حسب قول الرواية.

وموقف هذا شأنه بين الجانبين لابد اذا ظل كل طرف متشبثا بموقفه ان يفضي الى الحرب.

وبعد ان وجه معاوية بكتابه الى الحسن، قال ابن اعثم ودعا معاوية الضحاك بن قيس واستخلفه على الشام، وجمع ستين الفا وخرج يريد العراق وحسب قول اليعقوبي، كان خروج معاوية الى العراق بعد مقتل علي بن ابي طالب بثمانية عشر يوما[1].

ولكن بعض الروايات تذكر ان معاويةتعرّض للقتل في اليوم الذي قتل فيه علي بن ابي طالب، ولكن السيف وقع في أليته، وعولج حتى برأ[2]، ولا بد ان معاوية حتى برأ، وصح عنده مقتل علي واستخلاف الحسن احتاج الى مدة اطول مما ذكراليقوبي حتى يجمع معاوية اطرافه ويسير بالجيش الى العراق،ولعل اليعقوبي وَهِمَ فيما قال، او انه قصد وصف معاوية بالاستعجال ليظهر مدى حرصه على الامارة وحبه في الحكم.

---

(١) اليعقوبي / تاريخه جـ٢ ص٢١٣.

(٢) ابو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص١٤٣، ١٣٩.

وعلى اية حال، فان مسير معاوية الى العراق يريد الحسن امر قد جرى بلا خلاف بين الروايات[١].

ويبدو ان معاوية بعد موت علي بن ابي طالب، تحلل من الهدنة التي كان عقدها مع علي لوضع الحرب بينهما، فخرج يريد العراق.

اما في جانب الحسن، فقيل لما سمع بمسير معاوية سار نحو المدائن يريد لقاءه، وجعل على الجيش عبيد الله بن العباس، وكان عدد افراد الجيش اربعين الفا قيل كانوا اطوع له وأحبّ اليهم من ابيه[٢] وجعل على المقدمات قيس بن سعد بن عبادة وعدتها اثنا عشر الف رجل[٣].

وبعد ان سار معاوية الى العراق وخرج الحسن من الكوفة للقائه، تتباين الروايات حول ما جرى في جانب الحسن وادى به الى مصالحة معاوية.

قال الزهري: كان الحسن لا يرى القتال، ولكنه يريد ان يأخذ لنفسه ما استطاع من معاوية ثم يدخل في الجماعة، وعرف ان قيس بن سعد لا يوافقه على رأيه فنزعه عن الجيش وأمرّ عبيد الله بن عباس عليه[٤].

---

(١) الدينوري/ الاخبار الطوال ص٢١٦،٢١٨ ابن اعثم /الفتوح م٢ جـ٣-٤ ص٨٨، المقدسي/ البدء والتاريخ جـ٥ ص٢٣٥و ابن قدامة المقدسي /التبيين في انساب القرشين ص١٠٥، الذهبي/ سير اعلام النبلاء جـ٣ ص٢٦٤.

(٢) ابو جعفر الطبري/تاريخه جـ٥ ١٥٨ رواية الزهري، ابن اعثم/كتاب الفتوح م٢ جـ٣-٤ ص٢٨٩، المقدسي/البدء والتاريخ جـ٥ ص٢٣٥، ابن حجر /تهذيب التهذيب جـ٢ ص٢٩٨، ٢٩٩، ابن قدامة المقدسي /التبيين في انساب القرشيين ص١٠٥، ابن كثير/ البداية والنهاية جـ٨ ص١٦.

(٣) ابو جعفر الطبري /تاريخه جـ٥ ص١٥٩، الذهبي /سير أعلام النبلاء جـ٣ص٢٦٣رواية عوانة ابن الحكم.

(٤) ابو جعفر الطبري /تاريخه جـ٥ ص١٥٩، الذهبي /سير أعلام النبلاء جـ٣ ص٢٦٣ رواية عوانة ابن الحكم.

وقيل كان الحسن ينهى اباه عن القتال ويشير عليه بتركه وكان أكره الناس للفتنة[1].

وقيل عن علي بن ابي طالب انه قال فيه: أما حَسَنٌ فصاحب جفنة وخوان وفتى من الفتيان. . .[2]).

فهذه الروايات وامثالها تشير الى ما كان عند الحسن من الميل الى السلم والكف عن القتال والكراهية للفتنة.

والروايات عن ميل الحسن الى السلم لا تقف عند هذا الحد وتذهب الى ابعد من ذلك.

قال الزهري: بايع اهل العراق الحسن بن علي بالخلافة، فطفق يشترط عليهم انكم سامعون مطيعون، تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت فارتاب اهل العراق في أمره حيث اشترط عليهم هذا الشرط وقالوا: ما هذا لكم بصاحب، وما يريد هذا القتال، فلم يلبث الحسن بعد ما بايعوه الا قليلا حتى طعن طعنة أشوته، فازداد لهم بغضا وكتب الى معاوية بشروط ويطلب الصلح[3].

وذكر المقدسي في البدء والتاريخ بسند جمعي ان الحسن نظر الى ما يسفك من الدماء وينتهك من المحارم، فقال لا حاجة لي في هذا الامر، وقد رايت ان اسلمه الى معاوية فيكون في عنقه تباعة هذا الامر وأوزاره، ورفض الحسين ذلك وقال له: انشدك الله ان تكون اول من عاب اباه ورغب عن رأيه، فغضب الحسن، ولم يلبث الحسين ان تابعه[4].

---

(١) ابن تيمية / منهاج السنة جـ٤ ص٢٩٩، ٥٣٥-٥٣٦و ابن كثير / البداية والنهاية جـ٨ ص٢٥١.

(٢) الطبراني / المعجم الكبير جـ٣ ص١٠٢.

(٣) أبو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ١٦٢، ابن اعثم / الفتوح م٢ جـ٣-٤ ص٢٩٥.

(٤) المقدسي/ البدء والتاريخ جـ٥ ص٢٣٥.

وقيل ان الحسن خطب وذكر رأيه وايثاره السلامة، ومما قاله: ايها الناس انكم قد بايعتموني على ان تسالموا من سالمت وتحاربوا من حاربت، والله لقد اصبحت وما انا محتمل على احد من هذه الامة ضغنة في شرق ولا غرب، ولما تكرهون في الجماعة والامن وصلاح ذات البين خير مما تحبون من الفرقة والخوف والتباغض والعداوة، فلما سمع الناس ذلك وقع في قلوبهم انه خالع نفسه لمعاوية فشق عليهم ذلك وقد بايعوه على الموت فثاروا به وقطعوا عليه كلامه وخرقّوا عليه سرادقه، وطعنه رجل اسمه سنان ابن الجراح الاسدي وهو ممن يرى رأى الخوارج، طعنه طعنة اشوته وانصرفوا عنه.

ثم تتابع الرواية الحديث فتذكر ان الحسن أرسل الى معاوية يسأل الامان للناس وأموالهم وأولادهم ونسائهم لقاء البيعة له[١].

ويبدو ان خطبة الحسن الآنفة الذكر وما جاء فيها كانت في اثناء مقام الحسن بالمدائن وبعد حضور رسل معاوية اليه بقصد الصلح بين الجانبين.

وهناك روايات اخرى تذكر ان ميل الحسن الى الصلح كان للظروف الصعبة التي كان يمرّ بها.

جاء في رواية اسماعيل بن راشد ورواية عوانة بن الحكم ان الحسن لما نزل المدائن وبعث قيس بن سعد على المقدمات صرخ في الناس صارخ،الا ان قيس بن سعد بن عبادة قد قتل، فثار الناس فانتهبوا سرادق الحسن،وطعنه رجل من الخوارج فوثب الناس على الخارجي فقتلوه، فلما رأى الحسن تفرق الامر كتب الى معاوية في الصلح، وقيل ان الحسين اعترضه وقال، نشدتك الله أن تصدق أحدوثة معاوية وتكذبّ احدوثة علي، فقال له الحسن: اسكت فأنا أعلم بالامر منك[٢].

---

(١) ابو حنيفة الدينوري/ الاخبار الطوال ص٢١٦-٢١٧، ابن اعثم /الفتوح م٢ جـ٣-٤ ص٢٨٩-٢٩٢، ٢٩٥، المقدسي /البدء والتاريخ جـ٥ ٢٣٦.

(٢) ابو جعفر الطبري /تاريخه جـ٥ ص١٥٩-١٦٩، الذهبي /سير اعلام النبلاء جـ٣ ص٢٦٣-٢٦٤، ابن كثير /البداية والنهاية جـ٨ ص١٦.

وبعد ان ذكر ابو حنيفة الدينوري خروج الحسن من الكوفة للقاء معاوية قال، لما رأى الحسن الفشل من اصحابه، وان اكثر من معه قد نكل عن القتال لم ير ان يحملهم على ما يكرهون، ولذلك خطبهم واعلمهم انه يريد ان يسلم الامر الى معاوية، فقام نفر منهم فانتهبوا سرادقه، وطعنه رجل خارجي اسمه الجراح بن قبيصة من بني اسد،فقتل الناس الخارجي وحمل الحسن الى المدائن للعلاج[١].

وأما المسعودي فذكر ان الحسن صالح معاوية لما ناله من اهل الكوفة وقال ايضاً، لما تيقن ما نزل به انقاد الى الصلح[٢].

وقد حمّل اليعقوبي معاوية بن ابي سفيان وانصاره من اهل العراق ما وقع في جانب الحسن من الاضطراب والفشل واضطره الى مصالحة معاوية، قال اليعقوبي، وكان معاوية يدس الى عسكر الحسن من يتحدث ان قيسا صالح معاوية، ويدس الى عسكر قيس من يتحدث ان الحسن صالح معاوية، وقال ايضا: وجه معاوية الى الحسن وفدا فأتوه وهو بالمدائن نازل في مضاربه، فلما خرجوا من عنده، اخذوا يقولون يُسَمِّعون الناس، ان الله حقن بابن رسول الله ﷺ الدماء وسكّن الفتنة واجاب الى الصلح، فلما سمع عسكر الحسن ما قال وفد معاوية لم يشكّوا في صدقهم، فوثبوا بالحسن فانتهبوا مضاربة وطعنه الجراح بن سنان الاسدي فلما رأى الحسن ان لا قوة به وأن أصحابه قد افترقوا عنه، صالح معاوية[٣].

وبذلك نكون امام طائفتين من الروايات، الاولى تجعل تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ايثارا منه للسلم وكراهة الفتنة، والثانية تجعل الحسن تنازل مكرها للفشل الذي رآه في اصحابه.

---

(١) ابو حنيفة الدينوري / الاخبار الطوال ص٢١٧-٢١٨.

(٢) المسعودي / مروج الذهب جـ٣ ص٨-٩.

(٣) اليعقوبي / تاريخه جـ٢ ص٢١٤ -٢١٥.

وقد يبدو الفرق في اتجاه هذه الروايات مثل ما بين العلة والمعلول، ومع ذلك فان التجاوب بين هذه الروايات موجود، فالحسن ميال الى السلم والصلح كراهيةَ الفتنة والفرقة واراقة دماء المسلمين وهو ما اشارت اليه الطائفة الاولى من الروايات، وقد يعترض على ذلك من يحتج باستعدادات الحسن العسكرية وخروجه للقاء معاوية، وهناك من يعتذر عن الحسن ويقول انه كان لا يرى القتال وانما خرج مكرها، وسواء كان الحسن في خروجه مكرها ام غير مُكْرَه، فلا يعقل ان يظل قاعدا في عقر داره بالكوفة حتى يدخل عليه معاوية بالجيش، هذا وقد كان من حول الحسن كثرة من الناس كثيرة كانت تريد لقاء معاوية، وعندما دخل معاوية بجيشه ارض العراق وجد بازائه من مقدمات الحسن وجيشه عددا كبيرا وصفه البخاري في صحيحه «كتائب امثال الجبال»، ولكن ما ان ارسل معاوية يطلب الصلح حتى وجد الحسن يساند التئام الجماعة ووحدة الكلمة، ومما جاء في الرواية عند البخاري في صحيحه[1]: فقال عمرو بن العاص اني لأرى كتائب لا تولي حتى تقتل اقرانها، فقال معاوية... وكان والله خير الرجلين، اي عمرو: ان قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، من لي بأمور الناس، من لي بنسائهم، من لي بضيعتهم، فبعث اليه رجلين من قريش من بني عبد شمس عبد الرحمن بن سمرة وعبد الله بن عامر بن كريز فقال: اذهبا الى هذا الرجل فاعرضا عليه وقولا له واطلبا اليه، فأَتِياه... الى قوله -فصالَحه (اي صالح الحسن معاوية).

وأما ما تعرض له الحسن من القتل والاعتداء فانه يعود الى اسباب تتصل بظروف القتال والصلح مع معاوية حقيقة او اشاعة كما مر، ولكن الفشل الذي اصاب جانب الحسن لم يؤد الى انهيار قوته ويدفعه الى مصالحة معاوية كرها، وظل زمام الموقف في جانبه بيده ويد انصاره، وكانت جبهته العسكرية قوية كما جاء في رواية البخاري والروايات الاخرى، وهزم المرجفون وقتل الرجل الذي قام بالاعتداء عليه، وتقدم هو من بعد ذلك واجتمع بمعاوية، ولو لم يكن الحسن مرهوب الجانب لما احتاج معاوية

---

(١) البخاري/ صحيح البخاري، كتاب الصحاح جـ٢ ص٩٦٢-٩٦٣.

الى ان يفاوضه ويوافق على ما طلب من الشروط والضمانات، ولكان عرف ضعف جانب الحسن وانحلال قوته عن طريق عيونه، ولدخل الكوفة من غير ان يكلف نفسه مفاوضة احد او ينزل على شروطه ومطالبه.

وتفوق جانب معاوية على الحسن لامراء فيه، فهل صالح الحسن معاوية بهذا السبب؟

قال ابن تيمية في منهاج السنّة[1]: . . . واذا قال القائل انما ترك القتال للعجز لانه لم يكن له انصار، فكان في المُقَاتَلَة قتل النفوس بلا حصول المصلحة المطلوبة، قيل له، وهذا بعينه هو الحكمة التي راعاها الرسول ﷺ في النهي عن الخروج على الامراء وندب الى ترك القتال في الفتنة، وان كان الفاعلون لذلك يرون ان مقصودهم الامر بالمعروف والنهي عن المنكر.

واضافة الى ذلك، فقد كان بمقدور الحسن ان يقاتل معاوية بمن كان معه وان كان اقل ممن كان مع معاوية صنيع الذين قاتلوا خصومهم على قلّةٍ من كان معهم من الاعوان والانصار، ولكن الحسن كان ذا خلق يجنح الى السلم وكراهة الفتنة ونبذ الفرقة، وجعل الله به رأب الصدع وجمع الكلمة، وقد كان رسول الله ﷺ أشار الى ذلك فقال: ان ابني هذا سيد، ولعل الله ان يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين[2].

شروط الصلح بين الحسن ومعاوية:

اختلفت الروايات حول صاحب المبادأة في الصلح، فذكرت بعض الروايات ان الحسن هو الذي بادأ معاوية بالصلح، ولكن رواية البخاري السابقة الذكر نسبت المبادأة الى معاوية، ورواية البخاري مقدمة على غيرها من الروايات[3] ومعاوية باتفاق الروايات كان يتمتع بتفوق جانبه على الحسن، وهو الان بجيشه في العراق، وعرض الصلح

(١) ابن تيمية / منهاج السنة جـ٤ ص٥٣٦.

(٢) البخاي / صحيح البخاري، كتاب فضاىءل الصحابة، مناقب الحسن والحسين جـ٣ ص١٣٦٩ كتاب الفتن جـ٦ ص٢٦٠٢.

(٣) انظر: ابن حجر / تاريخه جـ٥ ص١٦٥، الذهبي / سير اعلام النبلاء جـ٣ ص٢٦٤.

من جانبه ومحادثة الحسن عن التنازل له عن الخلافة امر ينسجم مع الموقف المتفوق الذي كان ينفرد به دون الحسن، وينسجم ايضاً مع وضع الحسن الذي يقتضي عدم التعجل حتى يأخذ ما يستطيع من الضمانات من معاوية.

وبعد المفاوضات بين الحسن ووفد معاوية، قيل التقى الحسن ومعاوية في مسكن فاصطلحا ثم سارا الى الكوفة[(١)] وقيل: التقيا على منزلة من الكوفة ثم دخلا الكوفة[(٢)].

وقال الشعبي[(٣)]، وكان ممن شهد اللقاء وحضر الصلح، انهما التقيا بالنخيلة[(٤)]، وبخصوص شروط الصلح ذكر الزهري ان الحسن كتب في صحيفة بعث بها الى معاوية الشروط التي اراد من معاوية ان يعطيه اياها، وكان معاوية قد بعث هو الآخر بصحيفة بيضاء مختوم على اسفلها ليكتب الحسن ما شاء فيها من الشروط، فكتب الحسن اضعاف ما كان قد سأل معاوية ان يعطيه في الصحيفة التي بعثها الى معاوية، فلما وقعت صحيفة الحسن بيد معاوية وطالب الحسن عند لقائه بمعاوية ان يفي له بالشروط التي شرط في السجل الذي ختم معاوية في أسفله لم ينفذ معاوية للحسن شيئاً من ذلك وقال له: لك ما كنت كتبت الي اولاً تسألني ان اعطيكه[(٥)].

ولكن المفاوضات المباشرة التي جرت بين الحسن ووفد معاوية، وتناولت اموراً تحددت بين الجانبين، وتحدّث البخاري عنها في روايته، تنفي شبهة استمرار وجود عروض سلمية عائمة او مفتوحة، ولكن ماذا طلب الحسن الى معاوية ان يعطيه؟

---

(١) ابو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص١٦٥، الذهبي / سير اعلام النبلاء جـ٣ ص٢٦٤.

(٢) خليفة بن خياط / تاريخه ص٢٠٣، المقدسي/ البدء والتاريخ جـ٥ ص٢٣٧.

(٣) الشعبي / تابعي ثقة، ولد عام ١٩هـ، وقيل عام ٢٠هـ انظر: ابن حجر / تهذيب التهذيب ترجمة عامر الشعبي.

(٤) الطبراني / المعجم الكبير جـ٣ ص٢٦.

(٥) ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ١٦٢-١٦٣.

تفاوتت الروايات حول ما طلب الحسن من معاوية من الشروط والضمانات وتم الاتفاق عليه بين الجانبين، ويمكن تصنيف الشروط حسب موضوعاتها الى خمسة هي:

الاول: المال: قيل ان الحسن اشترط ان يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة ملايين درهم[١]، وقيل ان يسلم له بيت المال فيقضي منه دَيْنَه ومواعيده، ويتحمّل منه هو وآله[٢]، وقيل اشتراط ان يأخذ ما في بيت مال الكوفة وكان فيه خمسة ملايين درهم[٣]، وقيل اشترط اموالاً وضياعاً[٤] ووفى له معاوية بذلك واعطاه سبعة ملايين درهم من بيت المال[٥].

واضافة الى ذلك، قيل طلب خراج دارا بجرد (كورة من بلاد فارس) مُسَلَّماً له في كل عام[٦]، وان يجري عليه كل سنة مليون درهم[٧] وان يحمل الى اخيه الحسين مليوني درهم في كل عام ويفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس[٨].

واحساس الحسن بمصالح الامة في هذه الروايات يبدو ضعيفا امام مصالحه الخاصة، ولكن الروايات الاخرى تختلف مع هذه الروايات في الاتجاه الذي ذهبت اليه.

ذكر البخاري في صحيحه ان الحسن قال لوفد معاوية عبد الرحمن بن سمرة وعبد الله بن عامر بن كريز: انا بنو عبد المطلب قد اصبنا من هذا المال... فمن لي بهذا؟ قالا: نحن لك به[٩]، فالحسن يتحدث عن اموال سبق ان اصابها هو وغيره من بني

---

(١) ابن اعثم / الفتوح م٢ جـ٣-٤ ص٢٩٣، ابن كثير / البداية والنهاية جـ٨ ص١٦.
(٢) الذهبي / سير اعلام النبلاء جـ٣ص٢٦٤.
(٣) أبو جعفر الطبري / تاريخ الطبري جـ٥ ص١٦٠.
(٤) المقدسي / البدء والتاريخ جـ٥ ص٢٣٦.
(٥) الذهبي / سير اعلام النبلاء جـ٣ ص٢٦٤.
(٦) أبو حنيفة الدينوري، الاخبار الطوال ص٢١٨.
(٧) الذهبي / سير اعلام النبلاء جـ٣ ص٢٦٤.
(٨) أبو حنيفة الدينوري/ الاخبار الطوال ص٢١٨.
(٩) البخاري/ صحيح البخاري، كتاب الصلح جـ٢ ص٩٦٣.

عبد المطلب يريد الحسن ان لا يطالبهم معاوية، ولا ذكر لأموال يطلب من معاوية ان يدفعها اليه من قادم.

وذكر ابن اعثم ان الحسن قال: واما المال فليس لمعاوية ان يشرط لي في المسلمين[١].

وذكر ابو جعفر الطبري برواية عوانة بن الحكم ان اهل البصرة حالوا بين الحسن وبين خراج دارا بجرد، وقالوا، فيئنا[٢]، والمعلوم ان جباية الخراج من مهام الدولة، ولا علاقة مباشرة بين الحسن واهل البصرة في هذا الجانب ولكن الرواية اشارت الى ان خراج دارا بجرد لم يكن في الاموال التي صيّرت الى الحسن.

وعليه فقد لا يكون الامر تجاوز طلب العفو عن الاموال التي اصابها الحسن وآله في الايام الخالية، ثم قام معاوية في هذه المناسبة فوصل الحسن واجازه، قيل اجازة بثلاثماية الف درهم، والف ثوب، وثلاثين عبدا، ومائة جمل[٣]، واما العطاء فليس الحسن فيه بواحد من دون المسلمين، ولا يمنع ان يكون حظه منه اكثر من غيره، ولكنه لا يصل إلى عشر معشار ما ذكرته الروايات.

الثاني: الدماء: ويتضمن اتفاق الصلح بين الجانبين ان الناس كلهم آمنون لا يؤخذ احد منهم بهفوة او أحنة، ومما جاء في رواية البخاري، ان الحسن قال لوفد معاوية: . . . وان هذه الامة قد عاثت في دمائها، فكفل الوفد للحسن العفو للجميع فيما اصابوا من الدماء[٤].

ولكن الرواية عن الزهري ذكرت ان عبيد الله بن عباس قائد جيش الحسن لما علم بما يريد الحسن من معاوية، بعث الى معاوية يسأله الامان وشرط لنفسه على الاموال التي قد أصاب، ثم خرج اليهم ليلا ولحق بهم، وان قيس بن سعد الذي خلّفه على الجيش

(١) ابن اعثم / الفتوح م٢ جـ٣-٤ ص٢٩٣.
(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص١٦٥.
(٣) انظر: ابن حجر العسقلاني / فتح الباري جـ١٣ ص٦٨.
(٤) البخاري / صحيح البخاري، كتاب الصلح جـ٢ ص٩٦٣.

تعاهد والجيش على قتال معاوية حتى يشترط لشيعة علي ولمن كان اتبعه على أموالهم ودمائهم[(١)].

وقد استبعد فلهوزن ان يكون قائد الجيش هو عبيد الله بن عباس وذكر ان قائد الجيش كان عبد الله بن عباس، واستند فلهوزن في ذلك الى ان الاسم الذي ورد في بعض النسخ المخطوطة من تاريخ ابي جعفر الطبري هو عبد الله بن عباس، وان الاختلاف بين المخطوطات في عبد الله وعبيد الله ليس مرجعه الى الناسخ، وانما الى الرواة الذين لم يريدوا ان يلحق هذا العار بعبد الله بن عباس جد العباسيين،واما اخوه عبيد الله فلم يروا بأسا من التخلي عن الدفاع عنه، وذكر فلهوزن سببا آخر لاستبعاد ان يكون عبيد الله بن عباس قائداً للجيش أو يكون هو الذي صالح معاوية، فقال، ان عبيدالله بن عباس كان واليا لعلي باليمن، وكان يقيم فيها عندما هاجمها بسر بن ابي ارطاة في النصف الثاني من عام أربعين للهجرة برواية عوانة، وعام اثنين وأربعين للهجرة برواية الواقدي، وذبح بِسْرٌ ولدي عبيد الله، وهذا يعني ان عبيد الله بن عباس كان يقيم باليمن معاديا لمعاوية، ولا يعقل ان يكون عبيد الله قد انتقل الى جانب معاوية قبل عام او عامين من الحادثة، أو يكون قد تعجل الى هذا الحد في مصالحة قاتلي ولديه[(٢)].

واما ان قائد الجيش كان عبد الله بن عباس او عبيد الله بن عباس، فان رواية المسروقي عن اسماعيل بن راشد ورواية زياد بن عبد الله البكائي عن عوانة بن الحكم تذكران ان قائد الجيش كان الحسن بن علي، وان قائد مقدمته كان قيس بن سعد ولا ذكر لعبد الله بن عباس او اخيه عبيد الله في هذا الجانب[(٣)].

كما يفهم مما ورد عند ابي حنيفة الدينوري في الاخبار الطوال، وابن حجر في المطالب العالية، وابن اعثم في الفتوح، ان قطبي الرحى في الجيش كانا الحسن بن علي

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص١٦٣-١٦٤، ابن أبي شيبة / جـ١٥ص٧٩-٨٠.

(٢) فلهوزن / تاريخ الدولة العربية ص١٠٣-١٠٦.

(٣) انظر: ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص١٥٩-١٦٠، ابن شيبة / المصنف جـ١٥ص٧٩.

وقيس بن سعد ولا ذكر لعبد الله بن عباس وعبيد الله بن عباس[١].

وتأكيد فلهوزن على ان عبد الله بن عباس كان قائدا للجيش لا عبيد الله واحتجاجه على ذلك بما سبق الاشارة اليه يخالفه ما نقله زياد بن عبد الله البكائي عن عوانة بن الحكم الذي لا يتهم بمحاباة العباسيين قال: ان عبيد الله بن عباس كان واليا لعلي على اليمن، ولما بلغه مسير بسر بن أبي أرطاة اليه استخلف على اليمن عبيد الله بن عبد المدان الحارثي وهرب الى علي بالكوفة وذلك عام اربعين للهجرة، وارسل علي بن ابي طالب جيشا الى اليمن يتعقب جيش بسر، وقتل علي في نفس العام، ولم يرد ما يشير الى ان عبيد الله بن عباس ترك الكوفة الى اليمن[٢].

ويخالف فلهوزن ايضا ما جاء في الروايات الاخرى التي نقلها اليعقوبي والبلاذري وعمر بن شبة والمدائني[٣]، وذكرت ان قائد الجيش كان عبيد الله بن عباس، كما جاء في قول عامة اهل السير ان عبد الله بن عباس كان خرج عام أربعين للهجرة من البصرة ولحق بمكة على اثر ما جرى بينه وبين علي[٤]، ولكن فلهوزن يتهم هذه الروايات بمحاباة العباسيين، واتهام فلهوزن يبدو مما سبق ضعيفا عند المعارضة.

وسواء كان قائد الجيش عبد الله بن عباس او عبيد الله بن عباس او غيرهما فان دواعي اتصال قائد جيش الحسن بمعاوية وطلب الامان منه غير قائمة، فجيش الحسن قوي وممتنع كما جاء عند البخاري، والاتصالات والتنسيق بين الحسن وقيادته موجودة نقلا

---

(١) انظر: ابو حنيفة الدينوري/ الاخبار الطوال ص٢١٧، ابن اعثم/ الفتوح م٢ جـ٣-٤ ص٢٨٩، المقدسي / البدء والتاريخ جـ٥ ص٢٣٥، ابن حجر / المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية جـ٤ ص٣١٨، ٣١٩.

(٢) انظر: ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص١٣٩-١٤٠، ابن الاثير / الكامل في التاريخ جـ٣ ص١٩٢.

(٣) انظر: اليعقوبي: تاريخه جـ٢ ص٢١٤، ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص١٤١-١٤٣، ١٦٣، فلهوزن / تاريخ الدولة العربية ص١٠٠-١٠٦.

(٤) انظر: ابو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص١٤١-١٤٣.

وعقلا، والحسن ولي الامر ورأسه، وقد جرت المفاوضات بينه وبين وفد معاوية، واخذ الامان لاتباعه ومن كان في جانبه فضلا عن بني العباس وغيرهم من بني المطلب بشأن الدماء والأموال، وأعلم الحسن قيادته بالصلح وتنازله عن الخلافة لمعاوية، وأمرهما بالدخول في الجماعة ومبايعة معاوية، ولما رأى قيس ومن معه أنهم لم يعودوا مع امام مفترض الطاعة تركوا القتال وبايعوا معاوية، ودخلوا في الجماعة(١).

ولكن في رواية الزهري ثناء على قيس دون الحسن وولدي العباس من غير ما ضرورة.

الثالث: ولاية العهد: قيل ومما اتفق الجانبان عليه من الشروط ان يكون الامر من بعد معاوية للحسن(٢)، وان معاوية وعد ان حدث به حدث والحسن حي لَيُسَمِّيَنَه وليجعلّن الأمر اليه(٣)، ولكن ابن اعثم روى في هذا الخصوص عن الحسن انه قال: اما ولاية الامر من بعده، فما انا بالراغب في ذلك، ولو أردت هذا الامر لم أسلمه(٤)، وهو كلام ينسجم مع تنازل الحسن عن الخلافة، فقد كان الحسن خليفة وتنازلَ عن الخلافة، فكيف يطلبها من بعد ذلك.

وقيل نصّ الاتفاق على ان لا يعهد معاوية الى احد بعده ويكون الامر شورى(٥).

ومثل هذا القول في مثل هذا الوقت موضعه في غير هذا الصلح. فلا احد يعلم ما سيكون من معاوية بخصوص الخلافة، ولكن الرواية ارادت التعريض بالبيعة ليزيد واتهام

---

(١) انظر: ابن اعثم/ الفتوح م٢ جـ٣-٤ ص٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٤، ابو حنيفة الدينوري/ الاخبار الطوال ص٢١٨، ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص١٦٠، ابن حجر / المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية جـ١٥/ ص٧٩-٨٠.

(٢) انظر: ابن اعثم/ الفتوح ح٢ جـ٣-٤ ص٢٩٣، ابن حجر / فتح الباري جـ١٣ ص٧٠.

(٣) ابن حجر/ تهذيب التهذيب جـ٢ ص٢٩٩ ترجمة الحسن بن علي، الذهبي / سير اعلام النبلاء جـ٣ ص٢٦٤.

(٤) ابن اعثم / الفتوح م٢ ج٣-٤ ص٢٩٣.

(٥) المقدسي/ البدء والتاريخ جـ٥ ص٢٣٦، ابن اعثم الفتوح م٢ جـ٣-٤ ص٢٩١.

معاوية بالخروج على الشورى في استخلافه ولده يزيد، وهي قضية جرت في فترة تالية على الصلح بين الحسن ومعاوية.

الرابع: العمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء: ورواية البخاري ذكرت ان الحسن ما سأل الوفد: عبد الرحمن بن سمرة وعبد الله بن عامر شيئا الا قال له: نحن لك به، والتذكير بالعمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء لاشية فيه، ولكن ايراد ذلك ضمن شروط الصلح تعريض من الرواية[1] بمعاوية واتهامه بمجافاة ذلك، مما ينفي ان يكون هذا الشرط من شروط الصلح بين الجانبين.

الخامس: وقيل ان الحسن اشترط على معاوية الا يُسبَّ عليٌّ وهو يسمع[2]: وكأنّ الحسن عفا عن سب علي وهو لا يسمع، ولذلك فقد لا تكون هذه القضية بحثت بين الحسن ومعاوية.

وبعد ان تم الصلح وتنازل الحسن عن الخلافة، قيل ان معاوية قال للحسن، اما اذ كان ذا فقم فتكلم واخبر الناس بهذا الامر الذي تركته لي، فقام الحسن فخطب على المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال: أما بعد، فان اكيس الكَيْس التقى، وان احمق الحمق الفجور، وان هذا الامر الذي اختلفت فيه أنا ومعاوية، إمّا كان حقاً لي تركته لمعاوية ارادة صلاح هذه الامة وحقن دمائهم، او يكون حقا كان لامرىء احق به مني ففعلت ذلك، ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[3] [الانبياء: ١١١].

---

(١) انظر: المقدسي/ البدء والتاريخ جـ٥ ص٢٣٦، ابن اعثم/ الفتوح م٢جـ٣-٤ ص٢٩٣.

(٢) ابن كثير / البداية والنهاية جـ٨ ص١٦، الذهبي / سير اعلام النبلاء جـ٣ ص٢٦٤ ترجمة الحسن ابن علي.

(٣) الطبراني / المعجم الكبير جـ٣ ص١٦، ابن حجر / تهذيب التهذيب جـ٢ ص٣٠٠ ترجمة الحسن بن علي، ابن حجر / فتح الباري جـ١٣ ص٦٨، ابن قدامة المقدسي / التبين في أنساب القرشيين ص١٠٥، وانظر: اليعقوبي / تاريخه جـ٢ ص٢١٥، ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص١٦٣.

وقيل لما برأ الحسن من جراحته خرج الى مسجد الكوفة فقال: يا أهل الكوفة، اتقوا الله في جيرانكم وضيفانكم وفي اهل بيت نبيكم ﷺ الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، فجعل الناس يبكون ثم تحمّل واهل بيته الى المدينة[١].

وبذلك طويت صفحة من الخلاف والفرقة، واجتمعت الكلمة، وصار معاوية خليفة مجمعا عليه، قيل عام اربعين للهجرة[٢]، ولكن ابن اسحاق[٣] والواقدي[٤] وخليفة بن خياط[٥] يجعلون ذلك عام واحد واربعين للهجرة ويختلفون في الشهر الذي وقع فيه الصلح من ذلك العام أهو ربيع الاول، أو ربيع الاخر، او جمادى الاولى، او جمادى الاخرة، فقال المسعودي: ثم صالح الحسن معاوية نحو شهر ربيع الاول سنة احدى واربعين، وقد رأى قوم ان ذلك كان في جمادى الآخرة او الأولى من هذه السنة، والاول اشهر واصح عندنا من مدة ايامه[٦].

ومضى معاوية يقود مسيرة الامة من غير ان يجعل للفتنة واحداثها سبيلا على احد يعيق حركة البناء والجهاد.

وقد يسأل سائل عما فعل معاوية بقتلة عثمان بعد صيرورة الخلافة اليه ويجيب ابن قتيبة في «عيون الاخبار» قائلا: ان معاوية بن أبي سفيان لما قدم المدينة بعد عام الجماعة، دخل دار عثمان بن عفان، فصاحت عائشة بنت عثمان بن عفان وبكت ونادت اباها، فقال معاوية: يا ابنة أخي، ان الناس اعطونا طاعة وأعطيناهم أمانا،وأظهرنا لهم حلما تحته غضب، وأظهروا لنا ذلا تحته حقد، ومع كل انسان سيفه ويرى موضع

---

(١) الطبراني / المعجم الكبير جـ٣ ص٩٣، ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص١٦٥.

(٢) المصدر السابق جـ٣ ص٢٦.

(٣) انظر: ابن حجر / تهذيب التهذيب جـ٢ ص٢٩٩ ترجمة الحسن بن علي.

(٤) انظر: ابو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص١٦٤.

(٥) انظر: خليفة بن خياط / تاريخه ص٢٠٣.

(٦) المسعودي/ التنبيه والاشراف ص٣٠١.

اصحابه، فان نكثناهم نكثوا بنا ولا ندري أعلينا تكون ام لنا، لأن تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عرض الناس.

والذي يعتد به من كلام ابن قتيبة ما جاء عن العهود والمواثيق التي ابرمت بين معاوية والحسن وقضت بالصلح بين الناس، ووضع الحرب، وحقن الدماء، وعدم تهييج النفوس، واضافة الى ذلك فان السنوات الخمس التي احتضنت المعارك في الجمل وصفين والنهروان والنخيلة ومصر وغيرها ذهبت بأولئك الذين ترددت اسماؤهم بتهمة قتل عثمان، ومع ذلك فان مسألة قتل عثمان ظلت حاضرة في ذهن الخلفاء من بني امية ونوابهم في الاغلب، وكانوا على التعريض بخصوم عثمان والشنآن للخارجين، فعلى سبيل المثال، قيل ان بسر بن أبي أرطاة أقام عام ٤٣هـ شهرا بالمدينة يستعرض الناس، ليس احد مما يقال هذا أعان على عثمان الاّ قتل[١]، ومع ان هذا الخبر لا يعتد به، فانه يشير الى ان انتصار بني امية لعثمان بن عفان كان حقيقة لا شبهة بها.

هذا وقد قيل في وصول معاوية الى الخلافة اقاويل، وجرت في تعليل ذلك أحاديث: قيل كان علي بن ابي طالب يعدّ الخلافة منصبا دينيا، وكان دقيقاً في محاسبة العمال ومتصلبا في رايه ولا يحيد عما يقتضيه ضميره كما كان يفعل ابو بكر وعمر، اما معاوية فكان يلين لمن في جانبه ويتساهل في محاسبة العمال مع ان رجاله كانت قد ذهبت منهم حرمة الدين وذاقوا لذة الثروة وتعودوا على السيادة.

ولكن المسلمين في عهد ابي بكر وعمر كانوا لا يزالون في أبان الحمية الدينية واريحية العربية ولذلك كانوا ينصاعون لابي بكر وعمر بكلمة، واما في أيام علي فقد تغيرت الاحوال وعدّ المسلمون سياسة علي ضعفا، فلما رأوا ضعفه انحازوا الى معاوية بعد ان كانوا معه، وتنتهي المقولة الى الاستنتاج بأن الفوز دائما لاهل الدهاء وأن السياسة والدين لايلتحمان الا نادرا، وما التحامهما ايام الراشدين الا فلتة قلما يتفق مثلها، وما دولة الراشدين برأى المقولة بدولة سياسية وانما هي خلافة دينية[٢].

---

(١) انظر: ابو جعفر الطبري/ تاريخه جـ٥ ص١٧٦، جـ٦ ص٢٠٧.

(٢) انظر: جورجي زيدران / تاريخ التمدن الاسلامي جـ٣ ص٣٣٥-٣٣٦.

وقيل ان علي بن ابي طالب جاء يسير وفق الاتجاه الاسلامي في ظروف استعلاء الاتجاه القبلي وانتصاره، وقد اصطدمت سياسة علي بالاتجاه القبلي في الكوفة التي كانت لا تفهم فكرة الدولة، ولم تتأثر بالتقاليد الحضرية وأفسد هذا الاتجاه على علي بن ابي طالب التفاهم مع خصومه في موقعة الجمل ودفعوه في معركة صفين الى التحكيم كرها، وفرضوا عليه أبا موسى الاشعري، فكان بسياسته الاسلامية في هذه البيئة القبلية كمن يطرق في خديد بارد.

وأما معاوية فكان خروجه للمطالبة بدم عثمان على أساس قبلي واضح، لان هذا واجب الدولة وحقها وليس حق الاقرباء، والتفاف الكثيرين حول معاوية يدل على قوة الاتجاه القبلي.

وعليه فان الخلاف بين علي ومعاوية برأى هذه المقولة صدام بين ممثلي تيارين: بين ممثل التيار الاسلامي وهو علي بن ابي طالب، يسير على سياسة اسلامية في وسط قبلي فيصطدم بظروفه وبخصمه في آن واحد وبين ممثل التيار القبلي وهو معاوية بن ابي سفيان، يسير على سياسة قبلية في وسط قبلي، فلا غرابة ان انتصر معاوية لان الظروف والاوضاع كانت مواتية لمعاوية وكان انتصاره انتصارا واضحا للتيار القبلي، وكانت دولة الامويين نتيجة طبيعية لتطور الاوضاع العامة في عصر الراشدين وتفوق الاتجاه القبلي بدون ان يحدث انقطاع في التطور التاريخي(١).

وقيل ان الخلاف بين علي ومعاوية كان صراعابين عصرين هما: عصر الحكم الراشدي الذي كان مركزه في المدينةوالحجاز، وكان يمثل الزهد والتقشف، والشورى والعدل والمساواة في الحكم وتوزيع الاموال بين افراد الامة ويمثله علي بن ابي طالب،والعصر الجديد الذي تمثّل بظهور جيل جديد وتكوّن مفاهيم جديدة وعقلية جديدة واتجاه جديد نحو الحياة والتمتع بمباهجها نتيجة تغيّر رقعة العالم الاسلامي بنتيجة الفتوحات، وتغيّر طبيعة الحياة المادية وتحوّل الناس من الزهد والتقشف الى

(١) انظر: الدوري/ مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص٥٨-٦٢.

البذخ والترف، وتغيّر المجتمع وظهور الجيل الذي لم يعد جيل الصحابة ولا يعيش في عصر الصحابة ولا يتصف بصفاتهم، وهو عصر لم يكن برأى المقولة مؤهلا للاستفادة من الحكم الراشدي والانطباع به، لذلك كان لا بد من ان يحل محل الحكم الراشدي حكم جديد بعقلية تشابه عقلية الجيل الجديد واتجاهاته ومفهومه للحياة، وخوّل هذا العصر الجديد ان يستلم هذا الحكم رجل من رجال اسرةكانت في الجاهلية مقاربة في عقليتها ومفهومها للصفة التي كان يتطلبها ذلك المجتمع الجديد، وكان معاوية يمثل هذا الجيل في مفهومه وعقليته ورغباته في الحياة، وكانت بلاد الشام بما هي عليه من مستوى حضاري متقدم على العراق اهلا لان تكون مركزا وعاصمة لهذا المجتمع الجديد، وتنتهي هذه المقولة الى القول بأن وصول معاوية كان انقلابا عظيما في تاريخ الاسلام جاء على اثر غلبة العصر الجديد على العصر الراشدي[١].

والمقولات السابقة كما نرى تكاد تكون واحدة وتدور حول محور واحد من غير ضرورة ان يكون اللاحق قد اخذ من السابق، فهي ترد انتصار معاوية ووصوله الى منصب الخلافة الى غلبة الاتجاه السياسي على الاتجاه الديني او غلبة الاتجاه القبلي على الاتجاه الاسلامي، او غلبة العصر الجديد على العصر الراشدي، فهي لا تردّ وصول معاوية الى الخلافة الى عامل بسيط يتمثل بالاختلاف بين الافراد في مؤهلاتهم وقدراتهم، وانما ترده الى عامل مركب شمل التغيرّ في الظروف والعصور والمفاهيم والافراد، وتجعل هذه المقولات وصول معاوية الى الخلافة معلم انقلاب في حياة المجتمع الاسلامي وتحول عصر الى عصر، من العصر الراشدي الى عصر جديد مختلف في الملامح والخصائص.

فهل كان الخلاف بين علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان خلافا بين عصرين؟ وهل كان وصول معاوية الى الخلافة انتصار لعصر جديد على عصر الراشدين؟

والقول بأن وصول معاوية الى منصب الخلافة كان نتيجة للتناقض بين السياسة والدين في قول، والصراع بين القبلية والاسلام في قول ثان، وبين العصر الجديد والعصر الراشدي

(١) انظر: يوسف العش / الدولة الاموية ص١١٨-١٢٣.

في قول ثالث، وان غلبة معاوية كانت غلبة للسياسة على الدين وللقبلية على الاسلام والعصر الجديد على العصر الراشدي كلام يحتاج الى اعادة نظر وتدقيق.

ففي الاسلام لا انفصال بين الدين والسياسة ولا انفصام بينهما، والسياسة في الاسلام سلوك موجه بالشرع وقائم على قواعده ومضبوط بأحكامه، ووصف علي بن ابي طالب بالدين دون السياسة ورميه بالبعد عن الدهاء السياسي كلام لا يستند الى أساس تاريخي(١)، فهو ان لم يكن اكثر من معاوية دهاء ونبوغا فلا يقل عنه على اقل تقدير(٢)، ووصف معاوية بالسياسة دون الدين تضليل وتشويه، ولكن المقولة تريد ان تقول ان الاسلام لم يعد يصلح لمواكبة الحياة وسياستها.

وعلي بن ابي طالب افضل من معاوية من غير شك، وما كان في معاوية خصلة ينازع علياً بها(٣)، ومع تأخر معاوية عن علي بالفضل فانه ما تعدى الاسلام في افعاله وعلاقاته او تجاوزه، ولم يكن سياسيا بلا دين على نحو ما صورته بعض المقالات السابقة(٤)، هذا فضلا عن ان الفرد ليس بقادر على ان يسيّر المجتمع في العاجلة بغير ما عليه المجتمع من المفاهيم والافكار والانظمة المنبثقة عن عقيدته.

وبالنسبة للمجتمع الاسلامي فقد كان الرسول ﷺ اكمل قواعده الرئيسية، واتم ما يلزم لتحديد اطار شخصيته، وتكونت في حياته عليه السلام النخبة القيادية الواعية التي أخذت من بعده ترسي مبادىء الاسلام في نفوس الناس وحياتهم ثقافة وتطبيقا، والمعلوم ان المجتمع الاسلامي من بعد الرسول ﷺ اخذ يكبر ويتسع، واخذت اشكال الحياة القديمة

(١) انظر: الدوري / مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ص٥٨.

(٢) انظر: العش / الدولة الاموية ص١١٩، ومن اجل الامثلة على ذلك انظر: اليعقوبي / تاريخه جـ٢ ص١٨٩، ابو حنيفة الدينوري / الأخبار الطوال ص١٩٢، أبي جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص٦٦، ابن اعثم / الفتوح م٢ جـ٣-٤ ص٦٥، ابن كثير / البداية والنهاية جـ٧ ص٢٩٣.

(٣) ابن عساكر / تاريخ دمشق (مخطوط) جـ١٦ ص٧١٤ ترجمة معاوية بن ابي سفيان.

(٤) انظر: زيدان / التمدن الاسلامي جـ٣ ص٣٣٥-٣٣٦.

قبلية وغير قبلية تتراجع في الصراع امام المد الاسلامي، وصارت الشخصية الاسلامية للبلاد بفعل الثقافة تتجه اكثر فاكثر نحو الوحدة في العقيدة الاسلامية وما ينبني عليها من المفاهيم والافكار والانظمة وينبثق عنها.

والقول بأن هذا المجتمع، او هذا العصر، او هذا الاتجاه قد تنحى او اخذ يتنحى بعد عشرين سنة او ثلاثين سنة من وفاة الرسول ﷺ امام عصر جديد ومفاهيم مغايرة واتجاهات مخالفة يخالف مفهوم المجتمعات وطبيعة قيامها وتحولها من حال الى حال، ويخالف سنن تطور النظم والافكار والمفاهيم فيها، ولو فرضنا ان المجتمع الاسلامي في اواخر خلافة عثمان وفي زمن الخلاف بين علي وخصومه كان يقع بين قطبي المحافظة والتغيير لما امكن لقوى التغيير اذا صح وجودها ان تنجح في مهمتها بمثل هذه السرعة والسهولة الا ان يكون المجتمع هشا ابتداء.

وأما اذا كان مفهوم المجتمع لا يعني إلا الاشخاص الحاكمين ومن فيه من الافراد، فلا شك ان ابا بكر وعثمان وعليا وامثالهم من الصحابة من ابناء العصر الراشدي لا يماثلهم ابناء العصر الاموي وحكامه، والاختلاف بينهم بيّن وواضح، ولكن الفرق بينهما لا يدعو الى وصفه بالانقلاب، والمجتمع بالمفهوم السابق لا يطابق حقيقة المجتمع وواقعه، ففهم المجتمع على انه مجموع ما فيه من الحكام والافراد يغفل جوانب المجتمع وخصائصه الاخرى في العقيدة والمفاهيم والانظمة والافكار المنبثقة عن العقيدة وآثارها في العلاقات بين الناس وانضباط العلاقات بها.

وعليه فان وصول معاوية الى منصب الخلافة لا بد ان يدرس من خلال وسط آخر غير مقولات تبدل المجتمع وتغير شخصيته، لا بد ان يدرس من خلال مقتل عثمان بن عفان وما تبعه من ظروف وتطورات تلاحقت لا علاقة لها بتبدل مفاهيم المجتمع وتغير عقليته ومعاييره.

فقد جاءت خلافة علي بن ابي طالب من بعد قتل عثمان، وفي الوقت الذي سيطر فيه على المدينة اولئك الذين فصلوا من الامصار الى عثمان منحرفين عنه، ولذلك لم يكن

الجو الذي استخلف فيه علي بالمدينة كالاجواء التي استخلف فيها من سبقه من الخلفاء، وقيل للاستبراء من عوالق هذا الجو نصح عبد الله بن عباس عليا ان يبتعد عما كان يجري في المدينة وبيّن له ان الناس عند ذلك لن يتركوه حتى يأتوا به ويبايعوا له، ولكن عليا عصاه[١]، وقيل نصحه ابنه الحسن بمثل ذلك وأشار عليه أن لا يقبل البيعة حتى تأتيه وفود العرب وبيعة كل مصر فانهم لن يقطعوا امر دونه ولكن عليا أبى[٢].

كان علي بن ابي طالب يرى انه احق الناس بالخلافة، فلما بايعه من بالمدينة قبلها خشية على الدين كما قال، ومخافة ان يرجع الناس الى امصارهم ولم يقم بعد عثمان قائم فيقع الاختلاف والفساد[٣]، ولم ير لنفسه ان يتنحى عن حمل المسؤولية او يفرط بالامر، ورأى ان يقاتل بمن أطاعه من خالفه[٤]، وسار على هذه السياسة مع خصومه في الجمل وصفين والنهروان وغيرها،ولكن النتائج آلت الى غير ما كان يهوى، وتنغّصت عليه الامور، وانكسر عليه رأيه[٥]فلم حدث ذلك؟.

كان طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعائشة زوج الرسول ﷺ قد خرجوا بعد استخلاف علي الى البصرة من غير مشورة علي ورضاه يطلبون بدم عثمان واصلاح الامر[٦]، وقيل لما سأل علي بن ابي طالب سعد بن ابي وقاص ان يقاتل معه، قال له سعد: قد كان ما بلغك فاعطني سيفا يعرف المسلم من الكافر حتى اقاتل به معك، وقال له عبد الله بن عمر: انشدك الله ان تحملني على مالا اعرف، وقال له محمد بن مسلمة:

---

(١) الهيثمي /الزوائد العالية جـ٧ ص٢٣٦، ابن عساكر /تاريخ دمشق (مخطوط) جـ١٦ ص٧٠٦ ترجمة معاوية بن ابي سفيان.

(٢) ابن الاثير / الكامل في التاريخ جـ٣ ص١١٤.

(٣) ابن حجر / فتح الباري جـ١٣ ص٦٢، ٩٩.

(٤) ابن الاثير / الكامل في التاريخ جـ٣ ص١١٤.

(٥) انظر: ابن اعثم / الفتوح م٢ ج-٤ ص٢٣٥، ابن حجر / المطالب العالية جـ٤ ص٣٢٣.

(٦) ابن حجر /فتح الباري جـ١٣ ص٦١، الذهبي /العبر في خبر من غبر جـ٧ ص٢٣٥، جـ٨ ص١٣.

ان رسول الله امرني ان اقاتل بسيفي ما قوتل به المشركون، فاذا قوتل أهل الصلاة اضرب به صخر احد حتى ينكسر وقد كسرته بالامس، وقال اسامة بن زيد: اعفني من الخروج في هذا الوجه فاني عاهدت الله الا أقاتل من يشهد ان لا اله الا الله[١]، وقيل لزم اكثر اهل بدر بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا الاالى قبورهم[٢].

واضافة الى كراهة من سبق ذكرهم من اهل المدينة للقتال بين المسلمين كان هناك في الكوفة من يدعو الى القعود عن القتال واعتزال الفتنة مثل ابي موسى الاشعري، وكان يرى من اعتزل وكره الدماء هو من خيار الناس ممن قد خفّ ظهره من مظالم الناس[٣]، والقعود عن القتال واعتزال الفتنة اتجاه اسلامي عند هؤلاء اداهم اليه اجتهادهم واخبار عن رسول الله ﷺ خاصة بهم، وليس بالضرورة بواجب، اذ لو كان الواجب في كل اختلاف يقع بين المسلمين الهرب منه بلزوم المنازل وكسر السيوف لما اقيم حد ولا ابطل باطل[٤]، فقد مال بالمقابل اغلب اهل الكوفة الى علي بن ابي طالب وقاتلوا في طاعته في الجمل لاقتناعهم بحاجة الناس الى امارة تنظمهم وتزع الظالم وتعز المظلوم[٥]، وهي جميعا لا شك مفاهيم اسلامية ، ولكننا اوردناها لبيان الاراء والمواقف التي نجمت عن مقتل عثمان بن عفان ومعرفة منطلقاتها الفكرية وآثارها على الخلاف بين الاطراف.

وفي البصرة، اعتزل بعض اهلها مثل الاحنف بن قيس وقومه القتال في الجمل، ومنهم من ناصر الخليفة علي بن ابي طالب، ومنهم من ناصر طلحة وصحبه، وهي جميعا مواقف وآراء ومفاهيم اسلامية، ولما مّر علي بن ابي طالب بقتلى الجمل قال: اني لأرجو أن لا يكون احد نقّى قلبه لله من هؤلاء الا ادخله الله الجنة[٦].

---

(١) الدينوري / الاخبار الطوال ص١٤٣ ، البخاري / التاريخ الكبير جـ١ ص١٢ ترجمة محمد بن مسلمة .

(٢) ابن كثير / البداية والنهاية جـ٧ ص٢١٤ .

(٣) ابن اعثم / الفتوح م٢ جـ٣-٤ ص٢٠٨-٢٠٩ .

(٤) ابن حجر / فتح الباري جـ١٣ ص٣٧ .

(٥) الدينوري / الاخبار الطوال ص١٤٥ ، ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٤ ص٤٨٥ . وما بعدها .

(٦) ابن الاثير / الكامل في التاريخ جـ٣ ص١٣٢ .

ولا شك ان ما هو افضل من هذا الاختلاف في الاراء والمواقف ان يكون رأى الناس واحدا وجماعتهم واحدة، ولكن أنّى يكون ذلك وقد جعل قتلُ عثمان والاجواءُ التي خلّفها قتله تفكيرَ الناس وآراءهم ومواقفَهم في اختلاف.

وبعد الجمل، خرج علي بالناس الى صفين، وبعد ان نشب القتال في صفين واشتد، رفعت المصاحف ونودى الى التحكيم، فتوقف القتال ونزل علي بن ابي طالب على التحكيم وأجاب، فلم أجاب علي إلى التحكيم ورضيه؟

قيل كان أبو سعيد الحسن البصري ينكر الحكومة، وكان إذا جلس فتمكّن في مجلسه ذكر عثمان فترحم عليه ثلاثاً ولعن قتلته ثم يذكر علياً فيقول: لم يزل أمير المؤمنين علي رحمه الله يتعرفه النصر ويساعده الظفر حتى حكّم، فَلِمَ تُحكّمْ والْحقُّ معك[١].

ولمعرفة ما جرى، يحسن ايراد بعض الشواهد التي وقعت قبل صفين وعززت قبول التحكيم والموادعة والصلح.

نهض الحارث بن حوط الليثي بعد الجمل الى علي بن ابي طالب وهو على المنبر فقال: اتظن انا نظن ان طلحة والزبير كانا على ضلال، فقال علي: يا حار، انه ملبوس عليك، ان الحقّ لا يُعرف بالرجال، فاعرف الحق تعرف اهله[٢].

وقال رجل من فزارة يسمى أربد لعلي: أتريد ان تسير بنا الى اخواننا من اهل الشام فنقتلهم كما سرت بنا الى اخواننا من اهل البصرة فقتلناهم؟ كلا، ها الله اذاً لا نفعل ذلك، وهرب الفزارى، ولكن الناس وطئوه بارجلهم حتى مات[٣].

---

(١) المبرد/ الكامل في اللغة ج٣ ص ٢١٥ - ٢١٦.

(٢) الجاحظ / البيان والتبيين جـ٢ ص٢١١.

(٣) ابو حنيفة الدينوري / الاخبار الطوال ص١٦٤.

واستخلف علي بن ابي طالب على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عامر البدري الانصاري في اثناء خروجه الى صفين[1]، وكان رجال من اهل الكوفة اسْتَخَفُوا، وكان ناس يأتون أبا مسعود فيقولون: قد والله اهلك الله أعداءه وأظفر المؤمنين، فيقول ابو مسعود: اني والله ما أعدّه ظفرا ولا عافية ان تظهر احدى الطائفتين ولكن نعدّها عافية ان يصلح الله امة محمد ويجمع ألفتها[2]، وقال الاشتر النخعي لقومه النخع، وانكم تسيرون غدا الى اهل الشام قوم ليس لكم عليهم بيعة، فلينظر امرؤ منكم أين يضع سيفه[3].

وقيل كان الناس في العراق منهم المسرور لما كان بين علي ومعاوية وهم اغشّاء الناس، ومنهم المكبوت الاسف وهم نصحاء الناس لعلي، هذا اضافة الى ما كان من اصوات اخرى انطلقت تندد بالقتل[4]، وما روى عن علي بن ابي طالب انه تحسّر لما رأى قتلى الجمل وتمنّى لو أنه مات قبل ذلك[5].

وهي شواهد تشير الى ان القتال بين المسلمين (قتال اهل القبلة واهل الصلاة) دون القتال في سبيل الله ومجاهدة الاعداء كان قد اخذ يتعرض للنقد قبل معركة صفين، ثم اصبح التخلي عنه واللجوء الى حل بديل عنه وهو التحكيم والصلح مطلبا في صفين.

ولا بد من القول بأن القتال يوم الجمل ويوم صفين لم يكن بأمر من النبي ﷺ، وانما كان رأيا رآه علي[6]، ولم يوافقه عليه كثير من الصحابة، ولما وجد علي ان عُظْم من كان معه قد مالوا الى الصلح في صفين وان من آثر منهم مواصلة القتال لا يتحقق بهم المصلحة أجاب الى الحكومة ورضي التحكيم.

---

(١) ابن كثير / البداية والنهاية جـ٧ ص٢٦٩.

(٢) الهيثمي/ مجمع الزوائد جـ٧ ص٢٤٨، ابن ابي شيبة / المصنف جـ١٥ ص٣٠١.

(٣) ابن ابي شيبة / المصنف جـ١٥ ص٢٦٥.

(٤) انظر: خليفة بن خياط / تاريخه ص١٨٦، ابن اعثم / الفتوح م٢ جـ٣-٤ ص٢٤٠، ابن كثير/ البداية والنهاية جـ٧ ص٢٥١.

(٥) ابن ابي شيبة / المصنف جـ١٥ ص٢٨٢.

(٦) ابن حجر / المطالب العالية جـ٤ ص٢٩٤-٢٩٦، ابن تيمية /منهاج السنة جـ٤ ص٤٩٦، الهيثمي/ مجمع الزوائد جـ٥ ص١٧٥.

وسواء كان الذين مالوا الى الصلح وحقن الدماء بعد ان كانوا مشوا من قبل درب القتال مالوا مشفقين على انفسهم من القتل، او مالوا مشفقين من القتل على المسلمين، فاننا مع الجميع في ظلال آراء ومفاهيم ومواقف اسلامية، ولا يقلّل من ذلك ان معاوية وصحبه هم الذين رفعوا شعار التحكيم، فلولا ان حقن دماء المسلمين كان يلاقي هوى في النفوس ما استجابوا له، ولولا ان كتاب الله وتحكيمه في العلاقات بين الناس له سلطانه عليهم ما رفعوه.

وسار التحكيم بما لا يرضاه علي بن ابي طالب، وكان علي اراد ان يجعل عبد الله بن عباس عنه حكما ولكن اهل العراق اختاروا ابا موسى الاشعري وقيل ان الذي اشار بأبي موسى الاشعري هو الاشعث بن قيس الكندي، ورفض عبد الله بن عباس وقال: لا والله، لا يحكم فينا مضريان[١].

وهذا ان صح، له مدلول قبلي، ولكن قبلية هذا الكلام لا تصيب ابا موسى الاشعري، لا في موقفه من الاحداث ولا في حكمه في القضية، فابو موسى صحابي وموقفه من الاحداث معروف، وفضلا عن ذلك، ذكر الهيثم بن عدي، ان اول من اشار بابي موسى هو الاشعث بن قيس الكندي، وتابعه اهل اليمن لان ابا موسى كان ينهى الناس عن الفتنة والقتال، ولم يدخل في ما دخل فيه الناس، واعتزل في بعض ارض الحجاز[٢].

وذكر ابو حنيفة الدينوري ان الاشعث وقراء العراق رضوا بابي موسى لانه رجل هو من علي ومن معاوية سواء ليس الى احد منهما بأدنى منه الى الآخر[٣].

---

(١) اليعقوبي / تاريخه جـ٢ ص١٨٩، ابن اعثم / الفتوح م٢ جـ٣-٤ ص١٩٤، المسعودي / مروج الذهب جـ٢ ص٤٠٢، المقدسي / البدء والتاريخ جـ٥ ص٢٢٠.

(٢) ابن كثير / البداية والنهاية جـ٧ص٢٨٧.

(٣) ابو حنيفة الدينوري/ الاخبار الطوال ص١٩٢، ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص٥١.

وقال ابن اعثم انهم قالوا: فاننا قد رضينا بأبي موسى الاشعري، فانه وافد رسول الله ﷺ الى اليمن وصاحب مقاسم ابي بكر وعامل عمر بن الخطاب(١).

وقيل ان علي بن ابي طالب بعدما لم يوافقوه في عبد الله بن عباس واشاروا عليه بابي موسى اراد ان يبعث الاشتر النخعي عنه حَكَما، فلم يوافقوه وقالوا، وهل سعّر الحرب وسعّر الارض الا الاشتر(٢).

والاشتر النخعي مثل ابي موسى يماني، وهذا دليل على ان يمانية ابي موسى الاشعري ليست هي المقصودة، ويبدو ان اختيار ابي موسى كان اختياراً لاتّجاهه واستمراراً لمطلب وقف القتال بين المسلمين وحلّ الخلاف عن طريق الصلح.

وفي مؤتمر التحكيم طرح الحكمان وجهات نظر اسلامية، انطلقت من الحرص على جمع الكلمة ووحدة الامة، فناقشا مسألة الخلافة، واتفقا على النظر فيمن يكون محل اجماع الامة واتفاقها، ولكنهما اختلفا حول تسمية من يقدّمانه للامامة ويختارانه للخلافة، وبنى اهل الشام على ذلك جواز استخلاف معاوية وتعلل بعض اهل العراق على علي بسبب التحكيم العللَ وخرجوا عليه، مما اضعف جانب علي كثيرا، ولكن ذلك لم يحسم المسألة لصالح معاوية وظل عليّ خليفةً حتى قتل عام ٤٠هـ.

وحتى هذا الحد لا نزال امام نتائج كانت جميعها افرازات آراء ومفاهيم ومواقف اسلامية متباينة، ومحصلة اجتهادات متفاوتة.

والى جانب عامل القتال بين المسلمين وتطوراته كان عامل الطلب بدم عثمان بعدًا آخر من أبعاد فهم وصول معاوية الى الخلافة.

---

(١) ابن اعثم/ الفتوح م٢ جـ٣-٤ ص١٩٣.

(٢) ابو حنيفة الدينوري/ الاخبار الطوال ص١٩٢، ابن كثير / البداية والنهاية جـ٧ ص٢٨٧، ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٥ ص٥١-٥٢.

فقد قتل عثمان بن عفان، وقام بنو امية بالحجاز يطلبون بدم عثمان منهم عبد الله بن عامر وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة ومروان بن الحكم وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ويعلي بن أمية وغيرهم من بني أمية(١)، ومما قاله الوليد بن عقبة من الشعر يحرّض به معاوية على الطلب بدم عثمان(٢):

والله ما هند بأمك ان مضى النهـــ ـــار ولم يثأر بعثمـــان ثائـــر

أيقتـــل عبـــد القوم سيد أهله ولم يقتلوه وليت أمك عاقر!

وأشعار أخرى قالها يحرّض فيها على الطلب بدم عثمان.

وقد يوصف تحرك بني امية في الطلب بدم عثمان بالقبلية، ولكن عثمان كان خليفة، وقتله قضية تهم المسلمين عامة، ولم يتحرك بنو امية في هذا الوجه وحدهم من دون الناس، فقد خرجوا مع طلحة وجمع كثير من المسلمين، وطَلَبَ بدم عثمان اهل الشام ومصر وغيرهم.

ومثلما اقام طلحة وصحبه حركة المطالبة بدم عثمان في العراق، اقامها في الشام معاوية، ومثلما كانت سابقة طلحة وصحبه ومكانتهم، وعضوية طلحة والزبير وعثمان في الشورى -شورى عمر- من اسباب التفاف من التف حولهم(٣)، كانت امرة معاوية واثره الطيب في ولايته وقرابته من عثمان من اسباب التفاف من التف حوله من اهل الشام وغيرهم، ومثلما كانت حركة المطالبة بدم عثمان بقيادة طلحة وصحبه تمثل بعدا اسلاميا كانت مثلها حركة المطالبة بدم عثمان في الشام بقيادة معاوية.

---

(١) ابو جعفر الطبري / تاريخه جـ٤ ص٤٥٠، ٥٢٠، ابن الاثير الكامل في التاريخ جـ٣ ص١٠٦.

(٢) انظر: ابن عساكر/ تاريخ دمشق، تحقيق سكينة الشهابي، ترجمة عثمان بن عفان ص٥٥٢-٥٥٣، نوري حمودي القيسي / شعراء أمويون قسم ٣ ص٤٦، ٤٧.

(٣) انظر: ابن عساكر/ تاريخ دمشق، تحقيق سكينة الشهابي، ترجمة عثمان بن عفان ٥٠٣ وما بعدها.

وهي جميعا مواقف صادرة عن اجتهادات متأولة، وقد اختلفت هذه الاجتهاد فاختلفت المواقف، وأصاب البعض وهو علي بن ابي طالب واخطأ غيره[1]، وكان الاولى، وقد بويع علي بن ابي طالب بالخلافة ان يتابع القوم ويبايعوه تجنبا للفرقة، وسفك الدماء، وكان يمكن في اجتماع الكلمة ووحدة الامة ان يكون خير كثير، ولكن طلحة وصحبه وقفوا مع شورى عمر بن الخطاب والطلب بدم عثمان وهي قيم اسلامية محضة، ووقف معاوية بن ابي سفيان يطلب بدم عثمان،واستفظع ان يقتل عثمان وان يعلو اتجاه الذين ثاروا عليه وان ينجو الذين قتلوه، ولم يرَ عليٌّ بن ابي طالب يزيدُ في قوله بصددهم عن: محاكمتهم اليه ليحملَهم واياهم على ما في كتاب الله وسنة نبيه، وانهضت الظروف وتطوراتها في نفسه الامارة، وجعل قول الرسول ﷺ اليه في ان الخلافة ستصير اليه طمأنينة لنفسه في سعيه للخلافة، فتحرك من غير تردد ولا اصغاء الى أحد.

وقد حفظ ابن عساكر[2]في كتابه تاريخ دمشق، نص رسالة موجهة من عبد الله بن عباس الى معاوية يعود تاريخها الى عام ٣٦هـ، جوابا على كتاب اليه من معاوية جاء فيها: من عبد الله بن عباس الى معاوية بن ابي سفيان، سلام عليك، فاني احمد اليك الله الذي لا اله الا هو، عصمنا الله واياك بالتقوى، أما بعد. . .فقد جاءني كتابك، فلم اسمع منه الا خيرا، وذكرت شأن المودة بيننا، وانك لعمرو الله، لمودود في صدري، من اهل المودة الخالصة والخاصة، واني للخلة التي بيننا لراع ولصالحها حافظ ولا قوة الا بالله.

(١) انظر: ابن حزم / الفصل في الملك والاهواء والنحل جـ٢٤٠-٢٤٢، ابن حجر فتح الباري جـ١٣ ص٧٢، ابن تيمية / منهاج السنة جـ٤ ص٣٩١-٣٩٤، ابن خلدون المقدمة، باب انقلاب الخلافة الى الملك جـ١ ص٢٥٩.

(٢) ابن عساكر / تاريخ دمشق، تحقيق شكري فيصل ورفاقه، تراجم حرف العين، ترجمة عبد الله بن حماد ص١٩٧-١٩٨.

أما بعد حفظ الله، فانك من ذوي النهى من قريش واهل الحلم والخلق الجميل منها، فليصدر رأيك بما فيه النظر لنفسك والتقية على دينك والشفقة على الاسلام واهله، فانه خير لك واوفر لحظك في دنياك وآخرتك، وقد سمعتك تذكر شأن عثمان بن عفان، فاعلم ان انبعاثك في الطلب بدمه فرقة وسفك للدماء وانتهاك للمحارم وهذا لعمر الله، ضرر على الاسلام واهله، وان الله سيكفيك امر سافكي دم عثمان فتأن في أمرك، واتق الله ربك، فقد يقال، انك تكيد الامارة (تحتال لها)، وتقول ان معك وصية من رسول الله ﷺ بذلك، فقول نبي الله الحق، فتأنّ في امرك، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول للعباس:

ان الله يستعمل من ولدك اثنى عشر رجل، منهم السفاح والمنصور والمهدي والامين والمؤتمن وأمير العصب، أفتراني استعجل الوقت أو انتظر قول رسول الله ﷺ، وقوله الحق، وما يرد الله من أمر يكن ولو كره العالم ذلك، وأيم الله لو أشاء لوجدت متقدما وأعوانا وأنصارا ولكني أكره لنفسي ما أنهاك عنه فراقب الله ربك واخلف محمدا في أمته خلافة صالحة، فأما شأن ابن عمك علي بن أبي طالب، فقد استقامت له عشيرتك وله سابقته وحقه ونحن له على الحق اعوان ونصحاء لك وله ولجماعة المسلمين والسلام عليك ورحمة الله.

والرواية كما ترى، تجعل هموم معاوية والعباسيين في طلب الخلافة لوصية كانت من رسول الله لكليهما، ولكنها تنكر ان تكون الوصية كما فعل معاوية سببا الى الفرقة وانتهاك المحارم.

وجرى ما جرى وافضت الحال الى صفين والتحكيم والنهروان والنخيلة، وتضعضع جانب علي بن ابي طالب، ولعل ابن عباس من خلال استقراء ما حدث قال قولته التي رويت عنه، قال ابن عباس: والله ليتأمرن عليكم معاوية وذلك ان الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل انه كان منصورا﴾[1].

---

(١) انظر: الهيثمي / مجمع الزوائد جـ٧ ص٢٣٦، ابن عساكر / تاريخ دمشق (نخطوط) جـ١٦ ص٧٠٦ ترجمة معاوية ابن ابي سفيان. =

ثم قتل علي بن ابي طالب على يد الخوارج، وقام ابنه الحسن بن علي مقامه ولكن الحسن آثر ان يتنازل عن الخلافة رغبة منه في الصلح بين طائفتين من المسلمين وحقن دمائهم،ووصل معاوية الى الخلافة من غير أن تكون شخصية المجتمع الاسلامي تبدلت ومفاهيمه وعقليته تغيرت ومعالمه انقلبت، وظلت الاستمرارية في خصائصه ومعالمه قائمة على تفاوت بين افراده قوة وضعفا، ولكنها ظلت قائمة في ركيزتيه القضائية والتنفيذية ومصونة في عقيدة الاسلام وشريعته.

الخلفاء

مـن بـنــي اميــة

الخلفاء من بني أمية:

تولى الخلافة في الفترة الممتدة من عام ٤١هـ/ ٦٦١م وحتى عام ١٣٢هـ/ ٧٤٩م أربعة عشر خليفة من بني أمية هم:

معاوية بن أبي سفيان	ربيع الأول	٤١هـ/ ٦٦١م-٦٠هـ/ ٦٧٩م
يزيد بن معاوية بن أبي سفيان	رجب	٦٠هـ/ ٦٧٩م- ٦٤هـ/ ٦٨٣م
معاوية بن يزيد بن معاوية	١٥ ربيع الأول	٦٤هـ/ ٦٨٣م-٦٤هـ/ ٦٨٣م
مروان بن الحكم	٣ ذي القعدة	٦٤هـ/ ٦٨٣م-٦٥هـ/ ٦٨٤م
عبد الملك بن مروان	٢٧ رمضان	٦٥هـ/ ٦٨٤م-٨٦هـ/ ٧٠٥م
الوليد بن عبد الملك	١٤ شوال	٨٦هـ/ ٧٠٥م-٩٦هـ/ ٧١٤م
سليمان بن عبد الملك	١٥ جمادى الأخرى	٩٦هـ/ ٧١٤م- ٩٩هـ/ ٧١٧م
عمر بن عبد العزيز	١٠ صفر	٩٩هـ/ ٧١٧م-١٠١هـ/ ٧١٩م
يزيد بن عبد الملك	٢٠ رجب	١٠١هـ/ ٧١٩م-١٠٥هـ/ ٧٢٣م
هشام بن عبد الملك	٢٦ شعبان	١٠٥هـ/ ٧٢٣م-١٢٥هـ/ ٧٤٢م
الوليد بن يزيد بن عبد الملك	٦ ربيع لثاني	١٢٥هـ/ ٧٤٢م-١٢٦هـ/ ٧٤٣م
يزيد بن الوليد بن عبد الملك	٢٧ جمادي لأخرى	١٢٦هـ/ ٧٤٣م-١٢٦هـ/ ٧٤٣م
إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	٧ ذي الحجة	١٢٦هـ/ ٧٤٤م-١٢٧هـ/ ٧٤٤م
مروان بن محمد بن مروان	١٤ صفر	١٢٧هـ/ ٧٤٤م-١٣٢هـ/ ٧٤٩م

وهؤلاء الخلفاء ليسوا سواء في السن حين تولوا منصب الخلافة، أو في ايامهم في منصب الخلافة، أو في قدراتهم الفردية، أو في كفايتهم وكفاية من شاركهم في تحمل المسؤولية، فعلى سبيل المثال، تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة وله اثنتان وستون سنة،

وتولاها مروان بن الحكم وله اثنتان وستون سنة مثل معاوية، وتولاها مروان بن محمد وهو ابن أربع وخمسين سنة، أما عبد الملك بن مروان فتولاها وله إحدى وأربعون سنة، واستخلف ابنه سليمان وله اثنتان وأربعون سنة، ولما استخلف كل من الوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك، كانوا في النصف الثاني من العقد الرابع من عمرهم، ومنهم من كان في العقد الثاني من العمر مثل معاوية بن يزيد بن معاوية الذي لم يستمر في الخلافة.

ومثلما تفاوتت أسنانهم غداة استخلافهم، تفاوتت أحكام الرواة فيهم بين الذكر والإغفال والثناء والذم.

قيل ولد معاوية بن أبي سفيان قبل البعثة بخمسين سنين ويكنى أبا عبد الرحمن، وأسلم يوم الفتح، وكتب الوحي للرسول ﷺ في جملة من كتبه بين يديه، وحدّث عن الرسول ﷺ، وروى الحديث عن أبي بكر وعمر وغيرهما، وروى عنه جرير بن عبد الله البجلي وأبو سعيد الخدري والنعمان بن بشير وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وغيرهم كثير[(١)].

استعان أبو بكر بمعاوية على جيش وجّهَه إلى الشام مدداً ليزيد بن أبي سفيان، وولاه عمر بن الخطاب بعض أجناد الشام، وجمعها عثمان بن عفان له، ونُسب إلى عمر أنه قال، تعجبون من دهاء هرقل وكسرى وتَدَعون معاوية، وروي عن عبد الله بن عمر أنه قال، ما رأيت أحداً اسود من معاوية، ولما سئل عن عمر بن الخطاب، قال: وأما عمر، فكان خيراً من معاوية، ولكن معاوية كان أسود من عمر[(٢)]، وكان معاوية أثقل الناس حلماً وابطأهم جهلاً وأبعدهم أناة، وروى عن عبد الله بن عباس أنه قال: ما رأيت أحداً

---

(١) انظر: صحيح مسلم في فضائل الصحابة، ابن قتيبة /المعارف، ص:١٥٢، البغدادي/ تاريخ بغداد، ١/٢٠٧، الذهبي /تاريخ الإسلام، حوادث ووفيات (٤١-٦٠هـ)، ص:٣٠٨، السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص:١٩٤.

(٢) الذهبي /تاريخ الإسلام، حوادث ووفيات (٤١-٦٠)، ص:٣١٣.

كان أحق بالمُلك من معاوية، لله دره، إن كان لحليماً، وإن كان الناس لينزلون منه بأرجاء واد خصب، لم يكن بالضيق المتعصب الحصوص[1] (الذي يُحاص في كل شيء)، ووسع الناس بأخلاقه وأفاض عليهم من بره وعطائه وشملهم بإحسانه فاجتذب قلوبهم وآثروه على الأهل والقرابات[2].

لقد وُصف معاوية بالعلم والعقل والقوة والحلم وجودة السياسة والتدبير والفصاحة والبلاغة وبذل المال وحب الرياسة، وكان طويلاً أبيض جميلاً مهيباً عريض الصدر، جهم الوجه، جاحظ العينين وافر اللحية يخضب بالحناء والكتم، ولما حضرته الوفاة، أوصى بنصف ماله أن يُردّ إلى بيت المال ليطيب له الباقي، لأن عمر بن الخطاب قاسم عماله، ومات عن سبع وسبعين سنة وقيل ثمان وسبعين سنة وقيل أكثر من ذلك، وكان مدة خلافته تسع عشرة سنة وأشهراً، وكان نقش خاتمه «لا قوة إلاّ بالله»[3].

وأما يزيد بن معاوية أبو خالد فولد عام ٢٥هـ، وولاه أبوه معاوية غزو الروم عام ٤٩هـ وقيل عام ٥٠هـ، وقيل غير ذلك، وبلغ في غزاته القسطنطينية، وكان معه في هذه الغزوة عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وأبو أيوب الأنصاري، ولما قفل يزيد من الغزو، ولاه معاوية إمارة الحج[4]، وكان من أهل الخطابة والأدب والشعر.

وصف يزيد ببعض الصفات السيئة من الفسق والفجور وشرب الخمور وإظهار الغناء والملاهي، وقرن بفرعون في البطش وسفك الدماء[5].

---

(١) الصنعاني، المصنف، ١١/ ٤٥٣، البلاذري أنساب الأشراف. ج٤، قسم ١، ص:٤٨.
(٢) المسعودي/ المروج، ٣/ ٤٥.
(٣) انظر: ابن قتيبة /المعارف، ص:١٥٢-١٥٣، البلاذري/أنساب الإشراف، ج٤، قسم١، ص٥١ ٨٣، ١٣١، أبو جعفر الطبري، تاريخه ٥/ ٣٣٠، ٣٣٦، ٣٣٧، المسعودي، مروج الذهب ٣/ ١١، ٤١، المسعودي /التنبيه والإشراف، ص:٢٧٧، الذهبي/سير أعلام النبلاء ٣/ ١١٩-١٦٢، السيوطي /تاريخ الخلفاء، ص: ١٩٤-٢٠٤.
(٤) انظر: خليفة بن خياط/ تاريخه، ص:٢١١، اليعقوبي، تاريخه ٢/ ٢٢٩، أبو جعفر الطري، تاريخه، ٥/ ٢٣٢.
(٥) المسعودي / مروج الذهب ٣/ ٧٧-٨١، التنبيه والإشراف، ص: ٢٧٩-٢٨١.

وهناك أخبار أخرى تأخذ جانباً مغايراً في الحديث عن يزيد، ومنها: ما قيل عن يزيد أنه قال لأبيه معاوية، أنه سيسير في الناس إذا ولي أمورهم سيرة عمر بن الخطاب[1]، وما روي عن عبد الله بن عباس أنه لما جاء نعي معاوية إلى مكة قال: «اللهم أوسع لمعاوية... وأن ابنه يزيد لمن صالحي أهله فالزموا مجالسكم وأعطوا طاعتكم وبيعتكم...»[2]، وقال أحد الصحابة حين استخلف يزيد، أن يزيد ليس بخير أمة محمد ولا أفقهها فقهاً ولا أعظمها شرفاً، ولكن أن تجتمع أمة محمد أحب إلي من أن تفترق[3]، ودعا عبد الله بن مطيع العدوي القرشي محمد بن الحنفية إلى خلع يزيد فأبى، فقال ابن مطيع، أن يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة ويتعدى حكم الكتاب، فقال ابن الحنفية ، ما رأيت منه ما تذكرون، وقد أقمت عنده فرأيته مواظباً للصلاة، متحرياً للخير، يسأل عن الفقه، قال ابن مطيع، كان ذلك منه تصنعاً ورياءً، ورفض عبد الله بن عمر أيضاً أن يخلع يزيد[4]، وهي أخبار لا ترفع يزيد إلى مصاف المقدمين من أهل الفضل والعدالة، ولكنها تجعله من مستوري الحال الذين تنطوي نفوسهم على محبة الخير للأمة والإخلاص في الولاية عليها.

ولعل الأحداث المؤلمة التي جاءت رداً قاسياً على المعارضة التي قادها الحسين بن علي ضد يزيد، ثم التي قادها أهل المدينة وعبد الله بن الزبير من بعد، جرّت إلى رمي يزيد بالصفات السيئة المنكرة التي سبق ذكرها.

فقد ذكر اليعقوبي أن سعيد بن المسيب كان يسمّي سني يزيد بن معاوية بالشؤم، في السنة الأولى قتل الحسين بن علي وأهل بيت رسول الله، والثانية استبيح حرم رسول الله وانتكهت حرمة المدينة، والثالثة سفكت الدماء في حرم الله وحرّقت الكعبة[5].

---

(١) ابن أبي الدنيا / الإشراف في منازل الأشراف، ص:١٢٧.

(٢) البلاذري / أنساب الأشراف، ج٤، ق٢، ص:٣-٤.

(٣) ابن سعد / الطبقات الكبرى ٧/ ٦٧.

(٤) الذهبي / تاريخ الإسلام، حوادث (٦١-٨٠هـ)، ص: ٢٧٤.

(٥) اليعقوبي / تاريخه ٢/ ٢٥٣.

وعندما تحدث المسعودي عن صفات يزيد ربط بينها وبين قتل الحسين وإظهار عبد الله بن الزبير الدعوة لنفسه وإظهار التنسك والتأله ودعوة أهل المدينة إلى معاضدته وإخراج عامل يزيد عنهم، وتنقّص يزيد ورميه بالفسق[١].

وذكر الأزرقي ما كان عبد الله بن الزبير يقوم به من عيب يزيد وشتمه وتثبيط الناس عنه، وَذْكرِ مساوىء بني أمية بين من كان يجتمع إليه من الناس، ولذلك حلف يزيد أن لا يؤتى بابن الزبير إلاّ مغلولاً[٢]. وبدا وكأن الذي جرى بين الآباء علي والزبير ومعاوية، عاد بين الأبناء الحسين وعبد الله ويزيد من جديد[٣].

وقد لام محمد الخضري يزيد بن معاوية، ورجاله الذين أسرفوا في معاملة المعارضين الثائرين بهذه المعاملة، وما أحدثوه من فتق وارتكبوه من جرم، ولكنه لم يبرىء جانب المعارضين الثائرين، ورأى أن مصلحة الأمة لم تقتض ما فعلوه، فقد بايع الناس يزيد، ولم يظهر منه عند الثورة عليه ذلك الجور ولا العسف الذي ينوء الناس بحمله، وطلبوا أمراً لم يعدّوا له عدته وألقوا بأيديهم إلى التهلكة[٤].

وقد صنّف ابن تيمية آراء الناس في يزيد أصنافاً ثلاثة، الأول يكفّره، والثاني يراه رجلاً صالحاً وإمام عدل ويرفعه إلى أعلى المراتب، وأما الثالث وهو الوسط وقول أهل العقل والعلم والسنة والجماعة فيذهب إلى أن يزيد كان ملكاً من ملوك المسلمين له حسنات وسيئات[٥].

---

(١) المسعودي / المروج ٣/ ٢٧٩-٢٨١.

(٢) الأزرقي / أخبار مكة ١/ ٢٠١-٢٠٢و ابو جعفر الطبري / تاريخه ٥/ ٤٧٦.

(٣) انظر: السيوطي / تاريخ الخلفاء، ص:٢٠٦، حيث قال معاوية لعمرو بن حزم، وأ,ه لم يبق إلاّ ابني وأبناؤهم، وابني أحق.

(٤) محمد الخضري، الأمم الإسلامية ٢/ ١٣٠، ١٣٢.

(٥) ابن تيمية / الفتاوى، ٤/ ٤٨١.

ومات يزيد عن ثمان وثلاثين سنة وقيل عن تسع وثلاثين سنة، بعد خلافة امتدت ثلاث سنين وشهوراً، وكان آدم شديد الأدمة عظيم الهامة بوجهه أثر جدري، وكان نقش خاتمه «ربنا الله»[1].

أما معاوية بن يزيد بن معاوية فكان يقال له أبو عبد الرحمٰن، وقيل أبو يزيد، وكان شاباً مريضاً، فلما آلت إليه الخلافة لم ير من نفسه القدرة على القيام بأعبائها وضعف عن حملها وتنازل عنها بعد عشرين يوماً وقيل أربعين يوماً وقيل بعد أشهر قليلة ثلاثة أو أربعة، وكُنّي أبا ليلى تقريعاً له لعجزه عن القيام بالأمر، وكانت العرب تفعل ذلك بالعاجز من الرجال وفيه قال الشاعر:

إني أرى فتنا تغلي مراجلها والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا

وكان ربعة من الرجال نحيفاً يعتريه صفار ومات عن عمر يتراوح بين سبع عشرة سنة وثلاث وعشرين سنة، وكان نقش خاتمه «بالله ثقة معاوية»[2].

وكان مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية يكنى أبا عبد الملك، وقيل أيضاً ابا الحكم، وولد في السنة الثانية من الهجرة، وقيل في الثالثة من الهجرة، وقيل يوم الخندق، ونشأ في المدينة وتتلمذ على علمائها، وروى الحديث عن بعض الصحابة مثل عمر وعثمان وعلي وزيد بن ثابت، وروى عنه سهيل بن سعد وسعيد بن المسيب وعروة ابن الزبير وغيرهم، وذكر في أهل العلم بالعربية والفتوى والفقه والقضاء، وقيل كان يتتبع قضاء عمر بن الخطاب، وعمل كاتباً لعثمان بن عفان في أثناء خلافته، ولم يحمد أثره أحياناً في توجيه العلاقة بين عثمان بن عفان والصحابة والناس، وقاتل عن عثمان يوم الدار، واشترك في معركة الجمل، ورمى بسهم فاصاب طلحة، ومات طلحة

---

(١) ابن قتيبة/ المعارف ص:١٥٣، أبو جعفر الطبري/ تاريخه ٤٩٩/٥، المسعودي /التنبيه والإشراف، ص: ٢٨٠-٢٨١.

(٢) انظر: ابن قتيبة/ المعارف، ص: ١٥٤، اليعقوبي /تاريخه ٢/ ٢٥٤، المسعودي /التنبيه والأشراف، ص: ٢٨١السيوطي /تاريخ الخلفاء ٢١٠-٢١١.

على أثر ذلك، وكان فعله هذا موبقة، ثم ولي المدينة لمعاوية بن أبي سفيان غير مرة، وكان في اثناء ولايته على المدينة يستعين بكبار الصحابة ويستشيرهم، ولم تطل أيام خلافته، ومات بعد تسعة أشهر من ولايته، وهو ابن ثلاث وستين سنة وقيل إحدى وستين، وقيل عملت زوجته أم خالد بن يزيد في قتله خنقاً وهو نائم، وقيل مات في الطاعون، وكان شجاعاً ذا مكر ودهاء، أحمر الوجه، كبير الرأس واللحية، ولقب «خيط باطل» لدقة عنقه، وقيل لأنه كان طويلاً مضطرباً، وكان نقش خاتمه «العزة لله» وقيل «آمنت بالله»، وأمثال ذلك[1].

وكان عبد الملك بن مروان يكنى أبا الوليد، ولد عام ٢٦هـ، ونشأ بالمدينة وكان من أكثر شبابها نسكاً وصلاة وعبادة وطلباً للفقه والعلم، سمع الحديث من عثمان بن عفان وأبي هريرة وابي سعيد الخدري ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الله بن عمر وغيرهم، وحدّث عنه عروة بن الزبير وخالد بن معدان ورجاء بن حيوة والزهري وآخرون، وكان من أهل العلم بالعربية والأنساب عاقلاً أديباً لبيباً عالماً فقيهاً، وعمل على ديوان المدينة في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

ووصف في أثناء خلافته بأنه ملك جبار، قوي الهيبة، شديد السياسة، نهى الرعية عن كثرة الحديث بحضرته ومراجعته، وكان من دهاة الرجال، متيقظاً في سلطانه، وحازماً في رأيه، يباشر الأمور مع أعدائه وأهل حربه بنفسه ولا يكلها إلى غيره، ومات عام ٨٦هـ بعد خلافة استمرت إحدى وعشرين سنة واشهراً وله من العمر ستون سنة،

(١) انظر: مالك /الموطأ، ٢/ ٤٩٥، ٥٥١، ٥٥٧، ٥٧٩، ٨٠٠، ٨٦٣، ابن قتيبة /المعارف، ص: ١٥٤-١٥٥، خليفة بن خياط /تاريخه ، ص: ٢٦٣، الصنعاني/ المصنف١/ ٢٦٣، ٤٣٦، ٤٣٧، ٣/ ٢٨٥، ٤/ ٤٣٨، ٥٠٦، ٦/ ٢٨٦، ٨/ ٣٥١، ٩/ ٢٤٣، ١٠/ ٤٦، ١٦١-١٦٢. ابن سعد /الطبقات الكبرى ٥/ ٣٥-٤٣. المسعودي /التنبيه والإشراف، ص: ٢٨٥، مروج الذهب ٣/ ٩٤، ابن حجر العسقلاني /تهذيب التهذيب، ج١٠، ترجمة مروان بن الحكم، ابن الاثير/ الكامل في التاريخ، ٣/ ٣٤٨. الذهبي /تاريخ الإسلام، حوادث (٦١-٨٠هـ)و ص: ٢٢٩، ميزان الاعتدال٤/ ٨٩، سير أعلام النبلاء ٣/ ٤٧٦-٤٧٩ ترجمة مروان بن الحكم.

وقيل ثلاث وستون سنة، وكان طويلاً أبيض،مقرون الحاجب، كبير العينين، مشرف الأنف، دقيق الوجه، حسن الجسم ليس بالنحيف ولا البادن، أبيض الرأس واللحية، وكان نقش خاتمه، «آمنت بالله مخلصاً»[١].

وكان الوليد بن عبد الملك بن مروان يكنى ابا العباس، ولد عام ٤٥هـ، وقيل كان قليل العلم، ولكنه كان يحض على طلب العلم، ويعطي على حفظ القرآن وتعليمه ويعاقب على عدم حفظه، ويصوم الاثنين والخميس، ويختم القرآن في كل ثلاث، وختم في رمضان سبع عشرة ختمة، وكان من أفضل خلائف بني أمية عند أهل الشام لكثرة إحسانه إليهم، وكان عنده في خلافته عسف وجبروت، وكان يقول: لا ينبغي لخليفة أن يُناشَد ولا يُكذَّب ولا يسميه أحد باسمه، وعاقب على ذلك.

امتدت خلافة الوليد عشر سنين إلاّ أشهراً، وكان عمره عند وفاته إحدى وخمسين سنة، وقيل أقل من ذلك، وكان طوالاً أسمر مترفاً دميماً سائل الأنف، بوجهه أثر جدري خفي، ويتبختر في مشيته، وكان نقش خاتمه «يا وليد إنك ميت»[٢].

وكان سليمان بن عبد الملك بن مروان يكنى أبا أيوب، ولد عام ٦٠هـ في المدينة ، وقضى طفولته في البادية عند أخواله العبسيين، وتثقف بعلوم القرآن والحديث والمغازي واللغة والأدب والأخبار وفاز بحظ وافر، وروى الحديث ورُوي عنه، وكان فصيح

(١) انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص:١٥٥، اليعقوبي، تاريخه ٢/ ٢٨٠، أبو جعفر الطبري، تاريخه ٦/ ٤١٨-٤١٩، المسعودي /التنبيه والإشراف، ص:٢٨٨-٢٨٩، البغدادي/ تاريخه ١٠/ ٣٨٩-٣٩١، ابن الأثير الكامل في التاريخ ٤/ ١٠٢-١٠٤. ابن حجر العسقلاني /تهذيب التهذيب، ج٦، ترجمة عبد الملك بن مروان، الذهبي، سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٤٦-٢٤٩، السيوطي/ تاريخ الخلفاء، ص:٢١٦-٢٢٠.

(٢) انظر: خليفة بن خياط، تاريخه ص٣٠٩، اليعقوبي /تاريخه، ٢/ ٢٩٠، أبو جعفر الطبري، تاريخه ٦/ ٤٩٦-٤٩٩، المسعودي /التنبيه والإشراف، ص:٢٩٠-٢٩١، ابن الأثير /الكامل في التاريخ ٤/ ١٣٧-١٣٨. الذهبي /تاريخ الإسلام -حوادث ووفيات (٨١-١٠٠هـ)، ص: ٤٩٦-٥٠٠، سير أعلام النبلاء، ٤/ ٣٤٨-٣٤٩و ابن الطقطقا /الفخري، ص:١٢٧، السيوطي/ تاريخ الخلفاء، ص:٢٢٣.

اللسان ومن أفصح خلفاء بني أمية، كثير الأدب مفوّهاً، كثير الورع، حسن الصلاة كثير الصدقة، ديّناً، يحب الحق وأهله، ويتّبع القرآن والسنة ويحرص على إحياء الشريعة، ليّن الجانب ومن خيار بني أمية.

وولي سليمان جند فلسطين ايام أبيه وأخيه الوليد، وقاد الحج عام ٨١هـ، وكان في خلافته مؤثرا للعدل ولا يستنكف عن مشورة النصحاء، ولا يعجل إلى سفك الدماء، شجّع العلم وقرّب العلماء وأكرمهم وعظّمهم، وكان يجلسهم معه على سريره، ويسألهم ويستمع إلى مواعظهم ونصائحهم ويستفتيهم، وكان ينهى الناس عن الغناء ويعاقب عليه، وقيل كان نكّاحاً أكولاً نهماً، وورد عنه في هذا الباب أخبار كثيرة لا تخلو من المبالغة والتهويل، ووصفت ايامه بالإقبال على الزواج والمآكل واللباس، وأثنى على أيام خلافته، فقيل افتتحت بخير وختمت بخير، أطلق الأسارى، وخلّى السجون، وأحسن إلى الناس واستخلف عمر بن عبد العزيز.

ومات سليمان بعد خلافة استمرت سنتين وثمانية أشهر، واختلفت الروايات في مبلغ عمره اختلافاً كثيراً، ولعل ارجحها أنه مات عن تسع وثلاثين سنة، وكان طويلاً أبيض قضيف البدن (نحيف)، كبير الوجه مقرون الحاجبين، جعد الشعر أسود الراس واللحية لم يشب، فيه حسد وغيرة، وكان نقش خاتمه «آمنت بالله»[1].

وكان عمر بن عبد العزيز بن مروان يكنى أبا حفص ولد عام ٦١هـ وقيل ٦٣هـ، بحلوان في مصر في أثناء ولاية أبيه عبد العزيز عليها، وبعث به ابوه إلى المدينة لطلب العلم والتأدب بآدابها، فتثقف وتأدب وجمع القرآن وهو صغير، وفقه، وروى الحديث

(١) انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص:١٥٧-١٥٨، خليفة بن خياط /تاريخه، ص:٢٨١، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣١٦، اليعقوبي، تاريخه ٢/٢٩٨، ٢٩٩، البلاذري /أنساب الاشراف، ق٤، ١/٣٦٢، أبو حنيفة الدينوري/ الأخبار الطوال، ص:٣٢٩-٣٣٠، أبو جعفر الطبري، تاريخه ٦/٥٤٦، ٥٤٧، المسعودي /التنبيه والإشراف، ص:٢٩١، المروج ٣/١٨٤-١٨٧، الذهبي، سير اعلام النبلاء ٥/١١١-١١٣، ابن القطقطا /الفخري، ص:١٢٨، السيوطي /تاريخ الخلفاء، ص:٢٢٥-٢٢٨. =

عن أبيه وأنس وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وغيرهم، وروى الحديث عن محمد ابن المنكدر والزهري ومسلمة بن عبد الملك ورجاء بن حيوة وخلق كثير، وقيل كان العلماء عنده تلامذة، وكان من ثقات التابعين، ومن أهل الورع والتقى، كثير الصلاة والصيام والقيام وكانت صلاته أشبه بصلاة الرسول ﷺ.

ولي المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك، وكان في خلافة سليمان كالوزير له، وعندما استخلف سار سيرة مرضية، وقام باعباء الخلافة قياماً محموداً، وتحرّى العدل والاقتداء بعمل عمر بن الخطاب، فافتتح خلافته بأن نصّب نفسه للمظالم، وبدأ ببني أمية، وانتزع كثيراً مما كان في أيديهم من الأموال وسمّاها مظالم، وشدّد عليهم فتبرموا به، وقيل دبّروا له من سقاه السّم، وكان قبل الخلافة مفرطاً في التنعم والاختيال في المشية، فترك ذلك كله، وأخذ نفسه وأهل بيته بالاقتصاد في النفقة والمأكل والملبس والزهد في ملاذ الحياة الدنيا، وحبس نفسه على ما يصلح الرعية، فقيل كان نجيب بني أمية ومن أعدلهم، وعدّ خامس الخلفاء الراشدين، ومات عمر بن عبد العزيز بعد سنتين وخمسة أشهر من استخلافه عن عمر تجاوز التاسعة والثلاثين بأشهر، وكان أبيض، وقيل أسمر، رقيق الوجه، جميلاً، نحيف الجسم، حسن اللحية، غائر العينين، وَخَطَهُ الشيب، بجبهته أثر حافر دابة، ولذلك سمي أشجّ بني أمية، وكان نقش خاتمه «لكل عمل ثواب»، وقيل «عمر يؤمن بالله مخلصاً»(١).

---

(١) انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص:١٥٨-١٥٩، خليفة بن خياط /تاريخه ، ص:٣٢١-٣٢٢، ابن عبد الحكم /سيرة عمر بن عبد العزيز،ص:٢٤-٢٦، ٢٣، ٤٥-٥٠، ٥٨، ٦١، ٨٠، ومواضع أخرى. اليعقوبي، تاريخه ٣٠٨/٢، أبو جعفر الطبري، تاريخه ٥٦٦/٦-٥٦٧. الإمامة والسياسة ٩٦/٢و المسعودي /التنبيه والاشراف، ص:٢٩٢، المروج ١٩٢/٣، ابن حجر العسقلاني /تهذيب التهذيب، ٤١٨/٧، ترجمة عمر بن عبد العزيز، الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث (١٠١-١٢٠)، سير أعلام النبلاء ١١٥/٥، ترجمة عمر بن عبد العزيز، ابن الطقطقا/ الفخري، ص:١٢٩-١٣٠، السيوطي/ تاريخ الخلفاء، ص:٢٢٨-٢٤٥.

وكان يزيد بن عبد الملك بن مروان يكنى أبا خالد، ولعل عام ٧٢هـ أرجح الأقوال في ولادته، وكان موضع اهتمام أبيه عبد الملك شأنه شأن أخوته الآخرين، فأوكل تعليمه وتأديبه إلى أفاضل العلماء أمثال اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، وأوصاهم أن يأخذوه بتعلّم العربية والقرآن الكريم وتفسيره، والحديث وروايته وحفظه، ويحضّوه على مكارم الأخلاق، وقد أصاب من ذلك حظاً طيباً، وكان يقول الشعر شأن أكثر خلفاء بني أمية ويحضر حلقات العلم والدرس ويجتمع إليه العماء، وجمع في النسب بين بني حرب من جهة أمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية وبني مروان من جهة أبيه عبد الملك.

اتهم يزيد في أثناء خلافته بالانشغال عن أمور الخلافة بالغناء واللهو والللذات، ووصف بالمجون والخلاعة، والانقطاع إلى حبابة وسلامة والاحتجاب عن الناس، وقيل لما ماتت حبابة جزع جزعاً شديداً ومات عشقاً وصبابة، وبذلك يكون يزيد قد قرف بما قرف به جده لامه يزيد بن معاوية، وسيتهم بالتهمة إياها وأكثر ولده الوليد بن يزيد من بعد.

ومثلما شهدت أيام يزيد بن معاوية مقتل الحسين بن علي وآل بيته في كربلاء، شهدت أيام يزيد بن عبد الملك مقتل آل المهلب في العقير قرب كربلاء بعدما ثاروا على يزيد وخلعوه، وكان آل المهلب من الأجواد وعطاياهم في الناس مذكورة، وقد أشار الكلبي إلى هاتين الواقعتين فقال، نشأت وَهُمْ (أي الناس) يقولون، ضحى بنو أمية يوم كربلاء بالدين، ويوم العقير بالكرم(١)، وهي إشارة إلى ما خلَّفت هاتان الحادثتان في الذاكرة الشعبية من انطباعات عن يزيد بن معاوية ويزيد بن عبد الملك، وما نسج حولهما بهذا السبب من قصص وأخبار.

وقد جاء في الإمامة والسياسة عن يزيد بن عبد الملك، أنه كان قبل ولايته محبوباً في قريش بجميل مأخذه في نفسه وهديه وتواضعه وقصده، وكان الناس لا يشكّون إذا صار إليه الأمر أن يسير بسيرة عمر (عمر بن عبد العزيز) لما ظهر منه، فلما صارت إليه

---

(١) السيوطي / تاريخ الخلفاء، ص: ٢٤٧.

الخلافة سار بسيرة الوليد أخيه، واحتذى على مثاله، وأخذ مأخذه، حتى كأن الوليد لم يمت، فعظم ذلك على الناس(١).

ومما شكى الناس منه أنه مسح السواد وأضرّ بأهل الخراج(٢)، وهي أخبار تشير وغيرها على اتهام يزيد بالشدة، وفي دراسة عن خلافة يزيد بن عبد الملك، تبين أن اتهامه بالتفريط في أمور الدولة وتضييع مصالح الناس كان مخالفاً للواقع، وقولاً بعيداً عن الحيدة والنزاهة(٣).

ومرض يزيد بالسل، ومات بعد خلافة استمرت أربع سنين وشهراً وله من العمر أربع وثلاثون سنة أو خمسة وثلاثون، وقيل غير ذلك، وكان طويلاً جسيماً أبيض مدور الوجه أسود الرأس واللحية لم يشب، شديد الفخر ظاهر الكبر، وكان نقش خاتمه «قنى الحساب»(٤).

وكان هشام بن عبد الملك بن مروان يكنى ابا الوليد، ولد بعد السبعين للهجرة في دمشق، ونشأ نشأة أخوته في طلب العلم والثقافة، وله أشعار وخطب.

كان هشام محمود السيرة عاقلاً حازماً عفيفاً حليماً ومن أشد الخلفاء كرهاً لسفك الدماء، وكان سائساً متيقظاً في سلطانه ويباشر الأمور بنفسه، وهو أحد الثلاثة المشهورين من سواس بني أمية وهم معاوية وعبد الملك وهشام، وكان حريصاً على جمع المال

---

(١) الإمامة والسياسة، ٢/١٠٣.

(٢) اليعقوبي، تاريخه ٢/٣١٣.

(٣) انظر: محمود المومني /خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

(٤) من أجل أخبار يزيد بن عبد الملك، أنظر: ابن قتيبة/المعارف، ص:١٥٩، خليفة بن خياط/ تاريخه، ص: ٣٣١، اليعقوبي/ تاريخه ٢/٣١٣، ابو حنيفة الدينوري/الأخبار الطوالو ص: ٣٣٤، ابو جعفر الطبري /تاريخه ٧/ ٢٢-٢٤، المسعودي /المروج ٣/٢٠٧-٢١٠، التنبيه والإشراف، ص:٢٩٣، ابن الطقطقا /الفخري، ص:١٣١، الإمامة والسياسة ٢/١٠٣-١٠٤، الذهبي/ سير أعلام النبلاء ٥/ ١٥٠-١٥٢ ترجمة يزيد بن عبد الملك.

وتوفيره واستثمار الأرض لإيمانه بأن المال للدولة كالدواء للمريض، ومع هذا الحرص على المال قيل كان لا يدخل بيت المال شيء من المال حتى يحلف أربعون قسامة بأن المال أخذ من حقه وأعطى الناس حقوقهم، ونظراً لما ظهر عليه من الحرص على المال رمي بالبخل، وكان فيه فظاظة وغلظة وشدة على أهل اللهو والغناء، وفيه ظلم مع عدل، وكان أبو جعفر المنصور في أكثر أموره وتدبيره وسياسته متبعاً لهشام في أفعاله.

أصيب هشام بورم في الحلق، ومات عن أربع وخمسين سنة تقريباً. وامتدت خلافته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر، وكان ربعة من الرجال حسن البدن جميلاً ابيض سميناً أحول يخضب لحيته بالسواد وكان نقش خاتمه «الحكم للحكيم»(١).

وكان الوليد بن يزيد بن عبد الملك يكنى أبا العباس، ولد عام ٨٨هـ، ونشأ في رعاية أبيه الذي دفع به إلى المؤدبين، وكان منهم عبد الصمد بن عبد الأعلى، وقد مهر الوليد في الشعر، وكان شاعراً محسناً، وتولى في أثناء خلافة هشام إمارة الحج لعام ١١٦هـ، وكان هشام له أول الأمر مكرماً ومقّرباً، ثم أخذ من بعد ذلك يعمل على خلعه من ولاية العهد وتعيين ولده مكانه، وكثرت في خلافة هشام الشائعات حول الوليد، وكان موضوعها اتهام الوليد بالمجون والتهاون بالدين والاستخفاف به والانغماس في اللهو والشراب والصيد وغيرها من الاتهامات الشنيعة.

ثم استخلف الوليد، وافتتح خلافته بالإحسان إلى أهل المدينة والشام والناس جميعاً، وزاد الرواتب، ولكنه اشتد في عقوبة الذين طابقوا هشام بن عبد الملك على خلعه، وأساء معاملة بني عمومته، وتحرك بنو عمه ضده، سيما وقد آلت الخلافة من أبناء

---

(١) انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص: ١٥٩-١٦٠، خليفة بن خياط /تاريخه ص:٣٥٧، اليعقوبي، تاريخه ٢/٣١٦-٣٢٦، أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، ص: ٣٤٦، أبو جعفر الطبري، تاريخه ٧/ ٢٠٠-٢٠٥، المسعودي /التنبيه والإشراف ٢٩٥و المروج ٣/٢١٧-٢١٩، الإمامة والسياسة ٢/ ١٠٤، ابن القطقطا، الفخري ص: ١٣٢، الذهبي /سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٥١-٣٥٣، ترجمة هشام بن عبد الملك، السيوطي /تاريخ الخلفاء ص:٢٤٧-٢٤٩، الكبيسي/ هشام بن عبد الملك، ص: ٤٠-٨٨.

عبد الملك إلى أحفاده، وبايع الوليد بن يزيد لولديه من بعده، فسعى أبناء الوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك في العمل ضده والإطاحة به، ورموه بما لم يرم به خليفة أموي من قبل، واتهموه بالكفر والإلحاد والزندقة وركوب الفواحش وإهمال أمور الدولة، وحرضوا الناس ضده، ثم قادوا الثورة عليه وقتلوه عن عمر يبلغ الثامنة والثلاثين بعد سنة وشهرين من استخلافه، وكان من فتيان بني أمية وشجعانهم وأجوادهم ومن أجمل الناس(١).

وكان يزيد بن الوليد بن عبد الملك يكنى أبا خالد، ولد بدمشق عام ٩٦هـ، وكان يظهر التنسك، ونسب إلى القدرية، وكان القدرية يُفضّلونه في الديانة على عمر بن عبد العزيز، وسمي «الناقص» لأنه نقص الزيادة التي كان الوليد بن يزيد زادها للناس، وكان محمود السيرة مرضياً معروفاً بالعدل، ومات بالطاعون بعد خمسة أشهر أو ستة من قيامه بالخلافة عن عمر يبلغ الثلاثين عاماً، وقيل أكثر من ذلك، وكان رجلاً جميلاً أحول أسمر طويلاً صغير الرأس وبوجهه خال وفي فمه بعض السعة(٢).

وكان إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك يكنى أبا اسحاق، وكان له اهتمام برواية الحديث، ولم يتم له أمر، وقيل مكث في الولاية شهراً ونصف الشهر وقيل سبعين ليلة، فكان يسلّم عليه جمعة بالخلافة، وجمعة بالإمرة، وجمعة لا يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالإمرة، وقدم مروان بن محمد واستولى على الخلافة(٣).

---

(١) انظر: ابن قتيبة /المعارف ص:١٦٠، خليفة بن خياط /تاريخه ٣٦٣، اليعقوبي /تاريخه ٢/ ٣٣١-٣٣٤، أبو جعفر الطبري ٧/ ٢٣١-٢٥٤، المسعودي /المروج، ٣/ ٢٢٥-٢٣٢، ابن الطقطقا / الفخري، ص: ١٣٤-١٣٥، السيوطي / تاريخ الخلفاء، ص: ٢٥٠-٢٥٢، محمد بطاينة/ دراسات وبحوث في التاريخ الإسلامي، ص: ١٥٥-١٩٤.

(٢) انظر: ابن قتيبة، المعارف ص: ١٦٠، خليفة بن خياط/ تاريخه ص: ٣٦٨-٣٦٩، اليعقوبي/ تاريخه ٢/ ٣٣٥، أبو جعفر الطبري/ تاريخه ٧/ ٢٩٨، المسعودي/ المروج ٣/ ٢٣٣-٢٣٩، الذهبي/ سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٧٤-٣٧٥، ترجمة يزيد بن الوليد بن عبد الملك، ابن الطقطقا/ الفخري، ص: ١٣٦، السيوطي/ تاريخ الخلفاء ص: ٢٥٢-٢٥٣.

(٣) انظر: أبو جعفر الطبري/ تاريخه ٧/ ٢٩٩، الذهبي/ سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٤-٣٥، ترجمة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك. =

وكان مروان بن محمد بن مروان بن الحكم يكنى أبا عبد الملك، ولد بالجزيرة سنة اثنتين وسبعين للهجرة في أثناء ولاية أبيه عليها، وكان يقال له مروان الجعدي نسبة إلى مؤدبه الجعد بن درهم، وقيل لقب بالحمار، لأن العرب تسمي كل مائة سنة حماراً، فلما قارب ملك بني أمية مائة سنة لقبوا مروان بالحمار، وأخذوه من قوله تعالى في موت حمار العزيز، قال تعالى: ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وقيل لأنه كان يحب أكل الفاونيا وتسمى وردة الحمار، وقيل لصبره في الحروب ومواصلة قتال الخارجين عليه[١]، ولعل ذلك أرجح الأقوال.

كانت أيام مروان كلها فتن وحروب حتى شغلته عن الطيب والنساء، وقتل من قبل العباسيين عام ١٣٢هـ عن عمر يبلغ الستين عاماً وقيل أكثر، واستمرت خلافته خمس سنين وأشهراً، وبمقتله انتهت دولة الأمويين في المشرق.

كان مروان شديد الشهلة أبيض مشرباً بحمرة، ضخم الهامة والمنكبين، كبير اللحية، صاحب تجربة وصبر على الحروب شجاعاً سخياً، وكان نقش خاتمه «فوضت أمري إلى الله»[٢].

وفي خاتمة الحديث الموجز عن سيرة الخلفاء من بني أمية، أشير إلى أن الصفات الخُلقية والخلقية للفرد قد تؤثر في مسلكه القيادي والإداري ورعاية مصالح الناس، ولكن سيرة الخلفاء الأمويين لم تسلم أبداً من أثر الدعوات المناوئة لهم وهجومها

(١) انظر: ابن قتيبة/ المعارف، ص: ١٦٠-١٦١، خليفة بن خياط/ تاريخه ص: ٤٠٩، اليعقوبي/ تاريخه ٢/٣٤٦، أبو جعفر الطبري/ تاريخه ٧/٤٤١-٤٤٣، المسعودي/ التنبيه والأشراف، ص: ٣٠٠، المروج/٣/٢٤٧،٢٥٦-٢٦٣، ابن الطقطقا/ الفخري، ص: ١٣٨-١٤٧، السيوطي/ تاريخ الخلفاء، ص: ٢٥٤-٢٥٥، فلهوزن/ تاريخ الدولة العربية، ص: ٢٥٧.

(٢) انظر: ابن قتيبة/ المعارف، ص: ١٦٠-١٦١، خليفة بن خياط/ تاريخه ص: ٤٠٩، اليعقوبي/ تاريخه ٢/٣٤٦، أبو جعفر الطبري/ تاريخه ٧/٤٤١-٤٤٣، المسعودي/ التنبيه والأشراف، ص: ٣٠٠، المروج/٣/٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٦-٢٦٣، ابن الطقطقا/ الفخري، ص: ١٣٨-١٤٧، السيوطي/ تاريخ الخلفاء، ص: ٢٥٤-٢٥٥، فلهوزن/ تاريخ الدولة العربية، ص: ٢٥٧.

علي أشخاصهم، طعناً منها بأهليتهم في الخلافة، وبلغ الحال ببعضها كالدعوة العباسية مثلاً، أن قامت حال وصولها إلى سدة الحكم بنبش قبور بعض أموات الخلفاء الأمويين، وقتل كثير من أحيائهم، وهذا إشارة إلى نوع العلاقة بين الجانبين، ومعلوم أن الإساءة بالقول والقلم أسهل من الإساءة بالفعل والعمل، وقد ذكر المسعودي أنه رأى كتاباً في سنة ٣٢٤ هـ بمدينة طبرية من بلاد الأردن من أرض الشام عند بعض موالي بني أمية ممن ينتحل العلم والأدب ويتحيز للأمويين، وعنوان الكتاب «البراهين في إمامة الأمويين»، ويتألف الكتاب من ثلاثمائة ورقة، ويتحدث عن ما طوي من فضائل الأمويين(١).

وإضافة إلى ذلك، لم تكن قيادة الأمويين للدولة قيادة فردية خالصة، فاللامركزية في الحكم والإدارة في الأغلب، ومشاركة الرجال من أهل الرأي والخبرة في حمل المسؤولية والقيام بأعباء الدولة في السلم والحرب وفي المركز والولايات، ووجود الإسلام في حياة الفرد والمجتمع والدولة سلوكاً ونظام حكم منذ عصر الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، تقلل من مظهر القيادة الفردية ومساوئها، وتعزز مظهر الشورى وغلبة الاتجاه العام الثابت في السياسة والقيادة والإدارة وتصريف الأمور ورعاية المصالح، ولهذا فإن ما وصف به خلفاء بني أمية لايمثل العامل الوحيد في تفسير مظاهر النجاح والفشل في سياسة بني أمية.

طريقة اختيار الخلفاء من بني أمية:

رأينا من قبل أن معاوية لما قتل عثمان وبويع علي بالخلافة قام يطالب بدم عثمان ورفض أن يبايع علياً، ثم دعا إلى جعل الخلافة شورى بين المسليمن، ولم يعتدّ باختيار أهل المدينة الخليفة وحدهم دون أهل الأمصار، ولما جرى التحكيم وقضى الحكمان بخلع عليّ واختيار خليفة للمسلمين، بايع أهل الشام معاوية خليفة بعد أن كان يدعى عندهم «الأمير»(٢)، ولما قُتل علي وبويع ولده الحسن بالخلافة من بعده، دخل معاوية

(١) انظر: المسعودي / التنبيه والإشراف، ص: ٣٠٧.

(٢) البغدادي، تاريخ بغداد ١/ ٢١٠.

العراق على الحسن تحت طائلة القوة والحفاظ على وحدة الجماعة، وانتهت مفاوضات الصلح بين الجانبين إلى تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، وبايع الحسن ومن كان في طاعته معاوية بالخلافة، وبذلك جاءت خلافة معاوية بطريق الاختيار من أهل الشام وبالغلبة والإذعان من أهل العراق، وانتهت إلى الرضا به والتسليم له من جميع الأمة عدا الخوارج[١].

وأخذ معاوية في أثناء خلافته يفكر في من سيخلفه، ويتحدث مع من يفد إليه من وجوه الناس وأَشرافهم وشيوخ ورؤساء القبائل عما وقع من الاختلاف بسبب الخلافة، وما جرّه على الأمة من سفك دمائها وشق عصاها وتفريق ملأها[٢]، وكان يعلم أثر حديثه في نفوس هؤلاء الناس الذين عاشوا الفتنة وويلاتها، وما كان يحدّثهم بذلك ألاّ ليحملهم على التفكير بطريق النجاة واختيار من يخلفه بعد الممات، وهو طريق لم يكن يعارضه أحد، سيما وأن الخلفاء الذين سبقوا عهدوا عند آخر عهدهم بالدنيا إلى من سيخلفهم بعد وفاتهم، وقيل خاطب أهل الشام وقال، «إن أمير المؤمنين، قد كبرت سنّه، ورقّ عظمه، واقترب أجله، ويريد أن يستخلف عليكم فمن ترون؟»[٣].

ردّت بعض الروايات البداية الأولى لتسمية من سيخلف معاوية إلى المغيرة بن شعبة الذي طرح فكرة البيعة ليزيد خوفاً علىالأمة من الاختلاف وسفك الدماء، بينما كان المغيرة بحسب الرواية يرمي من وراء ذلك إلى الاحتفاظ بمنصب ولاية الكوفة[٤]، وعزو الفكرة إلى المغيرة لا يُخْلي جانب معاوية من التدبير لها ابتداء، ولو كان معاوية كارهاً لبيعة يزيد لأعرض عما أشار به المغيرة وأمثاله وما نفّذه، وإن كان للمغيرة من أثر، ولم يكن قد مات قبل البيعة ليزيد، فيكون شأنه في تأييد معاوية والمشاركة في تنفيذ البيعة شأن غيره من رجالات الدولة الذين أيدوا وشاركوا في هذا الجانب.

(١) الخضري / تاريخ الأمم الإسلامية ٢/ ١٠٠.

(٢) ابن عساكر/ تاريخ دمشق ١٩/ ١٩٧ ترجمة بن عبيد.

(٣) ابن أبي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص: ١٧٢.

(٤) أبو جعفر الطبري، تاريخه ٥/ ٣٠٢.

كان معاوية يربّص لابنه يزيد ما يربّص من الخلافة[1]، فولاه أميراً على الجيش الذي وجهه إلى غزو القسطنطينية، وبعد أن رجع من الغزو ولاه إمارة الحج، ولكنه كان يتخوّف نفرة الناس، ويتهيّب من كان يرشح نفسه للخلافة من أبناء بيته وأبناء الصحابة من قريش[2].

ولذلك كان يواصل إعداد العدة للأمر، ويستشير ولاته ورجال دولته ويستعين بهم في تذليل العقبات وتهيئة الأجواء لأخذ البيعة ليزيد.

ومما يذكر في هذا الجانب، أن الشاعر ربيعة بن عامر الدارمي المعروف بـ «مسكين الدارمي»، وكان ممن يؤثره يزيد ويصله، أنشد في مجلس معاوية، وكان المجلس حافلاً ويحضره وجوه بني أمية، فقال:

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد

بني خلفاء الله مهلاً فإنما ... يبوئها الرحمٰن حيث يريد

إذا المنبر الغربي خلّاه ربُّه ... فإن أمير المؤمنين يزيد

فقال معاوبة، ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله، ولم يتكلم أحد من بني أمية إلاّ بالإقرار والموافقة[3].

وحضرت وفود الأمصار إلى دمشق، فاستقبلهم معاوية وتكلم فيهم، وأعلمهم رغبته في تولية يزيد عهده، وبعد أن فرغ من كلامه، قام الضحاك بن قيس الفهري، فذمّ الاختلاف والفرقة، وحضّ على الجماعة والألفة، وذكر يزيد بحسن المذهب والسيرة

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٩/١٩٧، ترجمة زياد بن عبيد.

(٢) أبو جعفر الطبري، تاريخه ٥/٣٠٢، الأصفهاني، الأغاني، ٢٠/١٧٥-١٧٦ أخبار مسكين الدارمي.

(٣) ابن قتيبة، الشعر والشعراء ١/٤٥٥، أخبار مسكين الدرامي، الأصفهاني، الأغاني ٢٠/١٧٥-١٧٥، أخبار مسكين الدرامي.

ويمن النقيبة وأنه شبه أبيه معاوية في عقله وسياسته، وأنه بهذه الخصال رضى لأمور المسلمين وولايتهم، ودعا معاوية إلى توليته والعهد له وطابقه الذين تكلموا من بعده وطالبوا معاوية بتولية يزيد(١)، ولما وقع تردد وكلام حول بيعة يزيد في هذا الجمع، قام رجل من أهل الشام يقال له يزيد ين المقنّع العذري، فاخترط شبراً من سيفه وقال، أمير المؤمنين هذا، واشار بيده الى معاوية، فإن مات، فهذا، واشار بيده إلى يزيد، فمن أبى فهذا، وأشار بيده إلى سيفه، فقال له معاوية، أنت سيد الخطباء(٢). واستوسق الناس لمعاوية على البيعة ليزيد، وقيل أقعد معاوية يزيد في قبّة حمراء، وجعل الناس يسلمون على معاوية، ثم يميلون إلى يزيد، حتى جاء رجل فقال، يا أمير المؤمنين، اعلم أنك لو لم تولِّ هذا أمور المسلمين لأضعتها(٣).

وبعد أن تمت البيعة بالشام ليزيد، أنفذت الكتب ببيعته إلى الأمصار وطلب إلى الولاة هناك أن يأخذوا الناس بالبيعة له(٤).

وأما بالنسبة للحجاز، فذكرت بعض الروايات(٥)أن معاوية ذهب إلى هناك حاجاً، واراد في وجهه هذا أن يأخذ بيعة الناس لابنه يزيد، ولكن هذه الروايات لا تحددالمكان الذي جرت الأحداث فيه، فهو المدينة تارة، ومكة تارة أخرى، وبحسب هذه الروايات، التقى معاوية ببعض أبناء الصحابة من قريش منهم عبد الله بن عمر والحسين بن علي وعبد الرحمٰن بن أبي بكر وعبد الله بن الزبير، وهم، على تفاوت بينهم، ممن لا يطيب بالبيعة ليزيد نفساً، فبالغ في إكرامهم ووصلهم بالأموال، ثم استدعاهم فرادى، وحدّثهم وحذّرهم عاقبة الاختلاف والفتنة، وحبّب إليهم الجماعة، وذكر لهم ابنه يزيد أخاهم

---

(١) المسعودي، المروج ٣/ ٣٦-٣٧، الإمامة والسياسة ١/ ١٤٣-١٤٦.

(٢) الجاحظ، البيان والتبين ١/ ٣٠٠، المسعودي، المروج، ٣/ ٣٧.

(٣) المبرد، الكامل ١/ ٤٨.

(٤) المسعودي، المروج ٣/ ٣٧-٣٨.

(٥) انظر: خليفة بن خياط، تاريخه ٢١٣-٢١٧، أبو جعفر الطبري، تاريخه ٥/ ٣٠٣-٣٠٤.

وابن عمهم وأحسن الناس فيهم رأياً، وزيّن لهم أن يقدّموه باسم الخلافة، فلما توقفوا وأعرضوا ولم يجيبوا، خوّفهم من معه من أهل الشام، وهددهم إن عارضوا مقالته للناس في البيعة ليزيد أن سيبسط إليهم يد القتل، فاستجابوا له، ورضي منهم بالسكوت، ولم يحملهم على أن يبايعوا على رؤوس الناس[1]، ورجع عائداً إلى بلاد الشام.

كان معاوية يرهب أن يدع أمة محمد كالضأن لا راعي لها[2]، ولذلك عمل على اختيار من يخلفه، ولكنه لم يعيّن من أفضل قريش رجالاً يجعلهم موضع شورى واختيار الناس للخلافة، وإنما اقتصر على ترشيح ابنه يزيد، وظل يمسك بزمام عملية الاختيار ولم يدعها تخرج من يده حتى تمت البيعة ليزيد، فهل كان اختيار ابنه يزيد أماناً من الاختلاف والقتال وسفك الدماء؟

لقد وقع الاختلاف بعد وفاة معاوية، وسفكت الدماء، ولم يزح اختيار معاوية يزيد ما تعلل به معاوية من المخاوف، فهل وقع ما وقع بسبب شخصية يزيد، أم بسبب اتباع الوراثة بديلاً من الشورى في اختيار الخليفة، أم بسبب آخر؟

أما بالنسة ليزيد، فقد كان ظن معاوية به أفضل بكثير مما روته بعض الروايات، فيزيد بنظر معاوية حسن الرِعْية والهدي ورضى للأمة[3]،ولما اعترض سعيد بن عثمان على معاوية وقال أنه خير من يزيد، أجابه معاوية، «فوالله ما يسرّني أن الغوطة ملئت رجلاً مثلك بيزيد[4]، وخطب معاوية الناس فقال، اللهم إن كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلّغه ما أمّلت وأعِنْه، وإن كنت إنما حملني حب الوالد لولده،

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخه ٢١٣-٢١٧، اليعقوبي، تاريخه ٢/ ٢٢٨، أبو جعفر الطبري، تاريخه ٥/ ٣٠٢-٣٠٤، الذهبي، دول الإسلام ٢/ ٣٦-٣٧.

(٢) أبو جعفر الطبري، تاريخه ٥/ ٣٠٤.

(٣) المسعودي، المروج ٣/ ٣٦، الإمامة والسياسة ١/ ١٤٨.

(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق ٧/ ٣١١-٣١٦، ترجمة سعيد بن عثمان بن عفان، الإمامة والسياسة ١/ ١٦٤.

وأنه ليس لما صنعت به أهلاً فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك»[1]، وقال عمرو بن حزم لمعاوية، «أذكّرك الله في أمة محمد ﷺ بمن تستخلف عليها، فقال له معاوية: نصحت وقلت برأيك، وأنه لم يبق إلاّ ابني وابناؤهم وابني أحق»[2].

وإضافة إلى ما تحمل هذه الأخبار في طياتها من ثقة معاوية بيزيد، فإن مكانته في الدولة، ونسبه في بني عبد مناف من قريش، ومساندة أهل الشام له، أمور عملت أيضاً على تقديمه يزيد والرضا به لولاية المسلمين، وهي عوامل لا تلغي ما في نفس الوالد من الإيثار للولد.

وقد طولب معاوية بالشورى واتباع سنّة من سبقه في اختيار من يخلفه، وعندما اختار ولده يزيد، أُخذ عليه أنه حوّل الخلافة ملكاً وجعلها هرقلية أو قيصرية أو كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء[3].

ولم تكن سنّة من سبق معاوية في اختيار الخليفة بغائبة عن معاوية، ولكن معاوية وجد مؤتمر السقيفة يحصر الخلافة في قريش، ووجد رجال الشورى الذين سمّاهم عمر ابن الخطاب اختلفوا،وظهر هذا الاختلاف ثانية بعد مقتل عثمان، وجرّ إلى ما جرّ إليه من القتل وسفك الدماء[4]. وآلت الخلافة من تيم قريش وعدي قريش إلى عبد مناف قريش، ومات الأباء وبقي الأبناء، ولم ير معاوية في زمانه رجالاً مثل أبي بكر وعمر، وحصر الخلافة في اسرته من بني عبد مناف يضيّق شقة الخلاف، ويقلّل من آثاره السيئة على الأمة، ويزيد بنظره رضى وأحق الآخرين في الولاية، ولذلك استشار فيه ورشحه وبايع الناس له.

---

(١) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص:٢٠٦، الإمامة والسياسة ١/ ١٥٠.

(٢) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٠٦، الإمامة والسياسة ١/ ١٥٠.

(٣) خليفة بن خياط، تاريخه ٢١٣، ٢١٤، ٢١٦، المبرد، الكامل ٣/ ٢٣٣، الإمامة والسياسة ١/ ١٥٠، ١٦٢.

(٤) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٩/ ١٩٧، ترجمة زياد بن عبيد.

وعلى الرغم من هذا التراجع في طريقة الانتخاب والاختيار، ومع ما تنطوي عليه من العيوب، نجد الذين عارضوا معاوية في استخلاف ابنه يزيد، إذا استثنينا الخوارج، يدينون في اختيار الأئمة والخلفاء بالوراثة، وحتى عبد الله بن الزبير فإنه استعان في أثناء خلافته باخيه مصعب، وقال في ابنه: «أردت أن أباهي به بني مروان فنكص»[1]، ولكنّ كلَّ واحد من هؤلاء الفرقاء كان يرى نفسه في الأمر رأساً ورضى دون غيره ولا يقبل بغير ذلك.

والأخذ بالوراثة في الإمامة والخلافة من قبل الدعوات والأحزاب والدولة، يشير إلى عقلية الناس فى ذلك العصر ونهجهم في حل مشكلة القيادة، ومستوى تجاوب هذا النهج وحاجات الناس والدولة.

أما الإسلام، فلم يسنّ في اختيار الخليفة طريقاً محدداً لا يَحِلُّ التنكّب عنه، وإنما ترك الأمر لنظر المسلمين واجتهادهم ضمن معالم يُسْتَأْنَس بها ويُرْجَعُ إليها في معالجة الموضوع لتحقيق أفضل السبل وأجداها لهم في كل عصر.

وقد تناول الماوردي قضية العهد إلى الولد فذكر فيها ثلاثة مذاهب، ذهب الأول إلى عدم جواز انفراد الخليفة بعقد البيعة للولد حتى يشاور أهل الاختيار فيرونه أهلاً فيصح منه حينئذ عقد البيعة له، وذهب الثاني إلى جواز انفراد الخليفة بعقد البيعة للولد لأنه أمير الأمة نافذ الأمر لهم وعليهم، وحكم المنصب يغلب على حكم النسب، ولا سبيل لاتهامه في أمانته، وذهب الثالث إلى عدم جواز انفراد الخليفة بعقد البيعة لولده لما في الطبع من ممايلة الولد[2]، ولا نجد معاوية يخرج فيما فعله على ما جاء في كلام الماوردي.

وبعد موت الخليفة، وقيام ولي العهد بالخلافة، كان المسلمون يقومون بمبايعته على العمل بكتاب الله وسنة رسوله، فكان يبايعه من يحضره منهم، وأما في سائر الولايات

(١) أبو جعفر الطبري، تاريخه ٦/١١٨.
(٢) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص: ١٠.

والأمصار، فكان ينوب عن الخليفة في أخذ البيعة له ولاته وعماله فيها[١].

وسار يزيد على سنّة أبيه، واستخلف ابنه معاوية من بعده، ولما ضعف معاوية عن القيام بأعباء الخلافة وتنازل عنها، تعرّض مروان بن الحكم لأخذ الخلافة بالسيف[٢]، وكانت البلاد باستثناء الأردن دخلت في طاعة الخليفة عبد الله بن الزبير، ولذلك لم يذكره السيوطي في عداد الخلفاء، ولم يعدّ ابنه عبد الملك خليفة إلاّ بعد أن قتل عبد الله بن الزبير عام ٧٣هـ فصحّت عنده من يومئذ خلافة عبد الملك[٣].

ومنذ مروان بن الحكم صار العهد يعقد إلى أكثر من واحد، وهو عمل أجازه الفقهاء، فقال الماوردي، ولو عهد الخليفة إلى اثنين أو أكثر ورتّب الخلافة فيهم جاز، فقد استخلف الرسول ﷺ على جيش مؤتة زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبي طالب ثم عبد الله ابن رواحة، وإذ فعل الرسول ﷺ ذلك في الإمارة جاز مثله في الخلافة[٤]، ولكن فعل بني أمية يشير إلى مدى استئثارهم بالمُلك ومقدار حرصهم على حصر السلطان فيهم.

فعهد مروان إلى ولده عبد الملك ثم بعده إلى ولده عبد العزيز، وعهد عبد الملك إلى ولده الوليد ثم بعده إلى ولده سليمان، وعهد سليمان بن عبد الملك إلى ابن عمه عمر ابن عبد العزيز ثم بعده إلى أخيه يزيد بن عبد الملك، وعهد يزيد بن عبد الملك إلى أخيه هشام ثم بعده إلى ولده الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وعهد الوليد بن يزيد إلى ولده الحكم ثم بعده إلى ولده عثمان، ولكن الخلافة لما آلت من ولد عبد الملك إلى أحفاد عبد الملك لم تَعُد طريقة العهد إلى الولد بالخلافة ترضي هؤلاء الأحفاد، وصاروا يتوثبون على الخلافة بالسيف، فتوثب يزيد بن الوليد بن عبد الملك على الخلافة وتّم له

---

(١) انظر: أبو جعفر الطبري، تاريخه ٣٣٨/٥، ٦/ ٤١٦-٤١٧، ان تغري بردي، النجوم الزاهرة ١/ ١٧٦.

(٢) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب ١٠/ ٨٣، ترجمة مروان بن الحكم.

(٣) السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص: ٢١٤-٢١٥.

(٤) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص: ١٣.

ذلك وقتل ابن عمه الوليد، وسار مروان بن محمد بالجيش من الثغور إلى دمشق وأخذ الخلافة بالسيف.

وباعتداء الأواخر من الأمويين على المنهج الذي اتبعه أسلافهم في الاستخلاف واكتسب حرمة في نفوس الناس، أدخل هؤلاء الشك بشرعية خلافتهم، وزعزعوا الثقة بهم، وأحدثوا شرخاً في عَصَبَة بني أمية، وأعانوا على إزالة سلطانهم.

استئثار الأمويين بالخلافة:

كان قيام الخلفاء الأمويين بنقل الخلافة إلى أبنائهم من بعدهم يؤكد نيّة الاستئثار بالخلافة عندهم، وقد بدت هذه النيّة مع الأيام أكثر انعقاداً في نفوسهم وأذهانهم.

وكان معاوية بن أبي سفيان على الرغم مما تعلّل به، أول من أظهر نيّة الاستئثار بالخلافة وسنّ هذه السنّة بمبايعة ولده يزيد بولاية العهد، وفي بيان موقفه من المعارضة، وصف الخلافة بصفة «مُلْكٍ له»، قال: «. . .إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين «ملكنا»[1].

وبرأي معاوية، لا يعادل أحد من بطون قريش في القيام بأمر الخلافة بني أمية، فبنو زهرة لا نصر ولا فضل عندهم، ولو نال بنو مخزوم الخلافة ما كلّموا الناس كبراً، ولو نالها بنو هاشم لا ستأثروا على الناس، وأن بني أمية على ما فيهم ليعطون السائل، ويجودون بالنائل، ولا تزال العرب غُلْبَ الرقاب ما رأوا أشياخ بني أمية على المنابر[2].

ولا يخرج كلام عتبة بن أبي سفيان عن هذا الإطار، ففي خطبته التي ألقاها في الحجيج عام ٤١هـ، قال: «. . .فلا تمدوا أعناقكم إلى غيرنا، فإنها تنقطع دوننا، وربّ متمنٍّ حتفُه في أمنيته»[3].

ولم يكن المروانيون بأقل حرصاً على الملك والاستئثار بالخلافة من معاوية، فقد جاء أن خالد بن يزيد بن معاوية وعمرو بن سعيد بن العاص كانا يجلسان مع عبد الملك بن مروان، وكانا ممن يطمع بالخلافة بعد عبد الملك، فقال عبد الملك: «إن هذا الملك عقيم، وليس أحد يريده من ولد ولا والد إلاّ كان السيف» وهو يريدهما بهذا القول[4].

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تايخه، ج٥، ص٣٣٦.

(٢) البلاذري / أنساب الأشراف، ج٥، ق١، ص: ٢١.

(٣) ابن عساكر / تاريخ دمشق، ج١١، ص٥١، ترجمة عتبة بن صخر بن حرب.

(٤) ابن سعد / الطبقات الكبرى، ج٥، ص: ٢٢٧.

وبعد أن تم لعبد الملك قتل عبد الله بن الزبير، خطب الناس وقال: «. . . ايها الناس، إنا نحتمل كل اللغوبة، ما لم تكن عقد رأيه، أو وثوب على منبر، هذا عمرو بن سعيد، وحقّه حقّه، وقرابته قرابته، قال برأسه هكذا، فقلنا بسيفنا هكذا»[١]. وقَتْلُ عمرو بن سعيد بسيف الاستئثار بالملك هو ما أشار إليه من قال لسعيد بن عمرو بن سعيد: «. . .وربّ هذه البَنِيّة، ما كان في القوم مثل أبيك، ولكنه نازع القوم ما في أيديهم فعطب»[٢].

وتغيّرت وجوه بني عبد الملك لما وجدوا في كتاب سليمان بن عبد الملك البيعة لعمر ابن عبد العزيز، ثم تراجعوا بعد أن قُرِىء اسم يزيد بن عبد الملك بعده[٣]، مع أن عمر من بني عمومتهم من آل مروان، وكان الأواخر من بني أمية أكثر استئثاراً بالملك من الأوائل.

وتعلّقاً بالخلافة، وإدراكاً لما تستدعيه هيبة الحكم، حرص الأمويون على أن يكونوا في الناس رأساً والناس لهم تبع، وأن يكون حظهم من الشرف السنام والذروة، ولم يَدعوا أحداً يجترىء عليهم إذا اجترأ على الناس، ومن أجل ذلك، غضبت بنو أمية لما وجّه عمر بن هبيرة الفزاري مع مروان بن محمد ببشارة فتح أرمينية إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك عام ١٠٢هـ، وقالت: «فزاريّ يحملّ البشارة والرسالة رجلاً منا»، فعزل يزيد عمر عن ولاية الموصل وجعلها إلى مروان بن محمد[٤].

وقد يكون بعضهم، كما روى عن هشام بن عبد الملك أنه عذر ابنه لو ركب الظلم شارة القوة لا غيره من الفسق[٥].

---

(١) خليفة بن خياط / تاريخه، ص: ٢٧٣.

(٢) أبو جعفر الطبري / تاريخه، ج٦، ص: ١٤٨.

(٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص: ٥٥١-٥٥٢.

(٤) الأزدي / تاريخ الموصل، ص: ١٦.

(٥) انظر: ابن عبد ربه/العقد الفريد، ج٤، ص٤٤٨.

أسرة الخليفة الأموي:

وقد تكشف قراءة «أسرة الخليفة الأموي» عن مدى صلة معالم هذه الأسرة بمسألة الخلافة، إذ نلاحظ من قراءة جدول «أسرة الخليفة الأموي»[1] أن الخلفاء من بني أمية اختاروا لأبنائهم الذكور من الأسماء ما ورد ذكر بعضها في القرآن الكريم أسماء للأنبياء مثل آدم وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان ويحيى وموسى ومحمد، وبعضها أسماء للصحابة مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة وخالد وغيرها، وبعضها مركّبة يشير الأول منها إلى العبد والثاني إلى المعبود وهو الله أو بدلالة أحد أسمائه مثل عبد الله وعبد الرحمن وعبد العزيز وعبد الملك وعبد الواحد وعبد الجبار وعبد المؤمن، وبعضها تحمل أسماء القادة ورجال الدولة النابهين مثل الحجاج.

أما أسماء البنات فقد ترددت بين أسماء بنات الرسول ﷺ مثل فاطمة وأم كلثوم وزينب، وبين أزواجه عليه السلام مثل عائشة، وبين أمهات الخلفاء الأمويين مثل عاتكة وهند ورملة، وظهرت الكنى في أسماء البنات مثل أم يزيد وأم محمد وأم عمر وأم عمرو وأم عثمان، وأم عمار وأم هشام، وهي أسماء مثل أسماء الأولاد الذكور قد تشير وحجم الأسرة الكبير إلى أن «أسرة الخليفة الأموي» تمثل هوية وشخصية الأسرة العربية المسلمة ثقافة وأخلاقاً، وهو ما قد يساعد على قبولها لقيادة الأمة.

أما أصهارهم من جهة البنات، فالجدول يشير إلى أن الأمويين زوجوا بناتهم من أبناء عمومتهم، ولم يخرجوهن إلى غيرهم، وهو ما يشير إلىغرض الأمويين في التأكيد علىشرافة البيت الأموي بين البيوتات الأخرى وتقدمه عليها.

ولكن هل كان لاستئثار الأمويين بالخلافة أثر على مفهوم ورسالة الدولة عندهم؟

حمل الذين تولّوا من بني أمية رئاسة الدولة الألقاب التي حملها الذين تولّوا رئاستها من بعد الرسول ﷺ، وكان من أشهر هذه الألقاب لقب «أمير المؤمنين»،

---

(١) انظر: جدول «اسرة الخليفة الأموي».

ولقب «خليفة»، وورد في حالات قليلة لقب «إمام» إضافة إلى الفاظ أخرى جاءت وصفاً لهم أكثر منها لقباً، مثل المهدي والمنصور والمبارك وغير ذلك.

وردت هذه الألقاب في النصوص التاريخية والأدبية نثراً وشعراً، ومن ذلك، إن الولاة على سبيل المثال، كانوا إذا كاتبوا الخليفة الأموي استعملوا لقب «أمير المؤمنين»، فلما كتب زياد بن أبيه إلىمعاوية بن أبي سفيان قال: «بسم الله الرحمن الرحيم، لعبد الله معاوية أمير المؤمنين. . . »[١]، وأما إذا كان الوالي بحضرة الخليفة فكان لا ينفك يخاطبه بلفظ «أمير المؤمنين»، ويكرر ذلك في كل مرة يتوجه فيها بالخطاب إليه[٢].

ولما جاء البريد بنعي معاوية إلى ابنه يزيد، قال يزيد، وذكر أباه معاوية بلقب خليفة.

قلنا: لك الويل ماذا في كتابكم؟ قالوا: الخليفة أمسى مثبتاً وجعاً

وذكر كعب بن جابر، وكان ممن شارك في قتال الحسين بن علي، يزيد بن معاوية بلقب «خليفة» قال[٣]:

فـابلـغ عبيـد الله إمّـا لقيتَـه بـأنـي مطيـع للخليفـة سـامـع

ومدح الفرزدق وجرير والأخطل ونابغه بني شيبان وأعشى همدان وعدي بن الرّقاع العاملي ومسكين الدارمي وعبد الله بن همام السلولي والأحوص وموسى شهوات وإسماعيل بن يسار وغيرهم من الشعراء، الخلفاء الأمويين، وذكروا لهم من الألقاب والأوصاف ما ندلّل عليه ببعض الأمثلة ومنها:

---

(١) أبو جعفر الطبري /تاريخه، ج٥، ص:١٧٧، ٢١٠، ٢١٣، ٢٧٢، ٣٢٨، ٤٣٣، ومواضع أخرى كثيرة.

(٢) أبو جعفر الطبري /تاريخه، ج٥، ص:١٧٧، ٢١٠،٢١٣، ٢٧٢، ٣٢٨، ٤٣٣، ومواضع أخرى كثيرة.

(٣) أبو جعفر الطبري /تاريخه، ج٥، ص: ١٧٧، ٢١٠، ٢١٣، ٢٧٢، ٣٢٨، ٤٣٣، ومواضع أخرى كثيرة.

قال الفرزدق يمدح عبد الملك بن مروان(١):

إلـى إمـام تغـادينـا فـواضلـه ... أظفـره الله فليهنـأ لـه الظفـر

وقال جرير في عبد الملك(٢):

الله طـوّقـك الخـلافـة والهـدى ... والله ليـس لمـا قضـى تبـديـل

وقوله فيه أيضاً (٣):

لـولا الخليفـة والقـرآن يقـرأه ... مـا قـام للنـاس أحكـامٌ ولا جمـعُ

وقول الأخطل فيه(٤):

إليك أمير المؤمنين رحلتها ... على الطائر الميمون والمنزل الرحب

وذكروا الوليد بن عبد الملك بأنه خليفة وأمير المؤمنين والإمام المصطفى وخليفة رب العالمين(٥).

وذكروا سليمان بن عبد الملك بأنه الخليفة والإمام المبارك والمهدي والحكم الرشيد(٦).

وذكروا عمر بن عبد العزيز بأنه خليفة وخليفة الله وأمير المؤمنين والمبارك والمهدي(٧).

---

(١) جيوان الفرزدق، ج١، ص:٩٨ تحقيق وشرح عبد الله الصاوي، ديوان النابغة الشيباني، ص: ٢٢٠، تحقيق عبد الكريم إبراهيم.

(٢) ديوان جرير، ص: ٤٣٧، ٥٩٠، شرح يوسف عيد.

(٣) ديوان جرير، ص: ٤٣٧، ٥٩٠، شرح يوسف عيد.

(٤) ديوان الأخطل، ص: ٢٥، شرح مهدي محمد ناصر الدين.

(٥) ديوان الفرزدق، ج١، ص:٧، ٣٥٢، ديوان جريرو ص: ٤٧٤، ٦١٣، ديوان الأخطل، ص: ٣٣، ديوان النابغة الشيباني، ص: ١٣١، ديوان عدي بن الرقاع، ص: ٦٠، جمع وتحقيق الشريف عبد الله الحسيني.

(٦) ديوان جرير، ص: ١٧٨،٥٠.

(٧) ديوان جرير، ص: ٣٣١-٣٣٣، ٥١٤، المبرد / الكامل، ج٢، ص: ٢٧٣.

وذكروا يزيد بن عبد الملك بأنه إمام منصور وخليفة وخليفة الله[١].

وذكروا هشام بن عبد الملك بأنه أمير المؤمنين وخليفة أهل الأرض[٢].

وذكروا الوليد بن يزيد بأنه إمام[٣]، وذُكر يزيد بن الوليد بأنه أمير المؤمنين[٤]، وذُكر مروان بن محمد بأنه أمير المؤمنين[٥].

ولا شك أن هذه الألقاب والأوصاف كانت مقبولة عند المؤيدين والموالين وأهل الطاعة لبني أمية، ولكنها لم تكن كذلك عند المنحرفين عنهم كالخوارج، فالأمويون عند هؤلاء ليسوا بخلفاء ولا أئمة ولاأمراء للمؤمنين، ولا يعترفون لهم بشيء من الأوصاف الحسنة.

وإضافة إلى قضية الألقاب الآنفة الذكر، ورد أن الخليفة ذنوبه مغفورة، وللخلفاء من بني أمية نصيب من ذلك، فقد جاء أن المسور بن مخرمة وفد على معاوية، فقضى معاوية للمسور حاجته ثم سأله أن يذكر له عيوبه (عيوب معاوية) وأصرّ عليه، فلم يترك المسور شيئاً يعيب به معاوية إلاّ ذكره، وكان جواب معاوية، أن المسور عدّ الذنوب وترك الحسنات، ومعاوية على دين يقبل الله فيه العمل ويجزي فيه بالحسنات، وهو أي معاوية، له ما له من الإصلاح في أمر العامة، ويوازي أموراً عظاماً لا تحصى من إقامة صلوات المسلمين، والجهاد في سبيل الله عز وجل، والحكم بما أنزل الله تعالى، ولا يخيّر بين أمرين إلاّ اختار الله تعالى على ما سواه، ولذلك عرف المسور أن معاوية قد خصمه[٦].

---

(١) ديوان الفرزدق، ج١، ص:٢٦٥، ديوان جرير، ص: ٣٠٨، ٤٧٥، ديوان النابغة الشيباني، ص:١٢٥-١٢٩.

(٢) ديوان الفرزدق، ج١، ص:٦٥، ج٢، ص:٨٤٠، المبرد/ الكامل، ج٢، ص:١٣٩.

(٣) الأصفهاني /الأغاني، ج٧، ص:٩٥، شعر يزيد بن ضبة.

(٤) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص:٢٦٩-٣١٢.

(٥) أبو جعفر الطبري / تاريخه، ج٧، ص: ٢٦٩-٣١٢.

(٦) البغدادي/ تاريخ بغداد، ج١٠، ص:٢٠٨-٢٠٩ ترجمة معاوية بن أبي سفيان.

وعندما نبلغ خلافة يزيد بن عبد الملك، نجد الرواية تغفل في مسألة المغفرة للخليفة رعايته الصالحة للأمة وتذهب رأساً إلى القول بأن أربعين شيخاً شهدوا ليزيد بن عبد الملك «ما على الخلفاء حساب ولا عذاب» مما جعل يزيد يتحول عن سياسة عمر بن عبد العزيز(١).

ولكن الشواهد التاريخية لم تشر إلى أن الأمة تبنّت فكرة شفاعة منصب الخلافة وغفران ذنوب مَن جانَبَ الشرع من الخلفاء، وفرّط وأضرّ بمصالح الأمة، ولم يُرْوَ عن خليفة أموي أنه أدّعى ذلك، والمحفوظ من خطبهم يشير إلى تأكيدهم على التقوى والعمل الصالح، وأن مقام الخلافة يضاعف للمحسن فيه الأجر، وعلى المسيء فيه الوزر(٢).

ومما قال الوليد بن عبد الملك لما مات أبوه عبد الملك: «. . . ونحن نرجو أن يصير إلى منازل الأبرار، للذي كان عليه من الشدة على المريب، واللين على أهل الفضل والدين، مع ما أقام من منار الإسلام واعلامه، وحج هذا البيت، وغزو هذه الثغور، وشهر الغارات على أعداء الله. . .»(٣).

وفي الرواية عن أبي عبيد الله وزير أبي جعفر المنصور، أن أبا جعفر المنصور سأله قال، ما كان أشياخك الشاميون يقولون، قال الوزير، أدركتهم يقولون، أن الخليفة إذا استخلف غفر له ما مضى من ذنوبه، فقال أبو جعفر، أي والله وما تأخر، أتدري ما الخليفة؟ به تقام الصلاة والحج والجهاد ويجاهد العدو، وعدّ أبو جعفر كثيراً من مناقب

(١) ابن عساكر / تاريخ دمشق، ج١٨، ترجمة يزيد بن عبد الملك، الذهبي/ سير أعلام النبلاء، ج٥، ص: ٢٧٩-٢٨١ ترجمة يزيد بن عبد الملك.

(٢) انظر: أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٦٩، الماوردي/ الأحكام السلطانية، ص: ٨٠، ابن عساكر / تاريخ دمشق، ج١١، ص: ٥١، ترجمة عتبة بن صخر بن حرب، أحمد زكي صفوت/ جمهرة خطب العرب، ج٢، ص: ١٨٥، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٥.

(٣) أحمد زكي صفوت / جمهرة خطب العرب، ج٢، ص: ١٩٩.

الخليفة[1]، ومع خدمة الرواية لغرض أبي جعفر ففيها تأكيد على أن المغفرة للخليفة مقرونة بالرعاية الشرعية للأمة.

وذكر عن نافع بن الأزرق الحنفي (من رؤساء الخوارج الأزارقة) أنه قال، «لولا أني أعلم أن للإمام العادل مثل أجر جميع رعيته ما توليت أمر رجلين من المسلمين[2].

وجاء في رواية جمعية، أن الخلفاء والأئمة أفضل من الرعية، وعامة الحكام أفضل من المحكوم عليهم ولهم، لأنهم أفقه في الدين وأقوم بالحقوق، وأرد على المسلمين، وعملهم بهذا أفضل من عبادة العباد، لأن نفع ذلك لا يعدو قمم رؤوسهم، ونفع هؤلاء يخص ويعم[3]. ولذلك قيل عدل السلطان أنفع للرعية من خصب الزمان[4].

وهي شواهد تشعر بارتباط المغفرة بالعمل الصالح، وهي قاعدة صحيحة بحق الفرد، وبحق الخليفة أوكد، ولا نخال الخلفاء من بني أمية مع ما بينهم من تفاوت، تخلّوا عن القيام بواجبات الخلافة في رعاية الأمة، وهو ما جعلهم معنيّين في مسألة مغفرة ذنوب الخلفاء، ولعلّ ما عقّب به ابن طباطبا على خطبة يزيد بن الوليد التي ألقاها عند تسلّمه منصب الخلافة، وأعلن فيها منهجه في الرعاية ما يلقي بعض الضوء عند تقدير خلفاء بن أمية مقارنة بمن جاء في ا لعصور التالية، قال ابن طباطبا (توفي ٧٠٩هـ):

«فأما في هذا العصر، (أي عصر ابن طباطبا وهو القرن السابع الهجري وبداية الثامن)، فلو افتخر ملك من الملوك بأنه لا يكري نهراً ولا يضع حجراً على حجر، أو ندب رعيته إلى تمليك غيره، لعدّ سفيهاً، ولكان جديراً في اصطلاحهم بأن يُمَلَّك غيره»[5].

---

(١) الذهبي / سير أعلام النبلاء، ج٥، ص: ٧٤-٧٧، تاريخ الإسلام حوادث ١٢١-١٤٠هـ.

(٢) أحمد زكي صفوت / جمهرة رسائل العرب، ج٢، ص: ٩١.

(٣) الجاحظ / البيان والتبين، ج٢، ص: ٣٤٩.

(٤) ابن قتيبة / عيون الأخبار، ج١، ص: ٥.

(٥) ابن طباطبا (ابن الطقطقا) / الفخري، ص: ١٣٦.

أما في مجال العلاقة بين الخليفة الأموي والأمة، فقد أصبحت بحكم البيعة علاقة بين طرفين في عقد يوجب على الأول وهو الخليفة، العدل والحكم بما أنزل الله على رسوله، وعلى الثاني وهو الأمة طاعة الخليفة في غير معصية، وكانت البيعة تؤخذ في هذا العصر مرتين، مرة عند ولاية العهد، وأخرى بعد تسلم منصب الخلافة اقتضاء لصحة وشرعية الخلافة، وكان من يتأخر عنها يُحْمَلُ عليها[1]، باسم الحفاظ على وحدة الجماعة ومنع الفرقة والاختلاف بين المسلمين، ولعلّ من أحسن ما قيل في وصف العقد بين الخليفة والأمة ما جاء على لسان عتبة بن أبي سفيان في أثناء ولايته على مصر، قال: «البيعة سابغة، فلنا عليكم السمع، ولكم علينا العدل، وأيّنا غدر فلا ذمة له عند صاحبه»[2]، وهو نفس ما أشار إليه زياد به أبيه في خطبته عندما قال:

«أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسة... فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدل فيما ولينا»[3].

غير أن هناك أخباراً غير قليلة تشير إلى أن أهل العصر الأموي خلفاء ورعية لم يعودوا كأهل العصر الراشدي، ومن ذلك أن معاوية خطب الناس وقال: «أيها الناس، إني من زرع قد استحصد، ولن يأتيكم بعدي إلاّ من أنا خير منه، كما لم يكن من قبلي إلاّ من هو خير مني»[4]، وقال عبد الملك بن مروان، «...وأين الناس الذين كان يسير فيهم عمر بن الخطاب والناس اليوم»[5].

وهذه النظرة أثرت على العلاقة بين الدولة والأمة، وجعلت الدولة تنحوفي سياسة الناس منحى الشدة سبيلاً إلى بلوغ الرعاية الصالحة، وفي هذا قال عبد الملك بن مروان:

---

(١) انظر: ابن عساكر / تاريخ دمشق، ج١٧، ص: ٨١، ترجمة هشام بن إسماعيل المخزومي.

(٢) ابن عساكر / تاريخ دمشق، ج١١، ص: ٥٢، ترجمة عتبة بن صخر بن حرب.

(٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص: ٢٢٠.

(٤) المبرد / الكامل، ج٤، ص: ١١١.

(٥) ابن سعد / الطبقات الكبرى، ج٥، ص: ٢٢٠.

«إني رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس، إن ذهب اليوم رجل يسير بتلك السيرة (سيرة الراشدين)، أُغير على الناس في بيوتهم، وقطعت السبل، وتظالم الناس، وكانت الفتن، فلا بد للوالي أن يسير في كل زمان بما يصلحه»(١)، وقال: «يا معشر الرعية، تريدون منّا سيرة أبي بكر وعمر، ولم تسيروا في أنفسكم بسيرة رعية أبي بكر وعمر، أسأل الله أن يعين كلاً على كل»(٢). وهي سياسة بدأت منذ أيام معاوية واستمرت حتى أواخر أيام بني أمية، وكان زياد بن أبيه، وابنه عبيد الله، والحجاج بن يوسف الثقفي الذي تشبّه بزياد وأفرط، ويزيد بن أبي مسلم، وقرة بن شريك، وأسامة بن زيد التنوخي، ومحمد بن يوسف الثقفي، وعثمان بن حيان المرّي وأمثالهم، معالم على هذا الطريق الذي اختطته الدولة وارتضته سبيلاً، غير أن الشدة التي اتبعتها الدولة كانت مصروفة إلى أهل الريبة والمعصية الذين لو ساغ لهم المعصية ما جبي فيء ولا قوتل عدو ولا أمنت السبل، وأما أهل الطاعة والفضل والإحسان فلهم الثواب وحسن الجزاء، والدولة لهم كالوالد البرّ (٣)، ولم تعطّل الشدة حقوق الناس على الدولة، وكان مما قاله معاوية في أهل المدينة عام الجماعة: «. . .فإن لم تجدوني خيركم فإني خيرٌ لكم ولاية»(٤)، وجعل أبوابه مفتوحة للوافدين، يأخذون مجالسهم عنده على قدر منازلهم، ويرفعون حوائج من لا يصل إليه من الناس(٥)، وأسلوب الوفود ظل متبعاً طيلة ايام بني أمية، وكان مما قاله زياد بن أبيه في خطبته المعروفة بالبتراء: «واعلموا أني مهما قصّرت عنه فلن أقصّر عن ثلاث: لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل،

---

(١) المصدر نفسه، ص: ٢٣٤.

(٢) الجاحظ / البيان والتبين، ج١، ص: ٢٦٥، أحمد زكي صفوت / جمهرة خطب العرب، ج٢، ص: ١٩٤.

(٣) أحمد زكي صفوت / جمهرة خطب العرب، ج٢، ص:٣٨، جمهرة رسائل العرب،ج٢، ص: ٢٣٧.

(٤) أحمد زكي صفوت / جمهرة خطب العرب، ج٢، ص: ١٨٢-١٨٣.

(٥) المسعودي / مروج الذهب، ج٣، ص: ٣٩-٤٠.

ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إبانه، ولا مجمّراً لكم بعثاً»[1].

وتَفَقُّدُ الرعية والاتصال بها والاستماع إلى مطالبها ومحاولة إنصافها طريقٌ سار عليه خلفاء بني أمية، وكان معاوية وعبد الملك وهشام من أكثرهم ذكراً في هذا الجانب.

وبالرغم من محاولة الأمويين أن يقوموا بأمر الأمة خير قيام وأن يكونوا خلفاء المسلمين، فإنهم تعرضوا لانتقادات شديدة وهوجموا مهاجمة عنيفة، ووصفوا بركوب الظلم وسفك الدماء وأخذ أموال الصدقات والاستئثار بالفيء وسوء التصرف بالأموال وأمثال ذلك.

تستند العلاقة بين الخليفة والأمة إلى الإسلام، وتكتسب صحتها وشرعيتها بعقد البيعة، وتكون طاعة الأمة في إطار هذه المعادلة ضرورية وأساسية لتستطيع الدولة رعاية الأمة وأداء رسالة الإسلام في الحياة، وبدون هذه الطاعة تضعف قوة الدولة، وتتفكك وحدة الجماعة، ويضطرب حبل الأمن، ويُعتدى على الأموال والأرواح، وتستباح الثغور، ولذلك جاء الثناء على أهل الطاعة والثواب لأهلها، والتحذير من مفارقة الجماعة والتهديد لأهل المعصية، يتناسبان وما تجنيه الأمة من خير في حال الجماعة والقوة، وما يحّل بها من شر وويل في حال الفرقة والضعف.

ودعا الأمويون الناس إلى الطاعة، ولكن استجابة الناس لم تكن واحدة، فالذين بايعوهم وهم الأغلبية أطاعوهم، والذين لم يقبلوا إمامتهم وهم أقلية، حجبوا البيعة عنهم، وناصبوهم العداء، ورفعوا شعار «الطاعة للأفضل والأصلح»، وكان استيلاء الأمويين بالقوة على الخلافة واستئثارهم بها من أسباب هذا الخلاف عليهم، فالحسين ابن علي وعبد الله بن الزبير لم يبايعا يزيد بن معاوية لأنهما كانا يعتقدان أنهما أفضل منه، والأمويون عند الخوارج ليسوا بأهل صلاح ولا فضل، وعندما ثار عمرو بن سعيد بن العاص الأموي على عبد الملك وغلب على دمشق قال: «أيها الناس، إنه لم يقم أحد

---

(١) أبو جعفر الطبري / تاريخه، ج٥، ص: ٢٢٠.

من قريش قبلي على هذا المنبر، إلاّ زعم أنّ له جنة وناراً، يدخل الجنة من أطاعه، والنار من عصاه، وإني أخبركم أن الجنة والنار بيد الله، وأنه ليس إليّ من ذلك شيء، غير أن لكم عليّ حسن المؤاساة العظيمة»[1].

وكلام عمرو محاولة لإثارة أهل دمشق ضد عبد الملك، وإشعارهم بصورة غير مباشرة بتقدمه على عبد الملك صلاحاً وفضلاً، فالفصل بين طاعة الخليفة الصالح والمنفّذ لشرع الله في رعاية الناس وبين طاعة الله غير مستقيم، سيما وقد ربط القرآن بين طاعة الله وطاعة أولي الأمر، فالطاعة طاعة الله، وطاعة وليّ الأمر بطاعة الله ما أطاع، ووحدة الجماعة وقوة الدولة ومن مظاهرها طاعة أولي الأمر، سبيل إلى سيادة الإسلام في الحياة، وهذا استجابة لأمر الله في اعلاء كلمته، وتحقيق لطاعته عز وجل.

والملاحظ أن خصوم الأمويين ناقشوا الطاعة على أساس الأفضل والأصلح للخلافة، بينما ناقشها الأمويون على أساس وحدة الجماعة وقوة الدولة، وهو ما لم يستجب له الخصوم، وعدّوا دعوة الأمويين الناس إلى الطاعة وسيلة تخدم غرض الأمويين في الاستبداد بالملك، والاستئثار بالخلافة.

وتقديراً لما حلّ بالأمة منذ مقتل عثمان، قدّم العلماء وحدة الجماعة وقوة الدولة على مطلب «الأفضل والأصلح للخلافة»، وجوّزوا إمامة المفضول مع وجود الأفضل ما أقيمت الصلاة، أي ما أقيمت أحكام الإسلام، لما يتحقق في ظل الجماعة من الخير للإسلام والمسلمين, وما يحلّ بهم أزمان الفتنة والفرقة من الشرور والويلات، وقد قيل كدر الجماعة خير من صفو الفرقة[2].

ووقع القتال بين الأمويين وخصومهم من المعارضة، ولم يقو الخصوم على هزيمة الأمويين بحد السنان، وإنما نالوهم باللسان، ورموهم بأوصاف البطش وسفك الدماء وهو ما وقع بين الجانبين في الأغلب. ونجح العباسيون في إزاحة الأمويين،

(١) أحمد زكي صفوت / جمهرة خطب العرب، ج٢، ص: ٢٣١.
(٢) الجاحظ/ البيان والتبيين، ج١ ص٢٦٠.

ولكنهم لم يكونوا خيراً منهم، قيل أن أبا جعفر المنصور قال يوماً، ألا تحمدون الله تعالى أن رفع عنكم الطاعون في ولايتنا، فقال له جعونة، الله أعدل من أن يجمعك علينا والطاعون، فقتله أبو جعفر[1].

وهوجمت سياسة بني أمية المالية في الصدقات والفيء والتصرف في الأموال، والمعلوم أن قضايا المال من الأمور الصعبة والدقيقة في موضوع العلاقة بين الدولة والأمة، فقد وفد الشاعر الراعي النميري من عرب بني نمير من بلاد نجد على عبد الملك بن مروان غير مرة، وشكى إليه السعاة في جباية أموال الصدقات، وسأله أن يَرُدّ أموال الصدقات في فقراء أهلها[2]، ووفد العالم عطاء بن أبي رباح على هشام بن عبد الملك، فسأله هشام حاجته، فأوصاه عطاء بأهل الحرمين وأهل الثغور وأهل الذمة، وأوصاه بأهل الحجاز ونجد تُرَدُّ فيهم صدقاتهم[3].

وقد تبنى الخوارج من أهل جزيرة العرب هذه الشكوى، ثلبوا بها بني أمية، ففي خطبة أبي حمزة الخارجي التي تعرّض فيها للخلفاء وذكر بني أمية، قال: «. . .وأما بنو أمية، ففرقة ضلالة، يأخذون هذه الفريضة (الصدقات) من غير موضعها، ويضعونها في غير أهلها، وقد بيّن الله أهلها، فجعلهم ثمانية أصناف. . .فأقبل صنف تاسع (بنو أمية) ليس منها فأخذها كلها، تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله»[4].

والخلاف بين السعاة الذين يأخذون أموال الصدقات وبين أصحاب الأموال الذين تجب عليهم الصدقات، قائم باستمرار، فماذا يأخذ السعاة من الأموال في الصدقة وماذا لا يأخذون، وماذا يُحب أهل الأموال أن يدفعوا من الأموال في الصدقة وماذا لا يحبون،

---

(١) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج٤، ترجمة جعونة بن الحارث بن خالد.

(٢) القرشي/ جمهرة أشعار العرب، ج٢، ص:٩١٩-٩٢٥، نوري القيسي/ شعر الراعي النميري، ص:٨٢-٩٠.

(٣) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج١١، ص:٦٢٩-٦٣١ ترجمة عطا بن أبي رباح.

(٤) الجاحظ / البيان والتبين، ج٢، ص:١٢٤، أبو جعفر الطبري / تاريخه، ج٧، ص:٣٩٦.

وكيف يجري تقدير مصلحة أصحاب الأموال ومصلحة مستحقي الصدقات من الأصناف الثمانية، وغير ذلك من الأمور التي تدعو إلى الخلاف والشكوى في كل عصر.

وأما توزيع أموال الصدقات في فقراء أهلها، فمطلب يشير إلى الحاجة حيناً، وقد يشير إلى ضيق الأفق أحياناً، فالصدقات من حق الأصناف الثمانية من المسلمين عامة، وهو أمر متروك إلى نظر أولي الأمر، فقد يَرَوْن توزيع أموال الصدقات في فقراء أهلها، وقد يستدعي الحال توزيعها في أصناف مستحقيها من فقراء أهلها ومن غير فقراء أهلها من المسلمين عامة، ولا تخرج المسألة عن نظر واجتهاد أولي الأمر في رعاية مصالح الأمة.

أما بخصوص أموال الفيء، فصارت تشمل الأموال التي تأتي من أموال الهدنة، والجزية،وأعشار تجارة أهل الشرك، والغنيمة، وخراج الأرض التي فتحت وجعلت أرض خراج. وكان أربعة أخماس هذه الأموال تصرف في عطاء وأرزاق الجيش وفي المصالح العامة، وفي ما لا غنى للمسلمين عنه، وأما الخمس من هذه الأموال فمقسوم على خمسة أسهم هي سهم الرسول ﷺ، وسهم ذوي القربى، وسهم اليتامى، وسهم المساكين، وسهم ابن السبيل[1].

واختلفت الآراء حول سهم الرسول ﷺ وسهم ذوي القربى بعد وفاة الرسول عليه السلام، فجعل أبو بكر وعمر وعثمان اسهم الخمس ثلاثة وأسقطوا سهم الرسول ﷺوسهم ذوي القربى، وكره علي بن أبي طالب أن يخالف أبا بكر وعمر، ولكن هناك من رأى أن يكون سهم الرسول ﷺ للخليفة بعده، وأن يكون سهم ذوي القربى لقرابة الرسول ﷺ، وهناك من قال أن سهم ذوي القربى يكون لقرابة الخليفة، وأغلب الآراء تتجه إلى أن يكون السهمان في الكراع والسلاح[2].

---

(١) انظر: الماوردي / الأحكام السلطانية، ص:٢٦-٢٧.

(٢) انظر: أبو يوسف / الخراج، ص:١٩-٢١.

وعندما نصل إلى العصر الأموي، نجد بعض الأخبار التي تتحدث عن قيام عمر بن عبد العزيز بإجراءات مالية شملته وأبناء الأسرة الأموية ومنها، أنه طلّق نفسه من الفيء فلم يرزق منه شيئاً إلاّ عطاءه مع المسلمين، وردّ أمواله إلى بيت المال، وبقيت مزرعتا السويداء وخيبر، أما السويداء فكان استصلحها من صلْب عطائه فأبقاها له، وأما خيبر فكانت صارت إلى مروان، وأعطاها مروان إلى عبد العزيز ثم صارت إلى عمر، فخرّق عمر سجلّها، وتركها حيث تركها الرسول ﷺ، وردّ فدك إلى ما كانت عليه في عهد الرسول ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان، وقيل ردّها إلى آل الرسول ﷺ، وطلبت عمته منه مالاً على نحو ما كان عبد الملك والوليد وسليمان يعطونها، فأبى أن يعطيها من مال المسلمين وطلب منها أن تنتظر حتى يخرج عطاؤه ويعطيها منه[١]، وأخذ ما بأيدي أهل بيته من الأموال والقطائع وجعلها في بيت مال المسلمين[٢].

وهذه شواهد تشير إلى أن الأمويين كانوا يُعطون شيئاً من أموال الفيء يُخصّوْن به دون الناس على جهة القرابة من الخليفة، وكان نجدة بن عامر الخارجي كتب إلى عبد الله بن عباس يسأله عن سهم ذوي القربى لمن هو؟ فأجابه ابن عباس، أنه لنا، أي لبني هاشم، وهو أحد الآراء التي أشرنا إليها في موضوع سهم ذوي القربى، والذي عمله عمر بن عبد العزيز أنه منع ما كان يجري على بني أمية وأخذ منهم القطائع التي كانت بأيديهم، وهو إجراء لم يحظ عمر بن عبد العزيز بسببه من التقدير بمثل ما حظي به من بعد، فقد جاء ما اتخذه بحق اقاربه بعد ستين عاماً جرى الخلفاء فيها على اجتهاد وفهم شرعي في إعطاء ذوي قرباهم، واكتسب صفة عملية، وقد يتناسب إعطاؤهم وضرورات هيبة الدولة بإغناء أقارب الخليفة عن الحاجة، فلما تحول عمر عنه تبرم بنو أمية منه، ونسبوا فعله إلى الزراية بمن كان قبله من الخلفاء والعيب عليهم والسير بغير سيرتهم بغضاً لهم وشنآناً

(١) انظر: ابن عبد الحكم/ سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: ٤١، ٦٢، ٦٤، أحمد زكي صفوت/ جمهرة رسائل العرب، ج٢، ص: ٢٨٦.

(٢) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، تراجم النساء، ترجمة أم عمرو بنت مروان بن الحكم.

لمن بعدهم من أولادهم، وعدّوا فعله قطيعة رحم أمر الله به أن يوصل، ولم يزدْه ما خصّ به ذوي قرباه من الظلم والجور إلاّ بعداً من الله[١].

وقال عديّ بن أرطأة الفزاري[٢]لبكر بن عبد الله المزني[٣]، يا أبا عبد الله، أفي حق الله ما يصنع هذا الرجل، يعني عمر بن عبد العزيز يردّ أعمال الخلفاء قبله ويسميها المظالم[٤].

واتهم يزيد بن المهلب عمر بن عبد العزيز بالرياء، وكان بلغه أن عمر بن عبد العزيز قال: آل المهلب جبابرة، لا أحبهم، فقال يزيد: إني لأظنّه مرائياً[٥].

وقيل عن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، أنه رجل أهل الكوفة، فقال عمر بن عبد العزيز، أجل، لولا خبّ في بلال (خداع ومكر)، فقال بلال: رمتني بدائها وانسلّت[٦].

ورُميَ عمر بن عبد العزيز بالحرص على أخذ الخلافة، فلما دفن سليمان بن عبد الملك، كتب عمر بقفل مسلمة من القسطنطينية، وعزل أسامة بن زيد عن مصر، وعزل يزيد بن أبي مسلم عن أفريقية،فقال الناس: ما هذه العجلة؟ ... هذا حب السلطان[٧].

---

(١) ابن عساكر / تاريخ دمشق، ج١٣، ترجمة عمر بن الوليد عبد الملك.

(٢) عدي بن أرطأة الفزاري: الدمشقي، أمير البصرة لعمر بن عبد العزيز قتل عام ١٠٢هـ، انظر: الذهبي/ سير الأعلام، ج٥، ص: ٥٣، ترجمة عدي بن أرطاة.

(٣) بكر بن عبد الله المزني: البصري، الإمام القدوة الواعظ الحجة يذكر مع الحسن وابن سيرين. توفي عام ١٠٨هـ. انظر: الذهبي / سير الأعلام، ج٤، ص: ٥٣٢-٥٣٦، ترجمة بكر بن عبد الله بن عمرو المزني.

(٤) ابن عساكر / تاريخ دمشق، ج١١، ترجمة عدي بن أرطأة الغزاري.

(٥) المقدسي / البدء والتاريخ، ج٦، ص: ٤٧.

(٦) المبرد / الكامل، ج١، ص: ١٨١.

(٧) ابن عبد الحكم / سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: ٣٦-٣٨.

وبعد خمسة وعشرين سنة من وفاة عمر بن عبد العزيز، قال قيس بن هاني العبسي للخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك: يا أمير المؤمنين، اتق الله، ودُم على ما أنت عليه، فما قام مقامك أحد من أهل بيتك، وإن قالوا، عمر بن عبد العزيز، فأنت أخذتها بحبل صالح، وأن عمر أخذها بحبل سوء[1].

ومع أن خلافة عمر جاءت في هذه الظروف التي تعّرض فيها عمر لسخط بني عبد الملك، واتهامه بحب السلطان، ولَمْزِ نيتّه في العمل، فإنه استعان على مواجهة التحديات بأفضل صور الرد من التقوى والورع والزهد وحفظ الأموال العامة، والترفع عن المنافع والأغراض الخاصة، وتحري أحكام العدل في الرعية والرفق بها، وقد يكون بعض ما اتخذه عمر ألغي على يد خليفته يزيد بن عبد الملك مثل منع الجرايات عن بني أمية وأخذ القطائع منهم.

وجاء من بعد عمر خلفاء مثل هشام ويزيد بن الوليد ذكروا بالتقوى والصلاح، ولهم سيرة حسنة، ونهج واجتهاد في العلاقة بين الدولة والأمة ورفع كفاءة الدولة في رعاية الأمة.

ولم يكن استئثار الأمويين بالخلافة يجعل مصالحهم الخاصة أكبر همهم، ويحول دون اتباع سياسة عامة في رعاية الأمة بالإسلام، واضحة المعالم، وتستوعب جزئيات منسوبة إلى هذا الخليفة أو ذاك، ولكن هذه الجزئيات كانت تعمل ضمن الإطار الكلي للسياسة العامة في الحفاظ على السلطان وتنمية قدرات الدولة في القيام بواجباتها إزاء الأمة ورعاية مصالح الناس على الوجه الأفضل، ولكونها اجتهادات ،كانت لا تحظى برضا الناس جميعاً، وكانت تتزاحم والاجتهادات والآراء الأخرى، وظل النقد قائماً من غير ضرورة إلى أن تكون الأراء الأخرى البديل الأفضل دائماً، ولكن النقد يساعد على تهذيب المنهج ويدفع به نحو الأفضل إذا ظل ذلك في أجواء الجماعة والطاعة من غير معصية، وأحكام الإسلام قائمة ومعمولاً بها، ولكن الأحداث لم تجر في هذا الاتجاه،

---

(١) أبو جعفر الطبري / تاريخه، ج٧، ص:٢٦٩.

وعصفت رياح الانقسام والاقتتال بين الأمويين على الخلافة بعصبة وقوة الدولة الأموية، وهبّت حركات المعارضة للإطاحة ببني أمية، ونجحت الثورة العباسية في ذلك.

هذا ما كان بشأن الدولة وعلاقتها بالأمة في ظل استئثار بني أمية بالخلافة، أما بشأن السياسة الخارجية، فإن الأمويين جعلوا الإسلام أساس العلاقة بينهم وبين من جاورهم من البلاد، وتبنّوا وقادوا حركة الفتح الإسلامي وعملية نشر الإسلام في البر والبحر.

أسرة الخليفة الأموي

الخليفة	أم الخليفة وأفراد أسرته وأصهاره من جهة البنات	الشواهد
١- معاوية بن أبي سفيان	الأم	هند بنت عتبة بن ربيعة.
	الزوجات	ميسون بنت بحدل الكلبية، فاختة بنت قرظة بن عبد بن عمرو القرشية، أم ولد وهي أم عائشة بنت معاوية.
	الأولاد الذكور	عبد الرحمن يزيد، عبد الله.
	الأولاد الإناث	هند، صفية، رملة، عاتكة، عائشة.
	الأصهار من جهة البنات	هند عند عبد الله بن عامر بن كريز من بني عبد شمس ثم عند عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان. صفية عند محمد بن زياد بن أبيه. رملة عند عمرو بن عثمان بن عفان. عاتكة عند يزيد بن عبد الملك. عائشة عند محمد بن زياد بن أبيه.
٢- يزيد بن معاوية	الأم	ميسون بنت بحدل الكلبية.
	الزوجات	أم خالد بنت هاشم بن عتبة من بني عبد شمس، أم كلثوم بنت عبد الله بن عامر بن كريز من بني عبد شمس.
	الأولاد الذكور	خالد، عبد الله الأكبر، عبد الله الأصغر، عمر، عبد الرحمن، عثمان، عتبة، محمد، أبو بكر، معاوية، أمية، حرب، الربيع، أبو سفيان.
	الأولاد الإناث	أم يزيد، أم محمد، أم عبد الرحمن، رملة.
	الأصهار من جهة البنات	أم يزيد عند الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان. أم محمد عند عمرو بن عتبة بن أبي سفيان. أم عبد الرحمن عند عثمان بن محمد بن أبي سفيان. رملة عند عتبة بن عتبة بن أبي سفيان ثم عند عباد بن زياد بن أبيه.
٣- معاوية بن يزيد	الأم	أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن محمد بن عبد شمس، واسمها حَيّة.

الخليفة	أم الخليفة وأفراد أسرته وأصهاره من جهة البنات	الشواهد
٤- مروان بن الحكم	الأم	آمنة بنت علقمة بن صفوان الكنانية.
	الزوجات	ليلى بنت زبان الكلبية، أم أبان بنت عثمان بن عفان. زينب بنت عمرو بن أبي سلمة المخزومية. عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص. قطية بنت بشر الكلابية.
	الأولاد الذكور	عبد الله، معاوية، عبيد الله، أبان، داود، عبد العزيز، عبد الرحمن، محمد عمر، بشر، عبد الله، أيوب، عثمان، عمرو، عبد الملك.
	الأولاد الإناث	أم عمر، أم عمرو، أم عثمان، رملة.
	الأصهار من جهة البنات	أم عمر عند سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان. أم عمرو عند الوليد بن عثمان بن عفان. أم عثمان عند عبد الملك بن الحارث بن الحكم. رملة عند أبي بكر بن الحارث بن الحكم.
٥- عبد الملك بن مروان	الأم	عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية.
	الزوجات	ولادة بنت العباس بن جزء العبسية. عاتكة بنت يزيد بن معاوية. عائشة بنت هشام بن اسماعيل المخزومية. عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله التيمية. أم المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة. شقراء بنت سلمة الطائية. أم أبيها بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان. أمهات أولاد.
	الأولاد الذكور	الوليد، سليمان، مروان، يزيد، معاوية، هشام، أبو بكر، الحكم، عبد الله، سلمة، المنذر، عنبسة، محمد، سعيد، الخير، الحجاج.
	الأولاد الإناث	عائشة، فاطمة، أم كلثوم.
	الأصهار من جهة البنات	عائشة عند خالد بن يزيد بن معاوية. فاطمة عند عمر بن العزيز.

الشواهد	أم الخليفة وأفراد أسرته وأصهاره من جهة البنات	الخليفة
ولادة بنت العباس بن جزء العبسية.	الأم	٦- الوليد بن عبد الملك
أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان. أم سلمة بنت عبد الرحمن بن سهيل بن عمرو. أم عبد الله بن عمرو بن عثمان. أم أبي عبيدة الفزارية. شاهفريد بنت كسرى الفارسية. أمهات أولاد.	الزوجات	
محمد الأكبر، محمد الأصغر، عباس، عمر، بشر، روح، عثمان، خالد، تمام، مبشر، يزيد، عبد الرحمن، إبراهيم، يحيى، أبو عبيدة، مسرور، صدقة، مروان، عنبسة، عبد العزيز، منصور، جزء.	الأولاد الذكور	
عائشة.	الأولاد الإناث	
ولادة بنت العباس بن جزء العبسية.	الأم	٧- سليمان بن عبد الملك
أم يزيد بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية. عائشة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان. أم عمرو بنت عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العيص، أم حكيم بنت يحيى بن الحكم، أم أبان بنت أبان بن الحكم بن أبي العاص، أم الحكم بنت عبد العزيز بن مروان، ميمونة بنت عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر.	الزوجات	
أيوب، يزيد، القاسم، سعيد، عثمان، عبد الله، عبد الواحد، الحارث، عمرو، عمر، عبد الرحمن، داود، إبراهيم، يحيى، عبد الله.	الأولاد الذكور	

الخليفة	أم الخليفة وأفراد أسرته وأصهاره من جهة البنات	الشواهد
٨- عمر بن عبد العزيز	الأم	أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.
	الزوجات	لميس بنت علي بن الحارث بن عبد الله. أم عثمان بنت شعيب بن زبان بن الأصبغ بن عمرو ابن ثعلبة. فاطمة بنت عبد الملك بن مروان. أم ولد.
	الأولاد الذكور	عبد الله، بكر، إبراهيم، اسحاق، يعقوب، موسى، عبد الملك الوليد، عاصم، يزيد، عبيد الله، عبد العزيز، زبان، آدم، أصبغ.
	الأولاد الإناث	أمة الله، أم عبد الله، أم عمار.
	الأصهار من جهة البنات	أمة الله عند سفيان بن عاصم بن عبد العزيز بن مروان. أم عبد الله عند حسان بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان.
٩- يزيد بن عبدالملك	الأم	عاتكة بنت يزيد بن معاوية.
	الزوجات	أم الحجاج بنت محمد بن يوسف بن الحكم الثقفية. سعدة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان. أم سعيد بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان. ربيحة بنت محمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. أم حكيم بنت يحيى بن الحكم.
	الأولاد الذكور	الوليد، الغمر، يحيى، سليمان، داود، عبد الجبار، عبد الله، أبو سفيان، هاشم، أبو بكر، العوام، محمد.
	الأولاد الإناث	عاتكة، أم كلثوم.
	الأصهار من جهة البنات	عاتكة عند محمد بن الوليد بن عبد الملك. أم كلثوم عند عبد الرحمن بن سليمان بن عبد الملك.

الخليفة	أم الخليفة وأفراد أسرته وأصهاره من جهة البنات	الشواهد
١٠- هشام بن عبد الملك	الأم	عائشة بنت هشام بن إسماعيل بن هشام المخزومية.
	الزوجات	أم حكيم بنت يحيى بن الحكم بن العاص بن أمية. عبدة المذبوحة بنت عبد الله بن زيد بن معاوية. أم سلمة بنت عبد الرحمن بن سهيل بن عمرو. أم عثمان بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان. رقية بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان. آنفة بنت يحيى بن الحكم بن أبي العاص بن أمية. ميمونة بنت عبد الرحمن بن عبيد الله بن عبد الرحمن ابن أبي بكر.
	الأولاد الذكور	سليمان، معاوية، سعيد، عبد الرحمن، مسلمة، محمد، يزيد، إبراهيم، مروان، عبد الله، يحيى، عثمان، قريش، خلف، الوليد، عبد الملك، عبد الله.
	الأولاد الإناث	أم هشام، أم سلمة، عائشة، زينب، أم يحيى.
	الأصهار من جهة البنات	أم هشام عند عبد الله بن مروان بن محمد. أم سلمة عند عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك. عائشة عند عبد الله بن مروان بن محمد. زينب عند محمد بن عبد الله بن عبد الملك.
١١- الوليد بن يزيد بن عبد الملك	الأم	أم الحجاج بنت محمد بن يوسف بن الحكم الثقفية.
	الزوجات	عاتكة بنت عثمان بن محمد بن عثمان بن محمد بن أبي سفيان. أم عبد الملك بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان. أم ولد.
	الأولاد الذكور	الحكم، عثمان، يزيد، العباس، فهر، لؤي، العاص، موسى، قصي، واصل، ذؤابة، فتح، سعيد، المؤمن.
	الأولاد الإناث	أم الحجاج. أمة الله.
	الأصهار من جهة البنات	أم الحجاج عند محمد بن يزيد بن الوليد بن عبد الملك ثم عند يحيى بن عبد الله بن مروان بن الحكم، أمة الله عند عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك.

الخليفة	أم الخليفة وأفراد أسرته وأصهاره من جهة البنات	الشواهد
١٢- يزيد بن الوليد بن عبد الملك	الأم الزوجات الأولاد الذكور	شاهفريد بنت كسرى الفارسية. امرأة من بني كلب. الوليد، العاص، العاس، خالد، محمد، عبد الله، الأصبغ، أبو بكر، علي، عبد الؤمن، علي، عبد العزيز، إسحاق، اسماعيل، موسى، يعقوب، عبد الله.
١٣- إبراهيم بن الوليد	الأم الأولاد الذكور	أم ولد تدعى بريرة وقيل سعاد. اسماعيل، عبد الله، إسحاق، يعقوب، موسى
١٤- مروان بن محمد	الأم الزوجات الأولاد الذكور الأولاد الإناث الأصهار من جهة البنات	أم ولد كردية اسمها لبابة وقيل ريّا. أم الوليد بنت الوليد بن معاوية بن مروان. عبد الملك، عبد الله، محمد، عبد الرحمن، عثمان، الأصبغ، يزيد، أبان. أم مروان، أم الوليد، أم عثمان. أم مروان عند محمد بن منصور بن محمد بن مروان. أم الوليد عند الوليد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان. أم عثمان عند إبان يزيد بن محمد بن مروان.

الولايات واختيار الولاة

الولايات والولاة

تقسيم البلاد التابعة للدولة إلى وحدات إدارية أسلوب رصين في الإدارة لا غنى عنه، وفائدته لولاة الأمر أكيدة في سياسة الناس ورعاية مصالحهم، وقد اتبعه الرسول عليه السلام والخلفاء الراشدين، واتبعته الدول والامبراطوريات من قبل المسلمين ومن بعد، ولا تزال الدول تتبعه في الوقت الحاضر.

والمعارف الإدارية من الإرث المشترك بين المدنيات والحضارات، ولهذا فإن تبادل الخبرات والتجارب فيه والانتفاع منه بين الأمم والدول ممكن ما دام وجه العلاقة بينها فيه لا تضار معه شخصيتها، ولذلك لم يتردد المسلمون في الاستفادة من تراث الأمم والدول في هذا المجال، والانتفاع منه في إدارة أمور الدولة وتصريف شؤون الناس، واتخاذ الوسائل والأساليب النافعة والمناسبة منه لتحقيق الرعاية والأداء الأفضل.

ومن هذا القبيل، انتفعت الدولة الإسلامية في خلافة عمر بن الخطاب بنظام الدواوين الذي كان معمولاً به عند الفرس والبيزنطيين(١)، واستفادت من الإرث الإداري عند البيزنطيين في إدارة البلاد التي فتحتها وكانت من قبل بيد البيزنطيين(٢).

وإذا نظرنا إلى جدول الوحدات الإدارية في العصر الأموي، وجدنا الوحدات الإدارية في هذا العصر استمراراً لما كان عليه الحال في العصر الراشدي، إلاّ ما كان من

---

(١) انظر: الجهشياري / الوزراء والكتاب، ص: ١٧، البلاذري / فتوح البلدان، ص: ٥٤٧، ٥٤٩.

(٢) انظر:

Irfan Shahid, The Jund System in Bilad Al- Sham: Its origion, The Fourth International Confernce on the History of Bilad Al- Sham, Amman, Jordan, Oct. 15-21,1983.

فتحي عثمان / الحدود الإسلامية البيزنطية، ص٢٨٩و نجدة خماش / الإدارة في العصر الأموي، ص١٨، ٣٧، ٣٨، صالح العلي / دراسات في الإدارة، ص١٤، ١٥٥.

استحداث بعض وحدات إدراية جديدة مثل جند قنسرين الذي استحدث في خلافة معاوية بن أبي سفيان أو في خلافة يزيد ين معاوية استجابة للضرورات الطارئة، وما كان من ظهور وحدات إدارية جديدة بسبب الفتح مضافة إلى ما كان من قبل مثل بلاد المغرب والأندلس التي فتحت في خلافة عبد الملك بن مروان وفي خلافة الوليد بن عبد الملك.

والجدول لا يذكر جميع الوحدات الإدارية التي اشتملت عليها الخارطة الإدارية للدولة الإسلامية، وإنما تتردد المعلومات فيه حول الوحدات الإدارية من بلاد العرب، أو التي نزلها العرب، أو التي آلت إدارتها إلى ولاة عرب في الأغلب، ولعل مردّ ذلك إلى أن كافة المؤلفين تقريباً عاشوا في هذه البلاد، وعرفوا أحوالها، وتحدثوا في كتبهم عنها، أما البلاد الأعجمية، وبخاصة التي لم يستوطنها العرب، ولم تساهم بالأحداث التي لها علاقة بالخلافة، ولم يتولها ولاة عرب، فإن المعلومات عنها جاءت في كتب هؤلاء المؤلفين نزرة ويسيرة[(١)].

كما تتفاوت الأخبار عن هذه الوحدات وذكر أسماء ولاتها في هذا الجدول بين خليفة وخليفة، ولعلّ مردّ ذلك إلى مدى استحواذ أخبار الجوانب الإدارية على اهتمام المؤرخين بالمقارنة مع الأحداث الأخرى، ففي عهود الخلفاء الذين تميزت أيامهم بالسعة والنشاط والأمن والاستقرار والفتح مثل معاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك، كان الحديث عن الإدارة في عهودهم أوسع مجالاً، بينما كان الحديث عن الإدارة قليلاً ومحدوداً في عهود الخلفاء الذين اتسمت عهودهم بالفتن والاضطرابات ونشوب الحروب الداخلية أو التي كانت أيامهم قصيرة مثل معاوية بن يزيد وأمثالهما.

ومع أن عدد الوحدات الإدارية الواردة في الجدول ليس قليلاً نسبياً، إلاّ أنه بالمقارنة مع ما تشتمل عليه المنطقة نفسها في الوقت الحاضر من الوحدات الإدارية يبدو ضئيلاً

---

(١) انظر: صالح العلي / دراسات في الإدارة، ص١٦، ٣٨.

جداً، وذلك لأسباب تعود في الأغلب إلى الخارطة السياسية للمنطقة في الوقت الحاضر، وإلى الكثافة السكانية فيها، وما تتصف به الإدارة الحاضرة من التعقيد، فضلاً عما تزخر به الحياة الحاضرة من المصالح الكثيرة والمتشابكة، والحاجات والمتطلبات العديدة والمتزايدة.

أما بالنسبة للولاة على البلدان، فكان الخلفاء في هذا العصر هم الذين يباشرون تعيين الولاة وعزلهم، فالولاية في هذا العصر من النوع الذي أطلق عليه الماوردي اسم «ولاية الاستكفاء» خلافاً «لولاية الاستيلاء» التي ظهرت في العصور العباسية[1].

كان الخليفة يباشر تعيين الولاة في الأمصار الكبرى مثل مصر والكوفة والبصرة ويترك إلى هؤلاء الولاة تعيين ولاة البلدان الداخلة في عملهم، إلا أن هذا التعيين لم يكن بعيداً عن نظر الخليفة وعلمه وموافقته، وكان الخليفة يضطر أحياناً إلى عزل من ولاه هؤلاء الولاة، وتعيين آخرين اقتضاء للمصلحة العامة على نحو ما كان يحدث في بلاد خراسان التابعة لولاية البصرة، وفي افريقيا التابعة لولاية مصر[2].

وإذا نظرنا إلى جدول الوحدات الإدارية، وجدنا أن الولاية على البلدان كانت تتردد بين العرب في الأغلب، وبين غير العرب في الأقل الأقل. أما تردد الولاية على البلدان بين العرب، فأمر يظهر في إسناد الولاية إلى رجالات قرشية من بني أمية، وبني مخزوم، وبني سهم، وبني عدي، وغيرهم من بطون قريش.

(١) تناول الماوردي في كتابه «الأحكام السلطانية» بيان ولاية الاستكفاء وولاية الاستيلاء فبخصوص ولاية الاستكفاء ذكر أنها تتم عن اختيار، وتشتمل على عمل محدود ونظر معهود، أي أن الخليفة هو الذي يختار الوالي ويعيّن الأعمال الموكولة إلى نظره، أما ولاية الاستيلاء فهي التي تتم عن اضطرار، وتشتمل على البلاد التي غلب عليها المستولي، ويكون الوالي مستولياً عليها بالقوة ومستبداً بالسياسة والتدبير فيها، ويقوم الخليفة بتقليد المستولي استدعاء لطاعته، وحسماً لمخالفته ومعاندته.
انظر: الماوردي / الأحكام السلطانية، ص٣٠-٣٤.

(٢) انظر: أبو جعفر الطبري / تاريخه، ج٦، ص٦٢٠، ج٧، ص١٥٤، ابن الجوزي / سيرة عمر بن عبد العزيز، ص١٠٥، ١١٦-١١٧.

ويظهر أيضاً في إسناد الولاية إلى رجالات عربية من قبائل ثقيف، وغطفان وفزارة، وسليم، وأسد، وتميم، وكلاب، وباهلة، وكلاب، والأزد، وكلب، وكندة، وخولان، وجذام، وعذرة، ولخم، وغسان، وخثعم، والأشاعرة، والسكاسك، والسكون، وجهينة وغيرها من قبائل العرب.

أما تردد الولاية بين غير العرب فقليل جداً، ونذكر منهم فيروز الديلمي، وسعيد داوديه، وابا المهاجر دينار مولى مسلمة بن مخلد، وموسى بن نصير وأولاده، وطارق ابن زياد مولى موسى، وإسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم، ومحمد ابن يزيد مولى قريش، ويزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج.

وقد ذهب البعض في تفسير اختيار خلفاء بني أمية ولاتهم من العرب على البلدان إلى هوى هؤلاء الخلفاء بين اليمانية والمضرية، والمعلوم أنه إذا نظر إلى تعيين الولاة العرب من هذا المنظور لا يخرج الوالي العربي عن أن يكون مضرياً أو يمانياً.

وفي دراسة حول «القبائل العربية وأثرها في سلطان بني أمية» تبين أن قائمة الولاة في ظل كل خليفة من خلفاء بني أمية كانت تشتمل دوماً وبلا استثناء ولاة أمويين ومضريين ويمانيين[1]، وهذا دليل على أن المضرية واليمانية لم تكن المقصودة بذاتها في اختيار الولاة العرب على البلدان، وإن اختيار الخلفاء الأمويين ولاتهم العرب لم يكن مرده إلى هواهم المتأرجح بين هاتين العصبتين، فما هي الأسس التي راعاها هؤلاء الخلفاء في اختيار الولاة على البدلان؟

لم يكن يغب عن ذهن الخلفاء أن الولاة على البلدان هم خلفاؤهم فيها، وأنهم مأخوذون بجريرتهم، ولذلك حرصوا أن يكون هؤلاء الولاة رضى يوفون بما اقاموا أنفسهم له.

---

(١) انظر: علي بن عائش المزيني/ القبائل العربية واثرها في سلطان بني أمية، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية، الدراسات العليا، المدينة المنورة، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

فلما انتهت الخلافة إلى معاوية بن أبي سفيان، وآلت مقاليد الأمور إليه جعل عبد الله ابن عامر بن كريز الأموي والياً على البصرة، ولعبد الله رواية عن الرسول ﷺ، وهو كثير المناقب ولاّه عثمان بن عفان على البصرة، فافتتح خراسان، فلما قتل عثمان، وقف إلى جانب طلحة والزبير وعائشة، وقتل ابنه في معركة الجمل، ثم لحق بالشام، فلما ولاه معاوية البصرة ضعّفه أهل عمله، ورموه باللين وعدم الأخذ على أيدي السفهاء، وشكوه إلى معاوية فعزله[(١)]، وولى مكانه زياد بن أبيه.

وزياد بن أبيه من التابعين، وكان من أصحاب علي بن أبي طالب، ولي له الخراج وبيت المال والديوان بالبصرة، ولما قتل عليّ كان زياد عامله على فارس، واستطاع زياد آنذاك أن يضبط فارس من غير حاجة إلى جيش، مما أكبره في عين معاوية، ودعاه إلى استبطانه واستلحاقه بنسبه واستعماله[(٢)]، وكان مما كتب به معاوية إلى زياد: «إن قبلك رجلاً من أصحاب رسول الله فولّه خراسان وهو الحكم بن عمرو الغفاري»، فولاه زياد خراسان، واستعان زياد بعدة من أصحاب النبي ﷺ في عمله[(٣)].

وولى معاوية على الكوفة المغيرة بن شعبة الثقفي، والمغيرة صحابي، وكان من قادة الفتح الإسلامي في ميدان العراق، ولي البصرة لعمر بن الخطاب، ثم ولي له الكوفة، ووليها ببعض الوقت من خلافة عثمان، وفي الأحداث التي جرت بين علي بن أبي طالب وخصومه، وقف المغيرة على الحياد، وكان من الدهاء والولاة الأكفاء الذين أثنى عليهم أهل عملهم[(٤)].

---

(١) ابن سعد /الطبقات، ج٥، ص٤٤-٤٩، أبو جعفر الطبري /تاريخه، ج٥،ص١٧٠، ابن عساكر/ تاريخ دمشق، الذهبي /دول الإسلام، ج١، ص٣٥.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص١٩٤، الذهبي/ دول الإسلام، ج١، ص٣٥، ٣٩.

(٣) اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٢٢٢، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٢٢٤-٢٢٦.

(٤) ابن سعد /الطبقات، ج٥، ص١٧٤، ابن الأثير/ أسد الغابة، ج٥، ص٤٧-٤٨، الذهبي/ تاريخ الإسلام، ج٤، ص١١٧، سير أعلام النبلاء، ج٣،ص٢١. =

وولّى معاوية على مصر عمرو بن العاص، وعمرو صحابي شارك في الفتوح، وفتح مصر، ووليها لعمر بن الخطاب ثم لعثمان بن عفان بعض الوقت، ووقف إلى جانب معاوية في خلافه مع علي، وقاد الجيش بعد التحكيم وأخذ مصر من أصحاب علي عام ٣٨هـ[(١)].

وممّن ولاهم معاوية على مصر أخاه عتبة بن أبي سفيان قرابة السنة، ثم عقبة بن عامر الجهني ومعاوية بن حديج السكوني ومسلمة بن مخلد الأنصاري، وعقبة ومعاوية ومسلمة صحابيون، ولأهل مصر عنهم أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ، وكان هؤلاء غضبوا لمقتل عثمان، ورفضوا البيعة لعلي، ووقفوا إلى جانب معاوية، وسهلوا مهمة عمرو بن العاص في الاستيلاء على مصر وأخذها من أصحاب علي[(٢)].

أما الحجاز، فجعل معاوية يداول ولايته في الأغلب بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص، وكلا الرجلين من بني أمية، ولهما رواية عن الرسول ﷺ، ولهما خبرة في الإدارة والولاية اكتسباها منذ فترة سابقة وبخاصة في خلافة عثمان بن عفان[(٣)].

وإذا تمعّنا هذا القدر من الولاة الذين اختارهم معاوية على البلدان، وجدنا معاوية يراعي الصحبة والكفاية والولاء له عند اختيارهم، ومع أن عنصر الولاء لمعاوية قد يكون ملفتاً للنظر عند تقويم سياسة معاوية في اختيار الولاة مقارنة بسياسة الخلفاء السابقين، فقد يكون الولاء للخليفة سبيل المناصحة التي تستقيم بها الأمور. وعليه فالصحبة والكفاية والولاء، عوامل اساسية في الأغلب لفهم اختيار الولاة على البلدان ومدى بقائهم في عملهم أيام معاوية.

---

(١) ابن عبد الحكم /فتوح مصر، ص٢٤٨،أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٥، ص٩٨-١٠٥، الكندي/ الولاة والقضاة، ص٣١-٣٣.

(٢) خليفة بن خياط /تاريخه، ص١٩٥، ابن عبد الحكم /فتوح مصر، ص٢٧٦،٢٧٨، ٣٠٧-٣٠٨، اليعقوبي /تاريخه، ج٢، ص١٩٤، أبو جعفر الطبري /تاريخه، ج٥، ص٩٨-١٠٥، الكندي /الولاة والقضاة، ص٣٧-٣٨، البلاذري /أنساب الاشراف، ج١، ص٣٩٠.

(٣) ابن سعد /الطبقات، ج٥، ص٣٥، ٣٦-٣٩، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص١٧٢، ٢٣٢، ٢٩٣، ٢٩٥، ٢٩٨، ابن الأثير /الكامل في التاريخ ، ج٣، ص٢٢٨، ٢٤٦.

واختيار الولاة على البلدان من بني أمية يأتي منسجماً مع الأسس المتبعة في اختيار الولاة، ولكن الملاحظ أن معاوية جعل الولاية على الحجاز محصورة في الأغلب بالرجال من بني أمية، ويبدو أن معاوية لم يبعد في ذلك عن الغرض، فهو يظهر بذلك ولاية بني أمية للناس وتقدمهم على سائر بيوت قريش وإمرتهم عليهم، سيما وأن الخلافة استقرت في قريش، ويضبط بهم أمور الحجاز ويأمن ثورته للوصول إلى الخلافة، فضلاً عن أنه يبقى هؤلاء الشيوخ من بني أمية بعيدين عن الشام مركز الثقل السياسي في ايامه، ولم يكن يتنزه عن أن يغري بينهم[١]، ليأمن من مضاددتهم لأغراضه ومراميه.

ثم عزم معاوية على البيعة لابنه يزيد واستخلافه من بعده، وسخّر الولاة ووجوه الناس والشعراء في الإعداد لذلك وتنفيذه، وتحمّل الولاة العبء الأكبر في القيام بهذه المهمة، وصاروا شركاء الخليفة فيها[٢]، وتصيبهم آثارها، وتلحقهم تبعاتها، ثم مات معاوية.

وبعد موت معاوية، عانى والي الحجاز مشقة أخذ البيعة من بعض أبناء كبار الصحابة ليزيد، وتعرض ولاة يزيد في المدينة ومكة والعراق لثورات ثلاث، نشبت في هٰذه البلدان في فترات متباينة احتجاجاً على خروج معاوية على مبدأ الشورى في اختيار الخليفة والبيعة ليزيد، وقام يزيد بن معاوية، حسب وصية أبيه في استبطان أهل الشام، والانتصار بهم على خصمه[٣]، بإرسال جيش من أهل الشام إلى الحجاز للقضاء على المعارضة وإخماد الثورة، وكان والي العراق عبيد الله بن زياد، يتهدد الكوفيين من أنصار الحسين بن علي، ويتوعدهم بجيش أهل الشام ليفك الحصار الذي ضربوه عليه، وقتل الحسين بن علي على أرض العراق، وأخمدت ثورته في موقعة كربلاء، وفعل بثورة المدينة مثل ذٰلك في موقعة الحرة، وجاء دور ثورة عبد الله بن الزبير في مكة، ومات يزيد بن معاوية في أثناء ذٰلك، وتنازل ولده معاوية بن يزيد عن الخلافة، ومات بعد ذٰلك

---

(١) البلاذري / أنساب الأشراف، ج١، ص٣٣.

(٢) أبو جعفر الطبري / تاريخه، ج٥ ص٣٠١-٣٠٢، المسعودي / مروج الذهب، ج٣، ص٣٦.

(٣) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٢١٥-٢١٩، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٣٢٣.

بقليل، دون أن يعهد بالخلافة لأحد من آل بيته، وبدا وكأن ما خطط له معاوية وشاده قد انهار، وبدأت مرحلة جديدة أخذ رؤساء القبائل ومن كان من الولاة، يلعبون فيها دوراً مؤثراً في تقرير أمر الخلافة ومن تكون له.

فقد رجع عبيد الله بن زياد عائداً من العراق إلى الشام، وفي نفسه بحكم استلحاق بيته بالنسب الأموي، أن تبقى الخلافة في بني أمية، وكانت بعض القبائل من أهل الشام[(١)]، بحكم المصاهرة لمعاوية والمنزلة التي كانت تتبوأها في عهد معاوية وولده يزيد[(٢)]، ترغب أن تكون الخلافة في بني أمية، ولكنها كانت مترددة أول الأمر بين بني معاوية بني أبي سفيان وبين مروان بن الحكم تتجاذبها الأطماع والمخاوف[(٣)]، ثم اتفقت كلمتها من بعد ذلك على البيعة لمروان بن الحكم.

ووقفت بعض الأطراف الأخرى موقفاً مغايراً لمن سبق ذكرهم، ففي هذه الفترة التي بدأ فيها انحلال أمر بني أمية، دعا النعمان بن بشير الأنصاري الذي كان والياً على حمص، إلى عبد الله بن الزبير متعاطفاً مع المدينة الغاضبة على بني أمية وما فعلوه في موقعه الحرة، ومال زفر بن الحارث، رئيس قبيلة كلاب في قنسرين، إلى جانب عبد الله ابن الزبير، ودعا الضحاك بن قيس الفهري في دمشق الى عبد الله بن الزبير وقيل دعا الى البيعة لنفسه[(٤)]، ونشط ناتل بن قيس الجذامي أحد رؤساء جذام في فلسطين في تأييد عبد الله بن الزبير والبيعة له، وأعلن عبد الرحمن بن جحدم في مصر البيعة لعبد الله بن الالزبير، وأما العراق، فكان موزع الولاء بين ابن الزبير، وآل علي بن أبي طالب، وبني أمية حتى تمكن مصعب بن الزبير من بسط سلطان أخيه عبد الله بن الزبير عليه.

(١) كان من هذه القبائل التي أبدت بني أمية: كلب والسكاسك والسكون وغسان، انظر: أبو جعفر الطبري / تاريخه، ج٥، ص٥٣١-٥٣٨.

(٢) انظر: المسعودي / مروج الذهب، ج٣، ص٩٥.

(٣) انظر: البلاذري / أنساب الأشراف، ج٥، ص١٣٣-١٣٤.

(٤) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٥٣٥.

ثم اجتاز بنو أمية هذه المحنة القاسية، واستوى سلطانهم على كل البلاد، بعد أن كانت أطبقت خلا الأردن بالتأييد لعبد الله بن الزبير.

انعكست الأزمة السياسية التي مرّ بها سلطان بني أمية على سياسة الخلفاء في اختيار الولاة، وبمطالعة الجدول المرفق عن «الوحدات الإدارية ورؤساؤها في العصر الأموي» لمعرفة الولاة على البلدان أيام مروان بن الحكم وابنه عبد الملك، وهي الفترة التي صاحبت وأعقبت الأزمة السياسية التي تعرض لها سلطان بن أمية، نجد عامل الولاء يحظى بالمكان الأول في اختيار الولاة على البلدان، فأبو عثمان بن مروان بن الحكم ثم عبد الملك بن مروان بن الحكم على فلسطين، وعبد العزيز بن مروان بن الحكم على مصر.

ولما قام عبد الملك بن مروان بأمر الخلافة من بعد أبيه مروان أقرّ أخاه عبد العزيز بن مروان على مصر، ولما مات عبد العزيز ولّى ابنه عبد الله بن عبد الملك عليها، وولّى خالد بن عبد الله الأموي على البصرة، وولّى بشر بن مروان بن الحكم على الكوفة ثم ضمّ إليه البصرة، والوليد بن عبد الملك على دمشق، وعبد الله بن عبد الملك ثم ابان بن عقبة الأموي على حمص، وابا عثمان بن مروان بن الحكم علىالأردن، وابان بن مروان ابن الحكم ثم سليمان بن عبد الملك بن مروان ثم يوسف بن يحيى بن الحكم الأموي ثم محمد بن مروان بن الحكم على الموصل، وأمية بن عبيد الله الأموي على خرسان، وعبد الله بن أمية الأموي على سجستان.

وهؤلاء الولاة أمويون من بني مروان في الأغلب، ولا شكّ أن «الأموية» تحتل سنام الولاء وذروته في الحفاظ على سلطان بني أمية، واعتماد الأموية في اختيار الولاة مظهر من مظاهر السياسة التي اتبعها معاوية كما رأينا، ولكنها ازدادت أيام مروان وابنه عبد الملك اتساعاً نظراً للظروف السياسية الآنفة الذكر.

وهناك بعد آخر في تركيز الولاية بالبيت الأموي واختيار ولاة منهم، وهو أن الأزمة السياسية كشفت عن اجتهادات ومواقف متباينة لدى بعض قيادات القبائل ازاء المتنازعين

على الخلافة، فكان من شأن اسناد الولايات الى رجالات أموية أن يساعد على وحدة الصف ورفع الخلاف، ومن ذلك أن أهل خراسان كتبوا الى عبد الملك، أن خرسان لا تصلح بعد الفتنة ألا على رجل من قريش لا يحسدونه، ولا يتعصبون عليه، فولى عبد الملك على خراسان أميّة بن عبيد الله بن خالد الأموي(١)، وقد يكون تعيين ولاة علىأجناد الشام من البيت الأموي يلتقي مع هذا الغرض بعدما ظهر الاختلاف بين كبار رجالات أهل الشام في أثناء النزاع على الخلافة.

وهو بُعْدٌ يلتقي مع سابقه في الحفاظ على سلطان بني أمية وابقائه فيهم، وولى مروان ابن الحكم حسان الكلبي على الأردن، وحسان وبنو كلب ممن لا يُشكّ في جدّهم واجتهادهم في موالاة بني أمية ونصرة سلطانهم(٢).

وولى عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي على الحجاز واليمن، ثم ولاه من بعد ذلك على العراق، فجمع له المصرين البصرة والكوفة وأعمالهما، والحجاج ثقفي، وعلاقة ثقيف ببني أمية منذ قبل الإسلام معروفة، وكان ولاؤهم لبني أمية يؤلم عبد الله بن الزبير، واشترك الحجاج وأبوه في الحملة التي وجهها مروان بن الحكم إلى الحجاز لقتال عبد الله بن الزبير(٣)، ولما قتل عبد الملك بن مصعب بن الزبير واستولى على العراق، أراد أن يبعث جيشاً لقتال عبد الله بن الزبير في الحجاز، فقام الحجاج إلى عبد الملك، وقال: ابعثني إليه يا أمير المؤمنين، فإني رأيت في المنام كأني ذبحته وجلست على صدره وسلخته، فبعثه عبد الملك على راس ذلك الجيش(٤)، وولى عبدالملك محمد بن يوسف الثقفي على اليمن ومحمد بن عمر الثقفي على الأردن،

(١) انظر: أبو جعفر الطبري / تاريخه، ج٦، ص١٩٩-٢٠٠.

(٢) انظر: أبو جعفر الطبري / تاريخه، ج٥، ص٥٣١-٥٣٢، ابن عساكر / تاريخ دمشقو ج٤، ص٣٩٤-٣٩٥، ترجمة حسان بن مالك، البلاذري، أنساب الأشراف، ج٥، ص١٣٣-١٣٤.

(٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص١٢، ابن قتيبة / المعارف، ص١٧٣.

(٤) انظر: اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٢٦٦، البلاذري/ أنساب الاشراف، ج٥، ص١٩٧، ابن عساكر / تاريخ دمشق، ج٤، ص ٢٠٨-٢٥٩، ترجمة الحجاج بن يوسف.

وقد راعى ولاة الأمصار عند تعيين الولاة على البلدان الداخلة في عملهم عنصر الولاء فيهم لبني أمية.

وإلى جانب الولاء، كانت الكفاية بعداً آخر من أبعاد استكفاء الولاة على البلدان، وهو بعد يظهر في النجاح الذي حققه هؤلاء الولاة في هذه الفترة في تصريف أعمالهم ممثلاً بالحجاج والجهاز الذي استعان به طيلة عشرين سنة من ولايته على العراق وبلاد المشرق وإنجازاته في الفتح والعمران والثقافة، وممثلاً بولاية عبد العزيز بن مروان على مصر وبلاد المغرب، وما تحقق على يديه وأيدي الذين استعان بهم من الولاة مدة عشرين سنة.

أما الصحبة، فنجدها في اختيار زهير بن قيس البلوي على افريقية، وكان زهيراً صحابياً، ولزم عمرو بن العاص في الفتنة[1]، وبعد ذلك فلا نسمع عنها في اختيار الولاة في هذه الفترة، لوفاة الصحابة في الأغلب وانقضاء زمنهم، ولكننا نجد العلم والتقى والورع والسنّ صفات تراعي في الأغلب عند استكفاء الولاة من أبناء الجيل الذي خلف جيل الصحابة وهو جيل «التابعين».

وإذا استثنينا من اتّهم بالفسق وسوء السيرة مثل قرة بن شريك، وجدنا الآخرين من الولاة على مثال حسن.

فعبادة بن نسي الكندي وعدي بن عميرة بن عدي ممن ينزل الله بهم الغيث وينصر بهم على الأعداء[2]، وايوب بن شرحبيل الصباح أحد أفضل اثنين من أهل مصر في خلافة عمر بن عبد العزيز[3]، وعبد الملك بن رفاعة الفهمي حسن السيرة، وديّن فيه عدل، وثقة أمين فاضل[4]، وحفص بن الوليد ثقة فاضل[5]، والجراح بن عبد الله الحكمي

---

(١) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج٦، ص٤٥٦-٤٥٨، ترجمة زهير بن قيس البلوي.

(٢) ابن عساكر / تاريخ دمشق، ج١١، ص٥٠٥-٥١١، ترجمة عدي بن عميرة بن عدي الكندي.

(٣) الكندي / الولاة والقضاة، ص٦٩، وكان الثاني معاوية بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج.

(٤) ابت غري بردي/ النجوم الزاهرة، جـ، ص٢٣١.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٢٦٤.

صالح وعابد قارىء ومن رواة الحديث قال، تركت الذنوب حياء أربعين سنة ثم أدركني الورع[1]، وعروة بن محمد بن عطية السعدي، حليم يتحرى العدل ومن رواة الحديث، وقال لما دخل اليمن، يا أهل اليمن هذه راحلتي، فإن خرجت بأكثر منها فأنا سارق، وخرج من اليمن وما معه إلاّ سيفه ورمحه ومصحفه[2]، وعمير بن ضابىء العنسي تابعي ثقة[3]، وكلثوم بن عياض القشيري من أهل الخير والتقوى وصاحب مواعظ[4]، وعبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ثقة ومأمون[5]، ومحمد بن سويد الفهري شامي تابعي ثقة[6]، واشرس بن عبد الله السلمي فاضل خيّر، وكانوا يسمونه الكامل لفضله[7]، والأمثلة كثيرة.

وإضافة إلى الشواهد السابقة التي تتعلق بخصال وشمائل بعض الولاة، ورد عن عمر ابن عبد العزيز أنه لما أراد أن يولّى على مصر، قال: دلوني على رجل من أهل مصر له شرف وصلاح أولّيه صلاتها[8]، ولما قتل يزيد بن أبي مسلم الوالي على أفريقيا، اجتمع الناس فنظروا في رجل يقوم بأمرهم، واجتمع رأيهم آخر الأمر على تولية محمد بن أوس الأنصاري، ولما سأل الخليفة يزيد بن عبد الملك عن محمد قيل له: رجل من أهل الدين والفضل معروف بالفقه[9]، وولى الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك منصور بن جمهور الكلبي على العراق، فقال له يزيد بن حجرة الغساني، يا أمير المؤمنين،

(١) الذهبي / سير أعلام النبلاء، ج٥، ص١٨٩-١٩٠.
(٢) ابن عساكر / تاريخ دمشق، ج١١، ص٥٨٦-٥٨٩، ترجمة عروة بن محمد بن عطية السعدي.
(٣) المصدر نفسه، ج١٣، ص٦٨٥-٦٨٩، ترجمة عمير بن ضابىء العنسي.
(٤) المصدر نفسه، ج١٤، ص٥٩٠-٥٩٣، ترجمة كلثوم بن عياض.
(٥) المصدر نفسه ج٩، ص٧٩٧-٨٠٢، ترجمة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب.
(٦) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٥، ص٤٠٦-٤٠٧، ترجمة محمد بن سويد.
(٧) أبو جعفر الطبري / تاريخه، ج٧و ص٥٣.
(٨) الكندي / الولاة والقضاء، ص٦٧.
(٩) ابن عبد الحكم / فتوح مصر، ص٢١٥.

أولّيت منصوراً العراق؟ قال: نعم، لبلائه وحسن معونته، قال: يا أمير المؤمنين، إنه ليس هناك في إعرابيته وجفائه في الدين، قال: فإذا لم أُولّ منصوراً في حسن معاونته فمن أولّي؟ قال: تولي رجلاً من أهل الدين والصلاح والوقوف عند الشبهات، والعلم بالأحكام والحدود[1].

وهذه الشواهد والأمثلة تشير إلى العوامل والأسس التي كانت تراعى عند اختيار الولاة على البلدان، ولا شك أن العصر الأموي كان يشهد سيادة المفاهيم والقيم الاسلامية، وكانت هذه المفاهيم والقيم المنبثقة عن عقيدة وشريعة الإسلام الموجه لحياة الجماعة والمجتمع والدولة.

وأما ما رمي به البعض من الولاة بالضعف أو ما رموا به من الظلم والجور فمسألة تتعلق بالمثال والتطبيق، والاختلاف في الرأي والإجتهاد بين ولاة الأمر والناس في تقييم الوسائل المتخذة للحفاظ على أمن وسلامة الجماعة والمجتمع والدولة والتي يكون بهما سلامة وأمن الفرد.

ومن المناسب أن نذكر أن ولاة الثغور كانوا يتخيرون من أهل النجدة والبأس والشجاعة، فعلى سبيل المثال، كان حسان بن النعمان بطلاً شجاعاً ومجاهداً ميمون النقيبة[2]، وكان الجراح بن عبد الله الحكمي فارساً بطلاً شجاعاً[3]، وكان عمارة بن تميم اللخمي من أهل البأس والنجدة وأيمن الناس نقيبة[4]، وكان الأسود بن بلال المحاربي شجاعاً جلداً شديد البأس يحمد حزمه وعزمه وجهاده وصنع الله له[5] وغيرهم في مثل صفاتهم من ولاة الثغور كثير.

---

(١) ابن عساكر / تاريخ دمشق، ج١٧، ص٢١٤-٢١٥، ترجمة منصور بن جمهور.
(٢) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج١٤، ص١٤٠، ترجمة حسان بن النعمان.
(٣) الذهبي/ سير أعلام النبلاء، ج٥، ص١٨٩-١٠٩.
(٤) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج١٢، ص٥٧٧-٥٧٨، ترجمة عمارة بن تميم.
(٥) المصدر نفسه، ج٣، ص٨-٩، ترجمة الأسود بن بلال.

استمرت العوامل المذكورة سابقاً تراعى عند اختيار الولاة على البلدان، ولم يختلف الحال بين خليفة وآخر في الأغلب، ولٰكن «الأموية» باعتبارها معلماً من معالم الولاء كانت تبرز أكثر عند تعرض سلطان بني أمية للخطر.

فلما ثار يزيد بن المهلب في العراق، وجه الخليفة يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة ابن عبد الملك بالجيش إليه، وبعد القضاء على الثورة، ولى يزيد أخاه مسلمة على العراق، واستعان مسلمة بعبد الملك بن بشر بن مروان بن الحكم على البصرة، وبمحمد بن عمر ابن الوليد الأموي على الكوفة، وبسعيد بن عبد العزيز بن الحارث الأموي على خراسان[(١)].

ولما وقع الخلف بين بني أمية، وتقاتلوا على السلطان، صار الولاء عند هٰؤلاء يقصر عن الحرص على سلطان بني أمية إلى الحرص على سلطان الفرد منهم، مما كان لذٰلك الأثر الكبير في الإضرار بسلطان بني أمية، وهٰذا ظاهر في اختيار الوليد بن يزيد ابنه وأخيه وأخواله الثقفيين يشدّ بهم أزر سلطانه بعدما لحقه ما لحقه من الضرر على يد هشام بن عبد الملك وانتقامه ممن أعان وناصر هشاماً عليه[(٢)]، ويظهر هٰذا الاختيار أيضاً في فعل يزيد بن الوليد بن عبد الملك الذي ثار على ابن عمه الوليد بن يزيد وقتله واستعان بمن طابقه على ذٰلكوناصره[(٣)]، ولعلّ هٰذه الظاهرة كانت أطلّت أيام سليمان بن عبد الملك، ولكنها توقفت بفضل السيطرة عليها، فلما بلغت الخلافة عند عتبة أحفاد عبد الملك بن مروان مفترق الطرق، دعاهم الحرص على الخلافة إلى الاقتتال، وتوزعوا أحزاباً وشيعاً، واتخذ كل طرف من والاه عضداً ونصيراً.

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص٦٠٤-٦٠٥.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢١٨، ٢٢٦، ٢٢٧-٢٢٩، ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج٢، ص٦٢-٦٥، ج١٠، ص٤٩٢.

(٣) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج١٧، ص٢١٤-٢١٥، ترجمة منصور بن جمهور.

أما بالنسبة للولاة من الموالي، فجاء تعيينهم على اليمن أيام معاوية بن أبي سفيان، واليمن أهل طاعة[1]، ثم على أفريقية والمغرب، وأهل هٰذه البلاد من البربر، ومن هٰؤلاء الموالي الولاة، موسى بن نصير، وموسى مولى لخم، وقيل مولى بني أمية، وكان ذا رأي وحزم وتديّن ومن رواة الحديث، ولاه معاوية بن أبي سفيان البحر، وغزا قبرس، وقدّمه معاوية لجسامته على آخر لأداء مهمة بقبرس، وقال: ما ينبغي للسلطان أن يستعين إلاّ بالجسيم لهيبته، ووقف موسى إلى جانب مروان بن الحكم، ولما ولى عبد الملك بن مروان أخاه بشراً على العراق، أشخص معه موسى وزيراً، ثم رجع موسى إلى مصر، وكان عبد العزيز بن مروان أميراً، وولاه عبد العزيز أفريقية، وجاءت على يديه فتوح المغرب والأندلس[2].

ومنهم إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم، وهو من أهل دمشق، وكان مؤدِباً لأولاد عبد الملك بن مروان، حسن السيرة ومن صالحي المسلمين، وتابعي ثقة، ولم يبق في ولايته على أفريقية من البربر أحد إلاّ أسلم[3].

وولّى سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد مولى قريش بمشورة الرجل الصالح رجاء بن حيوة[4].

ومنهم يزيد بن أبي مسلم مولى ثقيف، وكان كاتباً للحجاج بن يوسف الثقفي في العراق، وقد كشفه سليمان بن عبد الملك فلم يجد عليه خيانة، وأراد يزيد أن يشم حرسه، وكانوا من البربر، فيجعل في يد الرجل اليمنى منهم «اسمه»، وفي اليد اليسرى

(١) المصدر نفسه، ج١١، ص١٣٤-١٣٥، انظر ترجمة عثمان بن عثمان الثقفي، الذهبي/ سير أعلام النبلاء، ج٤، ص٣٤٧.

(٢) ابن عبد الحكم/ فتوح مصر، ص٢٠٣، ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج١٧، ص٤٠٧-٤١٣، ترجمة موسى بن نصير.

(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص٢١٣، ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج٢، ص٨٤٩-٨٥٥، ترجمة إسماعيل بن عبيد الله.

(٤) ابن عبد الحكم / فتوح مصر، ص٢١٣.

«حرسي» فيعرفوا بذلك من غيرهم، فأنفوا من ذلك، وقتلوه، وقيل اتهم عبد الله بن موسى بن نصير بالتحريض على قتله(١).

ومنهم فيروز الديلمي من أوائل الذين اسلموا من أهل اليمن ولقي الرسول ﷺ فقال له: إني أسلمت وتحتي أختان، فقال له الرسول طلّق ايهما شئت، وأما ابنه الضحاك بن فيروز فتابعي عدّه البعض في الطبقة الأولى من تابعي أهل اليمن(٢).

وعند التدقيق في سيرة هؤلاء الرجال نجد اختيارهم ولاة على البلدان لا يخرج عن الأسس التي اتبعت في اختيار الولاة من العرب، وينطبق الحال على غيرهم من الولاة العرب وغير العرب في الأغلب.

ولعلّ من المناسب أن نذكر بعض الاستثناءات التي تمثّلت باتخاذ دالّة القرابة وسيلة إلى الولاية من غير أن يبلغ ذلك حد الإضرار بالاتجاه العام المتبع في اختيار الولاة، ومن هذا القبيل، كان تعيين عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الله بن عثمان الثقفي على الكوفة، وعبد الرحمن هو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان، ولما أساء عبد الرحمٰن السيرة أخرجه أهل الكوفة فلحق بمعاوية، فولاه معاوية على مصر ولكن أهل مصر ردّوه(٣).

ولا بدّ من الإشارة إلى أن استقراء قائمة الولاة على البلدان أيام بني أمية يكشف بوضوح عن وجود «عصبية النسب» في اختيارهم، فهم من قريش بفروعها المختلفة في الأغلب، ومن قبائل تميم وسليم وكلب وربيعة وغيرها من قبائل العرب، ولكن اختيار هؤلاء الولاة دون غيرهم من رصفائهم في عصبية النسب، كان يتم إضافة إلى العوامل السابقة الذكر وفق مكانة وشرف الرجل منهم في الجماعة، فحسان بن مالك بن بحدل الكلبي زعيم كلب ومقدمهم(٤)، وحبيش بن دلجة القيني أحد وجوه أهل

(١) ابن عبد الحكم /فتوح مصر، ص٢١٤-٢١٥، ابن عساكر /تاريخ دمشق، ج١٨، ص٣٨٥-٣٨٩.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٨، ص٤٠٧-٤٠٩، ترجمة الضحاك بن فيروز الديلمي.

(٣) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٢٢٤، ابو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٣١٢.

(٤) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج٤، ص٣٩٤-٣٩٥، ترجمة حسان بن مالك.

الشام[١]، وروح بن زنباع الجذامي مميز عند الناس[٢]، وزفر بن الحارث الكلابي، ومالك بن هبيرة السكوني من الرؤساء الأشراف[٣]، والمهلب بن أبي صفرة أحد اشراف العرب[٤]، وعبيد الله بن أبي بكره سيد أهل الشرق[٥]، وعبد الملك بن مسمع بن مالك بن مسمع سيد وجواد، وكان فتى ربيعة وسيدها في زمانه[٦]، والجنيد بن عبد الرحمٰن المري من الأجواد[٧]، ويزيد بن شجرة الرهاوي سيد أهل الشام[٨]، وايوب بن شرحبيل بن أبرهة الصباح من السادة الأشراف[٩]، والأمثلة كثيرة.

والمستفاد من «عصبية النسب» ومكانة الوالي في هذا النسب، هو القوة التي يتم بها التسليم والانقياد للوالي، ولما استشار يوسف بن عمر الثقفي الخليفة هشام بن عبد الملك في تولية مسلم بن قتيبة الباهلي على خراسان قال هشام: «إنّ مسلم بن قتيبة رجل ليس له بخرسان عشيرة، ولو كان له بها عشيرة لم يقتل بها أبوه[١٠]». وبالنسبة للوالي من الموالي، فالنسب بالولاء لا يخلو من الفائدة، فإذا اجتمعت الخصال السابقة، وصحت نيّة الدولة في اختيار للولاية، كانت ريح الدولة قوة له، فلما اختار هشام بن عبد الملك نصر بن سيار الليثي والياً على خراسان قيل لهشام، نصر بخراسان قليل العشيرة، فقال هشام: أنا عشيرته[١١].

---

(١) المصدر نفسه، ج٤، ص١٩٣-١٩٤، ترجمة حبيش بن دلجة.
(٢) ابن تغري بردي / النجوم الزاهرة، ج١، ص١٠٥.
(٣) الكندي/ الولاة والقضاء، ص٤٢.
(٤) الذهبي/ دول الإسلام، ج١، ص١٠٥.
(٥) ابن قتيبة/ المعارف، ص١٢٦.
(٦) ابن عساكر / تاريخ دمشق، ج١٠، ص٥٣١-٥٣٣، ترجمة عبد الله بن مسمع.
(٧) المصدر نفسه، ج٤، ص٤٤-٤٧، ترجمة الجنيد بن عبد الرحمن.
(٨) المصدر نفسه.
(٩) الكندي/ الولاة والقضاة، ص٦٧، ٦٩.
(١٠) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص١٥٤.
(١١) المصدر نفسه، ج٧، ص١٥٥.

ومما يتصل بعصبية النسب، أن الولاة انهضوا معهم بني قومهم في عملهم،فقد استعان الحجاج بن يوسف الثقفي ببني المغيرة بن شعبة الثقفي على أنهم رجال قومه وبنو أبيه، صلحاء نبلاء أشراف بأبدانهم سوى شرف أبيهم ومنزلتهم في قومهم، وهم عروة ابن المغيرة ومطرّف بن المغيرة وحمزة بن المغيرة،كما استعان بالحكم بن أيوب الثقفي ومحمد بن يوسف الثقفي والبراء بن قبيصة الثقفي والمغيرة بن عبد الله الثقفي ومحمد ابن القاسم الثقفي(١).

وكان مسلم الباهلي كبير القدر عند يزيد بن معاوية، وكان ابنه قتيبة بن مسلم على ميمنة الحجاج بن يوسف الثقفي في أثناء ثورة ابن الجارود أهل البصرة عليه، ثم ولاه الحجاج خراسان، فاستعان قتيبة في عمله وفتوحاته بإخوته عبد الله وعمرو وصالح وعبد الرحمن(٢).

واستعان المهلب بن أبي صفرة بأولاده حبيب والمغيرة ويزيد والمفضل ومدرك ومحمد وعبد الملك وعبد الله، واستعان يزيد بن المهلب من بعده بإخوته وولده(٣).

واستعان خالد بن عبد الله القسري البجلي بأخيه أسد بن عبد الله وإسماعيل بن أوسط البجلي وعبد الله بن عمرو البجلي وعاصم بن عمرو البجلي وضبيس بن عبد الله البجلي(٤)، واستعان عمر بن هبيرة الفزاري بحسّان بن عبد الرحمن الفزاري وفراس بن سمي الفزاري زوج أم عمر بن هبيرة، واستعان يوسف بن عمر بن الثقفي بولديه الصلت والحكم بن الصلت وأخيه القاسم بن عمر ويوسف بن محمد بن القاسم الثقفي

(١) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٢٩٣-٢٩٥، ٣١٠، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص٢٨٤.

(٢) اليعقوبي /تاريخه، ج٢، ص٢٨٧، البلاذري/ فتوح البلدان، ص٥١٨، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦،ص٤٦٣، ٤٧٠، ٤٧٣، ٤٨٠.

(٣) ابو حنيفة الدينوري/الأخبار الطوال، ص٢٨٠، البلاذري/فتوح البلدان، ص٤٩٣، خليفة بن خياط / تاريخه، ص٣١٨-٣١٩.

(٤) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٣٥٨.

ومحمد ابن عبد الله الثقفي وأبي أمية بن المغيرة بن عبد الله الثقفي[1].

واستعان موسى بن نصير بأولاده عبد العزيز وعبد الله ومروان وعبد الأعلى وابن أخيه أيوب وطارق مولاه[2]. وهكذا فعل غيرهم من الولاة في الأغلب.

فعصبية النسب للولاة ومكانة الواحد منهم في قومه موجودة كما رأينا، ولكنّ اختيار الدولة إياهم ولاة عزّز ما كان لهم من الشرف والمكانة وساهم في إبراز البيوتات التي تدّل بالشرف والجاه، سيما وأن الولاية ترددت في بعض الأسر والبيوتات غير مرة وفي ظل أكثر من خليفة، فالثقفيون تولوا الولايات منذ بداية السلطان الأموي وحتى نهايته، وعمل المهالبة في ظل بني أمية وبني العباس أيضاً.

---

(١) خليفة بن خياط / تاريخه، ص٣٥٧،٣٥٨.

(٢) ابن عبد الحكم / فتوح مصر، ص٢١٠.

سياسة الولاة

سياسة الولاة:

ينوب الوالي كما هو معلوم عن الخليفة في سياسة الولاية وتصريف شئونها، ولكن الخلفاء في العصر الأموي تابعوا تحديد صلاحيات الوالي في نيابته عنهم، فجعلوا ولاية الوالي في الأغلب خاصة تقتصر على تدبير الجيش وسياسة الرعية وتوفير الأمن وحماية الناس، وأما القضاء وجباية الخراج والصدقات فجعلوها إلى غيره.

وآثار الولاة الذين شاركوا في سياسة الدولة أيام الأمويين تشير إلى أنهم لم يكونوا سواء، فمنهم من طالت ولايته، ولم يخرج من الولاية إلاّ بالموت، وكان أثر بعض هؤلاء في سياسة الدولة واضحاً، وميسمه عليها بيناً، وربما ارتقت سياسة بعضهم إلى مستوى مدرسة سياسية في الحكم، ومنهم من حاول أن يقلد هؤلاء، فاختلفت أحوالهم عند الخلفاء بين استمرار الاستعانة بهم والعزل وفق الظروف ومقتضيات الضرورة، وكانت مرتبتهم من السابقين مرتبة المقلد من المجتهد.

وآخرون لم يلحقوا بهؤلاء، وكان منهم من هو مستور الحال، ومنهم من لم تكتمل له في السياسة طريقة تعرف به ويعرف بها، ومضى هؤلاء من غير أن تكون الأخبار عنهم بالقدر الذي كان من السابقين من أصحاب المدرسة السياسية في الحكم.

كان همّ هؤلاء الولاة أن يحفظوا ما استرعوا من الغوائل، ويقوموا بما أسند إليهم قياماً مرضياً لأهل الولاية والدولة، وهم وأن توحدت همومهم، فإن وسائلهم في أداء أعمالهم كانت تختلف أحياناً، واختلاف وسائلهم كان يعود في الأغلب إلى عوامل أهمها شخصية الوالي وظروف وأوضاع الولاية وسياسة الدولة.

وقد تكون ولاية العراق مثالاً مناسباً لبيان ذلك، فعلى أثر الصلح بين الحسن بن علي ابن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان، وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، دخل أهل الكوفة في الجماعة وبايعوا معاوية.

وكان المغيرة بن شعبة الذي ولاه معاوية على الكوفة (٤١هـ-٥١هـ)، تأتيه أخبار الناس فكان لا يفتش أحداً عن رأي أو هوى، وَحَسْبُه أن أعمال الولاية تجري بانتظام وأن لا خوف من أحد على الطاعة والجماعة، حتى إذا بلغه أن الخوارج استعدوا يوماً للثورة، أرسل الشرطة في القبض عليهم، وزجّ بهم في السجن بتهمة شق عصا المسلمين وتفريق الجماعة، ثم قام في أهل الكوفة، فحبّب إليهم الطاعة والأمن، وبغّض إليهم الخلاف والشقاق، وأخبرهم بما يبيّت له الخوارج من الفتنة وتفريق الجماعة، وطلب إليهم أن يأخذوا على أيدي هؤلاء، وأن يكفيه كل امرىء من الرؤساء أهل الخلاف والفتنة من قومه، فإن لم يفعلوا عصب الحليم التقيّ بذنب السفيه الجاهل، وجعل كل حيّ من الأحياء خرجت فيه خارجة من هؤلاء نكالاً لمن بعده[١].

وزياد بن أبيه الذي ولاه معاوية على البصرة (٤٥هـ-٥٣هـ)، وضمّ إليه الكوفة (٥١هـ-٥٣هـ) بعد موت المغيرة بن شعبة، لم يبعد عن سياسة المغيرة، فقد أعلن لما جاء إلى البصرة والياً، أنه لن يكشف لأحد قناعاً، ولا يهتك له ستراً مهما اعتمل البغض في صدره لزياد حتى يبدي صفحته ويثور على الدولة[٢]، وجعل الفرد محكوماً بما عليه أهل الجماعة من الطاعة والوقوف عند حدود الإسلام، وأثَارَ الحس عند الجماعة، وحرّك الروح الجماعية فيها، وجعلها مسئولة عن الفرد، واتخذها الوسيلة إلى الأمن والنظام ووحدة الأمة، فأنكر على أهل البصرة ما ينتهك في بلدهم من حرم الإسلام، ويعتدي فيها على الأموال والأرواح وهم ينظرون ولا يغضبون، وأعلن أن سيأخذهم بجريرة أهل الفسق منهم حتى يستقيموا، ويسوسهم بلين لا ضعف فيه، وشدة من غير جبرية ولا عنف[٣]، إشارة منه إلى الوقوف في سياسته عند أحكام الإسلام التي تعدّ منهجاً وسطاً في سياسة الحياة.

---

(١) أبو جعفر الطبري/ التاريخ، ج٥، ص١٨٤-١٨٥.

(٢) وانظر: المبرد /الكامل في الأدب، ج٣، ص٢٦٠-٢٦١، البلاذري/ أنساب الأشراف، ج ق١، ص٢٠١.

(٣) انظر: الجاحظ/ البيان والتبيين، ج٢، ص٦٢، ابو جعفر الطبري/ التاريخ، ج٥، ص٢١٩-١٢٢٠، ابن الاثير / الكامل في التاريخ، م٣/ ٤٤٧.

وسار زياد في الكوفة سيرته بأهل البصرة، وكانت المسؤولية الجماعية عصاه التي ساق بها حجر بن عدي الكندي وصحبه من بين قومهم إلى معاوية بالشام بعلّة خلع الطاعة ومفارقة الجماعة.

ولا شكّ أن مدّ ظل الجماعة على الحياة،وجعل المسؤولية الجماعية وسيلة إلى حماية الأمن والحفاظ على الوحدة والنظام مفهوم إسلامي نجده في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]. والجماعة التي يتحدث المغيرة وزياد عنها، ويخافان شق عصاها وتفريقها هي جماعة المسلمين، أي الأمة، وعلى رأسها الخليفة رمز الجماعة ووحدة الأمة وهو في ولايتهما معاوية بن أبي سفيان.

وقد قدّم زياد في هذا الجانب معنى هاماً وأساسياً في العلاقة بين الناس والدولة، فبرأي زياد، أن الذي خوّل الدولة أن تسوس الناس هو السلطان الذي أتاها الله، الله الذي جعل الإنسان خليفته على الأرض، ويؤتي الملك من يشاء،وينزع الملك ممن يشاء، وهو معنى استمده زياد من القرآن الكريم[١]، وهذا من زياد تأكيد على خلافة معاوية، ولذلك دعا زياد الناس بعد هذا البيان إلى الإقبال على الأئمة أي على معاوية وولاته بالرضا، والدعوة لهم بالصلاح، واستقبال سلطانهم بالسمع والطاعة والمناصحة، لتعمر القلوب بالمحبة، وتصلح أحوالهم، ويجري العدل في الأحكام بينهم، وتدر الأرزاق والأعطيات عليهم، وتقضى حاجاتهم ومصالحهم، ويتم الإحسان إلى المجاهدين منهم، فالبغض والكراهية لأولي الأمر لا يورث إلاّ الشر والفرقة، ولا تدرك به النفوس أغراضها من الأمن والنصفة والعيش الرغيد[٢].

---

(١) من الآيات الكريمة التي تناولت هذا المعنى، قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً. . .﴾ [البقرة: ٣٠].
وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].
وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ. . .﴾ [الأنعام: ١٦٥].

(٢) أبو جعفر الطبري/ التاريخ، ج٥، ص٢٢٠-٢٢١.

ونجاح هذه السياسة في استتباب الأمن وشدّ السلطان وتأكيد هيبة الدولة لا يعود فحسب إلى عنصر الشدّة في هذه السياسة، فالشدة وحدها ليست كفيلة بتنفيذ المنهاج الذي أعلن عنه زياد في خطبته، فالعناية بالمقاتلة لإقامة علم الجهاد، والاهتمام بالشرط لحفظ الأمن والنظام وصون الأرواح والأموال، أمور تحتاج إلى المال، وإخراج الأعطيات والأرزاق في أوقاتها وإدرارها على أصحابها تحتاج إلى الاهتمام بموارد بيت المال وتنميتها، وتصريف الأعمال ورعايتها تحتاج إلى جهاز إداري يواكب تطلعات الدولة ويساهم في تحقيق أغراضها، وبلوغ كل ذي حق حقه يحتاج إلى جهاز قضاء نزيه، ولا بدّ لمن يشارف هذه الأعمال أن تكون له عزيمة لا تنثني، وهمة لا تستسلم، ونفس نزوعة إلى الحق والخير ومحبة الصالح العام وإيثاره على الصالح الخاص.

وقد عرف عن زياد إخلاصه للدولة وحبه للجماعة ومحاربته أسباب الفرقة والفتنة، ومناهضته العصبية القبلية، وتديّن وصلاح وتشبّه بعمر بن الخطاب[1]، وكان يختار الأصلح والأفضل من الرجال للوظائف والأعمال[2]، واهتم بتنمية الموارد المالية لبيت المال، فحفر الأنهار وشق القنوات، واستصلح الأراضي، واستغل ما يمكن استغلاله من الأرض الموات، وبلغ خراج العراق في ولايته ماية وخمس وعشرين مليون درهم وهو من أعلى ما وصل إليه خراج العراق حتى زمنه[3]، وقد مكنّه ذلك من دفع الرواتب في أوقاتها وإدرار الأرزاق على أصحابها[4].

واستعان زياد في الفصل في الخصومات بين الناس بافضل القضاة، وكان هو يتحرى العدل في الأحكام والإحسان في المعاملة إلى الرعية، ولم يغفل عن مشارفة الأمور بنفسه والسؤال عن أحوال الناس، والقيام بالأمور خير قيام[5]، ووصف عهده بالرفاه

---

(١) الأبشيهي / المستطرف في كل من مستظرف.

(٢) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج٦، ص٨٢.

(٣) الفراء/ الأحكام السلطانية، ١٦٩.

(٤) البلاذري / أنساب الأشراف، ج٤، ق١، ص٢١٩.

(٥) اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٢٣٥، البلاذري/ أنساب الأشراف، ج٤، ق١، ص٢٠٣، ٢٣٥.

والأمن وأنه جمع لأهل العراق كما تجمع الذرّة، وحاطهم كما تحوط الأم البرّة[1].

وعمل على أن تكون الترتيبات والإجراءات التي قام بها في مجال القبيلة والإدارة والمال والثقافة منسجمة مع فكرة سيادة الإسلام وظهور أفكاره ونشر عقيدته وعلوّ يد الدولة وتأكيد هيبتها وحماية الأرواح وصون الممتلكات.

وخلف على البصرة والكوفة من بعد زياد ولاة من أمثال عبد الله بن خالد بن أسيد، وعبد الله بن عمرو بن غيلان، والضحاك بن قيس الفهري، لم تطل ولايتهم، وعلى أثر انتشار الدعوة في الكوفة إلى بيعة الحسين بن علي عام ٦٠هـ، رمي النعمان بن بشير والي الكوفة (٥٩هـ-٦٠هـ) بالضعف والعجز عن الحفاظ على سلطان يزيد ابن معاوية، فعزله يزيد، وضمّ الكوفة إلى عبيد الله بن زياد والي البصرة (٥٦هـ-٦٤هـ).

وقبل أن يغادر عبيد الله بن زياد البصرة إلى الكوفة، حذّر أهل البصرة من الأرجاف والخلاف، وذكّرهم بسياسة أبيه زياد، وأنه سيقتل المخالف، ويقتل به عريفه ووليّه، ويأخذ الأدنى بالأقصى.

ثم سار ابن زياد إلى الكوفة والياً عليها (٦٠هـ-٦٤هـ)، فلما خبر أحوالها، جعل أكبر همّه أن يضمن التزام الجماعة بالولاء لبني أمية والحفاظ على سلطان يزيد، والقضاء على الدعوة للحسين بن علي، فأخذ أهل الكوفة بما أخذهم به أبوه زياد، وساسهم بسياسته، وبعد أن أخبرهم أن الخليفة يزيد ولاّه مصرهم، وأمره أن ينصف المظلوم، ويعطي المحروم، ويحسن إلى السامع والمطيع، ويشتد على المريب والعاصي، أمر كل عريف من العرفاء أن يكتب أسماء الغرباء الذين ينزلون في قومه، ويضمن ألاّ يخالف من قومه مخالف، ولا يبغي منهم على الدولة باغ، ومن لم يفعل ذلك من العرفاء، حلّ ماله ودمه، وصلب على باب داره، وأسقطت عرافته من العطاء.

---

(١) المبرد/ الكامل، ج٣، ص٢٦١.

واستخدم ابن زياد الأموال، وهدد بقطع الأرزاق والعطاء، وأخذ البريء بالسقيم، والشاهد بالغائب، ولم يزل هذا شأنه حتى كثر أتباعه وعلا أمره، وشتت أنصار الحسين، وأكد سلطان يزيد بن معاوية في الكوفة[1].

ومع أن ابن زياد استنّ بسنة ابيه في ركوب الشدة واتخاذالمسئولية الجماعية سبيلاً إلى بلوغ الأهداف، فإنه لما بلغه مسير الحسين نحو الكوفة، أرسل جيشاً للقائه، ولم يرسل الحسين بن علي إلى يزيد بن معاوية ليرى فيه رأيه كما فعل ابوه زياد بحجر بن عدي الكندي الذي أرسله زياد إلى معاوية ليقضي فيه قضاءه، وإنما قبل أن يجعل سيفه حكماً بينه وبين الحسين، صنيع صاحب السلطان الذي يذب عن سلطانه، فاختلف الحال بينه وبين أبيه في هذه القضية، ورغم انتصاره على الحسين وقتله إياه والقضاء على حركته، فإن فعلته بالحسين ظلت تلاحقه وتلاحق بني أمية حتى زوال سلطانهم ومن بعد.

ثم مات يزيد بن معاوية، وتحركت في الكوفة شيعة الحسين بن علي تطلب بدمه، ثم تلاها المختار بن عبيد الثقفي الذي أعلن نفسه مدافعاً عن حق آل البيت، ولم يلبث سلطان عبد الله بن الزبير أن امتد إلى العراق، وتمكن مصعب بن الزبير نائب أخيه على العراق من قتل المختار عام ٦٧هـ والقضاء على حركته، وفي حين نجح مروان بن الحكم (٦٤هـ-٦٥هـ) في الاستيلاء على الشام ومصر، تمكن ابنه عبد الملك من قتل مصعب بن الزبير عام ٧١هـ والاستيلاء على العراق، ثم قتل عبد الله بن الزبير في الحجاز عام ٧٣هـ، وضم ما تبقى من البلاد في يد ابن الزبير إلى سلطانه، وجعل عبد الله بن مروان على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد (٧١هـ-٧٤هـ)، وعلى الكوفة بشر بن مروان بن الحكم (٧١هـ-٧٤هـ)، وعلى الحجاز الحجاج بن يوسف الثقفي (٧٤هـ-٧٥هـ)، ولما مات بشر بن مروان ولّى عبد الملك على الكوفة الحجاج ابن يوسف الثقفي وضمّ إليه البصرة (٧٥هـ-٩٥هـ)[2].

---

(١) أبو جعفر الطبري / التاريخ، ج٥، ص٣٥٩.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص١٥٨، ١٥٩، ١٩٤، ٢٠٢.

كان أول ما عرف من كفاية الحجاج، أن عبد الملك بن مروان في اثناء خروجه لإخضاع زفر بن الحارث الكلابي في الجزيرة، قلّد الحجاج أمر عسكره وكانت شكوى عبد الملك من العسكر، أنهم لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله، فقام الحجاج بهذه المهمة خير قيام، ولم يسلم من الحجاج أعوان روح زنباع الجذامي، الذي كان أقرب المقربين إلى عبد الملك، وكان يعرف بوزير عبد الملك[1]، وكان الحجاج في شرطته، فلما وجد الحجاج أعوان روح على الطعام ولم يرحلوا برحيل عبد الملك أمرالحجاج بجلدهم وحرق فساطيط روح بالنار، فلم يعد أحد بعدها يقدر على أن يتخلف عن عبد الملك في رحيله ونزوله[2]، ولم تزل منزلة الحجاج تعلو عند عبد الملك، وثقة عبد الملك به تتأكد وتكبر، حتى أسند إليه قيادة الحملة التي وجهها إلى عبد الله بن الزبير في الحجاز.

دخل الحجاج الكوفة، وقام على منبر المسجد الجامع فيها خطيباً، وقدّم نفسه إلى أهل الكوفة علىأنه الرجل القوي الشديد الذي اختاره الخليفة عبد الملك ووجهه إليهم، وعاب عليهم ما هم فيه من الفتن، وأعلن أن سيأخذهم بالشدة حتى يلتزموا سبل الحق ويتركوا الأرجاف، وينقادوا طائعين، وذكّرهم بالجهاد وفضله في حماية الثغور وكبت الأعداء وجباية الفيء، وطلب إليهم أن يلحقوا بالمهلب بن أبي صفرة لقتال الخوارج، وأمر العرفاء أن يأخذوا الناس بالخروج إلى حيث يعسكر المهلب، وأن يأتوه بالبراءات، وهدد من يتأخر بسفك دمه ونهب ماله، وحذر الجميع أن تكون منه عليهم وقعة تكون نكالاً لما قبلها وأدباً لما بعدها[3].

---

(١) ابن عساكر / تاريخ دمشق، ج٥، ص٥٠٧-٥٠٨، ترجمة خالد بن عتاب بن ورفاء التميمي.

(٢) ابن عبد ربه/ العقد الفريد، ج٥، ص١٤، ابن خلدون/ المقدمة، ص٣٢٧.

(٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص٢١٤-٢٠٦، ابن عساكر / تاريخ دمشق، ج٦، ص٢٠٥-٢٠٩، ترجمة الحجاج بن يوسف.

كان الحجاج ينطلق في كلامه إلىأهل الكوفة من إيمانه بأنه يمثل الخليفة وينوب عنه بصدق في العراق، وأن الحفاظ على الأمن والنظام وتأكيد هيبة الدولة وبسط سلطانها وأداء رسالتها في رعاية الناس وحماية الأموال والأرواح ونشر الإسلام هي مسؤوليته ورسالته، وصار لصدق ولائه للخليفة وشدة إخلاصه للدولة وحرصه على أداء رسالتها يرى قوتها تصحبه على الدوام، فجاءت خطبته في ألفاظها وأسلوبها ومعانيها ومنهج الحكم فيها تحكي موقعه في الدولة ومستوى العلاقة بينه وبينها من جهة، والغرض الذي يريد والناس أن يصيروا معه إليه من جهة أخرى.

وبدأ الحجاج بمحاربة الخوارج في الوْلاية، ونجح في القضاء على قوتهم بعد جهود مضنية وقتال مرير، وقضى على ثورة مطرف بن المغيرة بن شعبة الثقفي.

وفي البصرة، الحق الهزيمة بعبد الله بن الجارود العبدي وقتله، وقضى على ثورة الزنج، واهتم الحجاج بحركة الفتح الإسلامي، ومدّ الفتوحات في الشرق إلى بلاد السند والهند وما وراء نهر جيحون حتى الصين، ولما رجع عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث الكندي بالجيش من الشرق ثائراً بالحجاج عام ٨١هـ، صبر له الحجاج، وكلفه القضاء على تلك الثورة الكثير من الأرواح والأموال[1].

ولم يفت الحجاج أن يهتم بالاقتصاد ويصلح حاله وبخاصة لما رأى انخفاض الدخل ونقص واردات بيت المال، فرمى كل ناحية بما يصلحها، فوضع الخراج عمن تعرضت أرضه للآفات والكوارث، ومن أجل توسيع الرقعة الزراعية وزيادة الإنتاج، قدّم القروض للمزارعين، وجلب الجواميس من السند للحراثة، وردّ الفلاحين الذين هجروا قراهم إلى المدن، ردّهم إلى قراهم لاعتمال الأرض وزراعتها، وحفر بأرض الكوفة النهر المسمى بنهر الصين والنهر المعروف بالجامع، وحفر نهر النيل والزابي الذي يأخذ الماء من الزابي القديم وأحيا على هذين النهرين النيل والزابي، الأرضين،

(١) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٢٧١-٢٨٩، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٢، ص٢٢٠، ٣٣٤ وما بعدها، أبو حنيفة الدينوري/ الأخبار الطوال، ص٢٧٧، ٢٨٠.

واستخرج من الضياع الموات المرفوض، ونقوع المياه، والمغايض، والآجام وضرب عليها المسنّيات، وأنشأ داراً لضرب العملة وأصلح النقد وضبط المكاييل، وبنى الحوانيت، والاسواق في الكوفة، واستحدث مدينة واسط، وأنشأ فيها الأسواق والمحلات التجارية وجلب إليها الحرف والصناعات المختلفة، ومشاريع أخرى، وعمل بحزم إزاء الذين كانوا يتهربون من أداء الواجبات المالية عليهم، واشتد في محاسبة المقصرين من الجباة، وعاقب العمال الذين اختانوا الأموال وصادرهم ولم يسلم من ذلك ابن عبد الرحمن بن أبي بكرة وآل المهلب ابن أبي صفرة، وعمل على إعادة الأرض الخراجية التي تحولت إلى أرض عشرية، أعادها إلى ما كانت عليه أرضاً خراجية واعتنى بأمور بيت المال كما يعتني صاحب العيال بعياله فتركه لما مات مترعاً بالأموال(١).

واهتم الحجاج بأمور العلم والثقافة، وأولى القرآن الكريم اهتماماً كبيراً، وشجع أهله وبذل لهم الأموال، وقرّب العلماء وأدناهم وجعلهم في حاشيته، ونظراً لظهور اللحن والخطأ، أمر الحجاج بنقط المصاحف لازالة عجمة العربية عن طريق تمييز الحركات في شكل اواخر الكلمات وهو ما يعرف بالنحو، وإزالة عجمة الحرف عن طريق تحديد اللفظ وتمييزه عن مثيله أو شبيهه بالرسم، وقد أحدثت العناية بالقرآن الكريم ثم بالحديث النبوي الشريف نهضة طيبة في شتى العلوم والمعارف، وأدت حركة التعريب التي ساهم الحجاج في خدمتها إلى إغناء الثقافة العربية وفتح الباب أمام الشعوب الأخرى أن تساهم في الثقافة العربية الإسلامية(٢).

---

(١) من أجل إصلاحات الحجاج الاقتصادية، انظر:
البلاذري / فتوح البلدان، ص٣٥٠-٣٥٦، ٥٧٥، ابو جعفر الطبري / تاريخه، ج٦، ص٤٢٦، ٤٤٨، ٤٥١، بحشل / تاريخ واسط، ص٤٣-٤٤، قدامة بن جعفر / الخراج وصناعة الكتابة، ص١٦٩، ٢٧٤، ٣٠٩، ٣٩٧، الذهبي / تاريخ دول الإسلام، ج١، ص٥٣، ٥٩، ديوان الفرزدق، ج١، ص١٥-١٦.

(٢) من أجل ذلك، انظر:
السجستاني / كتاب المصاحف، ص٤٩، ١١٧، مقدمتان في علوم القرآن: مقدمة كتاب المباني =

وعمل الحجاج على تطوير الإدارة وتسخيرها في خدمة خططه، واختار العمال والموظفين النصحاء، وجعل عرفاء القبائل من ذوي العلم والمكانة والنفوذ، ولم يتوان في مراقبتهم ومحاسبتهم ومعاقبة المذنبين منهم، وأصاب الحجاج في هذا الجانب نجاحاً كبيراً أعانه عليه تديّن ونزاهة وأمانة عنده وإيثار المصلحة العامة على الخاصة[1].

وإضافة إلى ما سبق، تناول الشعراء أمثال جرير والفرزدق بعض ما حقق الحجاج فنوهوا في شعرهم بجهوده في حماية الدين، وغيرته على الحريم، وإقامة علم الجهاد، وتسيير الجيوش في البر والبحر، وصيانة الثغور، ومطاردة العصاة والمخالفين، وقمع الخوارج، والقضاء على الثائرين أمثال ابن الأشعث، ومحاربة الرشوة والفساد، وتتبع اللصوص وقطّاع الطرق، ومعاقبة العمال الذين يَغُلُّون الأموال، ثم إشاعة الأمن والنظام[2].

نَفَذَت سياسة الحجاج كما رأينا إلى جميع وجوه الحياة، وشملت رعايته شتى المجالات، وبسببٍ من الظروف التي مرّ العراق بها، وتجربة الخلفاء في السياسة والإدارة والحكم، وتكوين شخصية الحجاج، كانت الشدة والحزم وامتشاق السيف سبيل الحجاج إلى تنفيذ سياسته وحمل الناس على منهجه وخططه في العمل، وهي سياسة لا تبعد عن سياسة زياد بن أبيه الذي قيل أن الحجاج كان يتشبه به[3]، وكانت استمراراً لتلك السياسة، وقد ولّدت اعتقاد الحجاج بأهمية الدولة في وحدة الجماعة

= ومقدمة ابن عطية، تحقيق آرثر جفري، الطبعة الثانية، تصحيح عبد الله الصاوي، القاهرة، ١٩٧٢، ص٢٧٥، ابن عساكر / تاريخ دمشق، ج٤، ص٢٠٨ وما بعدها، ترجمة الحجاج بن يوسف، ناصر الدين الأسد / النقط والحرف العربي، ص٩٠٧، بحث مخطوط، الدوري / نشأة الثقافة العربية الإسلامية، نظرة إلى العراق، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، م١، ع١، ١٩٧٨، ص٦٤و ٦٨.

(١) ابن كثير / البداية والنهاية، ج٩، ص١٣١-١٣٢.

(٢) انظر/ ديوان جرير، ص١١٣، ٥٤٨-٥٤٩، ٥٥٢، ديوان الفرزدق، ج٢، ص٥، ٧، ١٣٧-١٣٩.

(٣) انظر: الجاحظ / البيان والتبين، ج٢، ص٦٦، البيهقي/ المحاسن والمساوىء، ج١، ص٢٣٥، الأبشيهي / المستطرف، ج٢، ص٩٤.

الإسلامية، وسيادة الإسلام، وتوفير الأمن والنظام، ودرء المفاسد في الداخل وجلب المصالح، وإيمانه بشرعية الخلافة الأموية، ولّدوا في نفس الحجاج إخلاصاً للدولة وللخلفاء من بني أمية ورضى عن منهجه، وهو ما لم يوافقه عليه الذين لا يؤمنون بشرعية الخلافة الأموية من المعارضين والمخالفين والخارجين، وحاربوه بالسيف والقلم، ولم يوافقه الذين رأوه خالف سبيل الإسلام في الإصلاح، وعدّوه ظالماً جباراً وطاغية مستبداً، ولم يروا في الظروف المستجدة له عذراً مشروعاً، ولا يزال الاختلاف في الحكم على سياسته قائماً إلى اليوم[1].

نظرت الدولة إلى هذه السياسة بعين الرضا[2]، وعندما مات الحجاج عام ٩٥هـ جلس الخليفة الوليد بن عبد الملك يتقبل العزاء به، وتأسى بهذه السياسة الولاة من الذين عاصروا الحجاج،ومن الذين جاءوا من بعد.

ومما يروى عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: «الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، ومحمد بن يوسف باليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقرة بن شريك بمصر، ويزيد بن أبي مسلم بالمغرب، امتلأت الأرض جوراً»[3].

والمعلوم أن يزيد بن أبي مسلم لم يكن والياً على المغرب في خلافة الوليد بن عبد الملك وإنما كان والياً عليها في خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١هـ-١٠٥هـ) وقتله الجند[4]. ولكن الرواية تشكل قراءة لسياسة هؤلاء الرجال الذين اتصفت سياستهم بالشدة.

(١) انظر: إحسان العمد/ الحجاج بن يوسف، ص٤٩٦ ومابعد، نبيه عاقل/ تاريخ خلافة بني أمية، ص٢٣٤-٢٣٨.

(٢) انظر: المبرد/ الكامل، ج٢، ص١١١و ابن تغري بردى/ النجوم الزاهرة، ج١، ص٢١٨.

(٣) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج١٤، ص٤١٤-٤١٦، ترجمة قرة بن شريك، ج١٦، ص١٤٦-١٤٧، ترجمة محمد بن يوسف.

(٤) خليفة بن خياط / تاريخه، ص٣٣٤.

وأما نسبتها إلى عمر بن عبد العزيز فلأنه طالما كثر الكلام عن إنكاره الظلم وميله إلى الرفق بالناس، وتظل الرواية تشير إلى أن الشدة في سياسة الناس كانت قدراً مشتركاً بين الدولة والولاة في طول البلاد وعرضها.

وروي أن عدي بن أرطأة الفزاري والي العراق من قبل عمر بن عبد العزيز أراد أن يستن بسنة الحجاج فنهاه عمر عن ذلك[١].

وسار على سياسة زياد والحجاج بوجوهها المختلفة ولاة العراق من بعد، أمثال: خالد بن عبد الله القسري الذي تولى العراق (١٠٥هـ-١٢٠هـ) في خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥هـ-١٢٥هـ)[٢]، ويوسف بن عمر الثقفي الذي تولى العراق (١٢٠هـ-١٢٦هـ) في خلافة هشام بن عبد الملك ثم في خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥هـ-١٢٦هـ)[٣]، ويزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري الذي تولى العراق (١٢٩هـ-١٣٢هـ) في خلافة مروان بن محمد (١٢٧هـ-١٣٢هـ)[٤].

وختاماً، لم تتردد الدولة الإسلامية في مجال الإدارة وتقسيم البلاد إلى ولايات ووحدات إدراية أن تنتفع بخبرات وتجارب الأمم والدول السابقة، وكانت عوامل الصحبة إلى حين، والكفاية بأبعادها المختلفة، والولاء، اسساً لاختيار الولاة وإسناد الأعمال إليهم، وتوزع الاختيار بين العرب على اختلاف قبائلهم وبين غير العرب (الموالي)، ولكن حظ العرب كان أكبر بكثير من غيرهم، وغلب على سياسة الولاة في ولاياتهم طابع الشدة، وكانت الشدة قدراً مشتركاً بين الولاة والخلفاء في تعاملهم مع الرعية، ولكن الشدة لم تصرف الولاة عن أن يأخذوا بأساليب ووسائل تطوير وتنمية الاقتصاد، وزيادة الموارد المالية، وتحسين الرعاية الاجتماعية، وتعميق ونشر الثقافة العربية الإسلامية، لما في ذلك من ضمان الطاعة وتأمين الأمن والاستقرار والنظام، وسلامة بناء الدولة وتعزيز قوتها وجبر وحدة الجماعة الإسلامية.

---

(١) ابن الجوزي/ سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٤٧، ١٦٥-١٦٦.
(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٦-٢٨، ١٤٢-١٤٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٧، ص١٩٣-١٩٧، ٢٢٤-٢٢٦.
(٤) المصدر نفسه، ج٧، ص٤٥٠-٤٥٧.

الولاة على البلدان

الخليفة	البلد	الولاة
١- معاوية بن أبي سفيان	مكة	عتبة بن أبي سفيان (عنبسة بن أبي سفيان)، خالد بن العاص المخزومي، مروان بن الحكم، سعيد بن العاص.
	المدينة	مروان بن الحكم، سعيد بن العاص، الوليد بن عتبة بن أبي سفيان.
	فلسطين	حسان بن مالك بن بحدل الكلبي.
	البحرين	مروان بن الحكم.
	مصر	عمرو بن العاص، عبد الله بن عمرو بن العاص، عتبة ابن أبي سفيان، عقبة بن عامر الجهني، معاوية بن حديج الكندي، مسلمة بن مخلد الأنصاري.
	أفريقية	عقبة بن نافع الفهري، معاوية بن حديج، الكندي، خالد ابن ثابت الفهري، أبو المهاجر دينار.
	الكوفة	المغيرة بن شعبة الثقفي، زياد بن أبيه، عبد الله بن خالد بن أسيد، الضحاك بن قيس الفهري، عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي بن أم الحكم (وأم الحكم أخت معاوية)، النعمان بن بشير.
	أرمينية وأذربيجان	حبيب بن مسلمة الفهري، عبد العزيز بن حاتم بن النعمان بن عمرو الباهلي.
	الموصل	عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي وهو ابن أم الحكم.
	طبرستان وجرجان	مصقلة بن هبيرة بن شبل من بني ثعلبة الشيباني.
	دمشق	الضحاك بن قيس الفهري.
	حمص	عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، عبد الله بن الحجاج بن علاط، مالك بن هبيرة بن خالد.
	فلسطين	حسان بن مالك الكلبي.

الخليفة	البلد	الولاة
١- معاوية بن أبي سفيان	البحرين	مروان بن الحكم.
	البصرة	بسر بن أبي أرطأة العامري القرشي، عبد الله بن عامر بن كريز القرشي، الحارث بن عبد الله الأزدي، زياد بن أبيه، سمرة بن جندب، عبد الله بن عمرو بن غيلان، عبيد الله بن زياد بن أبيه.
	خراسان	قيس بن الهيثم السلمي، عبد الله بن خازم بن ظبيان الحكم بن عمرو الغفاري، غالب بن فضالة الليثي، خليد بن عبد الله الحنفي، الربيع بن زياد الحارثي، عبيد الله بن زياد بن أبيه، أسلم بن زرعة الكلابي، سعيد بن عثمان بن عفان، عبد الرحمن بن زياد بن أبيه
	سجستان	عبد الرحمن بن سمرة، الربيع بن زياد الحارثي، عبيد الله ابن أبي بكرة، عبّاد بن زياد بن أبيه.
	كرمان	شريك بن الأعور
	السند وثغر الهند	راشد بن عمرو الأزدي عبد الله بن سوار العبدي، سنان بن سلمة محبق الهذلي، المنذرين الجارود العبدي، عبّاد بن زياد ابن أبيه.
	الري وقزوين	كثير بن شهاب الحارثي.
	اليمن	بسر بن أبي أرطأة القرشي، عثمان بن عفان الثقفي، عتبة بن أبي سفيان، فيروز الديلمي، النعمان بن بشير، بشير بن سعد الأعرج، سعيد بن دادوية. الضحاك بن فيروز.

الولاة	البلد	الخليفة
عمرو بن سعيد بن العاص، الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، عثمان بن محمد بن أبي سفيان، عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب العدوي، الحارث بن خالد بن العاص بن هشام المخزومي، يحيى بن حكيم بن صفوان الجمحي، الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة.	مكة	٢ - يزيد بن معاوية
عمرو بن سعيد بن العاص.	المدينة	
حسان بن مالك الكلبي، روح بن زنباع الجذامي.	الأردن	
روح بن زنباع الجذامي، حسان بن مالك الكلبي.	فلسطين	
مسلمة بن مخلد الأنصاري، سعيد بن يزيد الفهري.	مصر	
عقبة بن نافع الفهري.	إفريقية	
محمد بن الأشعث بن قيس الكندي.	جرجان وطبرستان	
عبيد الله بن زياد.	البصرة	
سلم بن زياد.	خراسان	
سلم بن زياد.	سجستان	
المنذر بن الجارود.	ثغر قندابيل	
بحير بن ريسان الحميري.	اليمن	
عبيد الله بن زياد.	الكوفة	
الضحاك بن قيس الفهري.	دمشق	
النعمان بن بشير، أوسط بن عمرو البجلي، حصين بن نمير.	حمص	
سعيد بن مالك بن بحدل، زفر بن الحارث الكلابي.	قنسرين	

الخليفة	البلد	الولاة
٣- معاوية بن يزيد بن معاوية		أقرّ عمال أبيه و لم يولّ أحداً. وكانت مدة خلافته أقل من شهرين.
٤- مروان بن الحكم		كانت ولايات البصرة والكوفة والحجاز واليمن وأعمالها في طاعة عبد الله بن الزبير باستثناء بلاد الشام ومصر وأفريقية، فقد صارت في طاعة مروان بن الحكم.
	دمشق	عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي ابن أم الحكم.
	الأردن	حسان بن مالك الكلبي.
	فلسطين	أبو عثمان بن مروان بن الحكم، عبد الملك بن مروان.
	مصر	عبد العزيز بن مروان.
	إفريقية	زهير بن قيس البلوي.
٥- عبد الملك بن مروان	مكة	الحجاج بن يوسف التقفي، الحارث بن خالد المخزومي، خالد ابن عبد الله القسري، عبد الله بن سفيان المخزومي، عبد العزيز بن عبد الله بن خالد، نافع بن علقمة بن صفوان الكناني، يحيى بن الحكم بن أبي العاص. هشام بن اسماعيل المخزومي، إبان بن عثمان بن عفان. قيس بن مخرمة.
	المدينة	الحجاج بن يوسف التقفي، يحيى بن الحكم بن أبي العاص إبان بن عثمان بن عفان، هشام بن اسماعيل المخزومي.
	الطائف	الحجاج بن يوسف الثقفي.
	دمشق	الوليد بن عبد الملك.
	حمص	عبد الله بن عبد الملك، أبان بن عقبة بن أبي معيط.
	قنسرين	دينار بن دينار.
	الأردن	أبو عثمان بن مروان بن الحكم، وعلى البلقاء محمد بن عمر الثقفي أخو يوسف الثقفي.
	فلسطين	ابان بن مروان بن الحكم، عمارة بن تميم اللخمي، سليمان بن عبد الملك.

الخليفة	البلد	الولاة
٥- عبد الملك بن مروان	أرمينية وأذربيجان	عثمان بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، محمد بن مروان بن الحكم.
	الجزيرة	محمد بن مروان بن الحكم.
	الموصل	سعيد بن عبد الملك بن مروان، يوسف بن يحيى بن الحكم ابن أبي العاص، محمد بن مروان بن الحكم.
	مصر	عبد العزيز بن مروان، عبد الله بن عبد الملك بن مروان.
	أفريقية	زهير بن قيس البلوي، حسان بن النعمان الغساني، موسى ابن نصير مولى لخم.
	الري	سفيان بن الأبرد الكلبي.
	سمرقند	عبد الرحمن بن مسلم الباهلي.
	البصرة	خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص. بشر بن مروان بن الحكم، الحجاج بن يوسف الثقفي.
	خراسان	أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص. المهلب بن أبي صفرة، يزيد بن المهلب، المفضل بن المهلب، قتيبة بن مسلم الباهلي.
	السند والهند	سعيد بن أسلم الكلابي، مجاعة بن مسعر التميمي، محمد بن هارون النمري، محمد بن القاسم الثقفي.
	سجستان	عبد الله بن أمية بن عبد الله بن خالد، عبد العزيز بن عبد الله بن عامر، محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله، عبيد الله بن أبي بكرة، وكيع بن بكرة بن وائل الأزدي، عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، عمارة بن تميم القيني، عبد الرحمن بن سليم، مسمع بن مالك، الأشعث بن بشر الكلبي، قتيبة بن مسلم الباهلي.
	الأهواز وكور دجلة	المهلب بن أبي صفرة.
	فسا ودار ابجرد	المغيرة بن المهلب، مسمع بن مالك بن مسمع.
	أرجان وسابور	سعيد بن المهلب، عامر بن مسمع.
	عُمان والبحرين	موسى بن سنان بن سلمة، محمد بن صعصعة الكلابي، سعيد بن حسان الأسيدي، قطن بن زياد بن الربيع الحارثي.
	المدائن	مطرف بن المغيرة بن شعبة الثقفي.
	الكوفة	بشر بن مروان بن الحكم، عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص، الحجاج بن يوسف الثقفي ومن قبله (عمير بن هاني العبسي).
	كرمان	حبيب بن المهلب.
	اليمن	محمد بن يوسف الثقفي

الخليفة	البلد	الولاة
٦ - الوليد بن عبد الملك	مكة	نافع بن علقمة بن صفوان الكناني، خالد بن عبد الله القسري
	المدينة	عمر بن عبد العزيز، عثمان بن حيان المري.
	دمشق	عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك.
	فلسطين	سليمان بن عبد الملك.
	حمص	العباس بن الوليد بن عبد الملك.
	الأردن	عمر بن الوليد بن عبد الملك.
	مصر	عبد الله بن عبد الملك بن مروان، قرة بن شريك العبسي، عبد الملك بن رفاعة الفهمي.
	أفريقية	موسى بن نصير، عبد الله بن موسى بن نصير.
	الأندلس	طارق بن زياد. موسى بن نصير، عبد العزيز بن موسى بن نصير.
	البصرة	الحجاج بن يوسف الثقفي ومن قبله الجراح بن عبد الله الحكمي.
	خراسان	قتيبة بن مسلم الباهلي.
	سجستان	عمرو بن مسلم الباهلي، عبد ربه بن عبد الله الليثي ـ(من قبل قتيبة). النعمان بن عوف اليشكري.
	الكوفة	الحجاج بن يوسف ومن قبله زياد بن جرير بن عبد الله البجلي، عروة بن المغيرة بن شعبة الثقفي.
	ثغر الهند والسند	محمد بن القاسم الثقفي.
	عُمان	عبد الرحمن بن سليم الكلبي، عبد الجبار بن سبرة المجاشعي.
	البحرين وعُمان	قطن بن زياد بن الربيع الحارثي.
	اليمامة	إبراهيم بن عربي.
	الجزيرة وأرمينية وأذربيجان	محمد بن مروان بن الحكم، مسلمة بن عبد الملك بن مروان.
	اليمن	مروان بن محمد بن يوسف الثقفي، أيوب بن يحيى الثقفي.

الولاة	البلد	الخليفة
حالد بن عبد الله القسري، داود بن طلحة الحضرمي، عبد العزيز بن عبد الله بن حالد بن أسيد.	مكة	٧- سليمان بن عبد الملك
أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.	المدينة	
محمد بن سويد بن كلثوم الفهري.	دمشق	
يزيد بن حصين بن نمير.	حمص	
عبد الملك بن رفاعة الفهمي.	مصر	
محمد بن يزيد القرشي.	أفريقية	
الحرث بن عبد الله الثقفي.	الأندلس	
يزيد بن المهلب فولى من قبله سفيان بن عبد الله الكندي، عبد الله بن بلال الكلاسي، مروان بن المهلب، عبد الله بن الجارود العبدي.	البصرة	
وكيع بن أبي سود، مخلد بن المهلب.	حراسان	
مدرك بن المهلب، معاوية بن يزيد بن المهلب.	سجستان	
يزيد بن المهلب فولى من قبله: حرملة بن عمير، بشر ابن حسان المهري، سفيان بن حريث الخولاني.	الكوفة	
يزيد بن أبي كبشة السكسكي، حبيب بن المهلب.	ثغر الهند والسند	
عبد الرحمن بن قيس الليثي.	عُمان	
الأشعث بن عبد الله بن الجارود.	البحرين وعُمان	
الوليد بن هشام المعيطي، هشام بن معاوية بن هشام.	قنسرين	
سفيان بن عمرو العقيلي، نوح بن هبيرة.	اليمامة	
عبد العزيز بن حاتم بن النعمان، عدي بن عميرة الكندي.	الجزيرة وأرمينية وأذربيجان	
عروة بن محمد بن عطية السعدي.	اليمن	

الخليفة	البلد	الولاة
٨- عمر س عبد العزيز	مكة	عبد العريز بن عبدالله بن خالد س أسيد.
	المدينة	أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حرم.
	اليمن	عروة س محمد بن عطية السعدي.
	دمشق	عبيد بن الحسحاس العذري. عثمان بن سعد العذري، الضحاك بن عبد الرحمن بن عزرب (عررم) الأشعري.
	قنسرين	الوليد بن هشام بن الوليد بن عقبة المعيطي. هلال بن عبد الأعلى.
	الأردن	عبادة س نسي الكندي.
	حمص	يزيد بن حصين بن نمير السكوني.
	فلسطين	النضر س يريم بن أبرهة بن الصباح.
	الأندلس	الحرث بن عبد الرحمن الثقفي. السمح بن مالك الخولاني.
	مصر	أيوب س شرحبيل بن الصباح.
	أفريقية	إسماعيل بن عبيدالله بن أبي المهاجر مولى بني مخروم.
	البصرة	عدي بن أرطأة الفزاري.
	خراسان	الجراح بن عبدالله الحكمي. عبد الرحمن س نعيم العامدي.
	السند	عبد الملك بن مسمع بن مالك، عمرو س مسلم الباهلي.
	سجستان	الجراح بن عبد الله الحكمي، عبد الرحمن س نعيم الغامدي.
	الكوفة	عبد الحميد س عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب.
	أرمينية وأذربيجان والجزيرة	عبد العزيز بن حاتم بن النعمان، عدي بن عدي بن عميرة الكندي.
	عُمان	سعيد بن مسعود المازني، عمرو بن عبد الله الأنصاري.
	البحران	الصلت بن حريث، عبد الكريم بن المغيرة.
	اليمامة	زرارة بن عبد الرحمن.

الخليفة	البلد	الولاة
٩- يزيد بن عبد الملك	مكة والمدينة والطائف	عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس الفهري، عبد الواحد بن عبد الله النصري.
	اليمن	عروة بن محمد بن عطية السعدي، مسعود بن عوف الكلبي.
	الأندلس	عنبسة بن سحيم الكلبي، الحر بن عبد الرحمن القيسي.
	مصر	بشر بن صفوان الكلبي، حنظلة بن صفوان الكلبي.
	أفريقية	يزيد بن أبي مسلم، محمد بن يزيد مولى الأنصار، بشر بن صفوان الكلبي.
	البصرة	مسلمة بن عبد الملك بن مروان ومن قبله: (عبد الملك بن بشر بن مروان بن الحكم)، عمر بن هبيرة الفزاري ومن قبله: (سعيد بن عمرو الحرشي)، حسان بن عبد الرحمن الفزاري، فراس بن سمي الفزاري.
	خراسان	سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص. سعيد بن عمرو الحرشي، مسلم بن سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي.
	السند	هلال بن أحوز، عبيد الله بن علي السلمي، عبد الحميد بن عبد الرحمن العطفاني.
	سجستان	القعقاع بن سويد المقري، السيّال بن المنذر بن عوف.
	الكوفة	مسلمة بن عبد الملك بن مروان ومن قبله: (محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة الأموي)، عمر بن هبيرة الفزاري.
	أرمينيا وأذربيجان والجزيرة	معلق بن صفار البهراني، الحارث بن عمرو الطائي، الجراح بن عبد الله الحكمي.
	البحران	إبراهيم بن عربي، سفيان بن عمرو العقيلي.
	اليمامة	إبراهيم بن عربي، سفيان بن عمرو العقيلي.
	البلقاء	الحارث بن عمرو الطائي.

الولاة	البلد	الخليفة
إبراهيم بن هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي، خالد بن عبد الملك بن الحارث بن الحكم، محمد ابن هشام بن إسماعيل المخزومي.	مكة والمدينة والطائف	١٠- هشام بن عبد الملك
إسحاق بن قبيصة الخزاعي.	الأردن	
كلثوم بن عياض القشيري.	دمشق	
عبد الملك بن القعقاع العبسي.	حمص	
الوليد بن القعقاع العبسي.	قنسرين	
مالك بن شبيب الباهلي.	فلسطين	
عنبسة بن سحيم الكلبي، يحيى بن سلمة الكلبي، حذيفة بن الأحوص الأشجعي، عثمان بن أبي نسعة الخثعمي، الهيثم بن عبيد الكناني، محمد بن عبد الملك الأشجعي، عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، عبد الملك بن قطن، عطية بن الحجاج القيسي، عقبة بن الحجاج، عقبة بن الحجاج، عبد الملك بن قطن.	الأندلس	
محمد بن عبد الملك بن مروان، الحر بن يوسف بن يحيى بن الحكم، حفص بن الوليد الحضرمي، عبد الملك بن رفاعة الفهمي، الوليد بن رفاعة الفهمي، عبد الرحمن بن خالد الفهمي، حنظلة بن صفوان الكلبي، حفص بن الوليد الحضرمي.	مصر	
بشر بن صفوان الكلبي، عبيدة بن عبد الرحمن القيسي، عبيد الله بن الحبحاب مولى بني سلول، كلثوم بن عياض القشيري، حنظلة بن صفوان الكلبي.	أفريقية	
الحر بن يوسف بن يحيى بن الحكم، الوليد بن تليد العبسي.	الموصل	
خالد بن عبد الله القسري، يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم الثقفي.	البصرة	
أسد بن عبد الله القسري، الحكم بن عوانة، أشرس بن عبد الله السلمي، الجنيد بن عبد الرحمن المري، عاصم بن عبد الله الهلالي، أسد بن عبد الله القسري، نصر بن سيار.	خراسان	
الجنيد بن عبد الرحمن المري، تميم بن زيد العتبي، الحكم بن عوانة الكلبي، عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي.	السند	

الخليفة	البلد	الولاة
١٠- هشام بن عبد الملك	الكوفة	عبد الملك بن جزء الأزدي، خالد بن عبد الله القسري وولي عليها من قبله: إسماعيل بن أوسط البجلي، ضبيس بن عبد الله البجلي، عبد الله بن عمرو البجلي، عاصم بن عمرو البجلي، يوسف بن عمر بن محمد الثقفي فولى من قبله: الحكم بن الصلت الثقفي. يوسف بن محمد بن القاسم الثقفي، محمد بن عبيد الله الثقفي، زياد بن صخر اللخمي، عبيد الله بن العباس الكندي، أبو أمية بن المغيرة الثقفي.
	سجستان	يزيد بن الغريف الهمداني، الأصفح بن عبد الله الكندي، عبد الله بن أبي بردة الأشعري، محمد بن حجر العبدي، إبراهيم بن عاصم العقيلي، حرب بن قطن بن قبيصة الهلالي، يوسف بن عمر بن شبرمة.
	البحرين	عبد الله بن شريك النمري، محمد بن حسان بن سعيد الأسيدي.
	اليمامة	المهاجر بن عبد الله الكلابي، ثم ابن المهاجر بن عبد الله الكلابي.
	اليمن	يوسف بن عمر الثقفي، الصلت بن يوسف الثقفي، القاسم بن عمر الثقفي.
	أرمينية واذربيجان	الجراح بن عبد الله الحكمي، مسلمة بن عبد الملك، سعيد بن عمرو الحرشي، مروان بن محمد بن مروان.

الخليفة	البلد	الولاة
١١- الوليد بن يزيد بن عبد الملك	مكة والمدينة والطائف	يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي.
	دمشق	عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف الثقفي، الحكم بن الوليد بن يزيد.
	حمص	مروان بن عبد الله بن عبد الملك، عثمان بن الوليد بن يزيد.
	قنسرين	يزيد بن عمر بن هبيرة.
	فلسطين	سعيد بن عبد الملك.
	مصر	حفص بن الوليد الحضرمي.
	إفريقية	حنظلة بن صفوان الكلبي، عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة بن نافع.
	الأندلس	بلج بن بشر القشيري، ثوابة بن سلامة.
	الموصل	مروان بن محمد بن مروان.
	البصرة	القاسم بن محمد بن القاسم الثقفي.
	خراسان	نصر بن سيار.
	السند	عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي.
	الكوفة	عبيد الله بن العباس الكندي، أبو أمية بن المغيرة الثقفي.
	سجستان	حرب بن قطن الهلالي.
	اليمامة	المهاجر بن عبد الله الكلابي.
	اليمن	الضحاك بن زمل السكسكي.
	أرمينية وأذربيجان والجزيرة	مروان بن محمد.

الخليفة	البلد	الولاة
١٢- يزيد بن الوليد بن عبد الملك	مكة والمدينة والطائف	عبد العزيز بن عبدالله بن عمرو بن عفان، عبد العزيز بن عمر ابن عبد العزيز.
	حمص	معاوية بن يزيد بن حصين. عبدالله بن شجرة الكندي.
	قنسرين	مسرور بن الوليد بن عبد الملك. بشر بن الوليد بن عبد الملك.
	فلسطين	صبعان بن روح.
	الأردن	إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك. الأسود بن بلال المحاربي.
	الجزيرة وأرمينية وأذربيجان والموصل	مروان بن محمد بن مروان.
	مصر	حفص بن الوليد الحضرمي.
	أفريقية	عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري.
	الأندلس	الحسام بن ضرار الكلبي (أبو الخطار).
	البصرة	منصور بن جمهور. عبدالله بن عمر بن عبد العزيز. عمرو بن سهيل بن عبد العزيز بن مروان.
	خراسان	نصر بن سيار.
	السند	منصور بن جمهور.
	سجستان	محمد بن عزار. حرب بن قطن الهلالي.
	الكوفة	منصور بن جمهور. عبيدالله بن العباس الكندي. عاصم بن عمر ابن عبد العزيز. عمر بن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب.
	اليمن	الضحاك بن واصل السكسكي.

الخليفة	البلد	الولاة
١٣- إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	لم يستقم له أمر	
١٤- مروان بن محمد بن مروان	مكة	عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز. عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك. الوليد بن عروة بن محمد بن عطية السعدي. محمد بن عبدالملك بن مروان. يوسف بن عروة بن محمد بن عطية السعدي.
	المدينة	عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز. عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك. رومي بن ماعز الكلابي. محمد بن عبد الملك بن مروان.
	دمشق	زامل بن عمرو السكسكي. الوليد بن معاوية بن مروان.
	حمص	زامل بن عمرو السكسكي. عبد الله بن شجرة الكندي
	قنسرين	عبد الملك بن الكوثر الغنوي.
	فلسطين	الرماحس بن عبد العزيز الكناني. ثابت بن نعيم الجذامي. الحكم بن ضبعان بن روح.
	الأردن	الوليد بن معاوية بن مروان. ثعلبة بن سلامة العاملي.
	الجزيرة وأرمينية وأذربيجان والموصل	عبد العزيز بن مروان بن محمد. القطران بن أكمه الشيباني. هشام بن عمرو الزهري. عبد الملك بن مروان بن محمد.
	مصر	حسان بن عتاهية التجيبي. حفص بن الوليد الحضرمي. الحوثرة بن سهيل الباهلي. المغيرة بن عبيد الله الفزاري. عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير.
	أفريقية	عبد الرحمن بن حبيب الفهري.
	الأندلس	يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهري.
	البصرة	سلم بن قتيبة بن مسلم بن عمرو الباهلي. يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري.
	خراسان	نصر بن سيار.
	السند	منصور بن جمهور.
	سجستان	عامر بن ضبارة المري.
	اليمامة	عبد الله بن النعمان الحنفي. المثنى بن يزيد بن عمر بن هبيرة.
	الكوفة	يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري.
	اليمن	القاسم بن عمرو الثقفي. الوليد بن عروة بن محمد.

رجال
الإدارة

رجال الإدارة:

أخذ الجهاز الإداري في العصر الأموي يكبر وتكثر وظائفه ويزداد تعقيداً عما كان عليه من قبل، فقد اشتمل على وظائف الحجابة، والحرس، والشرط، والرسائل، والخاتم،والكتابة، والبريد، والخراج، والجند، والنفقات وبيوت الأموال والخزائن والمستغلات وغيرها(١).

وهو وإن قام الرسول ﷺ منذ آلت إليه مقاليد الأمة في المدينة وقيادة أمورها في الداخل والخارج، وفي السلم والحرب باتخاذ الترتيبات والإجراءات التي تلتقي في الأداء بالوظائف المذكورة آنفاً، وتفي بحاجات ومصالح المجتمع والدولة(٢)، وتابعه الخلفاء الراشدون في هذا المجال من بعد، إلاّ أن هذه الوظائف بالإطار الذي عرفت به في عصر بني أمية كانت في أكثرها مستحدثة، فقد سمّي لهذه الوظائف في العصر الأموي موظفون دائمون كانوا يجلسون لها، وينظرون فيها، وصرفت لهم رواتب محددة من بيت المال نظير قيامهم بهذه الوظائف(٣)، وأصبحت جهازاً قائماً بذاته عرف انذاك باسم «الدواوين» ، وكان لكل ديوان رئيس يعرف بصاحب الديوان، ويتبعه عدد من الموظفين الكتّاب، وكان منها ما هو في المركز حاضرة الخلافة ومنها ما هو في الولايات، والمتمعن في الجهاز الإداري زمن بني أمية يجد الرجال الذين تولوا القيام بأموره ليسوا سواء.

ففي الحجابة، وهي وظيفة اقتضتها حاجة رئيس الدولة إلى الانفراد بنفسه عن الناس للحديث مع أوليائه من رجال الدولة في خواص الأمور والشؤون، كان الذين اتخذهم الخلفاء الأمويون حجاباً، كانوا من الرجال الذين تربطهم بهم رابطة الولاء، وقد علّل ابن خلدون سبب اختيار رئيس الدولة الحجاب من خواص أوليائه فقال، إذا استفحل المُلك استحالت خلق صاحب الدولة إلى خلق المُلك، وهي خلق غريبة مخصوصة،

---

(١) انظر: جدول الجهاز الإداري.

(٢) انظر: القلقشندي / صبح الأعشى، ج١، ص: ٩١.

(٣) انظر: الجهشياري / الوزراء والكتّاب، ص: ٤٢.

ويحتاج من يتصل بصاحب الدولة إلى معرفة ومدارة هذه الخلق ومعاملتها بما يجب لها خوفاً من وقوع المحذور(١)، وإلى ذلك اشار اليعقوبي قائلاً: «وينبغي للحاجب أن يكون عاقلا فطناً قد خدم الملوك قبل أن يتولى حجابتهم»(٢)، وكان الخواص من الأولياء أقدر الناس على معرفة خلق مولاهم والأدب معهم، ولذلك اختيروا حجاباً، وكانوا يحجبون الناس عن لقاء صاحب الدولة في كل وقت ليتسنى له النظر في مهام الدولة، ويحرصون في اللقاء علىأن لا يقع من الناس ما يسخط صاحب الدولة ويعرّضهم لعقوبته(٣)، ومما وصّى به عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز عندما وجهه إلى مصر أميراً قوله: «. . .وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك، فإنه وجهك ولسانك، ولا يقفن أحد ببابك إلاّ أعلمك مكانه لتكون أنت الذي تأذن له أو تردّه»(٤). وهي إشارات إلى ما كان يؤمّل عند هؤلاء من النصح والطاعة والانقياد لصاحب الدولة.

وفي الحرس، كان الذين شغلوا هٰذه الوظيفة من الموالي، ولا يبعد أن يكون اختيارهم لهٰذه الوظيفة لأنهم مظنة نصح وطاعة وانقياد لصاحب الدولة أكثر من غيرهم، فكان خالد بن الريان مولى محارب صاحب حرس سليمان بن عبد الملك، وكان قبل سليمان على حرس الوليد بن عبد الملك ثم على حرس عبد الملك بن مروان، وكان يحضر الحديث الذي دار بين سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز حول عقوبة الرجل الخارجي الذي شتم سليمان بن عبد الملك، فلما قال عمر لسليمان، ما أرى إلاّ أن تشتمه كما شتمك، لم يعجب كلام عمر خالد بن الريان، وقال لعمر، والله لقد كنت متوقعاً أن يأمرني بضرب عنقك! فقال له عمر، لو أمرك لفعلت؟ قال خالد: إني والله لو أمرني لفعلت(٥). ووصف اليعقوبي صاحب الحرس فقال: وينبغي أن يكون

---

(١) ابن خلدون / المقدمة، ج١، ص: ٣٥٢.

(٢) اليعقوبي / تاريخه، ج٢، ص: ٢٣٥.

(٣) ابن خلدون/ المقدمة، ج١، ص: ٣٥٣.

(٤) ابن الطقطقا / الفخري في الآدب السلطانية، ص: ١٢٦.

(٥) ابن الجوزي/ سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز، ص: ٥٠-٥١.

صاحب الحرس مسنّاً وعفيفاً ومأموناً لا يُطعن عليه»[1].

وقد ذُكر أن معاوية كان أول من أقام الحرس[2]، ولٰكن الشواهد تشير الى وقوع حراسات لأولي الأمر من قبل، ومنها أن المغيرة بن شعبة الثقفي وقف في صلح الحديبية على راس الرسول ﷺ في الحديد، وكان إذا تناول عروة بن مسعود الثقفي لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه، يقوم بالمغيرة يقرعه على يده ويقول له، أكفف يدك عن وجه رسول الله قبل أن لا تصل إليك[3].

وتوشّح أبو أيوب خالد بن زيد الأنصاري سيفه، وبات يحرس الرسول ﷺ حتى الصباح، عندما أعرس عليه السلام بصفية في خيبر أو في بعض الطريق[4]. وبعد أعمال الاغتيال، ومحاولة اغتيال معاوية، اهتم معاوية بالحرس، ونظّم أموره، واتخذ المقصورات، وحرس الليل، وقام الشرطة على راسه في الصلاة يحرسونه إذا سجد[5] وتابعه الخلفاء الأمويون من بعد، واتخذوا الحرس لحمايتهم، وكانوا يختارونهم من الموالي بعامة ومواليهم بخاصة.

وفي الخراج، كانت اللغة المستعملة في دواوين الخراج هي اللغة المحلية كما كانت الحال قبل الفتح الإسلامي، فالرومية في الشام، والقبطية واليونانية في مصر، والفهلوية في العراق، ولذٰلك كان الموظفون في أعمال الكتابة في هٰذه الدواوين من العالمين بهٰذه اللغات، والمهرة في أمور الخراج، وهو ما يفسر استخدام سرجون بن منصور على ديوان الخراج في الشام أيام عبد الملك بن مروان ومن تقدمه من الخلفاء، واستخدام زاذان فروخ أيام زياد بن أبيه على العراق، وسارزاذ أيام مصعب بن الزبير على العراق،

---

(١) اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص: ٢٣٥.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخه، ص: ٢٢٨، اليعقوبي، تاريخه ج٣، ص: ٢٢٧.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ج٣، ص: ٣٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ص: ٣٥٤.

(٥) أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٥، ص: ١٤٩.

واستخدام المجوس في خراسان، واستخدام يناس بن خمايا أيام عبد العزيز بن مروان على مصر[١]. ولٰكن الحال تغيّرت بعد تعريب دواوين الخراج، وصار يُستكتَب في الخراج من أهل العلم بالعربية والحذق بأمور الخراج وصناعته، وأما في أمور الخراج وجبايته، فقد استخدم الأمويون الدهاقين والموالي، لأنهم كما قال زياد بن أبيه وابنه عبيد الله، أنصر وأغفر وأشكر وأبصر بالجباية وأوفى بالأمانة وأهون في المطالبة، ولٰكنهم أبقوا هٰؤلاء المستخدمين في دائرة الرقابة، وجعلوا عليهم عمال الخراج الأمناء من رجالهم العرب والموالي ابتغاء العدل في الناس والبعد عن الظلم[٢].

وأما في الرسائل، فقد استكتب الخلفاء كتّاباً من العرب والموالي، وكان هٰؤلاء الكتّاب يتولّوْن عن الخليفة مكاتبة الأمراء والولاة والملوك في الداخل والخارج، وكان الخلفاء يُملُون عليهم ما يكتبون أحياناً، ويعدّ منصب صاحب الرسائل من المناصب التي يطلّع صاحبه على خفايا وأسرار الدولة، ويمكّنه للخلطة بالخليفة أن يتدخل في أمور الدولة، فكان قبيصة بن ذؤيب الخزاعي يقرأ الكتب الواردة على عبد الملك قبل أن يقرأها عبد الملك، وتدخّل قبيصة في مسألة ولاية العهد[٣]، ولذٰلك كان الخلفاء عند اختيار صاحب الرسائل يتحرّوْن إضافة إلى الفصاحة في اللغة، وإجادة الخط، أن يكون من أهل الطاعة والنصيحة، واختاروه من أخصّ الناس بهم من الأنصار والموالين المقربين، ووصف عبد الملك بن مروان صاحب رسائله روح بن زنباع الجذامي، بأنه شامي الطاعة، عراقي الخط، حجازي الفقه، فارسي الكتابة[٤]، وهي إشارة إلى ما أحب عبد الملك في كاتبه من الخلال التي تمثلت بالولاء والنصح والطاعة، وحسن الخط، والبعد عن تعدد الآراء والاختلاف، وخصوبة المعاني والأفكار.

---

(١) الجهشياري، الوزراء والكتّاب، ص: ٢٤، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٤٠، ٤٤، ٦٧.

(٢) انظر: أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٥، ص: ٥٢٣.

(٣) الجهشياري، الوزراء والكتّاب، ص: ٣٤، ٣٥.

(٤) المصدر نفسه، ص: ٣٥.

وتولّى دواوين الجند والخاتم والشرط وبيوت الأموال والنفقات والمستغلات والطراز والصدقة وغيرها رجال من العرب والموالي بلا استثناء.

ومما يلاحظ أن بعض أصحاب هٰذه الدواوين استمروا في عملهم مدداً استوعبت أيام عدد من الخلفاء، ومن هٰؤلاء سرجون بن منصور الرومي، وسليمان بن سعد مولى خشين والريان بن خالد مولى بني محارب، وهي إشارة إلى أن هٰؤلاء كانوا رضىً في عملهم، وهناك من جُمِعَ له أكثر من ديوان لارتباط هٰذه الدواوين بعضها ببعض من جهة، ولأغراض تسهيل العمل من جهة أخرى، فقد جمع ديوان الخراج وديوان الجند لسرجون بن منصور الرومي، وسليمان بن سعد مولى خشين، وصالح بن جبير الغداني، وأسامة بن زيد التنوخي وغيرهم، وجمع ديوان الرسائل وديوان الخاتم لعبيد الله بن أوس الغساني وأمثله أخرى. كما استمرت رئاسة الديوان في البيت الواحد أحياناً، ومثال ذٰلك الريان بن خالد وابنه خالد، وسالم بن عبد الرحمٰن وابنه عبد الله. وقد أشار اليعقوبي إلى ما ينبغي أن يكون عليه الكاتب من خلال فذكر خمساً هي: بعد غور، وحسن مداراة، وأحكام للعمل، وألاّ يؤخر عمل اليوم لغد، والنصيحة لصاحبه[1].

واستوعب عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد في الرسالة التي وجهها إلى الكتّاب[2]، ما ينبغي أن يتحلّوْا به من الخصال، ومن أبرز ما ذكر: الحلم، والعفاف، والعدل، وكتم الأسرار، والوفاء، والتنافس في العلم والأدب، والفقه في الدين،و العلم بكتاب الله والفرائض والعربية، وإجادة الخط، ورواية الأشعار، ومعرفة التاريخ، والإلمام بالحساب، والترفع عن الدنايا والسعاية والنميمة، والبعد عن الكبر والعظمة، واحترام أهل الفضل والرأي والتجربة ومشاورتهم، ومراقبة الله في العمل، والتزام الحق، وحسن الصحبة والعشرة، والقصد في المعاش، والاستعانة بالله في كل الأمور، ومن لزم الصحة لزمه العمل.

---

(١) اليعقوبي، تاريخه، ج٢، ص: ٢٣٥.

(٢) انظر: الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص: ٧٢-٧٩، ابن خلدون، المقدمة، ج١، ص: ٣٠٦-٣٠٩.

الجهاز الإداري في المركز

الخليفة	الوظائف الإدارية	الموظفون
١- معاوية بن أبي سفيان	الحاجب	أبو أيوب مولاه. رباح مولاه. سعد مولاه.
	الحرس	المختار مولى حمير.
	الرسائل	عبيد الله بن أوس الغساني. عبد الرحمن بن دراج مولى معاوية. سليمان بن سعيد مولى الحسين.
	الخاتم	عبد الله بن عمرو الحميري. عبد الله بن محصن الحميري. عبيد الله بن أوس الغساني.
	الشرط	يزيد بن الحر مولاه. قيس بن حمزة الهمداني. دهل بن عمرو العذري. الضحاك بن قيس الفهري.
	الخراج	سرجون بن منصور الرومي.
	الجند	عمرو بن سعيد بن العاص.
٢- يزيد بن معاوية	الحاجب	صفوان مولاه.
	الحرس	سعيد مولى كلب.
	الرسائل	عبيد الله بن أوس العساني.
	الخراج	سرجون بن منصور الرومي. سليمان بن سعد الخشني.
	الشرط	حميد بن حريث الكلبي. عبد الله بن عامر الهمذاني.
٣- معاوية بن يزيد	الرسائل	الريان بن مسلم.
	الخراج	سرجون بن منصور الرومي.
٤- مروان بن الحكم	الحاجب	أبو المنهال مولاه. أبو سهيل الأسود مولاه.
	الرسائل	أبو الزعيزعة مولاه. سفيان الأحول.
	الخراج	سرجون بن منصور الرومي.
	الشرط	يحيى بن قيس بن حارثة الغساني.

الخليفة	الوظائف الإدارية	الموظفون
٥- عبد الملك بن مروان	الحاجب	أبو يوسف مولاه.
	الحرس	عدي بن عياش مولى حمير. الريان بن خالد مولى بني محارب.
	الرسائل	أبو الزعيزعة مولاه. دينار بن دينار مولاه. ربيعة الجرشي. قبيصة بن ذؤيب الخزاعي. روح بن زنباع الجذامي. عمر بن الحارث مولى بني عامر.
	الخاتم	جناح مولاه.
	الشرط	يزيد بن أبي كبشة السكسكي. رياح بن عبده الغساني عبد الله بن يزيد الحكمي. كعب بن حامد العبسي.
	الخراج والجند	سرجون بن منصور الرومي. سليمان بن سعد مولى خشين.
	النفقات وبيوت الأموال والخزائن والمستغلات	قبيصة بن ذؤيب الخزاعي. عمرو بن الحارث مولى بني عامر.
٦- الوليد بن عبد الملك	الحاجب	سعيد مولاه. محمد بن أبي سهيل مولى مروان.
	الحرس	خالد بن الريان مولى بني محارب.
	الرسائل	جناح مولاه. القعقاع بن خليد العبسي.
	الخاتم	شعيب الصابي مولاه. جناح مولاه. عمرو بن الحارث مولى بني عامر.
	الشرط	رياح بن عبدة الغساني. كعب بن حامد العبسي.
	الخراج والجند	سليمان بن سعد مولى خشين.
	النفقات وبيوت الأموال والخزائن والمستغلات	عبد الله بن عمرو مولى بني عامر. نفيع بن ذؤيب مولاه.
٧- سليمان بن عبد الملك	الحاجب	أبو عبيدة مولاه. مسلم مولاه.
	الحرس	خالد بن الريان مولى محارب.
	الرسائل	سليمان بن نعيم الحميري. الليث بن أبي رقية مولى أم الحكم. عبد العزيز بن الحارث بن الحكم.
	الخاتم	نعيم بن سلامة مولى لأهل اليمن.
	الشرط	كعب بن حامد العبسي.
	الخراج والجند	سليمان بن سعد مولى خشين.
	النفقات وبيوت الأموال والخزائن والمستغلات	عبد الله بن عمرو مولى بني عامر.

الخليفة	الوظائف الإدارية	الموظفون
٨- عمر بن عبد العزيز	الحاجب	حبيش مولاه. مزاحم مولاه.
	الحرس	عمر بن المهاجر مولى الأنصار. ابن أبي عياش.
	الرسائل	الليث بن أبي رقية مولى أم الحكم. رجاء بن حيوة. اسماعيل بن أبي حكيم مولى الزبير. الصباح بن المثنى.
	الخاتم	نعيم بن سلامة مولى لأهل اليمن.
	الشرط	يزيد بن بشر بن يزيد الكلبي. روح بن يزيد السكسكي.
	الخراج والجند	سليمان بن سعد مولى حشين. صالح بن جبير الغدانى. عدي بن الصباح بن المثنى.
	النفقات وبيوت الأموال والخزائن والمستغلات	مطير مولاه.
٩- يزيد بن عبد الملك	الحاجب	خالد مولاه. سعيد مولاه.
	الحرس	عيلان ختن أبي معن بن أبي كبشة السكسكي. يزيد بن أبي كبشة السكسكي.
	الرسائل	أسامة بن زيد مولى لأهل اليمن. صالح بن جبير الغداني.
	الخاتم	مطير مولى. أسامة بن زيد مولى لأهل اليمن.
	الشرط	كعب بن حامد العبسي.
	الخراج والجند	صالح بن جبير الغداني. أسامة بن زيد مولى لأهل اليمن.
	النفقات وبيوت الأموال والخزائن والمستغلات	مطير مولى عمر بن عبد العزيز.
١٠- هشام بن عبد الملك	الحاجب	غالب بن مسعود مولاه. حريش مولاه.
	الحرس	نصير مولاه. الربيع بن زياد بن سابور مولى بني الحريش.
	الرسائل	سالم بن عبد الرحمن مولى سعيد بن عبد الملك. بشير بن أبي دلجة. سعيد بن الوليد الكلبي.
	الخاتم	اصطخر أبو الزبير مولاه. الربيع بن زياد مولى بني الحريش.
	الشرط	كعب بن حامد العبسي. يزيد بن يعلى العبسي.
	الخراج والجند	أسامة بن زيد مولى اليمن. عبيدة بن الحبحاب مولى سلول. سعيد بن عقبة مولى بني الحارث.
	النفقات وبيوت الأموال والخزائن والمستغلات	عبد الله بن عمرو بن الحارث.
	الطراز	جنادة بن أبي خالد.
	الصدقات	اسحاق بن قبيصة بن ذؤيب الخزاعي.

الخليفة	الوظائف الإدارية	الموظفون
١١- الوليد بن يزيد بن عبد الملك	الحاجب	قطن مولاه. عيسى بن مقسم.
	الحرس	غيلان ختن أبي معن السكسكي. قطري مولاه.
	الرسائل	سالم مولى سعيد بن عبد الملك. عبد الله بن سالم مولى سعيد بن عبد الملك.
	الخاتم	بيهس بن زميل. رباح بن أبي عمارة.
	الشرط	عبد الرحمن بن حنبل الكلاعي. عبدالله بن عامر الكلاعي، عبد الرحمن بن حميد الكلبي.
	الخراج والجند	عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف الثقفي. الحجاج بن عمير.
	النفقات وبيوت الأموال والخزائن والمستغلات	عبد الرحمن بن حنبل الكلاعي.
١٢- يزيد بن الوليد بن عبد الملك	الحاجب	جبير مولاه.
	الحرس	سلام مولاه.
	الرسائل	ليث بن سليمان بن سعد مولى خشين.
	الخاتم	عمرو بن الحارث مولى بني جمح. النضر بن عمرو من أهل اليمن. عبد الرحمن بن حنبل الكلبي.
	الشرط	بكير بن الشماخ اللخمي.
	الخراج والجند	النضر بن عمرو من أهل اليمن.
١٣- إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	كانت أيامه معدودة ومضطربة ولا تذكر المصادر شيئاً عن الجهاز الإداري في أيامه.	
١٤- مروان بن محمد	الحاجب	سقلاب مولاه. سليم مولاه.
	الحرس	سقلاب مولاه.
	الرسائل	يحيى بن بكير ابن أخي رباح بن أبي عمارة. عبد الحميد بن يحيى. عثمان بن قيس مولى خالد القسري. مخلد بن محمد بن الحارث.
	الخاتم	مولى له، عبد الأعلى بن ميمون بن مهران.
	الشرط	الكوثر بن الأسود الغنوي.
	الخراج والجند	عمران بن صالح مولى هذيل.
	النفقات وبيوت الأموال والخزائن والمستغلات	زياد بن أبي الورد الأشجعي. عمران بن صالح مولى هذيل.

الجهاز الإداري لبعض ولاة العراق

الوالي	الوظائف الإدارية	الموظفون
١- زياد بن أبيه	شرط البصرة	الجعد بن قيس النمري، عبد الله بن حصن اليربوعي.
	شرط الكوفة	شداد بن الهيثم الهلالي.
	الرسائل	عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي بكرة، جبير بن حية، مرداس مولاه.
	الخراج	راذان فروخ.
٢- الحجاج بن يوسف الثقفي	شرط البصرة	عبد الرحمن بن عبيد السعدي، زياد بن عمرو العتكي، عامر بن مسمع بن مالك، بلال بن أبي بردة الأشعري، عبد الملك بن المهلب.
	شرط الكوفة	عبد الرحمن بن عبيد السعدي، ميمون مولى حوشب بن يزيد، زياد بن جرير بن عبد الله البجلي، مالك بن المنذر ابن الجارود.
	شرط واسط	موسى بن وجيه الحميري، مهاجر بن سحيم الطائي، عكرمة بن الأوصافي الحميري، سفيان بن سليم الأردي.
	الرسائل	نافع مولاه، أبو العلاء يزيد بن أبي مسلم من موالي ثقيف واخو الحجاج بالرضاعة.
	الخراج	راذان فروخ، يزيد بن أبي مسلم أخو الحجاج بالرضاعة.
	الكاتب	أبو الوليد صالح بن عبد الرحمن مولى.
٣- يزيد بن المهلب	شرط البصرة	عثمان بن الحكم بن ثعلبة الهنائي.
	شرط الكوفة	زياد بن جرير بن عبد الله البجلي.
	شرط واسط	حرب بن عبد الله.
	الرسائل	كوثر، المغيرة بن أبي قرة مولى بني سدوس.
	الكاتب	المغيرة بن أبي قرة مولى بني سدوس.
	الخراج	صالح بن عبد الرحمن مولى.
٤- عمر بن هبيرة الغزاري	شرط البصرة	ابن رياط.
	شرط الكوفة	محمد بن منظور الأسدي.
	شرط واسط	أبو زياد بن سويد المري, حوثرة بن سهيل الباهلي.
	الرسائل	رجل شامي يقال له عثمان، سعد بن عطية.
	الكاتب	المغيرة بن عطية، سعيد بن عطية.

الوالي	الوظائف الإدارية	الموظفون
٥- حالد بن عبد الله القسري	شرط البصرة	عقبة بن عبد الأعلى الكلاعي، مالك بن المنذر بن الجارود، بلال بن أبي بردة الأشعري، النضر بن عمر الحميري.
	شرط الكوفة	العريان بن الهيثم النخعي.
	شرط واسط	عمرو بن عبد الأعلى الحكمي.
	الرسائل	داود بن سعيد الكاتب.
	الخراج	الحجاج بن عمير.
	الكاتب	مروان بن إياس.
٦- يوسف بن عمر الثقفي	شرط البصرة والكوفة	ترك الاختيار إلى من ينيبه فيهما.
	شرط واسط	كثير بن عبد الله السلمي.
	الرسائل	رشدين مولاه على الرسائل إلى الخليفة، وعقبة على الرسائل إلى العمال.
	الخراج	قحذم بن سليمان مولى أبي بكرة.
	الكاتب	قحذم بن أبي سليم, شيبة بن أيمن.

الجهاز الإداري للولاة على مصر

الوالي	الشرط
١- عمرو بن العاص	خارجة بن حذافة العدوي
٢- عتبة بن أبي سفيان	زكريا بن جهم
٣- مسلمة بن مخلد الأنصاري	السائب بن هشام العامري عباس بن سعيد المرادي (جمع الشرط والقضاء)
٤- عبد العزيز بن مروان	عابس بن سعيد المرادي التجيبي عبد الرحمن بن حسان التجيبي عبد الرحمن بن معاوية بن حديج التجيبي (جمع الشرط والقضاء)
٥- عبد الله بن عبد الملك	عمران بن عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة (جمع له الشرط والقضاء)
٦- قرة بن شريك	عبد الأعلى بن خالد الفهمي عبد الملك بن رفاعة بن خالد الفهمي
٧- عبد الملك بن رفاعة بن خالد	الوليد بن رفاعة الفهمي
٨- أيوب بن شرحبيل بن الصباح	الحسن بن يزيد الرعيني الحارث بن داخر الأصبحي
٩- بشر بن صفوان	شعيب بن حميد البلوي محمد بن مطير البلوي القاسم بن أبي القاسم - مولى-
١٠- محمد بن عبد الملك بن مروان	حفص بن الوليد الحضرمي
١١- الحر بن يوسف بن يحيى الأموي	حفص بن الوليد الحضرمي
١٢- الوليد بن رفاعة الفهمي	عبد الله بن أبي سمير الفهمي عبد الرحمن بن خالد الفهمي
١٣- حنظلة بن صفوان الكلبي	عياض بن حريبة بن سعد الكلبي قيس بن الأشعث التجيبي
١٤- حفص بن الوليد الحضرمي	عيسى بن عمرو عقبة بن نعيم الرعيني
١٥- الحوثرة بن سهيل الباهلي	حسان بن عتاهية التجيبي
١٦- عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير	معاوية بن مروان بن موسى بن نصير

امارة الجيوش:

كان الرسول ﷺ يقود الجيوش، وينيب عنه من يقودها أحياناً، وأصبحت السنّة المتبعة من بعده أن يقيم الخليفة ويفوض إمارة الجيوش إلى غيره، إلاّ في حالات نادرة، وصارت الولاة على البلدان هم الأمراء على الجيوش التي تخرج من عندهم، وكان هٰؤلاء الولاة ينتدبون في الأغلب من ينوب عنهم في إمارة الجيوش إلى ساح الجهاد.

وقد حظيت جبهة القتال مع الروم البيزنطيين بعناية الخلفاء الأمويين لاسباب أهمها مجاورة تلك الجبهة لبلاد الشام مركز الخلافة الأموية، والنديّة التي كانت تمثلها الامبراطورية البيزنطية في علاقتها مع الدولة الإسلامية، ومزاحمتها إياها في السيطرة والنفوذ، ولذٰلك أسندت الخلافة الأموية في بداية أمرها إمارة الجيوش في هٰذه الجبهة إلى الرجالات العربية المعروفة بالشجاعة والإقدام والرأي من أبناء القبائل العربية الشامية، وعندما كثرت أعداد الأمويين، صارت الخلافة الأموية تسند إمارة الجيوش في هٰذه الجبهة إلى رجالات أموية من أبناء وأقارب الخلفاء الأمويين للتدليل على مكانة الجهاد في نفوس الأسرة الأموية الحاكمة وحرصهم على الفوز بهٰذه الفضيلة، وهو ما يعزز مكانتهم في نفوس الأمة، ويبيّن موقع قيادتهم من فكر الأمة وآمالها وأهدافها.

امارة الحج:

قاد الرسول ﷺ الحج في عام الوداع، وفعل مثل ذلك الخلفاء الراشدون إلاّ في حالات معينة أنابوا فيها أمراء على الحج من قبلهم، وقد تابع الخلفاء الأمويون سنّة من سبقهم من الخلفاء في إمارة الحج وقيادة ركبه، وكانت إمارة الحج والجهاد من أهم معالم قيادة الأمة والقيام بأمور الخلافة، ولذلك كانت إمارة الحج تتردد بين الخلفاء الأمويين وابنائهم وولاتهم على الحجاز، إلاّ في حالات الفتنة والفرقة التي شهدت ظهور القوى التي حالت دون إمارتهم على الحج.

أمراء الحج وأمراء غزو الروم البيزنطيين في العصر الأموي

الخليفة	أمراء غزو الروم (البيزنطين)	أمراء الحج
١- معاوية بن أبي سفيان	بسر بن أبي أرطأة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد مالك بن هبيرة السكوني أبو عبد الرحن القيني فضالة بن عبيد سفيان بن عوف محمد بن عبد الرحمن مالك بن عبد الله الخثعمي يزيد بن معاوية بن أبي سفيان يزيد بن شجرة الرهاوي عمرو بن يزيد الجهني جنادة بن أبي أمية الأردي عبد الرحمن بن أم الحكم	عتبة (عنبسة) بن أبي سفيان معاوية بن أبي سفيان سعيد بن العاص يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الوليد بن عتبة بن أبي سفيان عثمان بن محمد بن أبي سفيان
٢- يزيد بن معاوية بن أبي سفيان	مالك بن عبد الله الختعي عبد الله بن أسد بن كرز القسري حصين بن نمير السكوني يزيد بن أسد	عمرو بن سعيد بن العاص الوليد بن عتبة بن أبي سفيان عثمان بن محمد بن أبي سفيان
٣- مروان بن الحكم		
٤- عبد الملك بن مروان	محمد بن مروان ابان بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط يحيى بن الحكم الوليد بن عبد الملك عبد الله بن عبد الملك	الحجاج بن يوسف عبد الملك بن مروان ابان بن عثمان بن عفان سليمان بن عبد الملك هشام بن إسماعيل المخزومي
٥- الوليد بن عبد الملك بن مروان	مسلمة بن عبد الملك العباس بن الوليد عبد العزيز بن الوليد محمد بن مروان مروان بن الوليد عمر بن الوليد بشر بن الوليد	عمر بن الوليد هشام بن إسماعيل عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك مسلمة بن عبد الله أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حرم عبد العزير بن الوليد
٦- سليمان بن عبد الملك	مسلمة بن عبد الملك عمر بن هبيرة الفزاري عمرو بن قيس الكندي عبد الله بن عمر بن الوليد بن عقبة داود بن سليمان بن عبد الملك	أبو بكر بن عمرو بن حزم سليمان بن عبد الملك عبد العزير بن عبد الله بن خالد بن أسيد
٧- عمر بن عبد العزيز	عمر بن قيس الكندي الوليد بن هشام	أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حرم

الخليفة	أمراء غزو الروم (البيزنطين)	أمراء الحج
٨- يزيد س عد الملك	الوليد بن هشام العباس بن الوليد عبد الرحمن بن سليمان الكلبي عثمان بن حيان المري سعيد بن عبد الملك بن مروان مروان بن محمد	عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس عبد الواحد بن عبد الله بن بشر النضري
٩- هشام بن عبد الملك	معاوية بن هشام سعيد بن عبد الملك بن مروان الجراح بن عبد الله الحكمي مسلمة بن عبد الملك عاصم بن يزيد الهلالي سعيد بن هشام عبد الله البطال مروان بن محمد الغمر بن يزيد بن عبد الملك	إبراهيم بن هشام هشام بن عبد الملك سليمان بن هشام خالد بن عبد الملك بن الحارث ابن الحكم محمد بن هشام بن إسماعيل الوليد بن يزيد بن عبد الملك مسلمة بن هشام يزيد بن هشام معاوية بن هشام
١٠- الوليد بن يزيد بن عبد الملك		محمد بن موسى الثقفي
١١- يزيد بن الوليد بن عبد الملك	إسحاق بن مسلم العقيلي	عمر بن عبد الله بن عبد الملك ابن مروان
١٢- مروان بن محمد	لم يغز في أيام مروان لم يحدث غزو في أيام مروان بن محمد	عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز عبد الواحد بن سليمان عبد الملك بن محمد بن مروان محمد بن عبد الملك بن عطية السعدي

صاحب الشرطة:

الشرطة من الوسائل التي اتخذتها الدولة الإسلامية لحفظ الأمن والنظام قبل الأمويين، وهي من ابرز وأهم معالم ومظاهر الدولة في حياة المجتمع والناس لما تقوم به من الحفاظ على الأمن ليلاً ونهاراً، وحماية الدماء والأعراض والأموال من اعتداءات أهل الزعارة والمجرمين واللصوص وأهل الفساد، وحراسة الخلفاء والولاة وكبار رجال الدولة، وإخماد الفتن وتأديب الثائرين، والضرب على أيدي الرعاع والفجرة، وضبط العرافات وحراسة السجون وإدارات الدولة ودواوينها وبيت المال، وجمع الجند عند النفير، والإشراف على عملية توزيع العطاء، وتسهيل مهام أعمال الحسبة والقضاء وغير ذلك من الأعمال(١).

ونظراً لهذه الأعمال الصعبة التي تتولاها الشرطة، كان منصب صاحب الشرطة من المناصب الرفيعة في الدولة، وكان اختيار صاحب الشرطة موضع أناة وروية وتحري خصال متميزة تعين صاحبها على القيام بواجبات منصبه، وقد روي عن زياد بن أبيه أنه قال: «أربعة أعمال لا يليها إلاّ المسن الذي قد عضّ على ناجذه»، وذكر منها الشرط، وقال: «ينبغي أن يكون صاحب الشرط، شديد الصولة، قليل الغفلة»(٢)، وروي عن الحجاج بن يوسف الثقفي أنه سأل أهل شواره أن يدلّوه على رجل يولّيه الشرطة، فقيل له، أيّ الرجال تريد؟ فقال: أريد رجلاً دائم العبوس، سمين الأمانة، عجف الخيانة، لا يحنق في الحق على جرأة، تهون عليه سبال الإشراف في الشفاعة، فقيل له: عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمي(٣)، فاستعمله الحجاج، وكان من صرامة عبد الرحمن،

---

(١) انظر: أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٥، ص: ١٨١، ١٨٢، ١٨٨، ٢٢٤، ٢٣٥، ٢٨١، ٢٥٨، ٢٦٨، ٣٦٠، ٣٧٩، ٤٧٩.

ابن خلدون، المقدمة، ج١، ص: ٣٠٩-٣١٠، دريد نوري، الشرطة في العراق، المؤرخ العربي، العدد ٢٩، السنة الثانية عشرة، ١٩٨٦م، ص:٢١٢-٢١٨.

(٢) اليعقوبي، تاريخه، ج٢، ص:٢٣٥.

(٣) اسمه في الجدول عبد الرحمن بن عبيد السعدي، وبنو سعد من تميم.

أنه إذا أتي برجل قاتَلَ بحديدةٍ وشهر سلاحاً قطع يده، وإذا أتي بنبّاش حفر له قبراً ودفنه فيه، وإذا أتي برجل رمي باللصوصية ولم يكن منه شيء ضربه ثلاثمائة سوط، وكان لا يحبس إلاّ في الدّيْن، فربما أقام أربعين ليلة لا يؤتى بأحد، فأعجب الحجاج به، وضمّ إليه شرطة البصرة وشرطة الكوفة[١].

وربما ضُمَّ منصب القضاء إلى منصب صاحب الشرطة وهذا يُشعر بتوخي خصال القاضي في صاحب الشرطة، فقد جمع القضاء والشرطة في مصر لعابس بن سعيد المرادي عام ٦١هـ، ولعبد الرحمن بن معاوية بن حديج الكندي عام ٨٧هـ، وكان عبد الرحمن بن خالد الفهمي على شرطة مصر، فلما مات والي مصر، أقرّ هشام بن عبد الملك عبد الرحمٰن بن خالد الفهمي أميراً على مصر عام ١١٨هـ، وكان حميد بن حريث الكلبي على شرطة يزيد بن معاوية، وكان حميد من وجوه أهل دمشق وفرسانها[٢]، وكان كعب بن حامد العبسي علىشرطة عبد الملك بن مروان واستمر في عمله أيام الوليد وسليمان ويزيد وهشام، فلما قتل الجراح بن عبد الله الحكمي قائد الجيوش في الجبهة الأرمينية، بعث هشام بن عبد الملك كعب بن حامد العبسي أميراً عليها مكان الجراح[٣]، ومما ذكر عن هشام بن عبد الملك أنه اتخذ الشرط بالشام والحرس والخيل والرابطة، وكان لا يقبل في الشرط إلاّ الرجل الشريف[٤]،وأمثلة أخرى كثيرة تشير إلى أهمية صاحب الشرطة ومكانته المعدودة بين رجالات الدولة، ولذلك كان صاحب الشرطة كما قال ابن خلدون يختاره الخلفاء وولاتهم من كبار القواد وعظماء الخاصة من مواليهم[٥]،

---

(١) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٥، ص:١٩.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٥، ص: ٣٤٣، ٣٤٤، ترجمة حميد بن حريث الكلبي.

(٣) الكندي، الولاة والقضاة، ص: ٣١٤، ٣٢٥، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٤، ص: ٥٤٩، ترجمة كعب بن حامد، ج٣٥، ص: ٤٤٣، ترجمة عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١، ص:١٧٦، ٣٣٩، ٣٥٦.

(٤) تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول، ص:٣٩٩.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ج١،ص:٣٠٩.

والجداول المرفقة تبين ذلك (جدول الجهاز الاداري في المركز والولايات).

أما بالنسبة لأفراد الشرطة فقد ضم جيش الشرطة أجناساً مختلفة من الأعاجم والبخارية وغيرهم[1].

وقد وصف دينيل دينيت تنظيمات الشرطة والأمن في العصر الأموي بعدم الكفاءة، ونسب إلى هذه الحال انتشار الإشاعات والدعايات والتنظيمات السرية التي لم تكن أخبار نشاطها تصل كلها إلى سمع الخليفة، فانطلقت في النهاية تلك الثورة التي أطاحت بالأمويين[2]. وربما يعود وصف جهاز الشرطة بعدم الكفاءة وفشله في القضاء على الثورة العباسية إلى قلة أعداد الشرطة في العصر الأموي من جهة، وإلى تعلق الأفراد بما كان لهم من حرمة راعت الدولة احترامها وعدم اقتحامها وقتلها باتباع جاسوسية عدوانية يباشرها جهاز الشرطة، وبالرغم من وجود شواهد على حالات قتل واعتداء وتجسس على الأفراد، فإنها شواهد قليلة، وبعضها له ما يبرره، ولكنها تظل غير كافية للحكم بوجود اتجاه عام عند الدولة قائم على الاستهتار بحرمة الفرد والعبث بحماه.

رجال القضاء:

وصف القضاء بأنه مرتبة تَلُو مرتبة النبوة[3] لسمو رسالته في الفصل بين الناس في الخصومات وحسم التداعي وقطع التنازع بينهم، وإراحة الحق على أهله، وهو مما تطمئن به النفوس وتهدأ، وتستقيم الحياة وتتقدم، والقضاء في منهجه ومصدر أحكامه واختيار قضاته في العصر الأموي استمرار لما كان في العصر الراشدي.

لقد تولى القضاء في العصر الأموي رجال عرفوا في الاغلب بخصال الخير من العبادة والفقه والفهم والعدالة والورع والجود والكرم والنزاهة وتحري العدل في الحكم،

---

(١) أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٥، ص: ٢٨١، ٢٩٨.

(٢) فاروق عمر، طبيعة الدعوة العباسية، ص: ٩٢.

(٣) ابن أبي الدم / أدب القضاء، ص: ٥٧-٥٨.

وعرف منهم من اشتهر ببعض هذه الخصال أكثر من البعض الآخر، فاشتهر سليم بن عتر اليحصبي بالورع وشدة العبادة والنسك ومداومة ختم القرآن[1]، واشتهر أبو سلمة عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، وعبد الله بن عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني، وأبو طواله عبد الله بن عبد الله بن عبد الرحمن الأنصاري بالعلم والصدق والعدالة[2]، واشتهر عبيد الله بن أبي بكرة بالجود والكرم[3]، وعُرف إياس بن معاوية بالعقل والفهم والفطنة والعفة[4]، وعُرف بالورع والخوف من الجور وظلم الناس في القضاء، محارب بن دثار السدوسي وتوبة بن نمر الحضرمي[5]، وكان سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهري يصوم الدهر ويختم القرآن في كل يوم وليلة[6]. ووصف بالفقه والعلم والأدب عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ومحمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله[7]. وأمثلة أخرى كثيرة كان أصحابها من الصحابة والتابعين وأبنائهم وغيرهم من حملة العلم والفقه والحديث، ومن هؤلاء القضاة من لم يقبل أن يأخذ على القضاء أجراً ولا رزقاً، منهم عمرو بن خلدة الزرقي والحسن بن أبي الحسن البصري وزرعة بن أيوب المعري وعبد الله بن يزيد بن خذامر والقاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود والحارث بن يمجد الأشعري،وعاشوا راضين وقانعين بما كان يأتيهم من ممتلكاتهم الخاصة[8].

---

(١) الكندي/ الولاة والقضاء، ص: ٣٠٢-٣١٠، ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج٧، ترجمة سليم بن عتر.

(٢) وكيع/ أخبار القضاة ١/ ١٢٠، ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج٩، ترجمة عبد الله بن عبد الرحمن.

(٣) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج١٠، ترجمة عبيد الله بن أبي بكرة.

(٤) المصدر نفسه، ج٣، ترجمة إياس بن معاوية.

(٥) وكيع/ أخبار القضاة، ٣/ ٢٣٠، ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج١٦، ترجمة/ محارب بن دثار.

(٦) وكيع/ أخبار القضاة، ١/ ١٦٠-١٦١.

(٧) ابن سعد/ الطبقات الكبرى، ٣/ ٢٠٧، وكيع / أخبار القضاة، ١/ ١٨١.

(٨) انظر: وكيع/ أخبار القضاة ١/ ١٣٣، ٣٠٧، ٣/ ٦، ٢٠٢، ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج٤، ترجمة الحارث بن يمجد الأشعري، ج١٤، ترجمة القاسم بن عبد الرحمن.

وشارك بعض هؤلاء القضاة مثل جعثل الرعيني والحارث بن يمجد الأشعري في تعليم القرآن ووعظ الناس ونشر الإسلام وخدمة الثقافة الإسلامية وإزالة الأمية[1]، وعندما وجد بعضهم الحق إلى جانب خصوم رجالات الدولة أراحوا الحق على أصحابه، ومن ذلك أن قاضي المدينة عبد الله بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب أنفذالقضاء على عبد الله بن حنطب زوج فاطمة بنت الحكم أخت الخليفة مروان بن الحكم، فزاده ذلك خيراً عند مروان[2]، وقضى نوفل بن مساحق قاضي المدينة على مروان بن الحكم في أثناء ولاية مروان على المدينة، قضى عليه أو على بعض ولده لرجل من آل عبد الله بن سراقة في حصة له بدار في السوق[3]، وقضى سعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت لقوم شكوا إليه والي المدينة الذي أخذ أرضهم، قضى لهم بردّ الأرض إليهم، فوقع الخلاف بينه وبين الوالي، فعزل الخليفة يزيد بن عبد الملك الوالي من أجل ذلك[4].

ومن القضاة، من عارض الخلفاء، وغيّر بيده ما رآه منكراً، فلما حج الوليد بن يزيد ابن عبد الملك عام ١٢٦هـ، أحضر معه قبة أراد أن ينصبها على الكعبة يتقي بها حر الشمس في أثناء الطواف حولها، فخرج سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قاضي المدينة ومعه القرشيون والأنصار من أهل المدينة وأحرقوا القبة[5].

ومن هؤلاء القضاة من شارك في الثورة على الدولة أمثال عبد الرحمن بن أبي ليلى وسعيد بن جبير وعامر الشعبي[6].

---

(١) انظر: ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج٤، ترجمة الحارث بن يمجد الأشعري.

(٢) وكيع/ أخبار القضاة ١/ ١١٣.

(٣) المصدر نفسه ١/ ١٢٧.

(٤) المصدر نفسه ١/ ١٦٨.

(٥) وكيع/ أخبار القضاة، ١/ ١٦٠-١٦١.

(٦) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ٥/ ٣٥٠.

كانت الدولة ومن يمثلها تختار للقضاء من رأينا من أهل الفهم والعلم والورع[1]، وكانت تحرص في علاقتها مع القضاة على شدّ موقفهم وتعزيز جانبهم اعتقاداً منها بأنه إذا وهن القاضي وهنت أحكامه، ومع ما كان عليه رجال القضاء من خصال الخير، فإن الخلفاء والولاة لم يفتهم أن يتقصّوا أخبار القضاة، ويتفحصوا أحوالهم، ويراجعوا اقضيتهم.

قدم مروان بن الحكم إلى مصر واجتمع بقاضيها عابس بن سعيد وساله إن كان يحفظ القرآن ويعلم الفرائض، فلما أجابه بالنفي، استنكر مروان قائلاً: فكيف تقضي؟ قال عابس: ما علمته قضيت به، وما جهلته سألت عنه، وكان عابس قد جالس عقبة بن عامر الجهني وعبد الله بن عمرو بن العاص واستفرغ علمهما، وسأله مروان ابن الحكم مسائل في الإرث والطلاق والقرآن فأحسن عابس الإجابة عنها وأصاب، فَسُرَّ مروان بذلك[2].

وكان عمر بن عبد العزيز يسأل عن القضاة، واختبر بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري فلم يعجبه باطنه فلم يستقضه ولم يولّه[3]، واستعمل رجلاً من الأنصار على قضاء المدينة، فبلغه أن ذلك القاضي كان إذا اختصم إليه الخصمان في الشيء التافه أخرجه القاضي من ماله، فراجعه عمر في ذلك فقال القاضي: لا أستطيع غير ذلك، فعزله عمر واستعمل غيره[4]، وبلغ هشام بن عبد الملك أن كتّاب يحيى بن ميمون الحضرمي قاضي مصر يرتشون، وأن يحيى لم يعزلهم مع علمه بفعلهم، فكتب هشام إلى والي مصر يأمره بصرف يحيى عن القضاء مذموماً مدحوراً، وأن يختار للقضاء رجلاً عفيفاً ورعاً تقياً سليماً من العيوب لا تأخذه في الله لومة لائم[5]، وصحّ عند ابن هبيرة

(١) وكيع/ أخبار القضاة، ٣/ ٧٥.

(٢) انظر: الكندي/ الولاة والقضاة، ص٣١٢.

(٣) وكيع/ أخبرا القضاة، ١/ ٣١٢، ٢/ ٢٧.

(٤) المصدر نفسه، ١/ ١٣٤.

(٥) الكندي/ الولاة والقضاة، ص: ٣٤٠-٣٤١.

أن قاضي واسط يرتشي فعزله[1]، وكانوا إذا صح عندهم عن قاضٍ أنه يرتشي عزلوه[2].

ومما يلاحظ عند الإمعان في جدول القضاة، كثرة القضاة من الصحابة وأبنائهم في هٰذا العصر، وأن القضاء لم يكن مقصوراً على العرب، بل كان هناك قضاة من الموالي أيضاً مثل سعيد بن جبير وعامر الشعبي وعبد الرحمٰن بن أبي ليلى وغيرهم.

---

(١) وكيع/ الولاة، ٣/ ٣١٥.

(٢) المصدر نفسه، ٣/ ٣١٦.

أشهر البلدان وقضاتها

الخليفة	البلد	القضاة
١- معاوية بن أبي سفيان	دمشق	عويمر أبو الدرداء، فضالة بن عبيد بن نافذ الأنصاري، النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري.
	البصرة	عميرة بن يثربي الضبي، عمران بن حصين، عاصم بن فضالة الليثي، زرارة بن أوفى الحرشي، عبد الرحمن بن أذينة العبدلي.
	الكوفة	شريح بن الحارث بن قيس الكندي.
	المدينة	أبو هريرة، عبد الله بن نوفل بن الحارث، أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، مصعب بن عبد الرحمن بن عوف، عمرو بن عبد بن زمعة العامري.
	مصر	سليم بن عتر اليحصبي، عابس بن سعيد التجيبي.
	اليمن	عبد الرحمن بن حسيك.
٢- يزيد بن معاوية	دمشق	بلال بن عويمر أبي الدرداء الأنصاري.
	البصرة	عاصم بن فضالة الليثي.
	الكوفة	شريح بن الحارث بن قيس الكندي.
	المدينة	طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري، عبد الله بن عثمان التيمي.
٣- معاوية بن يزيد بن معاوية	كانت مدة خلافته تقدّر بالأيام، واستمر القضاء جاريا، ولا تتعرض المصادر لأسماء القضاة في أيام خلافته.	
٤- مروان بن الحكم	دمشق	أبو ادريس عائذ بن عبد الله الخولاني، عبد الله بن عامر اليحصبي.
	مصر	عابس بن سعيد المرادي.
	أما بقية البلاد فكانت تابعة لعبد الله بن الزبير	

الوالي	الوظائف الإدارية	الموظفون
٥- عبد الملك بن مروان	دمشق	أبو ادريس عائذ بن عبد الله الخولاني.
	البصرة	عبيد الله بن أبي بكرة، هشام بن هبيرة الليثي، النضر بن أنس بن مالك، زرارة بن أوفى، موسى بن أنس بن مالك، عبد الرحمن بن أذينة العبدي.
	الكوفة	عبد الرحمن بن أبي ليلى، شريح بن الحارث، أبو بردة عامر ابن أبي موسى الأشعري، أبو بكر بن أبي موسى الأشعري، عامر بن شراحيل الشعبي.
	المدينة	عبد الله بن قيس بن مخرمة بن عبد المطلب، نوفل بن مساحق العامري، عمرو بن خلدة الزرقي.
	مصر	عابس بن سعيد المرادي، بشير بن النضر المزني، عبد الرحمن ابن حجيرة الخولاني، مالك بن شراحيل الخولاني، يونس ابن عطية الحضرمي، أوس بن عبد الله بن عطية، عبد الرحمن بن معاوية بن حديج الكندي.
	اليمن	عبد الرحمن بن حميدة.
٦- الوليد بن عبد الملك	دمشق	زرعة بن ثوب، عبد الله بن أبي عامر اليحصبي، سليمان ابن حبيب المحاربي.
	البصرة	الحسن بن الحسن البصري، إياس بن معاوية، النضر بن أنس بن مالك، عبد الرحمن بن أذينة العبدي.
	الكوفة	أبو بكر بن أبي موسى الأشعري، عامر بن شراحيل الشعبي.
	المدينة	عبد الرحمن بن يزيد بن جارية، أبو بكر بن عمرو بن حزم.
	مصر	عبد الواحد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، عمران ابن عبد الرحمن بن شرحبيل بن حسنة، عبد الأعلى بن خالد بن ثابت الفهمي.
	اليمن	عبد الرحمن بن حميدة.

الوالي	الوظائف الإدارية	الموظفون
٧- سليمان بن عبد الملك	دمشق	عبد الرحمن بن قيس العقيلي.
	البصرة	عبد الرحمن بن أذينة العبدي، موسى بن أنس بن مالك.
	الكوفة	أبو بكر بن أبي موسى الأشعري.
	المدينة	أبو طوالة عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم.
	مصر	عياض بن عبيد الله الأزدي، عبد الله بن عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني.
	اليمن	العباس بن عبد الرحمن بن حيدة.
٨- عمر بن عبد العزيز	دمشق	عبد الرحمن بن الحسحاس العذري، سلمان بن حبيب المحاربي الداراني.
	البصرة	إياس بن معاية بن قرة المزني، الحسن بن أبي الحسن البصري.
	الكوفة	عامر بن شراحيل الشعبي، القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود، الحسين بن الحسن الكندي.
	المدينة	أبو طوالة عبد الله بن عبد الرحمن بن معمر بن حزم.
	مصر	عياض بن عبد الله، عبد الله بن يزيد بن خذامر.
	اليمن	وهب بن منبه.
٩- يزيد بن عبد الملك	دمشق	صالح بن عبد الله العبسي.
	البصرة	النضر بن أنس بن مالك، موسى بن أنس بن مالك، عبد الله بن يعلى.
	الكوفة	القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود.
	المدينة	سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، سعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت.
	مصر	عبد الله بن يزيد بن خذامر.
	اليمن	الغطريف بن الضحاك بن فيروز.

الوالي	الوظائف الإدارية	الموظفون
١٠- هشام بن عبد الملك	دمشق	عبد الرحمن بن الحسحاس العذري، يزيد بن عبد الرحمن بن أبي مالك الهمداني.
	البصرة	ثمامة بن أنس بن مالك، بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، عامر بن عبيدة الباهلي، موسى بن أنس بن مالك.
	الكوفة	الحسين بن الحسن الكندي، سعيد بن أشوع الهمداني، محارب بن دثار، الحكم بن عتيبة العجلي، عيسى بن المسيب البجلي، عبد الله بن شبرمة الضبي، محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى.
	المدينة	محمد بن صفوان الجمحي، الصلت بن زبيد الصلت الكندي، أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم.
	مصر	يحيى بن ميمون الهذلي، يزيد بن عبد الله بن خذامر، الخيار ابن خالد المدلجي، توبة بن نمر الحضرمي، خير بن نعيم الحضرمي.
	اليمن	الغطريف بن الضحاك بن فيروز.
١١- الوليد بن يزيد بن عبد الملك	دمشق	الحارث بن يمجد الأشعري.
	البصرة	عامر بن عبيدة الباهلي.
	الكوفة	محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى.
	المدينة	سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، يحيى بن سعيد الأنصاري.
	مصر	خير بن نعيم الحضرمي.
	اليمن	السماك بن الفضل الشهابي.

الوالي	الوظائف الإدارية	الموظفون
١٢- يزيد بن الوليد بن عبد الملك	دمشق	عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي، زياد بن أبي ليلى الغساني.
	البصرة	اعتزل عامر بن عبيدة الباهلي القضاء بسبب الفتنة.
	الكوفة	محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى.
	المدينة	عثمان بن عمر بن موسى التيمي.
	مصر	خير بن نعيم الحضرمي.
	اليمن	يحيى بن شرحبيل بن أبرهة.
١٣- إبراهيم بن الوليد	لم يستقم له أمر، ولا تتعرض المصادر إلى ذكر اسماء القضاة في أيامه.	
١٤- مروان بن محمد	دمشق	زامل بن عمرو، محمد بن لبيد الأسدي.
	البصرة	عباد بن منصور، معاوية بن عمر الغلابي، عامر بن عبيدة الباهلي.
	الكوفة	محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، الحجاج بن عاصم المحاربي.
	المدينة	عثمان بن عمر التيمي، محمد بن عمران التيمي.
	مصر	خير بن نعيم الحضرمي، عبد الرحمن بن سالم بن أبي سالم الجيشاني.

حركة الفتوحات

حركة الفتوحات

انطلقت حركة الفتوحات الإسلامية منذ عصر الرسول ﷺ وتابعت مسيرتها في أثناء عصر الخلفاء الراشدين، وظلت عجلتها تدور وتلف البلاد من حول ديار الإسلام لا تترك بلدا لفقره إلى اخر لغناه وخصبه، وإنما كانت تبدأ بها أولا بأول، تحاول في دأب وصبر واجتهاد ان تنقله من الشرك والكفر إلى الإسلام، ولم يزل هذا شأنها حتى وقعت الفتنة في خلافة عثمان، وانكفأ المسلمون على أنفسهم وصار بأسهم بينهم، فعندها تعثرت الحركة، وظلت تتردد في الضعف الذي جرت إليه الفتنة حتى اجتمع المسلمون على معاوية بن ابي سفيان عام ٤١هـ وهو العام المعروف بعام الجماعة، فانطلقت الحركة بعدها من عقالها وانتشرت كالعادة في جميع الجهات، ولكن العصر الأموي لم يخل من فتن شبيهة بما سلف، وفي كل مرة كان الخلف والإنقسام يزحف إلى صف المسلمين يهدد وحدتهم ويوهي جماعتهم، كان الضعف والفشل يسري من الحركة في العروق ويوهنها، وسنحاول في الصفحات التالية أن نتتبع حركة الفتح في عصر بني أمية حيث سارت وأنّى اتجهت، وسنبدأ بالحديث عن الفتوحات في الشرق، ثم عن الفتوحات في الشمال، وبعدها عن الفتوحات في الغرب.

الفتوحات في الشرق

كان المسلمون حتى خلافة عثمان بن عفان قد أتموا فتح البلاد التي تقع بين العراق ونهر جيحون، وتضم جرجان وطبرستان وخراسان وفارس وكرمان ومكران وسجستان، فلما قتل عثمان ووقعت الفتنة تعثرت حركة الفتح، وخرج أكثر أهل هذه البلاد عن الطاعة، حتى إذا التأمت جماعة المسلمين أخذت الدولة تبذل جهودا بالغة لإعادة البلاد المفتوحة إلى الطاعة ومد حركة الفتح.

الفتوحات في خراسان[1]

لما استقامت الأمور لمعاوية بن ابي سفيان استعمل على خراسان قيس بن الهيثم السلمي ثم ضمها إلى عبد الله بن عامر، فترك ابن عامر قيس بن الهيثم السلمي واليا عليها، وكان أهل باذغيس وهراة وبوشنج وبلخ وجرجان وغيرها قد نكثوا وخرجوا على الطاعة، فغزا قيس أهل بلخ فسألوه الصلح ومراجعة الطاعة فأجابهم الى ذلك[2].

وفي عام ٤٣هـ، استعمل ابن عامر على خراسان عبد الله بن خازم، فأرسل إليه أهل هراة وبوشنج وباذغيس يطلبون الأمان والصلح فقبل خازم ذلك منهم.

وأرسل معاوية بن ابي سفيان مصقلة في عشرة آلاف جندي الى جرجان وطبرستان فقتل اهلها مصقلة وجميع من معه، ومنعوا الطريق الى خراسان من ناحيتهم[3].

ولما تولى زياد بن أبيه البصرة عام ٤٥هـ، فرّق أعمال خراسان بين عدد من القادة، فجعل أمير بن احمر على مرو، وكان أمير اول من اسكن العرب في مرو، وجعل خويلد ابن عبدالله الحنفي على ابرشهر، وجعل قيس بن الهيثم على الطالقان والفارياب، وجعل نافع بن خالد الطاحي على هراة وباذغيس وبوشنج وقادس[4].

ثم ولى زياد بن أبيه على خراسان الحكم بن عمرو الغفاري عام ٤٧هـ، وكان له صحبة، جميل السيرة، فغزوا جبال الغور وفراوندة وجبل الأشل وجميعها في خراسان

---

(١) خراسان: تعني كلمة «خر» في الفارسية «الشمس» وتعني كلمة «اسان» أصل الشي ومكانه فيكون معنى خراسان «مطلع الشمس» لأن الفرس كانوا وهم على مرتفعات إيران الشرقية يرون الشمس وكأنها تبزغ من أرض خراسان المنخفضة بالنسبة لهذه المرتفعات، وقيل معنى «خر» في نفس اللغة «كل» ومعنى «اسان» «سهل» أي كل بلا تعب، إشارة الى كثرة خيراتها. (انظر: الحميري: الروض المعطار: ٢١٥).

(٢) البلاذري/ فتوح البلدان: ص٥٠٥، ٥٠٦، ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٥/ ٥٠٥.

(٣) ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٦/ ٥٣٥، ٥٣٦.

(٤) البلاذري/ فتوح البلدان: ص٥٠٦.

ـتقع اليوم في أفغانستان ـ وغنم غنائم كثيرة[1].

فلما مات الحكم عام ٥٠هـ، ولى زياد على خراسان الربيع بن زياد الحارثي، وحوّل معه من أهل البصرة والكوفة خمسين الفا بعيالاتهم، فأسكنهم الربيع دون نهر جيحون، وغزا بلخا وفتحها صلحا، وغزا قهستان وفتحها عنوة[2].

ولما مات الربيع عام ٥٣هـ، استعمل معاوية بن أبي سفيان على خراسان عبيد الله بن زياد، فمد عبيد الله حركة الفتح إلى بلاد ما وراء النهر، فكان أول من فعل ذلك، ويبدو أنه أقدم على عبور نهر جيحون إلى ما ورائه من البلاد بعد أن أسلست خراسان قيادتها للمسلمين وعز الإسلام فيها.

بلاد ما وراء النهر:

أطلق المسلمون على البلاد التي يفصلها نهر جيحون عن خراسان وتقع وراءه من جهة الشرق والشمال اسم بلاد ما وراء النهر، وكان يقال لها بلاد الهياطلة[3]، ويمكن تقسيمها الى خمسة اقاليم هي: اقليم الصغد، واشهر مدنه بخارى وسمرقند، واقليم خوارزم ويشمل على دلتا نهر جيحون، واشهر مدنه الجرجانية، والصغانيان، واقليم الختل في اعالي نهر جيحون، ومن مدنه أشجرد والصغانيان، وإقليما فرغانة والشاش على نهر سيحون، وتعرف فرغانة اليوم باسم «خوقند» والشاش باسم «طشقند»[4]، ومن مدن هذين الإقليمين خجندة واسبيجاب وإيلاق.

وتتميز المنطقة بوفرة المياة لوجود نهري جيحون وسيحون وروافدهما الكثيرة مما ساعد على خصوبة المنطقة وكثرة الزراعة والعمارة فيها واجتذاب السكان إليها،

---

(١) البلاذري/ فتوح البلدان: ص ٥٠٧. ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٥/ ٢٥١.

(٢) خليفة بن خياط/ تاريخه ٢١١، ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٥/ ٢٨٦، قدامة بن جعفر/ الخراج: ٤٠٥.

(٣) انظر: ياقوت: معجم البلدان، مادة هيطل.

(٤) انظر: الإصطخري الكرخي/ مسالك الممالك: ٢٩٥، لي سترنج بلدان الخلافة الشرقية: ٤٨٩.

والسكان من الترك وكانوا وثنيين، ومناخ المنطقة حار صيفا وبارد شتاء، وتحمل الرياح الشمالية الشرقية التي تهب على المنطقة في الشتاء تحمل الثلوج إليها، وقيل تتجمد مياه جيحون عند خوارزم اي قرب بحيرة ارال في فصل الشتاء، وتتخذ القوافل سطح النهر المتجمد طريقا[١].

الفتوحات في ما وراء النهر:

قطع عبيد الله بن زياد نهر جيحون من منطقة طبرستان الى جبال بخارى في اربعة وعشرين ألفا على الإبل وكان أول من قطع النهر من العرب المسلمين، وقد واجه عبيد الله في هذا الوجه قتالا شديدا مع الترك، وعد هذا الزحف من زحوف خراسان المشهورة، وبعد أن انهزم جمع بخارى وأنصارهم، تقدمت ملكة بخارى تطلب الصلح فصالحها عبيد الله، ثم فتح رامثين ونسف وبيكند، وعاد الى البصرة يصحبه ألفان من أهل بخارى كلهم جيد الرمي بالنشاب[٢].

ثم ولى معاوية عبيد الله بن زياد على البصرة عام ٥٥هـ، واستعمل سعيد بن عثمان بن عفان على خراسان، فقطع سعيد نهر جيحون، فاستقبلته ملكة بخارى بمال الصلح، ولكن أهل السغد وكش ونسف جمعوا لقتاله مائه ألف وعشرين ألفا فهزمهم سعيد، وسار الى سمرقند يصحبه جند من أهل بخارى، فلما بلغ سعيد سمرقند ضرب الحصار عليها فطلب أهلها الصلح، وقدموا الأموال والرهائن من أبناء عظمائهم فقبل سعيد ذلك منهم وعاد، ولما عزل معاوية سعيد بن عثمان عام ٥٩هـ استعمل على خراسان عبد الرحمٰن بن زياد[٣].

---

(١) الإصطخري الكرخي/ مسالك الممالك: ٣٠٢.

(٢) خليفة بن خياط/ تاريخه ٢٢٢، ٢٢٤، اليعقوبي/ تاريخه ص٢٣٦، ٢٣٧، (١) البلاذري/ فتوح البلدان: ص٥٠٧، ٥٠٩، ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٢٩٨/٥، قدامة/ الخراج: ٤٠٦.

(٣) المصادر السابقة.

ثم استخلف من بعد معاوية ابنه يزيد، فولى على خراسان سلم بن زياد فغزا سلم سمرقند، ثم غزا خوارزم، ثم غزا خجندة، ولما تحالفت خاتون ملكة بخارى مع طرخون ملك الصغد حاربهم سلم وهزمهم وغنم مغانم كثيرة.

وبعد موت يزيد وما أعقبه من خلافات استخلف سلم على خراسان عبد الرحمن بن خازم السلمي ورحل، وانتقل حمى الخلاف الذي وقع بين عبد الله بن الزبير وآل مروان ابن الحكم إلى خراسان، واغتنم الترك انشغال المسلمين بهذا الخلاف فكانوا يغيرون على ديار الإسلام ويحرضون أهل الصلح من البلاد على الثورة وبلغوا في بعض هجومهم الى قرب نيسابور في خراسان.

ولما غلب عبد الملك على العراق أرسل إلى ابن خازم بولاية خراسان، وكان ابن خازم بايع عبد الله بن الزبير، فأبى ابن خازم أن ينكث بيعة ابن الزبير وامتنع على عبد الملك، فكتب عبد الملك الى بكير بن وشاح بولاية خراسان، فوثب بكير ومن معه على ابن خازم فقتلوه، وظلت امور خراسان لا تهدأ حتى ولي الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق، فأرسل المهلب بن ابي صفرة عام ٧٨هـ الى خراسان، فغزا المهلب مغازي كثيرة، فقطع نهر جيحون من عند بلخ، ونزل على كش، فجاءه ابن عم ملك الختل ودعاه الى غزو الختل، فأعطوه الفدية، ومكث المهلب في كش سنتين، وفتح المهلب الختل وخجندة، وأدت إليه السغد الأتاوة[١].

ومات المهلب فخلفه ابنه يزيد ثم ابنه الثاني المفضل، وغزا كل منهما غزوات كثيرة، وبينما كان المفضل بن المهلب يعرض الجند يريد أن يغزو أخرون وشومان قدم قتيبة بن مسلم الباهلي واليا على خراسان من قبل الحجاج عام ٨٦هـ.

خرج قتيبة الى اخرون وشومان وهما في طخارستان، فلما كان بالطالقان تلقاه دهاقين بلخ وبعض عظمائهم بالهدايا وأظهروا الطاعة، ولما قطع نهر جيحون تلقاه ملك

(١) خليفة بن خياط/ تاريخه ٢٧٩، اليعقوبي/ تاريخه ج٢ ص٢٧٣، (١) البلاذري/ فتوح البلدان: ص٥١١-٥١٤، ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٦/ ٣٢٠،٣٢٥.

الصغانيان بالهدايا ومفتاح من ذهب وأعطاه الطاعة، ثم تلقاه ملك كفتان بهدايا وأموال، ثم جاءه ملك أخرون وشومان بفدية فقبلها، وعاد قتيبة الى مرو[1] وخلف اخاه صالحا على ما وراء النهر، ففتح صالح كاشان وأورشت وهي من فرغانة، واخشكت وهي مدينة فرغانة القديمة.[2]

وكان قتيبة لما صالح ملك أخرون وشومان، كتب الى نيزك في طخارستان ان يطلق ما عنده من اسرى المسلمين ويهدده ان لم يفعل وطلب أن يقدم عليه، فاطلق نيزك ما عنده من أسرى المسلمين وقدم على قتيبة وذلك عام ٨٧هـ وصالحه.

وخرج قتيبة من مرو عام ٨٧هـ يريد بيكند، وهي أدنى مدائن بخارى الى نهر جيحون، ويقال لها مدينة التجار، فأخذ قتيبة الطريق من مرو الى مرو الروذ ثم إلى امل ثم إلى زم، ومن هناك قطع نهر جيحون الى بيكند، فوجد اهل بيكند قد جمعوا له وحشدوا واستمدوا الصغد من حولهم، فقاتلهم قتيبة، واشتد القتال وطال، وانقطعت اخبار قتيبة عن الحجاج شهرين، فأمر الحجاج الناس بالدعاء في المساجد، وكتب الى الأمصار بذلك، ثم جاء رسول قتيبة ببشارة الفتح، فلما ظفر قتيبة بالأعداء تقدم اهل بيكند يطلبون الصلح فصالحهم قتيبة واستعمل عليهم رجلا من بني قتيبة ورجع الى مرو، ولكن اهل بيكند غدروا وقتلوا عامل قتيبة والمسلمين عندهم، فرجع إليهم قتيبة وقاتلهم وفتح بيكند[3].

وغزا قتيبة عام ٨٨هـ تومشكت فصالحه أهلها، ثم صالح اهل رامثنة، وزحف من هناك يريد الترك واهل فرغانة، وكان معه نيزك صاحب الترك في طخارستان، وأبلى نيزك في المعركة بلاء حسنا وظفر المسلمون ظفرا كبيرا[4].

---

(١) مرو، وتسمى مرو الشاهجان، وكانت حاضرة خراسان في عصر بني أمية، ويقيم ولاة خراسان فيها.

(٢) البلاذري/ فتوح البلدان: ص٥١٦، ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٦/ ٤٢٥، قدامة/ الخراج: ٤٠٤.

(٣) ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٦/ ٤٣٢.

(٤) المصدر نفسه: ٦/ ٤٣٦-٤٣٧.

ثم غزا قتيبة عام ٨٩هـ بخاري وفتح رامثنة، ولكنه انصرف عن بخاري فلامه الحجاج، وأرسل إليه ان يتوب ويعود الى غزوها ففعل وظفر، فلما ظفر في حرب بخارى هابه اهل السغد وصالحوه، اما نيزك الذي كان يقاتل مع قتيبة وقيل أسلم وتسمى باسم عبيد الله، فحدثته نفسه بالغدر، واستأذن قتيبة أن يرجع إلى طخارستان فأذن له، وفي طخارستان عزل نيزك ملكها وحل محله، وأعلن خلع قتيبة، ودعا أصبهبذ بلخ وملوك مرو روذ والطالقان والفارياب والجوزجان دعاهم إلى خلع قتيبة فأجابوه، وكتب الى كابل شاه يستظهر به ذلك عام ٩٠هـ.

لما علم قتيبة بما دبر نيزك، أرسل أخاه عبد الرحمن في إثني عشر ألفا إلى البروقان ليقيم هناك حتى ينحسر الشتاء، وكتب إلى أهل ابرشهر وبيورد وسرخس وهراة أن يقدموا عليه قبل الوقت الذي كانوا يقدمون فيه عليه، فلما قدم عليه من كتب إليهم بالقدوم سار الى مرو روذ فهرب مرزبانها، ثم سار الى الطالقان فلم يحاربه صاحبها واستعمل عليها أخاه عمرا، ثم مضى الى الفارياب فخرج ملكها مذعنا بالطاعة واستعمل قتيبة عليها رجلا من بني قومه، ولما سمع ملك الجوزجان بقدوم قتيبة هرب، واستقبل اهل الجوزجان قتيبة بالسمع والطاعة، فاستعمل قتيبة عليها رجلا من المسلمين، ثم مضى قتيبة الى شعب خلم في طخارستان حيث اعتصم نيزك، فدله ملك الروب وسمنجان على مدخل القلعة، فهرب نيزك الى موضع يسمى الكرز ثم استسلم بعد حصار شهرين، فاستفتى قتيبة في قتل نيزك فأفتي بجواز قتله واستأذن الحجاج فأذن له[١].

وغزا قتيبة عام ٩١هـ شومان وكش ونسف وذلك ان ملك شومان طرد عامل قتيبة ومنع مال الصلح ورفض كل المساعي المبذولة عنده الى المراجعة، فسار قتيبة إليه وفتح القلعة وعاقبه، ثم سار الى كش ونسف، وسرّح قتيبة من هناك أخاه عبد الرحمٰن إلى السغد فقدّم ملكهم مالا صالح عليه، ولكن السغد خلعوا ملكهم وولوا اخر اسمه غوزك.

---

(١) ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٦/ ٤٥٥.

صالح قتيبة عام ٩٣هـ ملك خوارزم صلحا مجددا، وشرط عليه أن يعينه على ملك خام جرد، وكان الأخير يعادي ملك خوارزم فقبل، وأرسل قتيبة أخاه عبد الرحمٰن في جيش الى حرب ملك خام جرد فحاربه وقتله، ثم انصرف قتيبة من خوارزم يريد سمرقند وكانوا نقضوا، وسبقه إلى سمرقند أخوه عبد الرحمن في عشرين الفا، ثم لحق به قتيبة في أهل خوارزم وبخارى، وكان أهل سمرقند كتبوا الى ملك الشاش واخشاذ فرغانة يستنجدون بهم ويخوفونهم المسلمين ان ظهروا عليهم، فأرسل هؤلاء فرساناً وأبطالا أشداء نجدةً لأهل سمرقند، فلما كانوا ببعض الطريق خرجت عليهم كمائن المسلمين الذين وضعهم قتيبة بقيادة اخيه صالح لما علم بخبرهم وقضت عليهم، وناصح اهل بخارى وخوارزم المسلمين في قتال اهل سمرقند، وظل الحصار مضروبا على سمرقند حتى فتحت ابوابها صلحا، ودخل المسلمون سمرقند واخرجوا ما فيها من الاصنام واحرقوها، وكان اهل سمرقند يعتقدون ان من استخف بها هلك، فلما احرقها المسلمون ولم يصابوا بأذى أسلم منهم خلق كثير، وعين قتيبة على سمرقند اخاه عبد الرحمٰن وترك معه جندا كثيفا فيهم الضحاك بن مزاحم صاحب التفسير، وحظر عبد الرحمٰن على غير أهل سمرقند من المشركين ان يقيموا في سمرقند اكثر من بعض النهار وجعل القتل عقوبة المخالفين[1].

وقطع قتيبة عام ٩٤هـ نهر جيحون يريد غزو الشاش وفرغانة وكانوا أعانوا أهل سمرقند على المسلمين، وفي طريقه إليهم فرض على أهل بخارى وكش ونسف وخوارزم عشرين الف مقاتل فساروا معه الى السغد فوجههم الى الشاش وسار هو الى فراغانة، فأتى خجندة فقاتله اهلها مرارا، كان الظفر في كل مرة للمسلمين، ثم سار الى كاشان واشروسنة، وفي كاشان أتاه الجنود الذين كان وجههم الى الشاش بعدما فتحوها، وارسل الحجاج الى محمد بن القاسم ان يمد قتيبة ببعض الجند من أهل العراق فأمده،

(١) اليعقوبي/ تاريخه ج٢ ٢٨٧، البلاذري/ فتوح البلدان: ص٥١٨، ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٦/ ٤٦٣، ٤٧٠، ٣٧٣، ٤٨٠.

وقدم المدد عام ٩٥هـ، فلما كان قتيبة بالشاش أتاه موت الحجاج فغمه ذلك ورجع، وجعل الجند فريقا في بخارى، وفريقا بكش ونسف، فلما كان عام ٩٦هـ خرج قتيبة يريد الغزو فوصل الى فرغانة، وأرسل من هناك من يمهد له الطريق الى كاشغر أدنى مدائن الصين فخافه اهل تلك البلاد وصالحوه على الجزية(١).

ولا شك ان قيادة قتيبة الفذة وخططه العسكرية المحكمة(٢)، ودعم القيادة العليا له ممثلة بالحجاج في العراق والخليفة عبد الملك ثم ابنه الوليد في دمشق، إضافة الى ما كان من طاقات روحية عند الجند جعل النصر حليف قتيبة وجنده في هذا الميدان، وقد ساعد ذلك والمعاملة الطيبة لأهل البلاد على تحويل المنطقة الى دار إسلام.

وبعد موت الوليد عام ٩٦هـ استخلف سليمان بن عبد الملك فاستبدت بقتيبة الظنون، وخلع ودعا الجند فلم يطاوعوه وقتلوه(٣).

استعمل سليمان على خراسان يزيد بن المهلب، وقيل عن يزيد أنه كان يقول لسليمان عن فتوح قتيبة، «أنها ليست في شيء وإنما الشأن في جرجان التي حالت بين الناس والطريق الأعظم، وأفسدت قومس وابرشهر»، وكان أهل جرجان صالحوا سعيد بن العاص في خلافة عثمان ثم امتنعوا ومنعوا الطريق الى خراسان من ناحيتهم، وفشلت الجهود في خلافة معاوية في إخضاعهم، واضطر قتيبة بن مسلم في ولايته الى ان يصيّر الطريق من العراق إلى خراسان تَمُرُّ من قومس(٤).

فلما قدم يزيد بن المهلب إلى خراسان قام بغزو جرجان، وجرجان لم تكن مدينة وإنما هي جبال ومخارم، فخرج في مائة ألف مقاتل من أهل الكوفة والبصرة وخراسان والري سوى المتطوعه من الناس، ففتح يزيد في طريقه إلى جرجان دهستان،

---

(١) خليفة بن خياط/ تاريخه ٣٠٦، ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٦/ ٥٠٣.

(٢) انظر: ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٦/ ٥٠٣، ٥٠٤.

(٣) البلاذري/ فتوح البلدان ص٥٢١، ٥٢٢.

(٤) ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٦/ ٥٣٥، ٥٣٩.

ثم سار الى جرجان، فخاف أهل جرجان وسألوا الصلح فصالحهم يزيد على صلح سعيد بن العاص، ولما فتح يزيد دهستان وجرجان طمع في فتح طبرستان، فخلّف مما يلي طبرستان من أندرستان أربعة الاف جندي مع أسد بن عمر، وفي البياسان ودهستان أربعة الاف جندي اخر مع عبدالله بن المعمر اليشكري، ودخل طبرستان من عدة وجوه، وجعل أخاه أبا عيينة على وجه، وابنه خالداً على وجه، وأبا الجهم الكلبي على وجه ثالث، ففتّ ذلك في عضد أصبهبذ طبرستان، ولم يقو جمعه على الصمود، وهربوا إلى الجبال، فاتبعهم المسلمون ودخلوا الشعاب والمضائق وراءهم، فأخذ جند طبرستان وهم في أعلى الجبال والمسلمون من أسفل منهم، يرمون المسلمين بالحجارة والنشاب، فقتلوا كثيراً منهم، وتراجع المسلمون نحو معسكر يزيد وأشاع الأصبهبذ أن يزيد بن المهلب قتل، وأن من معه قتل أيضاً، وكتب بذلك إلى أهل جرجان وحرضهم على قتل من عندهم من المسلمين، فقتل أهل جرجان بعض المسلمين الذين خلّفهم يزيد في بلادهم، فلما علم يزيد بما حدث صالح أصبهبذ طبرستان وسار نحو جرجان ففتحها وعاقبهم على ما اقترفوا، وعندما شخص إلى مرو ولّى على جرجان جهم بن زحر الجعفي، وكتب إلى سليمان يبشره بالفتح ومما جاء في كتابه: «. . . أما بعد، فإن الله فتح لأمير المؤمنين فتحا عظيماً، وصنع للمسلمين أحسن الصنع، فلربنا الحمد على نعمه وإحسانه أظهر في خلافة أمير المؤمنين على جرجان طبرستان، وقد أعيا ذلك سابور ذا الأكتاف، وكسرى بن قباذ، وكسرى بن هرمز. . . »(١).

ومات سليمان واستخلف عمر بن عبد العزيز، فولّى على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي، وكان ممن حسنت سيرته فأرسل إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام، فأسلم بعضهم، وقدمت عليه وفود التبت يسألونه أن يرسل إليهم من يعرض عليهم الإسلام، فوجه إليهم السليط بن عبد الله الحنفي، كما وجه جيشاً بقيادة عبد الله بن معمر اليشكري إلى ما وراء النهر، فأوغل فيها وهمّ بدخول الصين فأعاقته جموع

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه ٦/ ٥٤١، ٥٤٤.

الترك ورجع إلى الشاش، وعزل عمر الجراح بن عبد الله الحكمي عن خراسان بشكوى رفعت إليه عنه، وولّى مكانه عبد الرحمٰن بن نعيم الغامدي، وأمره أن يقفل جند المسلمين من وراء النهر حيطة لسلامتهم فأبوا ورضوا بالمقام والرباط في سبيل الله فحمد عمر ربه.

وقيل شكى أهل سمرقند الى عمر بن عبد العزيز أن قتيبة كان دخل مدينتهم غدراً، فحولَ عمرُ المسألة الى القاضي فقضى القاضي بإخراج المسلمين من سمرقند ومنابذة الحرب من جديد، فكره أهل سمرقند الحرب ورضوا بمقام المسلمين بين ظهرانيهم(١).

ثم استخلف يزيد بن عبد الملك من بعد موت عمر بن عبد العزيز، فولى يزيد أخاه مسلمة على العراق، فولى مسلمة على خراسان سعيد بن عبد العزيز الأموي، وكان سعيد صهر مسلمة على ابنته، وهو الذي يقال له «خذينة»(٢)، فلما قدم سعيد الى خراسان خرج الى غزو بلاد ما وراء النهر، فلقي الترك في اشتنجن وهزمهم، وشكى قوم من خراسان سعيداً الى مسلمة فعزله وولى على خراسان سعيد بن عمرو الحرشي، فخرج سعيد الحرشي الى غزو السغد بعدما تبين له انهم على الخلاف، وانهم لحقوا بملك فرغانة وطلبوا معونته على المسلمين ونزلوا خجندة من بلاده، فسار سعيد الى بلاد السغد وافتتح عامة حصونها، وعلم من ملك فرغانة ان ليس للترك المخالفين عنده من عهد أو ذمة، واخبره عن الموضع الذي ينزلونه، فعمد سعيد الحرشي الى خجندة فحاصرهم حتى سألوه الأمان فأمنهم ثم غدروا وقتلوا فقاتلهم وقتلهم.

---

(١) اليعقوبي/ تاريخه ج٢ ص٣٠٢، ٥٢٤، البلاذري/ فتوح البلدان ص٣٠١،٥١٩،٥٢٥، ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٦/ ٦٠٥،٦٠٧.

(٢) خذينة: لقب يعني «الدهقانة» اي «ربة البيت» اطلقه عليه ملك ابغر لما دخل عليه ووجده متفضلا في ثياب مصبغة وحوله مرافق مصبغة، فلما سئل عنه قال: خذينة، انظر: ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٦/ ٦٠٥.

وعزل عمر بن هبيرة الفزاري الذي تولى العراق بعد مسلمة، عزل سعيدا الحرشي وولى مسلم بن سعيد بن أسلم بن زرعة، ثم استخلف هشام من بعد يزيد، فولى العراق خالد بن عبد الله القسري، فاستعمل خالد على خراسان أخاه أسد بن عبدالله القسري.

غزا أسد الغور وهي جبال هراة عام ١٠٧هـ وغزا الختل عام ١٠٨ وغزا الكمرجة من نفس السنة وحاصرها ثمانين وخمسين يوما، والذي يلاحظ في هذا الميدان أن الترك الذين ظلوا ينزلون خارج دائرة سلطان المسلمين من بلاد ما وراء النهر كانوا لا ينفكون يغيرون على البلاد التي دخلت من بلاد ما وراء النهر في سلطان المسلمين، ويحرضون أهلها على الثورة والعصيان، فكان المسلمون يقومون بإخضاع الثورات وإعادة البلاد الى الطاعة، ويشتبكون مع اولئك الترك، وقد بلغ من هؤلاء الترك ومزاحمتهم المسلمين على البلاد التي فتحها المسلمون ان اطلق المسلمون لقب «ابي مزاحم» على خاقان الترك لأنه كان يزاحمهم[١].

ففي عام ١١٢هـ هاجم الترك سمرقند فاستغاث عاملها سورة بن الحر بوالي خراسان الجنيد بن عبد الرحمٰن، فخرج عبد الرحمن يريد الترك، والتقى بهم، وجرت بينه وبينهم وقعات وحروب مريرة كان منها وقعة الشعب التي أبلى المسلمون فيها بلاء كبيرا، ثم ظفروا بالترك بعد أن استشهد الكثير من المسلمين[٢].

وبعد ان توفي الجنيد عام ١١٦هـ، تولى خرسان عاصم بن عبدالله ثم عزل عنها وتولاها أسد بن عبدالله القسري عام ١١٧هـ، فعبر اسد نهر جيحون يريد غزو الترك، والتقى بخاقان وجمعه، واشتد القتال بين الجانبين وبلغ ضراوة كبيرة، وأشيع أن أسد بن عبدالله ومن معه قتلوا، فقال أحد الناس: قبح الله الحياة بعدهم، فأجابه اخر: حبذا الحياة بعدهم، قتل الجراح ومن معه، فما ضر المسلمين كبير ضر، فإن هلك أسد ومن معه فلن يخذل الله دينه، وأن الله حي قيوم، وأمير المؤمنين حي،

(١) ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٧/٨، ١٤، ٦٥، ١١٣.

(٢) المصدر نفسه/ تاريخه ٧/ ٧١.

وجنود المسلمين كثير. وقتل خاقان وانهزم جمعه[١].

ثم استعمل هشام بن عبد الملك نصر بن سيار على خراسان، فغزا عام ١٢١هـ ما وراء النهر غير مرة، غزا مرة من بلخ، وغزا الثانية حتى وصل الى سمرقند، ثم غزا صوب الشاش، فحاول كورصول ـ قائد تركي ـ ان يحول بينه وبين عبور نهر سيحون، وكان مع نصر أهل بخارى وسمرقند وكش وأشروسنة وعددهم عشرون الفا، فهزموا الترك، وقتلوا كورصول، وكتب بالنصر الى يوسف بن عمر والي العراق، فكتب اليه يوسف أن يصير إلى الشاش ويحارب الحارث بن سريج الذي كان ثار وركن إلى الأعداء يحارب بهم المسلمين، فسار نصر الى الشاش فتلقاه ملكها بالصلح واخرج الحارث الى فاراب[٢].

وتفرق الترك في اثناء ولاية نصر، واخذ بعضهم يغير على بعض، فرأى نصر أن يرسل إليهم ويدعوهم الى الفيئة والمراجعة، واعطاهم ما طلبوا من الشروط تأليفا لهم وطمعا في إسلامهم وعمارة البلاد[٣].

وظل الجهاد والإستعداد للغزو قائما في هذا الجانب من العالم في عصر بني أمية حتى وقعت الفتنة وظهرت ثورة بني العباس، ولا شك أن هذا الميدان كان من أشد الميادين قتالا، ولم يكن دار حرب أشد من الترك[٤]، ولكنها تحولت بعد الجهود المتوالية إلى دار إسلام، واصبحت في فترة تالية كعبة العلم والعلماء الذين منهم من كان ينتمي إلى بخارى أو نيسابور أو بلخ أو سمرقند أو هراة أو مرو أو الري أو سرخس أو جرجان أو طبرستان وغيرها في الآف من العلماء استضاءت بهم الأمة ولا تزال، واليوم تتوزع هذه البلاد بين إيران وأفغانستان، أما الجزء الأكبر منها فيقع تحت الإحتلال الروسي في جمهوريات قازخستان وأوزبكستان وتركمانستان وطاجكستان وقرغيزيا[٥].

---

(١) انظر: المصدر السابق: ٧/ ١١٤.

(٢) انظر: البلاذري/ فتوح البلدان ص٥٢٧، ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٧/ ١٧٦.

(٣) ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٧/ ١٩٢.

(٤) انظر: المقدسي الكرخي: مسالك الممالك: ٢٩٠-٢٩١.

(٥) من اجل معرفة المزيد عن خراسان وما وراء النهر في العصر الحاضر، انظر: محمود شاكر: =

الفتوحات في سجستان:

تقع سجستان أو سبستان أو سكستان إلى الشمال من إقليم مكران وإلى الشرق من بحيرة زرة، وفي هذه البحيرة يصب نهر هيلمند الذي ينحدر من جبال أفغانستان الشاهقة فوق كابل وغزنه، ويفصل سجستان عن مكران المفازة الكبرى التي تقطع هضبة إيران من الشمال الغربي الى الجنوب الغربي بطول مقداره ثمانمائة ميل تقريبا، وبعرض يتفاوت بين مائة ميل ومائتي ميل، وكانت هذه المفازة بجبالها وسباخها وسرودها وجرومها ورمالها المتحركة تهدد المواصلات بين المراكز الخلفية في العراق والأخرى المتقدمة في جبهات القتال الى الشرق منها.

وصفت سجستان بكثرة الطعام والتمور والأعناب، ومن مدنها زرنج، وهي قاعدة سجستان، وتقع عند مصب نهر هيلمند في بحيرة زرة، وزرنج سبخة حارة كثيرة الرياح والعواصف، ومدينة الرزبار ويبدو أنها في الموضع المعروف اليوم كاج او كهيج، ومدينة بست على نهر هيلمند ومن اجمل المدن الجبلية في شرق سجستان، ومدينة قندهار في سهل يحف به رافدان من روافد نهرهيلمند، وغيرها من المدن. وموضع سجستان اليوم هو صحراء بلوجستان في إيران وجانب من جنوب افغانستان وغرب باكستان(١).

كان عبد الرحمٰن بن سمرة بن حبيب غزا في خلافة عثمان بن عفان سجستان وفتح زرنج، ثم انغلقت سجستان الى خلافة معاوية، فلما كانت خلافة معاوية،

= المسلمون في الإمبراطورية الروسية، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م. خراسان، المكتب الإسلامي. ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

محمد علي البار: المسلمون في الإتحاد السوفيتي عبر التاريخ، دار الشروق، جدة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

الكسندر بينيغس: المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي، ترجمة عبد القادر ضللي، دار الفكر المعاصر، بيروت ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(١) انظر: ابن رسته: الأعلاق النفيسه ١٠٥، المقدسي البشاري: احسن التقاسيم ص٣٠٤-٣٠٥، لي سترنج: بلدان الخلافة الشرقية: ٢٠، ٦٠، ٣٧٢، ٣٧٧-٣٨٣.

وجه عبدالله ابن عامر والي البصرة عبدالرحمٰن بن سمرة الى سجستان، فافتتح عبد الرحمٰن زرنج وكورا من كور سجستان وذلك عام ٤٢هـ ثم افتتح عام ٤٣هـ الرّخج وزابلستان من بلاد سجستان[١].

وفي عام ٤٦هـ عزل معاوية عبد الرحمن بن سمرة وولاها الربيع بن زياد الحارثي، وكان الترك جاشوا في سجستان وأخرجوا من بها من المسلمين وغلبوا على زابلستان وانتهوا الى بست، فلقيهم الربيع في بست وهزمهم واتّبعهم الى الرخج ثم عزل زياد والي البصرة الربيع عن سجستان وولاها عبيدالله بن أبي بكرة، وأمره أن يقاتل المشركين هناك ويزيل عبادة النار[٢]، وقد نجح عبيدالله في إخضاع رتبيل ملك الترك الى المصالحة ودفع الجزية.

وفي عام ٥٣هـ عزل معاوية عبيدالله بن ابي بكرة عن سجستان وولاها عباد بن زياد، فغزا عباد القندهار وهزم جمع الهند، وظل عباد واليا على سجستان حتى وفاة معاوية، وخلف على سجستان يزيد بن عباد وقيل مسلم بن عباد في خلافة يزيد بن معاوية، ثم وليها طلحة بن عبدالله الخزاعي ومات بها، ثم وليها عبدالعزيز بن عبدالله بن عامر في خلافة عبدالله بن الزبير، ولكن الأخبار في أثناء الفتنة بين عبدالله بن الزبير وبني مروان تسكت عن الحديث عما كان يجري في سجستان، ولعل الترك في هذه الفتنة كانوا ممتنعين لا يؤدون ما صالحوا عليه، فلما غلب عبد الملك على العراق ولى على سجستان عبدالله بن عدي من بني عبد الشمس ثم ولاها أمية بن عبدالله بن خالد بن أسيد، فلما كانت ولاية الحجاج على العراق، ولى الحجاج على سجستان عبيد الله بن أبي بكرة.

قام عبيد الله بن ابي بكرة في عام ٧٩هـ يغزو الترك وملكهم رتبيل[٣]، وأوغل عبيدالله في بلاد الترك يفتحها حتى صار قريبا من قاعدة ملكهم، فأخذ الترك على جند المسلمين

---

(١) انظر: خليفة بن خياط/ تاريخه ٢٠٥، اليعقوبي/ البلدان ج٢ ص٢٨١.

(٢) خليفة بن خياط/ تاريخه ٢٠٨،٢١٨.

(٣) رتبيل لقب يطلق على الحاكم ويسمى ايضا الزنبيل.

الشعاب والعقاب وظن المسلمون ان قد هلكوا، فرأى عبيدالله ان يصالح رتبيل، ولكن شريح بن هانيء امير جند الكوفة آثر القتال والشهادة واتبعه ناس من المتطوعة غير كثير، فوقع القتال وقتل اكثر جند المسلمين، فاذا علم الحجاج بذلك كتب الى عبدالملك بن مروان يستشيره ان يوجه جندا كثيفا الى بلاد زنبيل حتى لا يجترأ رتبيل ويستولي على البلاد، فوافقه عبد الملك على ذلك[1].

أخذ الحجاج يجهز الجيش ويعد العدة لغزو رتبيل، فانتخب عشرين الفا من اهل الكوفة وعشرين الفا من اهل البصرة، وأعطاهم أعطياتهم كملا، وأخذهم بالخيول الروائع والسلاح الكامل، وكان لا يرى رجلا تذكر منه شجاعة إلا أحسن معونته حتى قيل، بلغت نفقات الجيش مليوني درهم سوى الاعطيات، وأطلق عليه جيش الطواويس، واختار الحجاج للجيش عبدالرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي اميرا.

دخل ابن الأشعث ارض زنبيل عام ٨٠هـ وأوغل فيها يفتحها بلدا بلدا، وكان كلما فتح بلدا بعث اليه عاملا، وبعث معه أعوانا ووضع البرُد ـ جمع بريد ـ لنقل الأخبار ـ، وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب، وكان رتبيل قد استعد وضبط اطرافه، فلما تحقق لابن الاشعث ما تحقق من الظفر والعافية رأى أن يرجع إلى مدينة بست ويقيم ويبدأ الغزو في العام التالي، وكتب الى الحجاج يعلمه بذلك، ولكن جند المسلمين الذين مع ابن الاشعث هم برأي الحجاج كثير، وغناؤهم عظيم، وبلاؤهم حسن، والرأي أن يمضي ابن الاشعث بالجند يفتح البلاد بلا إبطاء ولا تسويف، ومن غير ان يمكن العدو يجمع فلوله ويعزز قواته، وبذلك وقع الخلاف في الرأي بين القائد والأمير على نحو ما وقع بين عبدالله بن ابي بكرة وهانيء بن شريح، واعقب الخلاف في الرأي خلاف في العمل والتنفيذ، مما جر في الحالين على حركة الفتح الفشل والخسارة، وهنا حرض ابن الأشعث الجند على خلع الحجاج متهما إياه بالامبالاة بما يصيب الجند على ايدي العدو، وحسب الجند وابن الاشعث شدة الحجاج في توطيد الامن وسيادة النظام

(١) خليفة بن خياط/ تاريخه ص٢٧٧، ابو جعفر الطبري/ تاريخه ص٦/ ٣٢٣-٣٢٧.

والحرص على نشر الإسلام وقمع العدو بلا هوادة وصيانة وحدة الامة والحفاظ على الجماعة التي يعز بها الفرد وتصان كرامته، حسبوا ذلك امتهانا لذاتهم وانتقاصا وصدقوا دعاوي المغرضين وتم الإتفاق على خلع الحجاج، ونسوا في ساعة الخفة والطيش ان ستكون معارك الزاوية والجماجم ومسكن ومآلاتها من الفرقة والدماء والالاف من القتلى ولم تُجْدِ نداءات المهلب بن ابي صفرة إلى ابن الأشعث ومناشدته اياه في دماء المسلمين لا تسفك، والجماعة لا تفرق، والبيعة لا تنكث، وانتقلت المعارك بين جيش الطواويس ورتبيل في ميادين القتال في سجستان وما والاها من البلاد الى ما بينه وبين المسلمين في العراق، وظلت الحرب تأكل الجانبين من المسلمين حتى انطفأت نارها عام ٨٣هـ، بعد ان اضرت بحركة الفتح الإسلامي كثيرا وعرقلت خطاه[١].

توالى على سجستان بعد فتنة ابن الاشعث عدد من الولاة في إمارة الحجاج على العراق، منهم عمارة بن تميم اللخمي ثم عبدالرحمن بن سليم الكناني ثم مسمع بن مالك الشيباني ثم الاشعث بن بشر الكلبي، ثم ضمها الحجاج الى قتيبة بن مسلم الباهلي والي خراسان فولاها قتيبة اخاه عمرو بن مسلم، وفي اثناء ولاية قتيبة كان رتبيل يدفع ما عليه من الجزية، وقد ظل الأمويون وولاتهم على العراق يعينون الولاة على سجستان حتى زال سلطان بني امية، وكان رتبيل يمتنع مرة ويدفع ما عليه اخرى، ولكن إجراء احكام الإسلام ونشره في البلاد كان ماضيا[٢]، واستقضى في سجستان القاضي ابن أبي ليلى[٣]، ولما ساءت سيرة الوالي يزيد بن الغريف الهمداني وأظهر الفسق قتلوه[٤].

---

(١) انظر: اليعقوبي/ تاريخه ج٢ ص٢٧٦-٢٧٨. ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٦/ ٣٣٤-٣٦٦.

(٢) انظر: خليفة بن خياط/ تاريخه ص٣٢٢، ٣٥٩، ٣٦٦، ٣٧٠، ٤٠٦، اليعقوبي/ البلدان ص٢٨٣-٢٨٥.

(٣) ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٧/ ١٩١.

(٤) اليعقوبي/ تاريخه ج٢ ص٣١٩.

الفتوحات في بلاد السند:

تتاخم السند بلاد مكران وسجستان من الشرق، وهو إقليم حار يجري فيه نهر مهران ـنهر الأندس ـ الذي يخرج من عيون في أعالي السند وجبالها من ارض قنوج وقشمير والقندهار ويصب في بحر السند ـ المحيط الهندي ـ[1]، واول السند من جهة مكران وسجستان ارض طوران وقصبتها قصدار، وارض البدهه الى الشمال منها وقصبتها قندابيل.

ومن مدن السند، الدّبيل، وهي اول مدن السند وتقوم على ساحل البحر، والديبل، وتقوم عند اكبر فم لنهر مهران، ومدينة الملتان، وهي في اعلى رافد من روافد نهر مهران وفي اخر بلاد السند وتجاور الهند، وكان فيها الصنم الذي يعبده اهل السند.

ومما أطلق العرب على السند من الأسماء ثغر الهند، لأنه كان في ذلك الوقت المعبر الى بلاد الهند، وبخصوص حال بلاد السند، قيل ان الخليفة عثمان بن عفان طلب من عبدالله بن عامر ان يرسل من يعرف خبر السند، فأرسل عبدالله حكيم بن جبلة العبدي، فلما رجع حكيم بعثه عبدالله الى الخليفة عثمان، فقال حكيم: يا امير المؤمنين، ماؤها وشل ـ قليل ـ وثمرها دقل ـ اردأ انواع التمر ـ ولصّها بطل، إن قل الجيش فيها ضاعوا، وإن كثروا جاعوا. فلما سمع عثمان بذلك قيل لم يغزها، ولعل الرواية قصدت هنا ان تتحدث عن مستوى فقر البلد، وإلا فإن الحارث بن مرة العبدي قام في عام ٣٨هـ واول عام ٣٩هـ من خلافة علي بن ابي طالب بغزو السند وغنم، ولكنه قتل ومن معه عام ٤٢هـ في أرض القيقان من بلاد السند[2].

وفي عام ٤٤هـ قام المهلب بن ابي صفرة بغزو السند، فوصل الى قندابيل، واخذ من هناك الى بتة والاهور وهما في سفح جبل كابل فأوقع بالعدو الهزيمة، وأرسل عبدالله بن عامر عام ٤٥هـ عبدالله بن سوار العبدي الى السند، فغزا عبدالله القيقان وافتتحها،

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف: ٤٩.

(٢) البلاذري/ فتوح البلدان ص٥٣٠، ٥٣١.

وقاد منها خيلا هي اصل البراذين القيقانية، وظل عبدالله يقود الغزو في بلاد السند حتى قتل وعامة جيشه في قتال وقع بينه وبين الترك عام ٤٧هـ وغلب الترك على إثره على بلاد القيقان، فخلفه راشد بن عمرو الأزدي بأمر الجند، وقيل الذي خلفه سنان بن سلمة الهذلي ثم صرفه زياد والي البصرة وعيّن راشد بن عمرو، وبعد معارك ظافرة قتل راشد عام ٥٠هـ، فولى زياد سنان بن سلمة الهذلي، فغزا سنان ارض القيقان وانزل بالعدو الهزيمة، ثم غزا قصدار وفتحها(١).

وشارك المقاتلة في سجستان في عمليات الفتح في السند احيانا، فغزا عباد بن زياد من سجستان بلاد السند وأتى القندهار وفتحها، ثم ولى زياد المنذر بن الجارود العبدي، فغزا البوقان والقيقان وظفر، ثم غزا قصدار وفتحها فتحا ثانيا، وفتح ابن حَرّي الباهلي بعض بلاد السند، ثم تأثرت الفتوحات بالخلاف بين ابن الزبير وبني مروان، فلما صفا الأمر لعبد الملك، اهتم الحجاج بالفتوحات في هذا الجانب، وقد تعاقب على السند في اثناء ولاية الحجاج على العراق عدة ولاة قتلوا في الغزو واحدا بعد اخر منهم، سعيد بن أسلم الكلابي ومحمد بن هارون النمري وعبيد الله بن نبهان وبديل البجلي، ويبدو ان حركة الفتح في بلاد السند تأثرت بثورة ابن الاشعث ولم تحقق الكثير في هذه الفترة، ثم اسند الحجاج ولاية السند الى محمد بن القاسم الثقفي في بداية خلافة الوليد بن عبد الملك.

خرج محمد بن القاسم يريد غزو السند، وكان الحجاج ضم إليه ستة الاف من جند أهل الشام وخلقا من غيرهم، وجّهزهم بكل ما يحتاجون إليه، فوصل الى مكران، ثم تقدم الى قنزبور ففتحها ثم الى أرمائيل ففتحها، ثم سار الى الدّيبل فحاصرها وفتحها عنوة ونزلها المسلمون واختطوا بها الدور وبنوا مسجدا، ثم سار الى البيرون فصالحه أهلها، وجعل لا يمر بمدينة إلا فتحها حتى بلغ نهر مهران، فوجد ملك السند داهر بن صصة

(١) خليفة بن خياط/ تاريخه ص٢٠٦-٢١٣، اليعقوبي/ تاريخه ج٢ ص٢٣١-٢٣٤، البلاذري فتوح البلدان ص٥٣١-٥٣٢.

استعد لمحاربته، فقطع النهر اليه وانضم من اهل السند الى صف المسلمين اربعة آلاف ووقع القتال وقتل داهر وانفض جمعه، ثم سار محمد الى الملتان، وفي طريقه اليها فتح (برهمناباذ) والرور وبغرور والسكة، فلما وصل الملتان حصرها وفتحها وأزال «البدّ» الذي كان بيت العبادة فيها وغنم ما فيه من الأموال التي كانت تهدى إليه، وفي أثناء وجود محمد في الملتان جاءه خبر وفاة الحجاج، فسار من الملتان الى البيلمان وفتحها، ثم الى الكيرج واشتبك مع حاكمها دوهر وقتله وفتح جانبا من بلاد الهند(١).

ثم استخلف سليمان بن عبدالملك فعزل محمد بن القاسم عن السند واستعمل يزيد ابن ابي كبشة ولحق محمد بن القاسم من الأذى ما لحق بحاشية الحجاج، ولما مات يزيد بن ابي كبشة استعمل سليمان حبيب بن المهلب على السند، وانتشر الإسلام في السند ونفذ منها الى الهند وبخاصة في خلافة عمر بن عبد العزيز، حيث ورد أن ملوك الهند أسلموا وتسموا بأسماء العرب، وقد توالى الولاة على السند من قبل خلفاء بني أمية ونوابهم على العراق، وممن اشتهر منهم الجنيد بن عبدالرحمن المري الذي عظم أمره في بلاد السند ودوّخها ووصل الى ارض الصين ودعا ملكها الى الإسلام، وأقام عدة سنين، ثم تولى السند تميم بن زيد الذي لم يتم أمره، فولى هشام بن عبد الملك الحكم ابن عوانة الكلبي، وكان معه عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي، فبنى الحكم مما يلي الهند مدينة يتحصن بها المسلمون عند الخطر وسماها المحفوظة، ولما قتل خلفه عمرو ابن محمد الثقفي فبنى في موضع برهمناباذ وعلى رافد من روافد نهر مهران مدينة سماها المنصورة، ثم ضعف أمر بني أمية وضعفت حركة المد الإسلامي في الهند، وصار الولاة على السند في هذه الفترة يقاتلون العدو ويفتحون الناحية قد نكث أهلها(٢).

---

(١) خليفة بن الخياط/ تاريخه ص٣٠٥،٣٠٦،٣١٨، اليعقوبي/ تاريخه ج٢ ص٢٨٨-٢٩٠، البلاذري/ فتوح البلدان: ص٥٤٠.

(٢) اليعقوبي/ تاريخه ج٢ ص٢/ ٣١٦، ٣٢٤-٣٢٥، البلاذري/ فتوح البلدان ص٥٤١-٥٤٣. تاريخ ابن خلدون: / العبر ج٣/ ١٥٤.

الفتوحات في الشمال

اذربيجان:

قيل ان اسم أذربيجان نسبة الى باذرباذ بن إيران بن الأسود بن سام بن نوح، وقيل نسبة الى اذرباذ بن بيوراسف[١]، ولكن ياقوت الحموي في معجمه يرى ان الذي أشبه بالحق وأحرى به في هذا الجانب ان اذربيجان مأخوذة من أذر وتعني النار بالفهلوية، ومن «بايكان» وتعني الحافظ او خازن النار، ويكون معنى اذربيجان بيت النار او خازن النار، ومما يرجح ان الإسم جاء من هذه الناحية برأي ياقوت، ان بيوت النار في أذربيجان كانت كثيرة جداً.

وتطلق أذربيجان على المنطقة الواقعة جنوب شرق اوروبا بين أرمينيا وبحر قزوين، وحدها من جهة الشرق برذعة ومن جهة الغرب أرزنجان أما من الشمال فبلاد الديلم والجبل والطرم ومن الجنوب فبلاد جيلان.

وأذربيجان صقع يغلب على ارضه الجبال، وهي بركانية قديمة كثيرة المياه قيل لا يحتاج السائر بنواحيها ان يحمل اناء للماء لأن المياه الجارية تحت أقدامه أين توجه، وفيها الخيرات الواسعة والفواكه الجمة، ومناخ أذربيجان حار وجاف صيفا وبارد ومثلج شتاء، ومن مدن أذربيجان، خوب وسلماس وأرمية وأردبيل والمارغة وتبريز وغيرها[٢].

وفي الوقت الحاضر فإن أذربيجان مقسمة بين الاتحاد السوفيتي وإيران، والقسم الملحق بالأتحاد السوفيتي يشكل إحدى جمهوريات الإتحاد السوفيتي الخمسة عشر وتحمل اسم جمهورية اذربيجان الإشتراكية، ويعد البترول الذي يستخرج من حقول باكو وغيرها الثروة الرئيسة بها، إضافة الى وجود الحديد والألمنيوم والكوبالت، أما القسم الملحق بإيران فيشكل المنطقة الشمالية الغربية من إيران ومركزها مدينة تبريز[٣].

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان: ١/ ١٢٧-١٢٩ مادة أذربيجان.

(٢) انظر: المقدسي البشاري: أحسن التقاسيم: ٣٧٥، ابن الفقيه: البلدان: ٢٨٤.

(٣) Encylopaedia Britannica, Vol, 11 Azerbaijanpp:931-932.

أرمينيا:

قيل ان اسم أرمينيا أخذ من «أرمون» الذي ينتهي نسبه الى يافث بن نوح[١]، وقيل اخذ من «الأرمن» الشعب الذي جاء من شبه جزيرة البلقان في القرن السابع قبل الميلاد، ونزل منطقة أورارتو التي عرفت فيما بعد باسم «أرمينيا» نسبة إلى الشعب[٢].

وتطلق أرمينيا على المنطقة التي تمتد من أسيا الصغرى غربا إلى هضبة اذربيجان والشاطىء الجنوبي من بحر الخزر شرقا، ومن بلاد القوقاز والبلاد التي تقع على بحر بنطش - الأسود - وهي بلاد جانيق ولازستان حاليا في الشمال والشمال الغربي، الى السهل الذي يقع فيه حوض نهر الدجلة الأعلى وحوض نهر الزاب الأعلى في الجنوب[٣].

أما في العصر الحاضر، فإن أرمينيا وبعد خسارة الدولة العثمانية الحرب العالمية الاولى قسمت عام ١٩٢٠ بين الإتحاد السوفيتي وتركيا، فالقسم الذي ألحق بالإتحاد السوفيتي يشكل احدى جمهوريات الإتحاد السوفيتي الخمسة عشر ويحمل اسم جمهورية أرمينيا الإشتراكية، ويشكل القسم الذي ألحق بتركيا الجزء الشرقي منها ويضم ولايات أرضروم وسيواس وديار بكر وبدليس وخاربت[٤].

كانت أرمينيا مقسمة الى قسمين هما:

أرمينية الكبرى، وتمتد من نهر الفرات غربا الى الإقليم المجاور لنهر «كر» شرقا.

وأرمينيا الصغرى، وتشمل الإقليم الواقع بين الفرات ومنابع نهر هاليس.

---

(١) البكري: معجم ما ستعجم: ١/ ١٤٢ مادة أرمينيا.

(٢) The Encyclopaedia Americana: Vol, 11. Armenia, P267.

(٣) صابر حسين: أرمينية من الفتح الإسلامي الى مستهل القرن الخامس الهجري: ١-٤.

(٤) The World Book Encyclopedia, Voi, 1 Armenia, P 680

أما البلاذري[1] فيذكر نقلا عن أهل العلم بأمور أرمينيا أنها كانت مقسمة الى اربعة اقسام هي:

أرمينيا الأولى، وتضم السيسجان وأرآن.

وأرمينيا الثانية، وتضم جرزان.

وأرمينيا الثالثة، وتضم البسفرجان ودبيل وسراج طير وبغروند.

وأرمينيا الرابعة، وتضم شمشاط وقاليقلا وخلاط وأرجيش وباجنيس.

وأرمينيا في الأغلب منطقة جبلية وعرة ذات هضاب متفاوتة في الحجم، وتنساب خلالها بعض الانهار، أهمها الرس والكر، كما ينبع من أرضها دجلة والفرات، وفيها من البحيرات وان وكوكجة، ومن مدنها البيلقان وبرذعة وقبلة والشابران ومسقط وسغدبيل ودبيل ونشوى وقاليقلا وخلاط وارجيش وباجنيس وتفليس (طفليس) وغيرها[2].

كان أهل أرمينيا وثنيين، ولكن النصرانية اخذت تدخل ارمينيا منذ عام ٣٠٠م[3]، اما من الناحية السياسية، فقد ادى وقوع أرمينا بين أمبراطوريتين قويتين هما أمبراطورية فارس وامبراطورية الروم إلى عدم قدرتها على الاحتفاظ باستقلالها، وعجزت قيادتها ان تتوحد، فضلا عن ان تنتشل أرميينا من الخلافات التي سببتها الإمبراطوريتان وزجّتها بها، وتبعا لذلك، ظهر الولاء منقسما في أرمينيا بين الولاء للروم أو إدعائه إزاء الفرس او إدعائه إزاء الروم، وضاعت وحدة الولاء وحقيقته لأرمينيا، وضاع معها وحدة الكيان السياسي ووجود الدولة الموحدة المستقلة فيها، وأسندت امور أرمينيا في هذه الظروف إلى بعض الأسر القوية فيها التي كانت سياستها صدى للمداخلات الاجنبية،

(١) البلاذري/ فتوح البلدان ص٢٣١.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان: ٢٣١-٢٤٧، ابن خرداذبة: المسالك والملك: ١٢٢-١٢٣، ١٧٥، قدامة بن جعفر: الخراج وصنعة الكتابة: ١١١، المقدسي البشاري: احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: ٣٧٩.

(٣) The World Book Encyclopedia, Vol, 1 Armenia: ٦٨١

وكانت في اوضاعها العامة وعلاقاتها في الداخل والخارج بعض ظلال العلاقات السياسية بين جيرانها، ولم تعدم أرمينيا أن تجد بعض أجزائها تحت الإحتلال الفارسي إزاء الجزر الرومي او العكس، ناهيك عن غارات الخزر من الشمال وهجومهم عليها[1].

---

(١) البلاذري/ فتوح البلدان ص ٢٣١، صابر حسين: ارمينية: ٦-١٦.

فتح أذربيجان وأرمينيا:

تمكنت الجيوش الإسلامية بعد فتح بلاد الشام والعراق من أن تفتح أذربيجان منذ خلافة عمر بن الخطاب وذلك عام ٢٢هـ، وان تدخل أرمينيا وتستكمل فتح معظم أراضيها في خلافة عثمان بن عفان، ولكن الوضع في أرمينيا كان اكثر تعقيدا نظراً للتدخلات الرومية والخزرية العسكرية أحيانا، وتحريضهم الأرمن على الثورة أحيانا أخرى، وبالرغم أن العلاقات بين المسلمين والأرمن نُظِّمَت وفق معاهدات واتفاقيات نصّت على حماية الأرمن وحفظ أموالهم ودمائهم ومعابدهم وصيانة حريتهم الدينية والدفاع عنهم مقابل أداء الجزية ومناصحة المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم[١]، فإن هذه المعاهدات لم تكن تُحْتَرَم من قبل الأرمن على الدوام للتدخلات الرومية والخزرية وبخاصة في أثناء الفتن التي كانت تستحوذ على إهتمامات المسلمين وتعرقل حركة الجهاد، وهو ما حدث في أثناء الخلاف بين علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان، وفي اثناء الخلاف بين علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان، وفي اثناء الخلاف بين عبدالله بن الزبير وبني مروان.

كانت أذربيجان وأرمينيا تضافان في عصر بني امية الى الجزيرة في الاغلب اداريا، وكان يليهما مع الجزيرة والٍ كان في الاغلب من بني امية، فقد ولى عبد الملك بن مروان أخاه محمد بن مروان على الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان، وظل واليا عليها حتى خلفه مسلمة بن عبد الملك عام ٩١هـ، ثم وليها من بني مروان مروان بن محمد عام ١١٤هـ وظل واليا حتى وقعت الفتنة عام ١٢٧هـ فغادرها صوب الشام وقد ترك من يخلفه عليها[٢].

كان الولاة يولّون نوابا لهم في أذربيجان وأرمينيا، وكان هؤلاء النواب يقومون بالمحافظة على الأمن في هذه البلاد وقيادة الجيوش إلى أرض الخزر وبلاد الروم

(١) انظر البلاذري/ فتوح البلدان: ص٢٣٧-٢٤٠.

(٢) الأزدي: تاريخ الموصل: ٦١.

البيزنطيين، وكانوا في سبيل توطيد الأمن في أرمينيا على سبيل المثال يستعينون بزعماء الأسر الأرمنية فيها، وأشد هذه الأسر أسرة «البجارطة» وأسرة «الماميكون»[1]، كما كان انتشار الإسلام بين السكان واعتناقهم إياه بفضل الجهود المبذولة في هذا الإتجاه من أهم دعائم الأمن فيها.

---

(١) صابر حسين: أرمينية: ٤٠.

الفتوحات في بلاد الخزر:

كانت الجيوش الإسلامية تنطلق من أذربيجان وأرمينيا نحو بلاد الخزر والروم البيزنطيين، وقد جرى الحديث عن الفتوحات في الميدان البيزنطي وسيقتصر الحديث هنا على الفتوحات في بلاد الخزر.

الخزر شعب من البلغار ينحدر من اصل تركي تمكنوا في القرن السادس الميلادي من تأسيس دولة لهم في الارض التي تمتد بين البحر الاسود وبحر قزوين من جهة، وبين الحوض الادنى لنهر الفولجا وجبال القوقاز وبحر أزوف من جهة اخرى، وقد كان الخزر ممن طمع الى جانب الفرس والروم في أرض أرمينيا، وكانوا يتحالفون أحيانا ضد الفرس مع الروم(١)، فلما فتح المسلمون أرمينيا انتقلت المواجهة الى ما بينهم وبين المسلمين.

وبعد أن وصل معاوية ابن أبي سفيان الى منصب الخلافة عام ٤١هـ، اهتم بإعادة سلطان المسلمين على أذربيجان وأرمينية في ذلك نجاحا تاما، ولما صفت الخلافة لعبد الملك بن مروان، ولى أخاه محمد بن مروان الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان، فأعاد محمد سلطان المسلمين عليها، وقضى على الثورات التي كانت قامت فيها في اثناء الخلاف مع ابن الزبير، ثم احتاج إلى إخضاعهم مرة ثانية عام ٨٢هـ(٢).

وفي عام ٩١هـ، غزا مسلمة بن عبد الملك من أرمينية وأوغل في أرض الترك حتى بلغ الباب من نحو أذربيجان ففتح مدائن وحصون كثيرة، ودان له من وراء الباب.

وفي عام ٩٥هـ، أغار الخزر على أرمينيا وأذربيجان، ولكن المسلمين بقيادة عبد العزيز بن حاتم بن النعمان الباهلي هزموهم.

---

(١) ارثر كوستلر: امبراطورية الخزر: ١٨-١٩، وسام عبد العزيز: العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والدولة الأموية: ٢٠٤-٢٠٦.

(٢) انظر: البلاذري/ فتوح البلدان: ص٢٤٢، اليعقوبي/ تاريخه ج٢ ص٢٧٢، قدامة بن جعفر: الخراج وصنعة الكتابة: ٣٣٠، خليفة بن خياط/ تاريخه ص ٢٨٨.

وفي عام ١٠٤هـ، غزا الجراح بن عبد الله الحكمي بلاد الخزر، فلقي خاقان على نهر أران، فانهزم ابن خاقان وقتل كثير ممن معه، وافتتح الجراح بلنجر وقبل اهلها ان يكونوا معه على الخزر، وسار الجراح فعبر نهر السمور وقتل من جيوش الخزر كثيرا وساح في بلادهم ودخل مدينتهم «البيضاء» وختمت هذه الإنتصارات باستشهاد الجراح واكثر من معه عام ١١٢هـ، مما شجع الخزر على القيام بغزو بلاد المسلمين في أذربيجان وأرمينيا والجزيرة حيث دخلوا مدينة أردبيل وبلغوا قريبا من الموصل.

فلما حدث ذلك، ندب هشام بن عبد الملك أخاه مسلمة بن عبد الملك وجعل على مقدمة الجيش سعيد بن عمرو الحرشي ومعه إسحاق بن مسلم العقيلي والفرات بن سلمان الباهلي والوليد بن القعقاع العبسي وامثالهم واستنهض هؤلاء كل راغب في الجهاد، فنهض معهم كثير من أهل الشام والجزيرة فواقعوا جيوش الخزر فهزموهم وإستنقذوا كل ما أخذوه من البلاد والرجال والعتاد، ولم يزالوا بهم حتى أزالوهم من جميع بلاد المسلمين(١).

ثم واصل مسلمة غزو بلاد الخزر ففتح مدينة الباب، وكان في قلعتها ألف بيت من الخزر فأسكن مسلمة فيها وفي الأبواب أربعة وعشرين ألفا من أهل الشام على العطاء، وبنى الاهراء للطعام، واتخذ الخزائن للسلاح والصهاريج للماء ليقوى بها المرابطون في حربهم الخزر.

ثم ولى هشام بن عبد الملك مروان بن محمد عام ١١٤هـ على الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان، فدخل مروان أرض الخزر مما يلي باب اللان وفتح بعض الحصون، وأغار على صقالبة كانوا بأرض الخزر فسبى منهم الكثير، ولما علم ملك الخزر بدخول مروان بلاده وكثرة من معه من الجند أجاب الى الاسلام ووادع مروان، فأقرّه مروان في مملكته، وواصل مروان جهاده فصالحه على الجزية وتقديم الرجال يكونون معه يقاتلون الاعداء وصالحه كل من أهل شروان وسندان وحمزين وزيكران وتومان والسرير،

---

(١) انظر: خليفة بن خياط/ تاريخه ص٣٤٢، الأزدي: تاريخ الموصل: ٢٨-٣٢.

ولم يزل مروان في جهاد الأعداء حتى قتل الوليد بن يزيد واجتذبته الفتنة فترك الميدان نحو الشام وأناب من يقوم في مواصلة الجهاد[١].

---

(١) خليفة بن خياط/ تاريخه ص ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٢، البلاذري/ فتوح البلدان: ص٢٤٥-٢٤٦.

الفتوحات في الجانب البيزنطي

استمرت الحرب قائمة بين المسلمين والروم البيزنطيين في عصر بني أمية للجوار والإختلاف في المبدأ، عدا أوقات كانت تتخللها المعاهدات استجابة لظروف الجانبين وتتوقف الحرب فيها.

ففي البر، وبعد ان دحر المسلمون البيزنطيين من مصر والشام، تقدمت الثغور البرية مع البيزنطيين من جهة الشام في عصر بني امية الى منطقة تمتد من مدينة طوروس على الساحل الشمالي للبحر المتوسط وتسير محاذية جبال طوروس وطوروس الداخلية الى ملطية على الفرات الأعلى في الشمال الشرقي، بعد ان كانت الثغور في عصر الراشدين عند منطقة انطاكية وما حولها أي المنطقة التي سميت في خلافة هارون الرشيد العواصم[1].

وفي منطقة الثغور البرية كانت تنتشر القلاع والحصون، وكان يطلق على القلاع والحصون التي في الشمال الشرقي من منطقة الثغور وتلي بلاد الجزيرة وتحميها اسم «الثغور الجزرية» وأهمها، ملطية وزبطرة والحدث ومرعش وحصن منصور، أما التي كانت في الجنوب الغربي من منطقة الثغور وتلي بلاد الشام وتحميها فكان يطلق عليها اسم «الثغور الشامية» وأهمها، المصيصة وطرسوس وأذنة.

والمنطقة على العموم جبلية وعرة ضعبة المسالك وشديدة البرد في الشتاء، وكان المسلمون يدخلون منها الى ارض الروم البيزنطين عبر الدروب التي كانت معروفة فيها انذاك، وكان اهمها درب «الأبواب القليقية» وكان يعرف بدرب السلامة، وإضافة الى انه كان يستخدم طريقا للغزو، فإنه كان يستخدم لأغراض البريد والسفارات المتبادلة بين المسلمين والبيزنطيين ايضا.

---

(١) انظر: البلاذري/ فتوح البلدان ص١٩٤ وما بعدها، لي سترانج: بلدان الخلافة الشرقية: ١٦٠-١٦١، فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية: ٣/ ٢٦٣.

وعلى المدخل الجنوبي لدرب الأبواب القيلقية، أي من جهة بلاد المسلمين كانت تقوم طرسوس، أما في أقصى الطرف الشمالي من هذا الدرب أي من جهة بلاد الروم، فكان يقوم حصن اللؤلؤة وهو حصن أقيم على قمة منعزلة يبلغ أرتفاعها حوالي ألف قدم، وتتحكم في منطقة واسعة من سهول قبادوقيا الجنوبية وسفوح طوروس الشمالية، ومما زاد في أهمية حصن اللؤلؤة انه كان يتحكم في الممرات الشمالية المؤدية إلى طوانة والممرات الغربية المؤدية إلى هرقلة، ولذلك كان من يسيطر على هذا الحصن من المسلمين أو من البيزنطيين يجعل مرور الطرف الآخر في هذا الدرب صعبا ويعرضه للمخاطرة والخسارة في الأموال والأرواح.

وطول الدرب أي درب «الأبواب القيلقية» من سفح هضبة اسيا الصغرى جنوبي طوانة وحتى سفح جبال طوروس المطلة على سهل قبادوقيا حوالي سبعة أميال تتخلله الوديان الضيقة والممرات الشديدة الإنحدار التي قد لا يتجاوز عرض بعضها بضع يا ردات أحيانا وحيث يقوم في مواضع منها قلاع وحصون مثل قلعة الصقالبة، تستطيع الحامية الصغيرة العدد فيها ان توقف الجيش الكبير العدد(١).

والدرب الثاني، هو درب الحدث(٢)، وكان يقع إلى الشمال الشرقي من الدرب السابق، ويمر بمرعش والحدث والبستان شمالا ـ والبستان هو اسم ابلستين سابقا ـ، وكان حصن الحدث يحمي هذا الدرب، وقيل سمي هذا الدرب بهذا الاسم لأن المسلمين أصيبوا به، وسماه بنو أمية درب السلامة تفاؤلا(٣).

وأما من جهة البحر، فكانت السواحل الشامية والمصرية وجزر البحر المتوسط ثغورا ومعابر إلى أرض بيزنطة وحتى القسطنطينية العاصمة.

---

(١) من أجل مزيد من المعلومات عن هذا الدرب ومعرفة المحطات عليه انظر: ابن خرداذبة: المسالك والممالك: ١٠٠-١٠١، العدوي: الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم: ٩٠-٩٢.

(٢) من أجل درب الحدث، انظر ابن خرداذبة: المسالك والممالك: ٩٧.

(٣) البلاذري/ فتوح البلدان ص٢٢٦، قدامة بن جعفر: الخراج وصنعة الكتابة: ٣٢٠.

كان الروم البيزنطيون أشد الأعداء للمسلمين في ذلك الوقت جانبا وأقواهم شكيمة، وبعد أربعين سنة قضاها معاوية بن أبي سفيان في قتالهم أوصى من بعده فقال: شدّوا خناق الروم، فأنكم تضبطون بذلك غيرهم من الأمم[1].

ولا شك أن سياسة معاوية إزاء الروم كانت واضحة فيما قام به معاوية نفسه والأمويون من بعده من إنفاذ الغزوات إلى بلاد الروم برا وبحرا صيفا وشتاء، وما اقتضى ذلك أو استتبعه من التدابير لشد الجبهة الإسلامية في مختلف المواقع في مواجهتهم.

فقد كان معاوية في أثناء ولا يته على الشام قد تتبع ما كان يلزم أمنها وقدرتها على مواجهة العدو الرومي، فرمّ مدن الساحل، أنطاكية وجبيل وعرقة وطرابلس وجبلة وانطرطوس ومرقية وبلبناس وصيدا وصور وعكار وعسقلان وحصنها وشحنها بالمقاتلة وأعطاها القطائع، وظل يستأذن في ركوب البحر حتى أذن له، وأنشأ قوة بحرية كانت تشدّ أزر القوات البرية.

وغزا معاوية في البحر، وافتتح جزيرة قبرص وغيرها من الجزر، ورتّب لغزو البحر أميرا سمي أمير البحر، وكان ممن شغل هذا المنصب عبدالله بن قيس حليف بني فزارة، وقيل أن عبد الله غزا خمسين غزوة ما بين شاتية وصائفة في البحر ولم يغرق فيه أحد ولم ينكب[2].

وفي فترة خلافته، استمر معاوية يُحصّن مدن الشام ويعزّز قوته في مواجهة الروم البيزنطيين، وتابعه في ذلك الخلفاء من بعده، ونقل عام ٤٢هـ الناس من الداخل إلى السواحل والثغور ليعزز الروابط فيها ويزيد من شحنتها، فنقل قوماً من أهل بعلبك وحمص إلى صور وعكا من سواحل الأردن، ونقل ناسا من أساورة البصرة، ومن أهل الكوفة وبعلبك وحمص إلى أنطاكية.

(١) خليفة بن خياط/ تاريخه ص ٢٣٠.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه ٤/ ٢٦٠-٢٦١.

وأنشأ معاوية في الشام مثلما كان بمصر، داراً لصناعة السفن وجعلها في عكا وذلك عام٤٩ هـ على أثر خروج الروم إلى سواحل الشام، وجمع الصناع والنجارين ورتّبهم في السواحل، ويبدو أنه اختار عكا داراً للصناعة البحرية لأنها كانت من دور الصناعة البحرية في أيام الروم(١).

وسرّح معاوية السرايا وأغزى الجيوش إلى بلاد الروم في البر والبحر، ولا تكاد سنة من سني خلافته تخلو من صائفة أو شاتية إلى بلاد الروم، وظهر في خلافته من القادة في حرب البيزنطيين كثير منهم:

بسر بن أرطأة الذي غزا بالناس برا في أعوام ٤٣هـ و ٥٠هـ و٥١هـ وفي البحر عام ٤٤هـ. وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد الذي غزا براً في اعوام ٤٤هـ و ٤٥هـ و٤٦هـ وغزا ابنه خالد بن عبد الرحمن بن خالد عام ٤٨هـ.

ومالك بن عبدالله الخثعمي الذي غزا أرض الروم في الأعوام ٤٦هـ و٥٥هـ و٥٨هـ و٦٠هـ. ومالك بن هبيرة السكوني الذي غزا في عام ٤٦هـ وعام ٤٧هـ وعام ٤٨هـ وعام ٤٩هـ وغزا في البحر عام ٤٨هـ.

وفي البحر، غزا عبد الله بن قيس حليف بني فزارة عام ٤٨هـ ويزيد بن شجرة الرهاوي الذي غزا عام ٤٩هـ وعام ٥٨هـ وجنادة بن أبي أمية الذي غزا عام ٥٣هـ وعام ٥٤هـ وعام ٥٨هـ وعام ٥٩هـ وعام ٦٠هـ.

وعقبة بن عامر الجهني الذي غزا بأهل مصر وأهل المدينة في البحر عام ٤٨هـ وعقبة ابن نافع الفهري الذي غزا في البحر بأهل مصر عام ٤٩هـ(٢).

(١) انظر: خليفة بن خياط/ تاريخه ص ٢٠٥-٢٢٧، اليعقوبي/ تاريخه ج٢ ص ٢٣٩-٢٤٠، ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٥/ ١٧٢، ١٨١، ٢١٢، ٢٢٧، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٥٣، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٣، ٢٩٩، ٣٠١، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٥، ٣٢٢.

(٢) انظر: خليفة بن خياط/ تاريخه ص ٢٠٥-٢٢٧، اليعقوبي:/ تاريخه ج٢ ص٢٣٩-٢٤٠، ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٥/ ١٧٢، ١٨١، ٢١٢، ٢٢٧، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٥٣، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٣، ٢٩٩، ٣٠١، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١٥، ٣٢٢.

وقد أسفرت هذه الغزوات البرية والبحرية التي وجهها معاوية الى بلاد الروم عن تأكيد الهيمنة الإسلامية من ناحية، فقد كانت الجيوش تقيم على أرض الروم لفترات طويلة تقضى فيها الصيف والشتاء أحيانا غير عابئة بالبيزنطيين على نحو ما جرى في أعــوام ٤٣هـ و٤٤هـ و٤٥هـ و٤٦هـ و٤٧هـ و٤٨هـ و٤٩هـ و٥٠هـ و٥١هـ و٥٢هـ و٥٣هـ و٥٤هـ و٥٥هـ و٥٦هـ و٥٧هـ و٥٨هـ و٥٩هـ.

كما أسفرت هذه الغزوات من جهة أخرى عن فتح بعض البلاد البيزنطية في البر والبحر، فقد فتح جنادة بن ابي أمية الأزدي مدينة طرسوس عام ٥٣هـ وكمخ من ارمينيا عام ٥٩هـ ودخل جزيرة رودس في العام نفسه وأنزلها المسلمين فأقاموا وزرعوا، وأدرّ لهم معاوية الأرزاق والعطاء، وكانوا أشد شيء على الروم وحركتهم في البحر، وفتح جنادة بن أبي أمية جزيرة قريبة من القسطنطينية عام ٥٤هـ تسميها المصادر العربية أرواد وهي غير أرواد القريبة من الساحل السوري حاليا، وتدعى جزيرة كيزيكوس[١].

غزو القسطنطينية:

ولعل أهم ما جرى في خلافة معاوية في هذا الجانب كان غزو القسطنطينية، ويبدو أن معاوية كان يدرك أن صمود البيزنطيين أمام المسلمين يعود بالدرجة الأولى إلى بقاء القسطنطنية العاصمة سالمة من الوقوع بيد المسلمين، ولو تم الإستيلاء عليها لزالت دولة الروم زوال دولة الفرس من قبل، ولذلك بدت غزوات البر والبحر في خلافته تمهد إلى الإستيلاء على القسطنطينية.

الغزوة الأولى:

عزم معاوية على غزو القسطنطينية في صدر ولاية ملك الروم قسطنطين بن كونستانس محاولا الإنتفاع بنتائج الغزوات السابقة التي ضعضعت البيزنطيين وكشفت عن ضعف أوضاعهم.

---

(١) انظر العدوي: الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم: ٦٦.

وقد اختلفت الأخبار في زمن هذه الغزوة، فذكر خليفة بن خياط أنها كانت في عام ٥٠هـ، وجعلها أبو جعفر الطبري في عام ٤٩هـ، وقيل غير ذلك، وفي حين جاء عند خليفة وأبي جعفر الطبري أن الغزوة كانت بقيادة يزيد بن معاوية ومعه ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري[١]، ذكر ابن الأثير وابن خلدون أن الغزوة كانت بقيادة سفيان بن عوف الأزدي، وأن يزيد كان مددا له[٢].

واختلفت الأخبار كذلك في سبب اشتراك يزيد في الغزو، فذكر اليعقوبي[٣] أن معاوية ندب ابنه يزيد للغزو فتثاقل واعتل فتركه، فلما أصاب الجيش ما أصابه من الجوع والمرض الشديد أنشأ يزيد يقول:

ما أن أبالي بما لاقت جموعهم بالقذقذونة من حمى وموم[٤]

إذا اتكأت على الأنماط مرتفقا بدير مران عند أم كلثوم

وأم كلثوم زوجة يزيد وابنة عبدالله بن عامر، فلما بلغ شعر يزيد معاوية أقسم معاوية عليه ليلحق بالجيش في أرض الروم ليصيبه ما أصاب الناس، فخرج يزيد ومعه جمع كثير أضافهم إليه أبوه منهم ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو أيوب الأنصاري[٥].

ويبدو أن ما أورده اليعقوبي عن خروج يزيد بن معاوية إلى غزو الروم كان الأساس لما ذكره المؤرخون من بعد أمثال ابن الأثير وابن خلدون وغيرهم عن يزيد، ولعل ما جاء عند اليعقوبي كان من سوء الظن بيزيد، وأما خليفة بن خياط وأبو جعفر الطبري وغيرهما

(١) انظر: خليفة بن خياط/ تاريخه ص٢١١، ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٥/ ٢٣٢، الديار بكري: تاريخ الخميس في أحوال انفس نفيس: ٢/ ٢٩٤، ابن كثير: البداية والنهاية: ٨/ ٣٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٣/ ٤٥٨، تاريخ ابن خلدون: ٣/ ١٩-٢٠.

(٣) اليعقوبي/ تاريخه ج٢ ص٢٢٩.

(٤) بالقذقذونة وردت عند ابن خلدون على النحو التالي: «بالفَدْفدَ البيد»، «موم» وردت عند ابن خلدون على النحو التالي: «شوم»، أنظر ابن خلدون/ العبر: ٣/ ٢٠، و«موم» هو الجدري.

(٥) اليعقوبي/ تاريخه: ج٢/ ص٢٢٩.

فلم يذكرا هذه القصة، وأما ابن عساكر فذكرها في غير غزوة القسطنطينية قال: «وجه معاوية بن أبي سفيان ابنه يزيد إلى غزو الروم، فأقام يزيد بدير سمعان ووجه الجنود، وتلك غزوة الطوانة، فأصابهم الوباء فقال يزيد:

أهون علي بما لاقت جموعهم يوم الطوانة من حمى ومن موم

إذا اتكأت على الأنماط مرتفقا بدير سمعان عندي أم كلثوم

فبلغ معاوية ما قال فقال: أقسم بالله لتلحق بهم حتى يصيبك ما أصابهم، فألحقه بهم»[1]. وعليه فقد يكون الجيش الذي فصل من الشام إلى غزو القسطنطينية أرسل يطلب المدد فأمده معاوية بابنه يزيد ومن معه من المسلمين، ولكن تأكيد الأخبار على خروج الصحابة مع يزيد يجعل خبر خروج يزيد بالجيش ابتداء أرجح من الأخبار الأخرى، وهو ما ذهب إليه خليفة بن خياط وأبو جعفر الطبري، وفي أثناء القتال استشهد عبدالعزيز بن زرارة الكلابي، وبلغ الخبر معاوية، فقال معاوية لزرارة وكان معه والله هلك فتى العرب، فقال زرارة، ابني أو ابنك، وتوفي في أثناء الحصار أبو أيوب الأنصاري فدفن بالقرب من سور القسطنطينية[2].

وحال الشتاء القارس وصعوبة الإمدادات البشرية والتموينية لبعد المسافة وضعف وسائل النقل في ذلك الوقت، ثم نقص الأطعمة والأغذية وتفشي الأمراض بين الجند والموقع الجغرافي المحصن للقسطنطينية والنار الإغريقية حال ذلك كله دون فتح القسطنطينية[3]، وعاد يزيد بالجيش إلى الشام.

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ـ تراجم النساء ـ، تحقيق: سكينة الشهابي: ٥٤٥-٥٤٦، ترجمة أم كلثوم بنت عبدالله بن عامر.

(٢) ابن الاثير: الكامل في التاريخ: ٣/٤٥٩.

(٣) أرشيبالد لويس: القوى البحرية: ١١٣-١١٦.

غزوة القسطنطينية الثانية:

استمرت الغزوات البرية والبحرية إلى أرض الروم بعد فشل المحاولة الأولى لفتح القسطنطينية، ولما كان عام ٥٤هـ، قام معاوية بمحاولة ثانية لفتح القسطنطينية.

والمراجع العربية لا تتحدث عن هذه الغزوة إلا ما ورد عند ابن الأثير في حوادث ٥٤هـ، قال، وفيها ـ أي سنة ٥٤هـ ـ فتح المسلمون وَمُقَدَّمُهم جنادة بن أمية جزيرة «أرواد» قريب القسطنطينية فأقاموا بها سبع سنين، فلما مات معاوية وولى ابنه يزيد أمرهم بالعودة فعادوا[١]، ولكن المحاولة لم تنجح رغم طول المدة التي قضتها الحملة هناك، وعملت الأسباب التي حالت دون فتح القسطنطينية من قبل عملها هذه المرة أيضاً.

فلما قام يزيد بن معاوية بأمر الخلافة من بعد أبيه، وجّه الجيوش إلى أرض الروم، فأغزا عام ٦٠هـ مالك بن عبدالله الخثعمي، وأغزاه الصائفة عام ٦١هـ، وأغزا عام ٦٢هـ عبدالله بن أسد القسري، كما أغزا في العام نفسه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، وأغزا عام ٦٤هـ يزيد بن أسد[٢]، وأما في البحر، فقيل أنه أمر الروابط الذين كانوا يقيمون في جزر البحر المتوسط بالقفول، فعاد من كان يقيم منهم في جزيرة كزيكوس ـ أرواد ـ وجزيرة رودس وجزيرة قبرص، وعند الذهبي[٣]، أن يزيد بن معاوية لما استخلف لبس ثيابا نقية فصلى وجلس على المنبر وخطب وقال: إن أبي كان يغزيكم البحر، ولست حاملكم في البحر، وإنه كان يشتيكم بأرض الروم، فلست أشتي المسلمين في أرض العدو، وكان يخرج العطاء أثلاثا وإني أجمعه لكم. فافترقوا يثنون عليه.

ولاشك أن الشواتي وركوب البحر كانت من المشاق، ولكن المشقة وحدها قد لاتكون كافية لتعليل كلام يزيد، وأين يقع كلام يزيد من حماية المسلمين ونشر الإسلام إزاء عدو يتربص بهم الدوائر، ولو صح أن يزيد قال ذلك يريد أن يتحبب إلى الناس

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٣/ ٤٩٧.

(٢) انظر: خليفة بن خياط/ تاريخه ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٥٤، اليعقوبي: تاريخه/ج٢، ص٢٥٣.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٧، ترجمة يزيد بن معاوية.

فإن الأحداث اقتضت غير ذلك، ولم يتوقف غزو المسلمين أرض الروم صيفا وشتاء، وأما البحر فلعل ما أصاب القوة البحرية الإسلامية في غزوة القسطنطينية اقتضى اتخاذ بعض التدابير الإحترازية.

وجاءت السنوات التي تلت عام ٦٤هـ وامتدت حتى عام ٧٢هـ مثقلة بالفتن والخلافات الداخلية وانكفأت القوة الإسلامية من أجل ذلك على نفسها في الأغلب، واضطر عبد الملك بن مروان الذي كان في مواجهة الروم البيزنطيين إلى مصالحة الروم والجراجمة على نحو ما فعل معاوية بن أبي سفيان من قبل في أثناء الخلاف بينه وبين علي بن أبي طالب[١].

أما بالنسبة للجراجمة، فهم قوم من مدينة جرجومة على جبل اللكام فيما بين مياس وبوقا، وكان أَمْرُهُمْ إلى بطريق أنطاكية، ثم صالحوا المسلمين في أثناء الفتوح الإسلامية على أن يكونوا عونا لهم وعيونا ومسالح في جبل اللكام وأن لا يؤخذوا بالجزية وأن يُنَفَّلوُا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين إذا حضروا معهم حرباً في مغازيهم.

وفي أثناء الخلاف بين بني مروان وعبدالله بن الزبير خرجت خيل للروم إلى جبال اللكام وصارت إلى لبنان، وانضم إليهم جماعة كثيرة من الجراجمة وأنباط وعبيد أُبَاق من عبيد المسلمين، فلما كان ذلك صالحهم عبدالملك بن مروان على ألف دينار في كل جمعة مقتدياً في ذلك بصلح معاوية، ثم إن عبدالملك بن مروان وجه سحيم بن المهاجر إلى القائد الرومي فتلطف له وقتله وتفرق جمعه، وتفرق الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع أكثرهم إلى مدينتهم باللكام.

وقيل أن الجراجمة اجتمعوا عام ٨٩هـ في مدينتهم في خلافة الوليد بن عبدالملك، وأتاهم قوم من الروم، فوجه إليهم الوليد جيشا بقيادة أخيه مسلمة فافتتح مدينتهم وفرقهم في بلدان الشام وأجرى عليهم الأرزاق والعطاء وأحسن إليهم في المعاملة[٢].

(١) اليعقوبي/ تاريخه ج٢ ص٢٦٩،

(٢) البلاذري/ فتوح البلدان ص١٩٠-١٩١.

ويبدو أن البلاذري في حديثه عن الجراجمة إنما عنى الذين كانوا في الجانب الإسلامي، أما الذين كانوا في الجانب البيزنطي، فذكر ثيوفانس[1] أن جستنيان الثاني ملك بيزنطة (٦٨٥-٦٩٦م/ ٦٥-٧٥هـ) قام على إثر المعاهدة التي عقدها مع عبدالملك بنقلهم من بلادهم على الحدود مع المسلمين إلى رومانيا وتراقيا وغيرها من المقاطعات الفقيرة داخل بيزنطة، ووصف ثيوفانس عمل جستنيان هذا بأنه أزال الحائط النحاسي الذي كان يحمي أرض الروم ويقف سدا منيعا في وجه الفتوحات الإسلامية[2].

وأما بالنسبة للروم البيزنطيين فصالحهم عبدالملك بن مروان عام ٦٥هـ ثم في عام ٧٠هـ، وقد بالغت المراجع غير العربية[3] في مقدار ما اتفق عبدالملك بن مروان أن يدفعه إلى الروم من الأموال الذهب والخيل والعبيد، ولعل أوضاع بيزنطة لم تكن تسمح في الأغلب باستغلال الخلاف بين المسلمين لاشتراط ما يريدون، وقد أشارت هذه المراجع إلى أن الروم نقضوا الصلح غير مرة مما قد يعني أن أوضاعهم لم تكن مستقرة.

وبالرغم من الظروف التي استدعت مصالحة الروم فإن القتال معهم لم يتوقف تماما، فقد ذكر خليفة بن خياط أن أهل الشام تركوا الغزو عام ٦٨هـ بسبب القحط والجوع، وعام ٦٩هـ بسبب الطاعون الجارف، ولما كان عام ٧٠هـ، أخذ عبد الملك خمس أموالهم من العطاء لتخلفهم عن الغزو[4]، مما يشير ان الجهاد كان قائما في فترة الخلاف

(١) ثيوفانس (٧٥٨م/ ١٤١هـ-٨١٨م/ ٢٠٣هـ) مؤرخ بيزنطي من أصل يوناني، تقلد عدة مناصب زمن الإمبراطور قسطنطين الذي حكم بين سنتي (٧٤١م/ ١٢٣هـ -٧٧٥م/ ١٥٩هـ)، وكتب حولية في التاريخ غطى فيها أخبار الفترة ما بين (٢٨٤م حتى ٨١٣م/١٩٨هـ) ولكن حوليته يعوزها بعد النظر والحياد النزيه. انظر: نور الدين حاطوم/ المدخل الى التأريخ من ٣٨١-٣٨٢.

(٢) انظر: العدوي: الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم: ٦٨، فيليب حتي: تاريخ العرب مطول: ٢/ ٢٦٩ وما بعدها.

(٣) تنقل هذه المراجع في الأغلب عن ثيوفانس، وقامت المراجع العربية تنقل عنها. انظر: فلهوزن: الدولة العربية: ١٨٢، ١٨٤، حتي: تاريخ العرب مطول: ٢/ ١٦٩، العدوي: الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم: ٦٨، فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية: ٢/ ٦٨-٦٩.

(٤) خليفة بن خياط/ تاريخه ٢٦٥-٢٦٧، ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٦/ ١٢٧.

بين بني مروان ومنافسيهم، ولكنه تأثر ولا شك بهذا الخلاف كثيراً وبخاصة في اثناء انقسام الشام بين عبدالله بن الزبير وبني مروان عام ٦٤هـ، ثم في أثناء ثورة عمرو بن سعيد الأشدق على عبدالملك عام ٧٠هـ.

وبعد أن تغلب عبدالملك على منافسيه عاد الجهاد سيرته الأولى.

فقد قام عبد الملك بترميم المدن والحصون التي شعّثها الروم في أثناء الفتنة بين المسلمين، فبنى عسقلان وقيسارية وسور عكا الخارجة وهي جميعا من السواحل الشامية، وفعل مثل ذلك في الثغور التي تعرضت للهدم والتخريب على يد الروم مثل ملطية وغيرها[١].

وكانت الجزيرة مضمومة في عهد معاوية إلى الشام، وكان يليها في خلافة معاوية والي حمص، وبعد إنشاء جند قنسرين في خلافة يزيد بن معاوية أضيفت الجزيرة إلى والي قنسرين، فلما كانت خلافة عبد الملك أفردها عبد الملك، وصار جندها يأخذون أعطياتهم بها من خراجها، ثم أضاف إليها أرمينيا وأذربيجان[٢].

ويبدو أن كثرة ورود اسم الجزيرة وثغورها في المصادر ونشاط الولاية الكبير في جهاد الروم في هذه الفترة يتناسب والوضع الإداري الجديد الذي اكتسبته الجزيرة في ظل عبدالملك من جهة وطبيعة القتال بين المسلمين والروم من جهة أخرى.

ومنذ عام ٧١هـ وحتى غزو القسطنطينية عام ٩٨هـ في خلافة سليمان بن عبدالملك لم يتوقف غزو المسلمين الروم سنويا، وكانت غزواتهم تنطلق من الثغور الجزرية والشامية أو من كليهما معا، وكانت طرندة والطوانة وهرقلة وعمورية وغزالة ودرولية وسبيسطة ونواحي المصيصة ومرعش وملطية وغيرها من المواقع هدفا لهذه الغزوات، وظهر من القادة في هذا الميدان من ميادين الجهاد في هذه الفترة عدد كثير منهم،

(١) البلاذري/ فتوح البلدان: ص١٦٩-١٧٠، ٢٢١.
(٢) المصدر السابق:/ ١٥٦، ٢١٢، ٢١٩.

محمد بن مروان بن الحكم ويحيى بن الحكم والوليد بن عبدالملك بن مروان وعبد الله بن عبدالملك بن مروان وسعيد بن عبدالملك بن مروان ومسلمة بن عبدالملك بن مروان وهشام بن عبدالملك بن مروان والعباس بن الوليد بن عبدالملك ومروان بن الوليد بن عبدالملك وعبد العزيز بن الوليد بن عبدالملك وبشر بن الوليد ابن عبد الملك وعمر بن الوليد بن عبدالملك وأيوب بن سليمان بن عبدالملك وداود ابن سليمان بن عبدالملك، وأما في غزو البحر فظهر عمر بن فهيرة وخالد بن كيسان[1].

وقد أسفرت هذه الغزوات عن تثبيت أقدام المسلمين في زبطرة والحدث وكمخ وطرنذة والمصيصة، وكان المسلمون فتحوا المصيصة من قبل ولكنهم لم يسكنوها، فلما كان عام ٨٣هـ غزا عبدالله بن عبدالملك ففتحها وأنزل المسلمين فيها وبنى فيها حصنا ومسجدا[2].

وأما في جانب البحر، فقد أعاد الأسطول سلطان المسلمين على جزيرة قبرص، وفرض عبدالملك على أهلها ثمانية آلاف ومائتي دينار جزية يؤدونها كل عام، أي بزيادة ألف دينار عما كانوا يؤدونه للمسلمين من قبل[3]، كما أسفرت هذه الغزوات عن عزم المسلمين على غزو القسطنطينية.

---

(١) انظر: خليفة بن خياط/ تاريخه ص٢٧٢-٣١٤، اليعقوبي/ تاريخه ج٢ ص٢٦٩، ٢٨١-٢٨٤، ٢٩١- ٢٩٢، ٣٠٠، ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٦/ ١٥٠، ١٥٧، ١٦٧، ١٩٤، ٢٠٢، ٣١٨، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٣٠، ٣٣١، ٣٨٥، ٤٢٦، ٤٢٩، ٤٣٤، ٤٣٦، ٤٣٩، ٤٤٢، ٤٥٤، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٨٣، ٤٩٥، ٥٢٣.

(٢) انظر البلاذري/ فتوح البلدان: ص١٩٥، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٨.

(٣) المصدر نفسه: ١/ ١٨٣.

غزوة القسطنطينية الثالثة:

شجعت النتائج التي حققتها الغزوات في خلافة الوليد بن عبدالملك الذي اقترن عهده بالفتوحات الواسعة على محاولة فتح القسطنطينية، وعزّز هذا الإتجاه أن أوضاع بيزنطة كانت تعتريها الفتن السياسية وتبدّل الحكام[١].

ولكن وفاة الوليد بن عبدالملك أَخّرت المحاولة إلى عهد أخيه سليمان بن عبدالملك، وقيل أن العلماء حدّثوا سليمان بالذي يفتح القسطنطينية وأن اسمه اسم نبي، فطمع سليمان فيها واستعد لذلك[٢].

بدا غزو القسطنطينية بمقدّمات تمثّلت بإنفاذ بعض الغزوات في البر والبحر، ثم تلاها خروج سليمان بن عبدالملك إلى مرج دابق والإقامة فيها، ومرج دابق من ولاية قنسرين، وكانت طريق الجيوش إلى بلاد الروم[٣]، وهناك أخذ سليمان يستعد للغزو، فلما تم له وجه الجيوش في البر والبحر، وجعل القيادة إلى أخيه مسلمة بن عبدالملك.

وقد اختلفت الأخبار في تقدير أعداد الجيش وقوات الأسطول، فقيل بلغ الجيش مائتي ألف، وقيل بلغ مائة وعشرين ألف، وأما الأسطول فقيل بلغ ثمانية عشر ألف سفينة، وقيل بلغ خمسة الاف سفينة، وقيل بلغ ألفا وثمانمائة سفينة، ولاشك أن الدولة استعدت لهذه الغزوة استعدادا كبيراً، ولكن هذه التقديرات بالمقارنة بأعداد الجيش الإسلامي في معاركه مع الأعداء تبدو غير جديرة بالتصديق.

وسارت الحملة نحو القسطنطينية فوصلها الجيش عام ٩٨هـ الموافق للخامس عشر من أغسطس/ آب ٧١٧م، ووصلها الأسطول في عام ٩٩هـ الموافق للأول من سبتمبر/ أيلول ٧١٧م[٤]، وضرب المسلمون الحصار على المدينة، وقاتلوا الروم قتالا شديدا،

(١) العيون والحدائق/ مؤلف مجهول: ٤/ ٢٤.

(٢) المصدر نفسه: ٤/ ٢٤.

(٣) ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب: ٤١.

(٤) العدوي: الدولة الإسلامية، وامبراطورية الروم: ٦٩.

واستبسلوا في جهادهم، ورغم المصابرة التي استمرت قرابة سنة، فإن المحاولة فشلت فشل مثيلاتها من قبل، وخسر المسلمون خسارة كبيرة في العدد والعدة.

أسباب الفشل:

تناولت الأخبار غزوة القسطنطينية وذكرت أن ليو حاكم ـ بطريق ـ عمورية اتصل بسليمان بن عبدالملك وحرّضه على حرب ثيودوسيوس ـ تيدوس ـ الذي عزل أنستازيوس ـ نسطا ـ عن الملك وقعد مكانه، ووعد ليون سليمان أن يقف إلى جانب المسلمين ويسلّمهم أرض الروم، وقيل الذي عرض التحالف على الآخر هو سليمان بن عبدالملك، وقيل مسلمة بن عبدالملك عرض ذلك في أثناء حصار القسطنطينية وهو يتظاهر أمام مسلمة أنه يحاول إقناعهم في النزول على رغبة مسلمة، وكان مسلمة حسب هذه الأخبار طلب إليهم ليرحل عنهم أن يملّكوا حليفه ليو عليهم، وأما ليو فكان في حقيقة الحال يطلب الملك لنفسه ويريد أن ينقذ البلد من خطر المسلمين، ولما اطمأن الأساقفة والبطارقة إليه وحلف لهم انقادوا له واستوى له الأمر، فخرج إلى مسلمة وأشار عليه أن يحرق ما عنده من الطعام لييأسوا من المطاولة ويصح عندهم عزم مسلمة على المناجزة فيعطوا ما بأيديهم، وقيل أشار عليه أيضا أن يأذن لأهل القسطنطينية لليلة واحدة أن يحملوا مما عنده من الغلال ليروا حسن رأيه فيهم وأن أمره وأمر ليو واحد.

وانطلت الخديعة على مسلمة وأطاع ليو، وأما ليو فقد استولى على الحكم وأعلن الحرب على مسلمة في الوقت الذي صار مسلمة في حال لا يحسد عليه من سوء الأحوال الجوية وقلة الميرة لجنده حتى لقوا من الشدة مالم يلق أحد قط، واضطروا إلى أكل الدواب والجلود والميتة وأصول الشجر وغير ذلك[1].

وخلاصة القول، أن هذه الأخبار تلقي مسؤولية الفشل على عاتق مسلمة بن عبدالملك الذي كان عندها شجاعاً فحسب ولم يكن من ذوي الرأي والبصيرة في الحرب،

---

(١) انظر: وكيع: أخبار القضاة: ٣/ ٢١٣، ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٦/ ٥٣٠-٥٣١، العيون والحدائق/ مؤلف مجهول: ٤/ ٢٤-٣٣.

ولم يكن في أصحابه من له رأي فيها يرجع إليه(١).

ولو صدقنا هذه الأخبار لكانت الدولة أي سليمان بن عبدالملك ابتداء، ومسلمة بن عبدالملك قائد الجيوش تاليا ربطا مصير فتح القسطنطينية ومصير الجند المسلمين هناك بوعود شخص هو ليو مظنة كذب وخديعة، وهو حال يتناقض واستعدادات الدولة في هذا الوجه، ومع التناقض الذي وقعت هذه الأخبار فيه، والتفسير الذي ساقته لتبرير فشل الحملة، فإنها لا تخفي هجوم الشتاء على المسلمين وأثره فيهم، ولا تخفي ما لاقوه من الضيق والشدة بسبب نقص المؤونة والميرة.

وبخصوص ضراوة شتاء عام ٩٩هـ/ ٧١٧م، قيل أن الثلج غطى وجه الأرض نحوا من مائة يوم، وهلك فيه كثير مما كان مع المسلمين من الجمال والخيل والبغال، ولا بدّ أن المسلمين في هذه الأحوال الجوية القاسية أتوا على أكثر ما كان معهم من الطعام وأصبحوا في نقص من الميرة وعضّهم الجوع، ولذلك قيل، استطاع ليو أن يفخر بأن ديسمبر (كانون الأول) ويناير (كانون الثاني) وفبراير (شباط) كانوا أعظم قواده(٢).

وإضافة إلى ذلك، فإن حكام بيزنطة كانوا أخذوا في تحصين أسوار القسطنطينية وتسليحها بالمجانيق مذ علموا بعزم المسلمين على غزوها، وزادها ليو الذي تقلد الحكم فيها زمن الحصار تحصنا، وأمر حكام بيزنطة بتخزين الطعام بالقدر الذي يكفي أهلها لثلاث سنوات ومنعوهم من أن يغادروها(٣).

وجاء عند ابن عساكر أن اليون (ليو) كتب إلى صاحب برجان(٤) يعلمه نزول العرب

---

(١) العيون والحدائق/ مؤلف مجهول: ٤/ ٢٨.

(٢) انظر فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية: ٢/ ٨٥، ٩١.

(٣) انظر فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية: ٢/ ٨٥، ٩١.

(٤) ذكر ياقوت أن برجان من نواحي الخزر، ياقوت/ معجم البلدان، ج١، مادة برجان، وإذا قبلنا قول ياقوت في موقع برجان تعذر قبول ما جرى بين صاحب برجان ومسلمة لبعد المسافة بين برجان والقسطنطينية التي يحاصرها مسلمة، فهناك فاصل مائي بين بلاد الخزر والقسطنطينية وهو البحر =

بهم وحصارهم إياهم، وأن العرب لا يريدونهم دون غيرهم، وإنما يقاتلون الجميع الأقرب فالأقرب، والأدنى، وخوّفه مسير العرب إليه وإلى غيره بعد غلبتهم إياهم وفرض الجزية عليهم، وختم كلامه باستنهاضه عليهم والعمل على صدّهم، فكتب صاحب برجان إلى مسلمة بن عبدالملك يعلمه ما بينه وبين الروم من عداوة وان ما يصيب الروم من نقص على يد العرب يبعث السرور في نفسه، وعرض على مسلمة أن يقدّم له ما يحتاج إليه من المساعدة في العدة والعدد والمرافق، ولكن مسلمة لم يطلب منه إلا أن يمدهم بالميرة (المواد التموينية)، وأن يقيم لهم السوق ليبتاعوا حاجتهم من المؤن والغذاء، ففعل صاحب برجان ذلك، وأقام السوق في ارض بعيدة عن نفوذ الروم وحصونهم لئلا يتعرض لاعتداءاتهم بزعمه، وارسل إلى مسلمة يخبره بذلك، فوجه مسلمة الى السوق الخيل العظيمة، وخرج الناس أعدادا كثيرة يتبع بعضهم بعضا على غير حذر ولا خوف من عدو حتى أفضوا إلى السوق في مرج واسع تحيط بها الجبال، فلما حل الناس بالسوق وانتشروا فيها، وشغلهم البيع والشراء شد عليهم من كل جانب جنود صاحب برجان الذين أقامهم في شعاب الجبال والغياض، فقتلوا من المسلمين ما شاءوا وأسروا ما شاءوا إلا من أعجزهم، ورجعت كتائب صاحب برجان إلى بلادهم[1].

= الأسود، وهناك البر الذي يحتاج من يعبره من بلاد الخزر إلى القسطنطينية شهورا، سواء عبره الإنسان من الجهة التي تطوف بالبحر الأسود من جهة الشمال ام من جهة الجنوب، ولعل الأقرب للتصديق أن تكون برجان بلادا حدودية مع الروم البيزنطينية وإلى جهة الغرب من القسطنطنية وقريبة منها، وهناك مدينة تقوم اليوم على ساحل البحر الأسود وضمن بلاد بلغاريا، وتسمى Burgas، وهي قريبة من أستانبول، ولعل اسمها وموقعها يساعدان في التعريف على موقع برجان المذكورة في كتب التاريخ والجغرافيا، وأنه موقع ربما يكون ضمن بلاد بلغاريا، وربما ضمن بلاد بلغاريا وتركيا قريبا من استنانبول.

انظر: القزويني/ اثار البلاد وأخبار العباد، مادة برجان، ابن سعيد المغربي/ كتاب الجغرافيا، ص٢٥٣-٢٥٤، أبو الفداء/ تقويم البلدان مادة برشان وبرجان.

(١) انظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج١٢، ترجمة شراحيل بن عبيدة بن قيس العقيلي.

وواجه المسلمون في البحر صعوبات كثيرة، فقد جعلت التياراتُ المائية المنحدرة من البحر الأسود إلى بحر مرمرة حركةَ السفن الإسلامية بطيئة، وأدى تغير الريح إلى اضطرابها، ونالت النار الإغريقية منها وألحقت بها أضرارا كثيرة[١] فإذا وضعنا هذه العوامل جنبا إلى جنب في المعركة التي كانت تدور بين المسلمين والبيزنطين في ذلك الصقع البعيد بدت مهمة المسلمين في فتح القسطنطينية شاقة وعسيرة، ولم تبلغ الإمدادات لبعد خطوط المواصلات والعراقيل الأخرى الحجم الذي يجعل قدرة المسلمين تتجاوز التحديات والصعوبات الانفة الذكر، ومع التضحيات الكبيرة التي قدمها المسلمون فلم يستطيعوا أن يفتحوا العاصمة البيزنطية واعادهم عمر بن عبد العزيز وتلقّاهم مُغيثاً بالخيل والأكسية.

ويبدو لو ان المسلمين تريثوا حتى أتموا فتح البر الأسيوي البيزنطي ثم تقدموا إلى القسطنطينية من مواقع مجاورة وبأحوال جوية مماثلة ومألوفة للمقاتلة وخطوط ومواصلات قصيرة وإمدادات قريبة وأعداد بشرية كثيرة فربما وجدوا المهمة أيسر، ولكنهم عمدوا إلى صقع من البلاد في محيط من الأعداء حصين وبعيد، فاستعصى عليهم.

وقد عّلق على هذه الغزوة بعض المؤرخين المعاصرين فعدّوا ليو مخلصا لأوروبا من خطر المسلمين مثلما خلّصهم هرقل من خطر الفرس من قبل، وعدّوا انتصاره على درجة من الأهمية غير عادية وأكبر من الإنتصار الذي حققه شارل مارتل ملك الفرنجة، وأن المسلمين بعد هذه الغزوة انكفأوا على أنفسهم مشغولين بخلافاتهم الداخلية لا يقدرون أن يمدوا أنظارهم خارج حدود بلادهم[٢].

وأما بالنسبة للمسلمين فلم تكن هذه الغزوة حقيقة إلا جولة من جولات عديدة تعاورها الظفر والفشل، ولكن الغلبة كانت الى جانب الاسلام ودعوته، ولم تتوقف حركة الجهاد بعد هذه الغزوة، وظل الفتح مستمرا على جميع الجبهات وظل الجهاد مع البيزنطيين قائما وأن لم يجر غزو القسطنطينية مرة اخرى في الفترة الباقية من عصر بني امية.

---

(١) العدوي: الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم: ٦٩.

(٢) بشأن أقوال هؤلاء المؤرخين انظر: فتحي عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية: ٢/ ٩٤.

القتال مع البيزنطيين بعد خلافة سليمان بن عبد الملك:

بعد فشل محاولة فتح القسطنطينية الانفة الذكر، لم تتوقف حركة الجهاد مع البيزنطيين، وما فعله عمر بن عبد العزيز من إعادة مسلمة بالجيش من أمام أسوار القسطنطينية، وترحيل الروابط في اعقاب ذلك من المواقع المتقدمة الواغلة في ارض الروم، مثل طرندة الى مواقع اخرى اقرب إلى النجدات الاسلامية وابعد عن الخطر البيزنطي لم يكن إلا من قبيل الخشية على المسلمين، والإشفاق عليهم[1].

وشهدت الفترة منذ خلافة يزيد بن عبد الملك وحتى نهاية العهد الأموي غَزْواً مستمراً لأرض الروم في البر والبحر صيفا وشتاء، وظهر في هذه الفترة من القادة في غزو بلاد الروم مسملة بن عبد الملك، وعثمان بن حيان المرى، وعبد الرحمن بن سليمان الكلبي، والوليد بن القعقاع العبسي، وعبدالله البطال، والعباس بن الوليد بن عبدالملك، وسعد بن عبد الملك، ومحمد بن هشام بن عبدالملك، وسعيد بن هشام بن عبدالملك، وسليمان بن هشام بن عبدالملك، ومسلمة بن هشام بن عبدالملك، ويزيد بن هشام بن عبدالملك، ومعاوية بن هشام بن عبدالملك، والغمر بن يزيد بن عبد الملك، ومحمد بن مروان بن الحكم، وابنه مروان، وعمر بن هبيرة الفزاري.

وفي البحر، ظهر من القادة عمر بن هبيرة الفزاري، وعبدالله بن أبي مريم، والحكم بن قيس بن مخرمة بن المطلب بن عبد مناف الذي قاد الأسطولين الشامي والمصري عام ١١١هـ.

وقد كان الغزو يجري من جهة الثغور الجزرية ومن جهة الثغور الشامية، إضافة الى غزوات البحر، وكانت ضواحي الروم من جانب البر هدفا لهذه الغزوات، حيث تعرضت مدن رسلة وقيسارية وسندرة وسررة ودبشة وخرشنة وغيرها من مدن ومعاقل وحصون بيزنطة لهجوم الجيوش الإسلامية بلا انقطاع.

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان: ص٢٢١.

وأما في البحر فقد ظل المسلمون يحتفظون بجزيرة قبرص، وقد رد عمر بن عبد العزيز ما كان عليهم من الجزية إلى المقدار الذي صالحهم عليه معاوية بن أبي سفيان وهو سبعة الاف ومائتا دينار سنويا، وكان عبدالملك زاد عليهم ألف دينار، فلما ولي هشام بن عبد الملك ردهم إلى ماكان أبوه عبدالملك أخذ منهم[(1)]. وقد صاحب سياسة الغزو تقوية الثغور وتحصينها وزيادة شحنتها بالمقاتلة، فقد أمر عمر بن عبد العزيز بِمَرِمّة مدينة اللاذقية وتحصينها على إثر هجوم الروم عليها من الساحل، وقام يزيد بن عبدالملك فزاد في مَرَمّتها وشحنها بالمقاتلة، وبنى هشام مدينة ملطية وحصنها بعدما أغار عليها عام ١٢٧هـ، وبنى حصن قطر غاس وحصن مورة وحصن بغراس وحصن بوقا وجميعها من أعمال أنطاكية، وحصن المثقب، وبنى الوليد بن يزيد بن عبدالملك على بعد تسعة أميال من المصيصة الجسر الذي على الطريق الذي يصل بين أذنة والمصيصة، وبنى مروان بن محمد الحصون في منطقة الثغور الجزرية وشحنها بالصقالبة[(2)].

ولما ترك مروان بن محمد الثغور وسار في أغلب من معه من الجيش نحو دمشق في أثناء الخلاف بين أبناء البيت الأموي على الخلافة، استغل الروم البيزنطيون الفرصة، وهاجموا في أثناء انشغال مروان بمحاربة أهل حمص، مدينة مرعش وأَجْلُوا أهلها إلى الجزيرة وجند قنسرين وأخربوا مدينة مرعش، فلما فرغ مروان من حرب أهل حمص أعاد بناء مرعش، ولكن الروم عادوا فأخربوها في أثناء الحرب بين مروان وبني العباس، كما أخرب الروم حصن الحدث وزبطرة، وظل ما أخربه الروم على حاله إلى أن قام بنو العباس فتولوا بناءه ومرمتّه وشحنه بالمقاتلة[(3)].

---

(١) البلاذري/ فتوح البلدان: ص١٨١-١٨٣.

(٢) المصدر السابق: ص١٥٧، ١٧٧، ١٩٩، ٢٢٢.

(٣) البلاذري/ فتوح البلدان ص٢٢٥، ٢٢٨، قدامة بن جعفر: الخراج وصنعة الكتابة: ٣١٩.

الفتوحات في شمال إفريقيا

طبيعة البلاد والسكان:

لا شك أن الوقوف على جغرافية الشمال الإفريقي الطبيعية والسكانية ينفع في معرفة سير الفتوحات الإسلامية واتجاه حركتها في المنطقة ويفيد في تقرير العوامل التي أثرت في حركة الفتح سلباً وإيجاباً، لذلك سنبدأ الحديث بالكلام عن هذه الناحية.

استعمل الجغرافيون والمؤرخون عند الحديث عن المناطق التي تمتد من الحدود الغربية لمصر وحتى شواطيء المحيط الأطلسي، استعملوا لفظ «المغرب»، وهو لفظ يرادف اصطلاح شمال إفريقيا، وأما بخصوص لفظ «إفريقية» فقيل أنه مشتق من كلمة «Aphri» التي أطلقها الفينقيون على سكان uthca وقرطاجنة، ثم عممه اليونان بعد ذلك فأطلقوه على سكان المغرب من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي[١].

كانت المنطقة قد قسمها البيزنطيون إداريا إلى سبع مقاطعات وعسكريا إلى أربع، وعرفت في العهود الإسلامية بثلاثة هي بلاد المغرب الأدنى وبلاد المغرب الأوسط وبلاد المغرب الأقصى، وهو تقسيم أطلقه جغرافيو ومؤرخو المسلمين على أساس قرب البلد وبعده من دار الخلافة الإسلامية في بلاد المشرق الإسلامي[٢].

كانت بلاد المغرب الأدنى تضم برقة وطرابلس وتمتد غربا حتى بجاية أو تاهرت وقاعدتها مدينة القيروان، أما بلاد المغرب الأوسط فتضم المنطقة الممتدة من تاهرت وحتى وادي ملوية وجبال تازة غربا، وقاعدتها تلمسان وجزائر بني مزغنة، واما المغرب الأقصى فيمتد من وادي ملوية وحتى مدينة اسفي على المحيط الأطلسي وجبال درن جنوبا.

---

(١) عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب، عبدالواحد طه: الفتح والاستقرار العربي في شمال أفريقيا والأندلس: ٤٧.

(٢) عبد الواحد طه: الفتح والإستقرار العربي في شمال أفريقيا والأندلس: ٤٨-٥٠.

وإذا استثنينا بلاد برقة وطرابلس التي تعرف اليوم بليبيا نجد بلاد المغرب التي تضم تونس والجزائر ومراكش تشكل وحدة جغرافية أساسها وجود جبال أطلس وامتداد هذه الجبال في بلاد المغرب من أقصاه الغربي إلى أقصاه الشرقي.

ففي الشمال الغربي من طنجة تمتد جبال الريف بحذاء ساحل العدوة حتى مليلة تاركة سهلا ساحلية ضيقة في هذه المنطقة، وتمتد جبال اطلس التل من المحيط الأطلسي شمال وادي سوس نحو الشمال الشرقي حتى تنتهي شرقا بجبل خمير في تونس، وفي موازاة جبال أطلس التل من الجهة الجنوبية تمتد جبال اطلس الكبرى من جنوب وادي سوس نحو الصحراء حتى تنتهي جنوبي تونس بجبال زغوان، وهذه الجبال اكثر جبال اطلس ارتفاعا، ولا توجد بها ممرات تُيسّر الإتصال بين المغرب الأقصى والمغرب الأوسط والادنى.

وتنحصر بين الجبال هضاب منها الشطوط التي تقع بين جبال أطلس التل وجبال أطلس الكبرى في المغرب الأوسط، ويشتغل سكانها غالبا برعي الماشية، كما توجد بعض السهول واغلبها سهول ساحلية تقع على المحيط الاطلسي وساحل العدوة وساحل البحر المتوسط، وتختلف ضيقا واتساعا بين منطقة وأخرى بحسب مدى اقتراب الجبال من البحر أو تأخرها عنه، ففي بلاد المغرب الأدنى تكاد لضيقها لاتذكر، وأما السهول الداخلية فتقع حول الوديان ومجاري المياه والواحات(١).

لقد أثرت طبيعة المنطقة في حياة أهلها وعلاقاتهم مع الاخرين، فمن جهة عرف أهل المناطق الجبلية وأكثرهم من البربر بالخشونة والجلد والشجاعة، وأدى اتجاه سلاسل الجبال فيها بشكل صفوف متوازية للساحل الى تيسير الإتصال بين شرق المغرب وغربه حتى بداية المغرب الأقصى، والى عرقلة الإتصال بين الساحل والداخل مما جعل وجود البيزنطيين وأثرهم الحضاري لا يتعدى المنطقة الساحلية غالبا، لذلك واجه المسلمون في فتح المنطقة إضافة الى طبيعتها وصعوبة الانتشار فيها واجهوا قوتين هما:

(١) عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب: ٤٠-٤٦.

القوة البيزنطية في الساحل وكانت تتعزز بما يأتيها من الإمدادات من القواعد البيزنطية في البحر المتوسط، وقوة البربر في الجبال والداخل.

أما بالنسبة للسكان فأغلبهم عند الفتح الإسلامي كان ينتمي الى العناصر الثلاثة التالية وهي: البيزنطيون، والأفارقة، والبربر.

كان البيزنطيون والأفارقة الذين قيل انهم جماعات خليطة من بقايا الشعوب السابقة كالفنيقيين والرومان والوندال، كانوا يسكنون بصورة رئيسة في المناطق الساحلية وكانت النصرانية منتشرة بينهم.

أما البربر فأغلبهم وثنيون، وكانوا باستثناء الذين سكنوا في المناطق الساحلية واختلطوا بالعناصر البيزنطية وتأثروا بها وتنصّر بعضهم، وكانوا ينزلون المناطق الجبلية والداخلية، وأما بخصوص اسم البربر فلا أصل عرقي لهذه الكلمة ويبدو أنها اشتقت من الكلمة اللاتينية Barbari وهو الاسم الذي اطلقه الرومان على الاقوام التي لاتتكلم اللاتينية او اليونانية وتعيش خارج الحضارة الرومانية ولاتدين بها، وقيل أن الذي سماهم البربر هو أفريقش ابن قيس من ملوك التبابعة، غزاهم فلما سمع رطانتهم قال: ما أكثر بربرتكم، فسموا بالبربر، وباسمه سميت إفريقية ولكن إبن خلدون يستبعد ذلك[١].

يُرْجِعُ بعض المؤرخين البربر إلى أصول سامية، وبعضهم يرجعهم إلى أصول هندواوربية، وهناك من يرجح أن الأصول البربرية تعود في تاريخها القديم إلى الأقوام التي هاجرت من جزيرة العرب[٢]، ويرد علماء النسب البربر عادة إلى جذمين كبيرين هما: البتر والبرنس، وينسبون البتر إلى مادغيس بن بر الملقب بالأبتر، وقيل أن اللقب كان بسبب لباس هؤلاء البرنس من غير غطاء رأس لأنهم سكان سهول، وأما البرنس فينسبونهم إلى برنس بن بر، وقيل في تسميتهم بالبرنس أنهم كانوا يرتدون برنسا كاملا

(١) البلاذري/ فتوح البلدان ص٢٧٠، ابن خلدون: العبر:٦/ ٨٩، ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس:١٩.

(٢) عبد العزيز: سالم تاريخ المغرب: ٤٧-٤٨، عبد الواحد طه: الفتح والإستقرار العربي: ٥٢.

أي بغطاء رأس لأنهم سكان جبال، وهناك من يفرق بينهم على أساس اجتماعي، فالذين سكنوا المدن وتأثروا بالحضارة الرومانية سموا البرنس، والذين تبدّوا سموا البتر، وهناك من يرى أن الجذمين يمثلان موجتين بشريتين مختلفتين، واحدة تمثل أهل البلاد الأصلية، والأخرى تمثل الوافدين الجدد، وذلك لما بين الجذمين من خلافات وعداوات عميقة الجذور(١).

ويضم هذان الجذمان قبائل كثيرة، فمن قبائل البتر نذكر قبائل لواتة ونفوسة ونفزاوة ومغراوة وزناتة ومكناسة ومديونة وزواغة ومطغرة ومفيلة، ومن البرنس نذكر قبائل صنهاجة ومصمودة وكتامة وهسكورة وأوربة وكناسة وهوارة وغمارة ومطاطة وجزولة وأزداجة، كما كانت هذه القبائل تضم فروعاً أخرى أصغر تنتهي إليها(٢).

كانت هذه القبائل تنتشر بين سواحل المغرب وجباله ووديانه وسهوله وهضابه وصحاريه، وتمارس على تفاوت بينها أعمال الزراعة والرعي والتجارة، وإذا استثنينا مناطق نفوذ بيزنطة في بلاد المغرب وجدنا بعض المناطق منه كانت أكثر احتفالا ببعض القبائل من البعض الاخر، مما جعل بلاد المغرب إلى مناطق نفوذ مقسمة بين هذه القبائل أقرب منه إلى بلد واحد متماسك، ومع ذلك كانت تعيش مع كل قبيلة من هذه القبائل فصائل من القبائل الأخرى تحل معها وتعيش في ديارها، كما كانت هذه القبائل تحرص في بعض المحاور على مستوى من التعاون لتأمين حركة التجارة بين منطقة وأخرى وبينها وبين البلاد المجاورة من بلاد الساحل والداخل.

نزلت لواته في منطقة طرابلس والصحراء التابعة لها، وفي صبرة وأجدابية ومنطقة برقة، ونزلت هوارة على ساحل طرابلس، وسيطرت على المنطقة الساحلية من شرق بلاد الجزائر، وسيطرت زناتة على المنطقة الممتدة من غرب بجاية إلى وادي الملوية من بلاد المغرب الأوسط، ونزلت أوربة المنطقة الممتدة من شمال تاهرت إلى وهران،

---

(١) عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب: ٥٠.

(٢) ابن خلدون: العبر: ٦/ ٩٠-٩٣.

وكانت تتمتع بكثرة عددها ومناعة حصونها وغناها في هذه المنطقة، وكان من رجالها المشهورين كسيلة الذي قادها والقبائل الأخرى في الحرب المشهورة ضد المسلمين، ونزلت صنهاجة السوس الأقصى ووادي درعة من المغرب الأقصى، وسيطرت مصمودة على المناطق الواقعة ضمن جبال الأطلس، وكانت تتعاون مع فروعها من هكسورة وبرغواطة وغمارة التي كانت تسكن على ساحل المحيط الأطلسي مع قبائل مكناسة الكبيرة التي كانت تسيطر على وادي ملوية، وسكنت منطقة الأوراس فصائل من لواتة وزناتة وهوارة وأوروبة وجراوة ومكناسة وكتامة ونفزة[١].

لم تكن علاقات هذه القبائل حسنة مع نواب بيزنطة في المنطقة، وكان النزاع يقع بين الجانبين أحيانا نظرا الى محاولات الحكام في بسط نفوذهم على هذه القبائل وفرض الضرائب عليها، وأخيراً في ظروف اضمحلال بيزنطة وفقدان ممتلكاتها في سورية وفلسطين ومصر على يد المسلمين، تشجع جرجير أو جريجوريوس أحد نواب بيزنطة بإعلان نفسه حاكما مستقلا في المنطقة الممتدة من طرابلس إلى طنجة وعاصمتها قرطاجنة[٢] مما اضعف ارتباط الوجود البيزنطي في شمال إفريقيا مع حكومة بيزنطة المركزية، وجعل الحكم البيزنطي في شمال إفريقيا لا ينتظر بإلحاح الحصول على إمدادات من حكومة بيزنطة في المركز.

احداث الفتح وقادته

عمرو بن العاص:

كان عمرو بن العاص بعد أن فتح الإسكندرية عام ٢٢هـ/ ٦٤٢م واستكمل فتح مصر أراد أن يواصل حركة الفتح الإسلامي غرباً يوهن البيزنطيين ويمكّن للمسلمين في كل ما فتحوه، فسار بالجيش حتى بلغ برقة، وكانت تنزلها بعض بطون من قبائل لتوانة وزواغة،

(١) ابن خلدون: العبر: ٦/ ٩٨، عبدالواحد طه: الفتح والإستقرار العربي: ٥٤-٦٤.

(٢) عبد الواحد طه: الفتح والإستقرار العربي: ٦٥-٦٧.

وكانت هذه القبائل ساخطة على البيزنطيين لما كان عليه البيزنطيون من الظلم والعسف وجباية الضرائب منهم، فصالحوا المسلمين على الجزية، وقيل أن عبدالله بن عمرو بن العاص كان يقول لولا مالي في الحجاز لنزلت برقة فما أعلم أسلم ولا أعزل منها، وكان اهلها يرسلون ما عليهم من الأموال إلى والي مصر من غير أن يأتيهم حاث أو مستحث[1].

أرسل عمرو بن العاص حملة بعد ذلك نحو زويلة في الصحراء بقيادة عقبة بن نافع فبلغها عقبة فافتتحها، ويبدو من كتاب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب أن بعض الناس أسلم، وأن أهل المنطقة حسنت طاعتهم، قال عمرو: وإن من بين زويلة وبرقة سلم كلهم، حسنت طاعتهم قد أدى مسلمهم الصدقة وأقرّ معاهدهم الجزية[2]، ثم سار عمرو بن العاص مساحلا يريد طرابلس، وفي طريقه إليها فتح سرت ولبدة، فلما بلغ طرابلس وجد بلدا حصينا مُسوّرا من جميع الجهات عدا جانب البحر، فألقى الحصار عليها وامتد أمده شهراً ثم اهتدى المسلمون إلى مسلك إلى داخلها من جانب البحر فدخلوه وفتحوه وهرب من قدر على النجاة من الروم إلى السفن في البحر، وأرسل عمرو على الفور خيلا كثيفة إلى مدينة صبراطة ـ سبرت ـ ففتحوها، فلما تم له ذلك كتب ببشارة الفتح إلى عمر بن الخطاب وأعلمه أن بينه وبين إفريقيا (تونس) تسعة أيام ثم استأذنه في غزوها، ولكن عمر لم يأذن له فكتب إليه يقول: ما هي بإفريقيا ولكنها مفرقة غادرة مغرور بها[3].

---

(١) ابن عبدالحكم: فتوح مصر وأخبارها: ١٧٠-١٧١، ابن يوسف الكندي: ولاة مصر: ٣٣.

(٢) البلاذري/ فتوح البلدان ص٢٦٥.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ١٧١-١٧٢، البلاذري/ فتوح البلدان ص٢٦٦ ابن الأبار: الحلة السيراء: ص٢، ٢٤، ٢٨، ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار المغرب: ج١ ص٢-٦.

عبدالله بن سعد بن أبي السرح:

لبث عمرو بن العاص بعد ذلك يبعث المسلمين في جرائد الخيل فيصيبون من أطراف إفريقيا (تونس) ويغنمون حتى عزل عام ٢٥هـ فخلفه عبدالله بن أبي سرح في الولاية، فكان يبعث المسلمين في جرائد الخيل كما كانوا يفعلون في أيام عمرو فيصيبون من أطراف إفريقيا ويغنمون.

أرسل عبدالله بن أبي سرح بعد ذلك إلى عثمان بن عفان يستأذنه في فتح إفريقيا (تونس)، ويبدو أن عثمان كان كسابقيه كان حتى لا يُنْكَبَ الجيشُ من تسرّع كان يميل إلى التروّي وكبح الخفّة التي تبعثها نشوة النصر، لذلك استشار الصحابة من حوله في المدينة ولابد أنه بسط أمامهم المعلومات المتوفرة لديه عن أحوال تلك المنطقة أي إفريقيا (تونس) فلما أجمع رأيهم على فتحها، ندب عثمان الناس مع الحارث بن الحكم إلى مصر عام ٢٧هـ، ووجه معه معبد بن العباس، ومروان بن الحكم، وعبد الله بن الزبير، والمسور بن مخرمة بن نوفل، وعبدالرحمن بن زيد بن الخطاب، وعبد الله بن عمر، وعاصم بن عمر، وعبيد الله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وخلق كثير من العرب الذي كانوا ينزلون المدينة، قيل خرج من قبيلة أسْلَم ثلاثمائة رجل، وخرج من مزينة ثمانمائة رجل، وخرج من بني سليم أربعمائة وخمسون رجلاً، وغيرهم من القبائل جهينة وغفار وغطفان وفزارة، وقيل أن عثمان بن عفان خطب فيهم وحثهم على الجهاد في سبيل الله ومما قال لهم: «قد استعملت عليكم الحارث بن الحكم حتى تصلوا إلى عبدالله بن سعد وقد قدمت عليكم عبدالله بن سعد لما علمت من ثقته ودينه وحسن رأيه وشجاعته، وأخذت عليه العهد والميثاق ان يحسن لمحسنكم ويتجاوز عن مسيئكم ولا يحمله غرض الدنيا على هلاك رجل واحد منكم[1].

---

(١) إبن عذارى المراكشي/ البيان المغرب في أخبار المغرب ج١ ص٨-٩، عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب ص٦٩-٧٠.

فلما وصل الجيش مصر ضم إليه عبدالله بن سعد جيش مصر، من قبائل الأزد ألف وأربعمائة، وستمائة من مهرة، عدا من اشترك من قبائل كندة ولخم وجذام، وهناك إشارات إلى وجود بعض الأقباط الذين خدموا كأدلاء بسبب معرفتهم واطلاعهم على المنطقة، وسار الجميع يريدون إفريقيا (تونس)، فلما بلغوا برقة التحق بهم الجند الذين كانوا يرابطون هناك بقيادة عقبة بن نافع، وتشير المصادر الى ان عدد الجيش كان عشرين ألفا[1]، ويبدو من ملاحظة أعداد الذين اشتركوا في الحملة من القبائل المختلفة وصرحت الروايات به، ومقدار الأعداد التي اشتركت من القبائل الأخرى ولم تصرح الروايات به، وإضافةِ ما كان من الجند مع عقبة بن نافع إليه، يبدو من ملاحظة ذلك كله أن المجموع الكلي للجيش لا يبلغ نصف الرقم الذي ذكره ابن عبدالحكم انفا.

كانت المدن الساحلية بين برقة وإفريقيا (تونس) قد تحصنت على إثر غزو المسلمين واستعدت حامياتها للقتال، فقد فعلت ذلك طرابلس التي كانت قد خرجت عن طاعة المسلمين بعد رجوعهم عنها بعد الفتح إلى مصر، ومثل ذلك فعلت قابس التي تقع إلى الغرب منها، لذلك تجنب عبدالله بن سعد أن يطيل حصار هذه المدن ويشتبك طويلا مع حامياتها، وجعل همَّه أن يصير إلى جرجير الذي كان يرابط في سبيطلة على بعد سبعين ميلا جنوب غرب الموضع الذي ستقام فيه مدينة القيروان.

وفي عقوبا بالقرب من سبيطلة لاقى المسلمون جيش جرجير الذي كان يفوق جيش المسلمين عدداً، واشتبك الجانبان وهزم جيش جرجير وقتل جرجير في المعركة، ولاشك أن قتل جرجير مظنة فخر نسبته بعض الروايات إلى عبدالله بن الزبير ونسبتها أخرى إلى معاوية بن حديج، ودخل المسلمون سبيطلة وبثوا الجيوش في المناطق المجاورة ففتحوا حصن الأجم، فلما رأى عظماء إفريقيا ماحَلَّ بجرجير وجيشه سارعوا إلى مصالحة المسلمين وبذلوا لهم أموالا طائلة، قيل ثلاثمائة قنطار من ذهب أو ما يعادل مليونين وخمسمائة ألف دينار على أن يَكفّوا ويخرجوا من بلادهم، فقبل عبدالله بن سعد

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ١٨٤.

الصلح ورجع الى مصر، وبعث أمامه ببشارة النصر إلى عثمان بن عفان في المدينة، وقيل بلغ سهم الفارس في هذه الغزوة ثلاثة الاف دينار وسهم الراجل ألف دينار(١).

ويبدو أن قبول عبدالله بن سعد بالكَفِّ والرجوع وأخذ فدية مالية كان يعود في هذه الفترة إلى عاملين، الأول أن الدولة كانت تتجه في ظروف اتساع الفتوحات وَشُحِّ الطاقات البشرية المسلمة بالمقارنة مع سعة رقعة البلاد المفتوحة إلى قبول ابرام الاتفاقيات وعهود الصلح مع أهل البلاد المفتوحة للحفاظ على مكتسبات النصر، ورفد الجيش الاسلامي بالعناصر المقاتلة من أهل البلاد، وهو اتجاه يكشف عنه موقف عمر ابن الخطاب وعثمان بن عفان واتفاقيات الأمان وعهود الصلح التي كانت تشترط على أهل البلاد المفتوحة أن ينفروا مع المسلمين في قتال الأعداء(٢)، والثاني ويرتبط بالعامل الأول ارتباطا وثيقا، ومفاده أن عبد الله بن سعد قدّر هجوما معاكسا يُهلكُ الجندَ ويذهب بكل ما حققته الحملة(٣)، ولو كان عبدالله في حال من كثرة العدد والعدة والغلبة الظاهرة على الأعداء لأخذ ما أراد من الغنائم واستولى على ما أحب من الاموال وأقام رابطة في البلاد وأناب من يتولى أمرها عنه، لذلك قبل في دهشة الغلب التي أصابت عظماء إفريقيا ما عرضه هؤلاء عليه وآثر السلامة واكتفى بما زرعه في قلوب الأعداء من مهابة وما أدت إليه الحملة من خلخلة العلاقات البيزنطية البربرية وإفلات القبائل من سلطان قرطاجنة، وعاد على عَجَلٍ، وكان من المأمول أن تبدأ مرحلة الفتح والإستقرار مباشرة بعد ذلك، إلا أن حادثة مقتل عثمان بن عفان والفتن التي شبّت على إثرها أضاعت الفرصة واضطر المسلمون عندما عادوا إلى فتح المنطقة أن يبدأوا من جديد.

---

(١) خليفة بن خياط/ تاريخه ص١٥٩-١٦٠، ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ١٨٣-١٨٦، البلاذري/ فتوح البلدان ص٢٦٧-٢٦٨، قدامة بن جعفر: الخراج وصنعة الكتابة: ٢٤٤، ابن يوسف الكندي: ولاة مصر: ٣٦.

(٢) ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٤/ ١٥٧، ١٦٢-١٦٣.

(٣) شارل أندري جوليان: تاريخ إفريقيا: ١٧.

أدرك المسلمون في هذه الجبهة مثلما أدرك إخوانهم في بلاد الشام أن القوة البحرية عامل أساسي في كسب المعركة مع الوجود البيزنطي في شمال إفريقيا، ذلك العدو الذي تترامى قواعده البحرية في طول البحر المتوسط وعرضه وتجوب قطعه البحرية مياه المتوسط من أقصاه إلى أقصاه، ويهاجم المسلمين على طول السواحل الشامية والمصرية بين فترة واخرى، ويدعم المقاومة البيزنطية في شمال إفريقيا ويَمدّها بما تحتاج إليه، لذلك بدأت الجهود الحثيثة في كل من الشام ومصر في بناء أسطول بحري، ونجحت هذه المحاولة في خوض معركة بحرية بمائتي مركب في ذات الصواري عام ٣٤هـ ودحر الاسطول البيزنطي(١).

وإلى الجنوب من مصر كان عمرو بن العاص قد بعث عقبة بن نافع الفهري بالخيل إلى أرض النوبة فدخلوها، ولقي المسلمون بالنوبة قتالا شديدا، ورشقهم النوبيون بالنبل حتى جرح عامتهم، وانصرف المسلمون بجراحات كثيرة وحدق مفقوءة، فلما ولي عبدالله بن سعد مصر غزاهم عام ٣٣هـ، فسألوه الصلح فأجابهم إليه من غير جزية، وعقدت بينهما هدنة واتفاقات تنص على إجراء تبادل تجاري بين الجانبين(٢).

وبعد ذلك، نجد ابن الحكم يذكر أن معاوية بن حديج خرج عام ٣٤هـ إلى المغرب بعد عبدالله بن سعد غازيا، وكان معه في الجيش عبدالملك بن مروان، ونعلم أن الوالي على مصر في عام ٣٤هـ كان عبدالله بن سعد وظل واليا عليها حتى قتل عثمان بن عفان عام ٣٦هـ، كما أن عبد الملك بن مروان كان عام ٣٤هـ صغيرا لا يتجاوز ثمانية سنين(٣)، مما يجعل تاريخ الغزوة متأخراً عن عام ٣٤هـ، وأن الجبهة الإفريقية شهدت خلال الفتنة توقفا عن الغزو، وأن النشاط العسكري لم يَعُدْ إليها إلا بعد عام الجماعة،

---

(١) خليفة بن خياط/ تاريخه ص١٦٨، ابن عبد الحكم: فتوح مصر:١٨٩-١٩١، ابن يوسف الكندي: ولاة مصر: ٣٦.

(٢) خليفة بن خياط/ تاريخه ص١٦٨، ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ١٨٨-١٨٩، البلاذري/ فتوح البلدان ص٢٨٠-٢٨١، ابن يوسف الكندي: ولاة مصر: ٢٠.

(٣) ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٦/ ٤١٩.

ومما يعزز ذلك أن معاوية بن أبي سفيان أمير الشام صالح البيزنطيين على إتاوة من المال يؤديه إليهم وأن مصر صارت في جانب معاوية عام ٣٨هـ، وإضافة إلى ذلك فإن حاجة معاوية إلى الجند يقفون إلى جانبه في حربه مع علي بن أبي طالب اقتضت استدعاء بعض جند مصر، وكان ممن شارك من جيش مصر إلى جانب معاوية في حرب صفين قبائل من قضاعة عليهم عباد بن يزيد الكلبي(١)، وهي دلائل تشير إلى أن الظروف لم تكن تسمح باستمرار النشاط العسكري في هذه الجبهة في سنيّ الفتنة.

عمرو بن العاص:

وبعد انتهاء الحرب الأهلية، أخذ عمرو بن العاص يرسل الحملات إلى شمال إفريقيا: ففي عام ٤٠هـ عقد عمرو بن العاص لشريك بن سمي الغطيفي على غزو لواته: فغزاهم وصالحهم ثم انتقضوا، فأرسل إليهم عقبة بن نافع عام ٤١هـ فأطاعوا، وبلغ عقبة في وجهته هذه بلاد لوبيا ومراقيا، ولما قفل عقبة راجعا إلى مصر نكثوا، فعاد إلى غزوهم ثانية من السنة نفسها، ويبدو أن غياب المسلمين في فترة الحروب الأهلية عن ساحة الشمال الإفريقي جعل أهل المنطقة يظنون أن المسلمين غير قادرين على الأحتفاظ بسلطانهم في المنطقة، ولكن عمرو بن العاص أغزى عقبة بن نافع عامي ٤٢ و٤٣هـ فافتتح غدامس وكوراً في بلاد السودان وودّان من المناطق الداخلية، وانصاعت إلى طاعته قبائل لواته ومزاته وهوارة وغيرها من القبائل التي كانت تسكن تلك المنطقة، كما أغزى عمرو شريك بن سمي فبلغ لبدة بين برقة وإفريقية (تونس)(٢). ثم توفي عمرو بن العاص عام ٤٣هـ، وكان قد استخلف ابنه عبدالله بن عمرو على ولاية مصر، فبعث معاوية بن أبي سفيان أخاه عتبة بن أبي سفيان واليا، فقدم مصر في ذي القعدة عام ٤٣هـ، ثم عزله بعد مضي سنة وشهر وولى على مصر عقبة بن عامر الجهني وذلك عام ٤٥هـ(٣).

---

(١) خليفة بن خياط/ تاريخه ص١٩٦.

(٢) خليفة بن خياط/ تاريخه ص٢٠٤-٢٠٦، ابن يوسف الكندي: ولاة مصر: ٥٥-٥٦.

(٣) ابن يوسف الكندي: ولاة مصر: ٥٧-٦٠.

معاوية بن حديج السكوني:

ويبدو أن معاوية بن أبي سفيان التفت في هذه الفترة إلى رجل من أنصاره هو معاوية ابن حديج السكوني فولاه غزو إفريقيا عام ٤٥هـ، وكان معاوية بن حديج صحابيا شارك من قَبْل في فتح مصر وغزو إفريقيا، وتُعَدّ السكون من أكثر القبائل في مصر رجالا، وكان ممن أنكر قتل عثمان ووقف إلى جانب معاوية يناصره في المطالبة بدم عثمان، لذلك ولاّه معاوية بن أبي سفيان قيادة الحملة.

خرج معاوية بن حديج عام ٤٥هـ على رأس جيش كبير من مصر قيل بلغت عدته عشرة الاف رجل من قبائل السكون ولخم وبلي، ومدداً من أهل المدينة من المهاجرين والأنصار فيهم عبدالله بن الزبير وعبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالملك بن مروان ويحيى بن الحكم الأموي وجبلة بن عمرو الساعدي الأنصاري، وقد اتبع ابن حديج في مسيره إلى إفريقية الطريق الذي سلكه ابن سعد من قبل، فوصل قمونية قرب منطقة القيروان ثم مضى إلى جبل يقال له القرن وعسكر إلى جانبه، وقيل أنه اختط وحفر آباراً في ناحية الجبل ظلت تعرف باسم ابار حديج(١) وذلك قبل تأسيس القيروان، مما يشير إلى شعور المسلمين بالحاجة إلى قاعدة عسكرية متقدمة تكون حصنا يأوون إليه وينطلقون منه لحفظ مكاسب النصر في المنطقة.

كانت العلاقات بين هذه المنطقة وبيزنطة قد ساءت كثيرا بعد مقتل جرجير، فيروى أن الإمبراطور البيزنطي كونستانس الثاني ساءه أنهم صالحوا المسلمين، وأرسل إليهم يطلب من المال مثل ما دفعوه للمسلمين وعيّن عليهم بطريقا يسمى أوليمة حاكما وكلّفه بجمع المال، ولكنهم ثاروا عليه وطردوه، فأرسل كونستانس حاكما اخر يدعى نجفور في ثلاثين ألفا(٢).

---

(١) خليفة بن خياط/ تاريخه ص٢٠٧، ٢١٠-٢١١.، ابن يوسف الكندي: ولاة مصر: ١٩٣.

(٢) انظر عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب: ٩٠-٩١.

أرسل معاوية من معسكره في القرن قوة بقيادة عبدالله بن الزبير للقاء القوات البيزنطية بقيادة نجفور قرب مدينة سوسة، فهزمهم عبدالله ودخل سوسة، كما أرسل معاوية في الوقت نفسه قوة أخرى بقيادة عبدالملك بن مروان إلى جلولاء فدخلها، وبعد هذه الإنتصارات سار معاوية بالجيش كله نحو مدينة بنزرت فهزم حاميتها ودخل المدينة، ولكن معاوية لم يتجاوز في حملته هذا الحد وعاد أدراجه نحو مصر، مما قد يشير إلى أن الدولة كانت ترى أن الوقت للإستقرار في هذه الخطوط المتقدمة من الجبهة لم يَئِنْ بعد وأنها اكتفت بإقامة الحاميات في برقة وزويلة ثم في طرابلس(١).

عقبة بن نافع:

وبعد الغزوات المتتالية الآنفة الذكر، بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الفتوحات الإسلامية في الميدان الإفريقي، استهلت بالحملة التي قادها عقبة بن نافع عام ٤٦هـ وامتدت حتى بناء القيروان عام ٥٠هـ أو ٥١هـ حسب رواية ابن عبد الحكم(٢).

ولكن طول الفترة الزمنية التي استغرقتها الحملة حسب قول ابن عبدالحكم جعلت البعض يرى أن هناك خطأ في تاريخ الحملة، لأن الحملة لا تحتاج إلى فترة زمنية كهذه، وأن التاريخ الصحيح هو عام ٤٩هـ(٣). وهذا العام هو الذي ذكره ابو جعفر الطبري تاريخا للحملة البحرية التي اشترك فيها يزيد بن شجرة الرهاوي باهل الشام، وعقبة بن نافع باهل مصر، وانهما شتيا بمن معهما في البحر عام ٤٩هـ(٤)، ولكن خليفة بن خياط جعل الحملة ضمن حوادث عام ٥٠هـ(٥).

---

(١) تاريخ خليفة بن خياط: ٢١٠.

(٢) انظر: ابن عبدالحكم/ فتوح مصر ص١٩٣-١٩٨.

(٣) عبد العزيز سالم/ تاريخ المغرب ص١٠٩.

(٤) ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٥/ ٢٣٢.

(٥) خليفة بن خياط/ تاريخه ص٢١٠.

وقد يكون الهجوم الإسلامي على المراكز البحرية والبرية البيزنطية، ومنازلتهم أياهم في عقر دارهم، ومحاصرة عاصمتهم القسطنطينية جعلهم في شغل شاغل عن ارسال أية نجدات إلى مستعمراتها في شمال إفريقيا مما أخلى ظهر القوات البيزنطية في منطقة الشمال الإفريقي وسهّل مهمة عقبة بن نافع التي جاءت بعيد الغزو الإسلامي للقسطنطينية أو متزامنة معه.

سار عقبة بن نافع يصحبه بسر بن أبي أرطأة وشريك بن سمي وبعض من أسلم من البربر فنزل مغمدامش، فخلف الجيش في مغمدامش وسار في أربعمائة فارس وأربعمائة بعير تحمل ثمانمائة قربة ماء حتى قدم ودّان، وكان بلغه عن أهل ودان أنهم نقضوا عهدهم ومنعوا ما كان فرض عليهم فافتتحها واستخرج من أهلها ما كان مفروضا عليهم، ثم سار من هناك إلى جرمة وهي مدينة فزان العظمى فوصلها بعد ثمان ليال من ودّان، فأجاب أهلها إلى الإسلام، ثم مضى إلى قصور فزان فافتتحها قصراً قصراً، وافتتح مقر خاوار وهو قصبة منطقة كوار، وبعد أن دانت هذه المناطق الداخلية بالطاعة، رجع عقبة إلى مغمدامش بعد غياب استمر خمسة أشهر فوجد جنده قد جمت.

سار عقبة بالجيش من مغمدامش غربا إلى أرض مزاتة وافتتح كل قصر بها ثم بعث خيلا إلى غدامس فافتتحها، ثم سار إلى قفصة فافتتحها، وافتتح قصطيلية، ثم انصرف إلى القيروان فلم يعجب بالقيروان الذي بناها معاوية بن حديج قبله، فاختار موضعا يبعد عن البحر ليتقي شر أي هجوم بيزنطي مفاجيء من البحر، ويكون في منطقة خصبة عشبية تفي بأغراض رعي إبل الجند وخيولهم فبنى فيها مدينة القيروان، واقطع الناس المساكن والدور وبنى مسجدها وأقام فيها[(١)].

ومما يلاحظ أن عقبة تجنّب في مسيره المناطق الساحلية فقصد المناطق الداخلية يفتحها بلدا بلدا، ويبدو أنه فعل ذلك ليأخذ البربر إلى جانبه ويقيم جبهة داخلية تحيط بالبيزنطيين على الساحل وتمدّه بالطاقات البشرية اللازمة للإستقرار والإطاحة بالوجود

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ١٩٥-١٩٦.

البيزنطي، حتى إذا بلغ إفريقية (تونس) أقام القيروان لتعارض المواقع والحصون البيزنطية على الساحل وتكون دارا للدعوة الإسلامية ومركزا لنشر الثقافة الإسلامية بين أهل المنطقة.

ويبدو أن عقبة كان في أثناء إقامته في القيروان يعمل على تثبيت الفتح الإسلامي في المنطقة فكان مشغولاً في بناء القيروان وتحصينها، ولابد أنه كان يستميل البربر من حوله ويدعوهم إلى الإسلام، وأما بخصوص الغزو فلا تذكر المصادر أنه قام بشيء من ذلك، وظلت مدينة قرطاجنة حصن البيزنطيين الرئيس على الساحل لم تغز حتى عزل عقبة عن إفريقية[١].

عزل عقبة بن نافع وتولية أبي المهاجر:

قيل أن الذي عزل عقبة والي مصر مسلمة بن مخلد، وقيل الخليفة معاوية بن أبي سفيان[٢]، وفي ظني أن الولاية على إفريقية صارت مما يتداول فيه بين كبار صانعي سياسة الدولة ومخططيها، فهي مما لم يغب عن مسلمة ولا فات معاوية.

أما سبب عزل عقبة فأمر قد نتلمسه في جمع مصر وإفريقية لوال واحد هو مسلمة بن مخلد أول من جمع له المصران، ثم في تعيين أبي المهاجر دينار مولى مسلمة على إفريقية[٣]. وهذا يشير إلى التأكيد على ربط سياسة الفتح في إفريقية بمصر، وهو ما كان حظه في العلاقة بين مسلمة بن مخلد، وعقبة بن نافع غير واف، أو قد لا يكون حظه بينهما وافيا، لذلك جاء تعيين أبي المهاجر مولى مسلمة مكان عقبة على إفريقية.

سار أبو المهاجر من مصر في جيش لم يذكر عدد جنوده فوصل القيروان وأخذ عقبة بن نافع وسجنه، ولعل ذلك كان بإشارة من مسلمة بن مخلد لخلافات كانت بينه وبين عقبة،

(١) خليفة بن خياط/ تاريخه ص٢١٠.

(٢) ابن عبدالحكم: فتوح مصر: ١٩٧، ابو جعفر الطبري/ تاريخه ٦/ ٢٤٠.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ١٩٧.

ولكن عقبة لم يمكث في السجن وأطلق سراحه بأمر الخليفة معاوية، فلما أطلق سراحه سار إلى معاوية وشكى له ما جرى عليه، فقال معاوية له: قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم ـ يعني عثمان بن عفان ـ وتقديمه إياه وقيامه بدمه وبذل مهجته وقد رددتك على عملك[1]، والأرجح أن عقبة لم يُرَدّ ثانية إلا بعد موت مسلمة بن مخلد وذلك عام ٦٢هـ من خلافة يزيد بن معاوية.

وقيل أن أبا المهاجر هجر القيروان ونزل خارجها وبنى مدينة جديدة، وقيل أخربها أو أحرقها، ويبدو أن أبا المهاجر لم يبن مدينة جديدة لإقامته، وإنما نزل قرية من قرى البربر القريبة من القيروان تسمى دكرور، ولعله فعل ذلك خشية أن يناله بعض أتباع عقبة بمكروه أو يألبوا عليه، وأما خراب القيروان أو حرقها، فلم يرد في المصادر التاريخية الأولية، كما لم تكن القيروان ملكا خاصا لعقبة حتى تؤخذ بجريرة الخلاف بين عقبة ومسلمة بن مخلد أو بين عقبة وبين أبي المهاجر، ولا يُعْقل أن الدولة تحتمل لأبي المهاجر أو لمسلمة أن يبددا هما أو غيرهما سنين من الجهود المضنية في بناء القيروان لخلاف كان بينهما وبين عقبة، هذا وقد أشارت الأخبار إلى أن عقبة بن نافع سكن القيروان خلال امارته الثانية على افريقية، وان كسيلة بن لمزم دخلها على أثر مقتل عقبة ابن نافع وأمّن من فيها[2]، وفي ذلك دلالة على أن القيروان ظلت قائمة بعد عزل عقبة وأن أبا المهاجر لم يخربها.

أدرك أبو المهاجر تأثير البيزنطيين في تحريض القبائل البربرية على حرب المسلمين، والتحالف الذي يجري بينهما في هذا المجال بتأثير الأغراض والمصالح التجارية المشتركة، لذلك أراد أبو المهاجر أن يَشلّ هذا التحالف، فقام بغزو قبائل البربر في منطقة الأوراس من بلاد المغرب الأوسط، وكانت زعامتهم في هذه المنطقة تعود إلى قبائل أوربة من البرنس ورئيسهم كسيلة بن لمزم الأوربي.

(١) المصدر نفسه: ١٩٨.

(٢) ابن عبد الحكم. فتوح مصر: ١٩٨-٢٠٠.

سار أبو المهاجر بالجيش يريد تلمسان مقر كسيلة في الأوراس، فلما وصلها وجد كسيلة يعسكر في رجاله عندها، وبعد معركة تم النصر للمسلمين فيها، أسر كسيلة ودخل المسلمون في المدينة، فأحسن أبو المهاجر إلى كسيلة وَقَرَّبَهُ إليه مما طيّب نفس كسيلة ونفوس رجاله، فأسلم كسيلة وانقلبوا أنصاراً للمسلمين.

وبهذه السياسة استطاع أبو المهاجر أن يتفرغ لضرب المراكز البيزنطية على الساحل من غير أن يجد البيزنطيون هذه المرة أعوانا كثيرين من البربر.

سار أبو المهاجر نحو قرطاجنة عام ٥٩هـ فاشتبك مع حاميتها، وقد كثر القتل بين الفريقين، حتى حجز الليل بينهم، ثم وقع القتال ثانية، فطلب البيزنطيون الصلح وقبلوا أن يُخْلُوا جزيرة شريك[١] للمسلمين، فصالحهم المسلمون[٢]، وفتح المسلمون بعد ذلك مدينة ميلة.

عزل أبي المهاجر وتولية عقبة بن نافع:

ثم توفي مسلمة بن مخلد عام ٦٢هـ وعين سعيد بن يزيد الأزدي الفهري بعده والياً على مصر، وأعيد تعيين عقبة بن نافع الفهري على إفريقية وعزل أبو المهاجر، وذلك في خلافة يزيد بن معاوية[٣].

وهناك من يرى أن عزل أبي المهاجر كان يرجع إلى تغيير في سياسة الدولة العامة في شمال إفريقيا زمن يزيد، وفشل أبي المهاجر في الإستيلاء على قرطاجنة وتماديه في سياسته مع البربر[٤].

---

(١) جزيرة شريك: سميت جزيرة شريك نسبة إلى شريك العبسي الذي كان واليا عليها وكان أبو المهاجر بعث إليها حنش الصنعاني ففتحها، وتقع بين مدينة سوسة ومدينة تونس. (ابن دينار المؤنس: ٢٩).

(٢) انظر: ابن دينار: المؤنس: ٣٩، عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب: ١٢٩-١٣٠، دبوز: تاريخ المغرب الكبير: ٢/ ٣٢-٤٠.

(٣) ابن عبدالحكم: فتوح مصر: ١٩٨، ابن يوسف الكندي: ولاة مصر: ٦٣.

(٤) عبد الواحد طه: الفتح والإستقرار العربي: ١٢٦.

والقول بتغيير السياسة العامة قول لا يستقيم، فالسياسة العامة للدولة تقوم على الحكم بالإسلام ورعاية الناس به ونشره وهي بهذا المعنى ثابتة وإن كان هناك من تغيير فهو في أساليب الدولة في تحقيق السياسة العامة، ولاشك أن تعيين الولاة وعزلهم كان مما يلحق عادة بأساليب الدولة في الرعاية والإدارة، وقد مرت ثلاثة سنوات على فشل أبي المهاجر في الإستيلاء على قرطاجنة وسبع سنوات على تعيينه أميرا على إفريقيا ومع ذلك لم يعزل أبو المهاجر.

وقيل ان إعادة عقبة جاءت قبل وفاة مسلمة بن مخلد ببضعة أشهر، وأن يزيد لم يُعِدْ عقبة في بداية خلافته لانشغاله بالمشكلات التي ظهرت في بداية خلافته، فلما قضى عليها تفرغ إلى إفريقيا فعزل أبا المهاجر وأعاد عقبة إليها[١].

وفي ظني أن الأسباب التي كانت وراء عزل عقبة لم تتغير وتتمثل في الغالب بالجفوة التي كانت بين مسلمة بن مخلد وعقبة، والتعلل بتأخير عزل أبي المهاجر وإعادة عقبة بانشغال يزيد بالمشكلات التي واجهته في بداية خلافته غير مقنع، فقد ثار على يزيد بعد ثورة الحسين بن علي أهل المدينة عام ٦٢هـ واخرجوا الأمويين منها، وبعد القضاء على ثورتهم عام ٦٣هـ ثار عليه عبدالله بن الزبير[٢]، وبذلك يظهر ان المشكلات التي كانت تواجه يزيد لم تنته، ويبدو ان تعيين عقبة بن نافع عام ٦٣هـ وهو العام الذي توفي فيه مسلمة بن مخلد قرينة كافية على ان قرار الإعادة كان بعد وفاة مسلمة، فأعيد عقبة وعزل ابو المهاجر وكلاهما من القادة النجب الميامين ومن اهل الخبرة والدراية بأمور إفريقية.

قدم عقبة بن نافع إفريقية، فقيل أنه قبض على أبي المهاجر وقيّده واخرجه في وجهه الذي خرج فيه الى غزو بلاد المغرب، واستئناف القتال حال مجيء عقبة يشير الى موقف عقبة من سياسة الملاينة التي كان يتبّعها ابو المهاجر، فخرج عقبة بالجيش الى باغاية التي تقع الى الشمال من جبال الأوراس، ولكنه لم يقدر على دخولها لاستماتة

(١) عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب: ١٣١-١٣٢.

(٢) ابو جعفر الطبري: تاريخه ٦/ ٤٨٢ وما بعدها، ٤٩٦ وما بعدها.

حاميتها في الدفاع عنها، فتركها وسار الى منطقة الزاب الصحراوي من بلاد المغرب الاوسط حيث كانت تنزل قبائل من لواتة وهوارة وزواغة ومطماطة وزناتة وغيرها، فاشتبك معهم قرب تاهرت فهزمهم ومن كان معهم من البيزنطيين، ثم سار عقبة من هناك جنوبا الى بلاد المغرب الاقصى فدخل السوس الادنى واجتاز الى قبائل مصمودة وصنهاجة الوثنية حتى بلغ منطقة أغادير على المحيط الاطلسي.

عاد عقبة بعد هذا الاختراق السريع يريد القيروان، فمر بوادي نهر ام الربيع، ثم دخل المغرب الاوسط فقابله كسيلة بن لمزم عند قلعة تهوذا، ويبدو ان سياسة عقبة اثارت كسيلة سيما وان عقبة أساء إلى كسيلة وأهانه فانقلب عدوا للمسلمين وانضمت إليه جموع البيزنطيين الذين ضمنوا وصول الإمدادات إليهم عن طريق البحر، وتمكنوا من قطع خطوط مواصلات عقبة الطويلة[١]، وعند قلعة تهوذا واجه عقبة بمن معه مالاقبل لهم به من الجموع الكثيرة التي قادها عليهم كسيلة، فاستشهد عقبة وابو المهاجر، وجثمان عقبة في مسجد الواحة التي يحمل اسمه [سيدي عقبة]، وصار جيش عقبة بين شهيد واسير.

وبعد هذا النصر الذي احرزه كسيلة على جيش عقبة، سار كسيلة بمن معه من البربر والبيزنطيين نحو القيروان، وكان من فيها من المسلمين لما بلغتهم كارثة تهوذا وزَحْفُ الزاحفين إليهم، آثروا الانسحاب منها الى الشرق، فانسحبوا منها ولم يبق فيها إلا الضعفاء، فدخلها كسيلة من غير قتال وأمّنَ من فيها[٢]، وبذلك اضاعت الكارثة التي حلّت بالمسلمين عند تهوذا ثمار الفتح في إفريقيا، وأدت الخلافات الداخلية التي اعقبت موت يزيد بن معاوية الى بقاء الوضع في إفريقيا لمصلحة البيزنطيين في الساحل وكسيلة ومن معه من البربر في الداخل أعواما أربعة أخرى امتدت من عام ٦٥هـ وحتى عام ٦٩هـ.

---

(١) ابن دينار: المؤنس: ٣٢، ارشيبالد لويس: القوى البحرية في حوض البحر المتوسط: ٩٨.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ١٩٨-١٩٩، ابن دينار: المؤنس: ٣٢-٣٣.

زهير بن قيس البلوي:

وبعد أن انجلى الموقف في مصر لصالح المروانيين من بني أمية وأخرج نائب عبدالله ابن الزبير منه، أرسل عبدالملك بن مروان زهير بن قيس البلوي واليا على إفريقية عام ٦٩هـ وكان زهير قضى في فتوح افريقيا وقتا طويلا، وانابه عقبة بن نافع عام ٦٣هـ في القيروان، لذلك كان زهير بن قيس الرجل الذي رآه عبد الملك مناسباً لسداد هذه الجهة فدفع به الى إفريقية.

سار زهير بالجيش من برقة الى القيروان، فلما سمع به كسيلة خرج من القيروان ونزل مدينة حصينة تقع الى الجنوب الشرقي من جبال الأوراس وتسمى ممش أو ممس، وبالقرب منها التقى المسلمون بكسيلة وجمعه، فانتصر المسلمون وقتل كسيلة وقتل معه خلق كثير وتفرّق الباقون في الحصون والجبال.

وبعد مقتل كسيلة رجع زهير الى القيروان، ثم خرج منها الى برقة.

وحول رجوع زهير الى برقة وعدم بقائه في القيروان قيل اراد ان لا تفتنه طيبات إفريقية وأبهة السلطان عن أغراضه في الجهاد في سبيل الله، ويبدو ان زهير بن قيس وهو من خبر المنطقة، اراد بعد قتل كسيلة وفلّ جمعه أن يرجع بمن معه يريد ان يتفادى ردة فعل بربرية يستغلّها البيزنطيون لصالحهم في هجوم معاكس لا يقوى زهير بمن معه عليه، لذلك أثر ان يعود لِيُعدّ العدّة لجولة اخرى، ولعل زهير بن قيس بلغه ان البيزنطيين قد خالفوه على برقة فهاجموها مستغلين قلة حاميتها وغياب زهير بالجيش عنها، ولما اقترب زهير من برقة وجد البيزنطيين قد هاجموها فعلا واخذوا الكثير من المسلمين منها أسرى، فاشتبك معه يريد ان يخلّص من بأيديهم من المسلمين، فقتل وقتل اكثر من معه[1].

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ١٩٩، البلاذري/ فتوح البلدان ص٢٧٠، المراكشي: البيان المغرب في اخبار المغرب: ج١٩١-٢١، ابن دينار: المؤنس: ٣٣.

حسان بن النعمان:

ولما علم عبد الملك بمقتل زهير عَظُمَ ذلك عليه، ولكن الحرب مع ابن الزبير في الحجاز والعراق شغلته عن إفريقية، فلما قتل ابن الزبير واجتمع المسلمون عليه أَمَرَ حسان بن النعمان الغساني بالتوجه الى إفريقية فخرج في جيش لم يدخل إفريقية قط جيش مثله، وكان عبد الملك أعانه بأموال من مصر أطلق يده فيها يعطي منها ما شاء لمن يَرِدُ عليه من الناس(١)، ولما بلغ حسان برقة انضم اليه من كان فيها من الجند، وكان هلال بن ثروان اللواتي بعض من جعلهم حسان على مقدمته مما يشير الى اشتراك البربر المسلمين في الجيش، ولما بلغ طرابلس انضم اليه من كان خرج من إفريقية فبلغ الجيش حوالي اربعين الفا(٢).

وقد اختلفت الروايات حول تاريخ الغزوة، فجعلتها بعض الروايات عام ٧٢هـ وبعضها عام ٧٣هـ، وهكذا حتى عام ٧٨هـ ولعلّ اولى هذه التواريخ عام ٧٤هـ، وهو العام الذي اعقب القضاء على عبدالله بن الزبير(٣).

وَرَدَ حسان بالجيش القيروان، وكان المسلمون يتوجهون الى الساحل لحرب البيزنطيين او الى الداخل للقاء البربر، ولما بات في عِلْم المسلمين ان البيزنطيين اعداء لا يتحولون عن عداوتهم، صارت اكثر حملات المسلمين تتجه نحو البربر في الداخل إيمانا من المسلمين بأن البربر اقرب الى الإنضمام إليهم والدخول في الدعوة معهم وهي الخطة التي اتبعها عقبة وَلايَنَ ابو المهاجر البربر من اجلها.

ولذلك، وبعد ان هزم زهيرٌ كسيلةَ وقُتِلَ على يد البيزنطيين، كان على حسان ان يقصد الى البيزنطيين فسار من القيروان الى قرطاجنة وكان صاحبها اعظم ملوك افريقية ولم يكن

(١) ابن دينار: المؤنس: ٣٣.

(٢) المصدر نفسه/٣٣.

(٣) خليفة بن خياط/ تاريخه ص٢٦٨، ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ٢٠٠، ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب: ج١ ص٢٢، ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٤/ ٣١.

المسلمون قط حاربوها، فلما وصل اليها وجد فيها من البيزنطيين والبربر خلقا كثيرا فقاتلهم، فلما عجزوا عن الصبر على المسلمين فرّوا هاربين، فسار بعضهم الى صقلية وبعضهم الى الاندلس، فدخل حسان المدينة وامر بهدم ما قدر عليه من سورها حتى يفوّت على البيزنطيين الإعتصام به والتحصّن ثانية، ثم بلغه ان الأعداء قد اجتمعوا في صطفورة وبنزرت الى الغرب من منطقة قرطاجنة، فسار اليهم ولقي المسلمون في قتالهم قوة وشدة فصبروا لهم فانهزم البيزنطييون وخلّوا البلاد، والتجأت فلول المنهزمين الى مدينة باجة ومدينة بونة وقد ملىء الاعداء رعبا، فعاد حسان الى القيروان ليجمّ جنده بعد ان كثرت فيهم الجراح[1].

لما جمّ الجيش وصَلُحَ حالُ الناس، آتجه حسان الى قتال الكاهنة في جبال الأوراس واسمها كما يقول ابن خلدون (دهيا بنت مانيا)[2]، وكان البربر من قبائل جراوة الزناتية التفوا حولها، وقيل انها خرجت غضبا لكسيلة، وقيل انها كانت متزوجة من رجل يوناني وقيل رجل بيزنطي، مما يشير الى العلاقة بين حركتها والبيزنطيين واثر البيزنطيين في تحريض الزعامات البربرية على مقاومة المسلمين وزرع الشكوك بالمسلمين في نفوسهم، وكان اهل افريقية يخبرون حسان بن النعمان أنه أن قتل الكاهنة لم يختلف البربر بعدها عليه، فسار الى الكاهنة فتقابلا على مقربة من باغية على نهر نيني او وادي سكانة، فوقع بين الجانبين اشد ما رأى الناس من القتال وذلك عام ٧٥هـ، فانهزم المسلمون وقتل خلق كثير واسرت جماعة كثيرة، وانهزم حسان خارجا من افريقيا كلها الى منطقة برقة، وارسل الى عبدالملك يخبره بذلك، فأمره عبدالملك ان يقيم في موضعه حتى ياتيه أمْرُه، فأقام حسان بمنطقة برقة خمس سنين في المكان الذي عرف بقصور حسان.

ملكت الكاهنة افريقيا كلها ولكنها لم تدخل القيروان وظلت تحت إدارة المسلمين، وقيل ان الكاهنة اساءت السيرة في افريقية وعسفت اهلها وظلمتهم، وأرسلت اصحابها

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٤/ ٣١-٣٣.
(٢) ابن خلدون: العبر: ٦/ ١٠٩.

ليخربوا البلاد ويهدموا الحصون وينهبوا الاموال، ظنا منها ان المسلمين يريدون البلاد طلبا للذهب والفضة، فاذا علموا بخراب البلاد يأسوا من فتحها، ولكن صنيعها أغضب الناس من حولها، وتفرّق اكثرهم عنها.

أستغل البيزنطيون هزيمة المسلمين على يد الكاهنة فأعدّوا حملة بحرية واغاروا على قرطاجنة عام ٨٧هـ واستولوا عليها[١].

ويبدو أن المسلمين لم يتوقفوا بعد هزيمة حسان عن مغازاة أطراف الكاهنة، فقد ذكر خليفة بن خياط حملة حسان الاولى ضمن حوادث سنة ٧٣هـ، وعليه فأن البعوث التي ارسلت بعد هذا العام الى افريقية تكون وقعت في الفترة التي كان حسان يقيم خلالها في منطقة برقة[٢]، وقد ذكر خليفة من هذه البعوث بْعثاً قاده أبرد بن هبار، وبْعثاً قادة سفيان بن وهب، وآخر قاده عمرو بن عبيد الخولاني.

بعد ذلك سيّر عبدالملك الجيوش والأموال الى حسان وأمره بالمسير الى افريقية وقتل الكاهنة، فلما وصل قريباً من قابس قابلته الكاهنة في جيوش عظيمة فدحرها فرجعت نحو الأوراس، فلحق بها وهزمها وقتلها في المكان الذي اصبح يدعى بئر الكاهنة، وقيل في طبرقة، وبعد هذا الانتصار عاد حسان الى القيران عام ٨٢هـ ثم زحف من هناك الى قرطاجنة وأعاد فتحها[٣]، وبذلك قضى حسان على كل اثر للمقاومة في بلاد المغرب الادنى.

كان حسان لما استأمن إليه البربر بعد مقتل الكاهنة وفلّ جموعها أمّنهم وشرط عليهم أن يكون منهم اثنا عشر الفا عسكراً مع المسلمين يجاهدون العدو، فلما اجابوه الى ماطلب ولّى عليهم رؤساء منهم، فاستعمل بعض ابناء الكاهنة، وولّى على الأوراس

(١) عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب: ١٥٩.
(٢) خليفة بن خياط/ تاريخه ص٢٦٨-٢٧١.
(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ٢٠٠، ابن دينار: المؤنس: ٣٤-٣٦، ابن عذاري المركشي: ج١ البيان المغرب: ٢٨.

رؤساء بربر فمالوا اليه وأحبّوه، وفرض لمن دخل في الجيش من البربر حظا من العطاء (الرواتب) مساويا لما كان يأخذه غيرهم من افراد الجيش الإسلامي، فاطمأنت النفوس وفشا الإسلام بينهم(١)، فأصلح مسجد القيروان وأقام المساجد وأرسل الفقهاء ليعلّموا الناس تعاليم الدين وأحكام الشريعة واللغة العربية.

ثم دوّن الدواوين ووضع الخراج على عجم افريقية، وعلى من أقام معهم على النصرانية، وترك الارض بيد اصحابها الا ما كان من الأرض التي يملكها البيزنطيون، فصيّرت من املاك الدولة، وحَثّ على العمارة وسك العملة دنانير ودراهم(٢).

ثم اتخذ من ترشيش في جنوب قرطاجنة مدينة اطلق عليها اسم (تونس) لجمالها وما تدخل من الأنس في النفوس، وانشأ على بحيرتها دارا للصناعة لبناء اسطول بحري يعارض به اسطول البيزنطيين البحري الذي عرقل الفتح الإسلامي وَضَيّع انتصارات المسلمين مرارا، وكانت البحيرة منفصلة عن البحر المتوسط فشقّ خليجا واسعا اليه ووصلها به، وارسل الى عبد الملك بن مروان يطلب منه ان يرسل اليه صُنّاعا حاذقين في بناء السفن، فأمر عبدالملك أخاه عبد العزيز الذي كان واليا على مصر ان يعينه، فأرسل عبد العزيز اليه الف عائلة قبطية ممن اعتنق الإسلام من الأقباط، وقد نسب انشاء دار الصناعة البحرية الى موسى بن نصير كما نسب الى عبدالله بن الحباب، وهي نسبة تشير الى نصيب هؤلاء جميعا في دعم الصناعة البحرية في تونس وتطورها على أيديهم(٣).

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٤/ ٣٢.

(٢) انظر: ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ٢٠١، ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب، ج١ ٢٩-٣٠، دبوز: تاريخ المغرب الكبير: ٢/ ١١٨-١٢٠.

(٣) خطط المقريزي: ٣/ ٥، ابن خلدون: المقدمة ١٨٩-١٩٠، ابن دينار: المؤنس: ٣٥-٣٦، عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب: ١٦٤-١٦٥، عبد الواحد طه: الفتح والاستقرار العربي: ١٣٦-١٣٧.

موسى بن نصير

وبعد ان استقامت البلاد لحسان توجه الى عبدالملك بن مروان بالغنائم فاستغل عبد العزيز خروجه من افريقيا وعيّن مكانه موسى بن نصير ولم يُرِدْ عبد الملك ان يغضب اخاه فلم يغيّر ما فعل.

كان موسى بن نصير مع بشر بن مروان في العراق، فغضب عليه عبد الملك بن مروان وأراد قتله فافتداه عبد العزيز بن مروان لمَا رآه من عقل موسى[١]، ولا شك ان اختيار عبد العزيز واحداً من رجاله على افريقية سيعزز نفوذه فيها، ويجعل حظه من خيراتها اكثر.

سار موسى بن نصير في سنة تالية على عام ٨٢هـ، ربما كانت سنة ٨٤هـ، اما القول بأن عزل حسان وتعيين موسى كان عام ٨٧هـ[٢] فبعيد الاحتمال، لأن الأخبار تكاد تجمع على أن الفترة التي قضاها موسى في استكمال فتح المغرب لا تزيد على سبع سنين، وبالنظر الى عام ٨٧هـ، يكون فتح المغرب قد استكمل عام ٨٥هـ، وعندما نحتاج ان ننتظر على الأقل ست سنوات اخرى للشروع بفتح الاندلس الذي وقعت مقدماته عام ٩١هـ، باتفاق بين الروايات، وهو مالا يؤيده اتجاه الظروف والأوضاع في شمال افريقية، كما لا تؤيده أيام الوليد بن عبد الملك (٨٦-٩٦هـ) التي شهدت حركة الفتوحات في ظلها نشاطا عظيما، وأما القول بتعيين موسى بن نصير في عام ٨٥هـ وهو العام الذي توفي فيه عبد العزيز بن مروان فقد لا يكون مقبولا، فالأخبار تشير الى غضب عبد الملك على موسى بن نصير واستيائه من تعيينه، فلو كان ذلك عام ٨٥هـ فربما بادر عبد الملك الى عزله وتعيين غيره، ولذلك فمن الارجح ان فترةً ما مرّت على تعيين موسى على افريقية حاول موسى خلالها ان يثبت جدارته ويري عبد الملك حسن اختيار اخيه عبد العزيز له وهو ما أشارت إليه الروايات عند كلامها عن الغنائم والسبي الذي اكثر موسى منه وراح يبعثه الى الخليفة وأخيه عبد العزيز ليزيل سخط الخليفة ويجلب رضاه.

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ٢٠٣.

(٢) ابن الاثير: الكامل في التاريخ: ٤/ ١١٣.

وعندما بلغ موسى بن نصير افريقية، قيل خطب الناس وبيّن عزمه على فتح المغرب الاقصى الاقرب فالاقرب يحمل السيف ويصطنع اللين، وقد حظي موسى بنفر من القادة المشهورين منهم: أولاد عقبة بن نافع الفهري وهم عبيدة وعياض وعثمان، وكذلك محمد بن أوس الانصاري، وطارق بن زياد، وابو مدرك زرعة بن أبي مدرك، وسليمان بن أبي المهاجر دينار، وعياش بن أخيل، والمغيرة بن أبي بردة، وعبد الرحمن بن سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف، وابناء موسى بن نصير وهم مروان وعبدالله وعبد العزيز وعبد الأعلى وعبد الملك، وقد استفاد موسى من جهود السابقين في اصطناع البربر وتقريبهم فاستعان برجالهم وجندهم في الغزو والفتح.

قيل لما قدم موسى بلغه ان قوما خرجوا على الطاعة وطمعوا في البلاد، فبدأ بأقرب الاطراف، وارسل حملة الى قلعة زغوان التي تبعد مسافة يوم عن القيروان فأخضعهم، وعادت الحملة بأعداد كبيرة من الاسرى، كما سيّر حملتين متتاليتين كانت الاولى بقيادة ابنه عبدالله، والثانية بقيادة ابنه مروان، فغنموا ورجعوا، ولكن المصادر لا تذكر المناطق التي غزتها هاتان الحملتان، وارسل قائده عياش بن أخيل الى قبائل هوارة وزنانة فأغار عليهم وسباهم، وصالحت قبيلة كتامة فشرط عليهم ان يقدّموا رهائن من خيارهم ففعلوا وولّوا عليهم رجلا منهم، وقيل ان موسى بن نصير بعث عياش بن اخيل بالمراكب من تونس الى سرقوسة بصقلية فأصاب وغنم، وغزا عبدالله بن مرة سردانية وافتتح مدائنها، وبعث موسى ابنه عبدالله الى جزيرة ميورقة ورجع سالما[1].

ثم بلغت موسى وفاة عبد العزيز بن مروان عام ٨٥هـ، ثم خبر وفاة عبد الملك بن مروان واستخلاف ابنه الوليد سنة ٨٦هـ، فأرسل موسى ببيعته الى الوليد، فكتب الوليد اليه يقره في الولاية على افريقية والمغرب.

---

(١) ابن الاثير: الكامل في التاريخ: ٤/ ١١٢، ابن عذاري المراكشي: ج١ البيان المغرب: ٣٥٠٣٤، دبوز: تاريخ المغرب الكبير: ٢/ ١٢٧-١٣١، الإمامة والسياسة: ٢/ ٥٠ وما بعدها.

توجه موسى بعد ذلك الى فتح الأجزاء الغربية من شمال إفريقيا، فبدأ ببلاد صنهاجة وأوربة قوم كسيلة التي كانت منازلهم تمتد في بلاد المغرب الاوسط حتى وادي ملوية، وقاد موسى الجيش بنفسه، وكان الجيش يضم اربعة الاف من أهل الديوان وألفين من متطوعة البربر، وجعل موسى على مقدمة الجيش عياض بن عقبة بن نافع، وعلى الميمنة المغيرة بن ابي بردة، وعلى الميسرة زرعة بن ابي مدرك، وجعل على الاثقال عياش بن اخيل، وهاجم موسى بمن معه جموع البربر فهزمهم وسباهم، ثم غزاهم ثانية قرب مدينة سجومة واغلبهم من قوم كسيلة، وكان همّه ان يفلّ حدّهم ويكسر شوكتهم حتى لا تصيبه تهودا عقبة بن نافع ثانية، فهزمهم وقتل ملكهم وبلغ وادي ملوية.

ثم سار موسى يريد طنجة فافتتحها وسار من هنالك باتجاه الجنوب فوصل الى السوس الادنى ووادي درعا وتافيلالات، وارسل ابنه على رأس حملة الى السوس الاقصى، ثم اتبعها بأخرى، يقودها زرعة بن ابي مدرك فغنموا وسبوا، ولا شك ان موسى بن نصير في فتوحه الداخلية والساحلية في بلاد المغرب الأوسط والأقصى استخدم الأسطول البحري من قاعدة تونس ليشلّ تهديد الاسطول البيزنطي من قواعده في صقلية وسردينية وجزر البليار، وبذلك منع وصول اية امدادات الى المقاومة[1].

ومما يذكر عن موسى انه جند اعدادا كثيرة من رجال كتامة وهوارة وزنانة ومصمودة، وجعل المجندين من البربر تحت قيادة طارق بن زياد مولاه وولاّه طنجة عام ٩٠هـ، ثم عاد موسى الى القيروان، وفي اثناء عودته مرّ بقلعة مجانة فتحصن اهلها منه، فجعل عليها من اقام على حصارها حتى فتحها، وبذلك دخلت بلاد شمال افريقيا من برقة الى المحيط الاطلسي كلها في حوزة الاسلام، وقيل ان سبتة اقترنت بمعاهدة صلح اعترف حاكمها جوليان بالسيطرة الاسلامية، وقد وقف جوليان الى جانب المسلمين اثناء فتح الاندلس عام ٩١هـ، ولا ريب ان سبتة صارت مثل تونس وبرقة وغيرها من المدن الإفريقية جزءا لا يتجزأ من جسم الدولة الإسلامية.

---

(١) أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط: ١٠٢.

على الرغم من وقوع بعض الاخطاء الفردية في الاساليب التي اتبعها بعض القادة اجتهادا منهم لفتح البلاد وتحويلها الى دار الإسلام، فإن متابعة الفتح ومواصلة الجهاد رغم الخسارة في الأموال والأرواح لتدّل على وجود سياسة ثابتة لدى اولي الامر، وخطة واضحة عندهم لنشر الاسلام وتعميمه بين الناس.

ثم تعاقب على شمال افريقيا ولاة مثل محمد بن يزيد القرشي في خلافة سليمان بن عبد الملك، واسماعيل بن عبيد الله مولى بني مخزوم في خلافة عمر بن عبد العزيز جعلوا همهم نشر الإسلام بين اهل البلاد، وضربوا احسن الأمثلة في حسن السيرة وتقصي العدل والانصاف، وبثّوا العلماء يُفقّهون الناس ويُعلّمونهم شرائع الإسلام، فأسلم اكثر اهل البلاد[1].

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ٢٠٤، البلاذري/ فتوح البلدان ص٢٧٣، ابن دينار: المؤنس: ٣٦، دبوز: تاريخ المغرب الكبير: ٢/ ١٣٧-١٤٧.

فتح بلاد الاندلس

الجغرافية والسكان:

تقع الأندلس او شبه الجزيرة الإيبيرية في الجنوب الغربي من القارة الأوروبية، وتفصلها عن جنوب فرنسا جبال البرت او البرقان، ويفصلها عن بلاد إفريقية مضيق جبل طارق، ويحيط البحر المتوسط بها من الجانب الشرقي والمحيط الأطلسي من الجانب الغربي.

كان اليونان قد اطلقوا في القرن الخامس قبل الميلاد غلى سواحل شبة الجزيرة أسم إيبيريا، ثم عمم الإسم فصار يطلق على جميعها[١]، كما أطلق على شبه الجزيرة أسم (أسبانية) وهو اسم قيل انه اخذ من اسم بعض الملوك الذين حكموها في الزمن الاول وآسمه (اشبان بن طيطس)[٢]، وأطلق عليها اسم (الأندلس) وهو اسم مأخوذ من قبائل الوندال الجرمانية التي غزت شبه الجزيرة منذ عام ٤٠٩م، فسميت البلاد (فاندلسيا) باسم هذه القبائل، ثم لفظ العرب الاسم فقالوا (الأندلس)[٣].

كان السكان يتألفون من عناصر الكلت والإيبيرين، ومنذ الغزو الروماني لشبه الجزيرة عام ٢٠٥ ق.م، صارت شبه الجزيرة تابعة للإمبراطورية الرومانية وعملت النصرانية التي انتشرت بين السكان على اندماج السكان في جسم الامبراطورية وحضارتها، إلا أن البلاد اخذت تتعرض منذ عام ٤٠٩م، الى غزوات الجرمان فاجتاحتها قبائل الألان والسويف، والوندال، واستقر السويف وقسم من الوندال في جليقية واشتوريش، واستقر الألان في لشدانية (البرتغال)، واقام القسم الأعظم من الوندال في إقليم باطقة بشرق الأندلس.

---

(١) عبد العزيز سالم/ تاريخ المسلمين واثارهم في الاندلس: ٥٢.

(٢) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ: ٤/ ١١٩.

(٣) عبد الرحمن الحجي/ التاريخ الأندلسي: ٣٧.

ثم تعرضت البلاد الى هجوم القوط الغربيين عليها، ونزح على إثر ذلك كثير من الوندال الى شمال افريقية، ولم تأت نهاية القرن الخامس الميلادي حتى كانت شبه الجزيرة كلها خاضعة للقوط.

ومنذ أوائل القرن السادس الميلادي اخذت شبه الجزيرة تظهر كدولة موحدة قوطية منفصلة عن الإمبراطورية الرومانية، يديرها الملك أخيلا من مدينة ماردة التي غدت عاصمة البلاد، ثم لم يلبث القوط ان اعتنقوا الكاثوليكية ونبذوا الأريوسية، واعتبروا اللاتينية لغة رسمية، واتخذوا مدينة طليطلة عاصمة لهم، واصبحت طليطلة مركزا أسقفيا يمثّل سلطان البابا في روما مما عمل على توثيق العلاقات الوُدّيّة بين الجانبين[١].

وفي الفترة التي سبقت الفتح الإسلامي للأندلس كانت الأوضاع في شبه الجزيرة غير مستقرة: فمن الناحية السياسية كانت الخصومة قائمة بين لذريق الذي جاء الى الحكم عن طريق ثورة اطاحت بالملك غيطشة وبين بيت الملك غيطشة المخلوع وأنصاره، وممن كان يبطن العداء للذريق يوليان حاكم سبتة.

ومن الناحية الاقتصادية، كانت البلاد تتعرض لازمة إقتصادية وكانت تعاني عجزا ماليا، وقيل أن لذريق فتح خزائن أسلافه في كنائس طليطلة بحثاً عن الكنوز لتوفير الأموال، ولكن الرواية التي نسجت حول ذلك قصة طريفة قالت ان رجال الكنيسة نصحوا لذريق ان لا يفتح «بيت الحكمة» أو «بيت الملوك» وعارضوا دخوله ولكنه لم يستجب لهم ودخلها فلم يجد مالا ووجد صورا لرجال من العرب معممين، ووجد كتابة تقول، إذا فتح هذا الباب دخل هؤلاء القوم أي العرب هذا البلد[٢].

ومن الناحية الإجتماعية، كانت البلاد تعاني من الطَّبَقَية التي تركت ظلالها على الناحية الإقتصادية والناحية السياسية، فمن جهة، كان رجال الدين والنبلاء والأشراف

---

(١) انظر: محمد عنان/ دولة الإسلام في الأندلس: ١/٢٨-٢٩، عبد العزيز سالم/ تاريخ المسلمين واثارهم: ٥٣-٥٥.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ٢١٦.

يتمتعون بالمناصب وامتلاك المزارع والضياع، وكان يليهم جماعات التجار والزرّاع والعمال وأمثالهم من الطبقة الوسطى التي كانت تتحمل الواجبات العسكرية والمالية وأداء الخدمات العامة من إصلاح الطرق وحفر الترع، وكانت المطالب المفروضة على هذه الطبقة أكثر مما تطيق، وكان الزرّاع بخاصة يضطرون في ظل الاوضاع الإقتصادية الصعبة الى تسليم ممتلكاتهم الى النبلاء والبقاء فيها كمستأجرين لقاء حماية النبلاء لهم، وهناك جماعة العبيد واعدادهم غفيرة، وكانوا يستخدمون في الإغراض الزراعية والأعمال المنزلية وغيرها ويتعرضون لشتى اشكال القهر والإضطهاد، والى جانب هذه الفئات عاش اليهود مكروهين، وعمدت التشريعات التي اتخذت بخصوصهم منذ بداية القرن السابع الميلادي الى حرمانهم من ممارسة الكثير من الفعاليات الاقتصادية بغرض إضعافهم(١).

وعلى العموم فأوضاع شبه الجزيرة لم تكن مرضية، ولم تفلح محاولات الإصلاح، أن صحّ أنها وجدت، في إنقاذ الحال مما جعل مهمة الفتح الإسلامي لشبه الجزيرة اقلّ صعوبة.

أحداث الفتح

بعدما فتح المسلمون بلاد المغرب الأقصى ترك موسى بن نصير طارق بن زياد على طنجة وترك معه تسعة عشر الف جندي من البربر من قبائل مصمودة وجراوة وهوارة وزناتة البربرية ممن كان أسلم وحسن إسلامه، تركهم بالأسلحة والعدة الكاملة، وقيل ترك مع طارق اثني عشر الفا، وكان فيهم عدد غير كثير من العرب ليُعلّموا البربر القرآن وفرائض الإسلام(٢).

---

(١) انظر محمد عنان/ دولة الإسلام في الأندلس: ١/ ٣٢-٣٧، عبد العزيز سالم/ تاريخ المسلمين واثارهم: ٦٣-٦٥، عبد الواحد طه/ الفتح والإستقرار العربي الإسلامي في شمال افريقيا والأندلس: ٨١-٩١.

(٢) ابن عبد الحكم/ فتوح مصر: ٢٠٤، أحمد محمد المقري/ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ١/ ٢٣٩.

=

وفي أثناء ولاية طارق على طنجة، قيل أن خصوم لذريق الذي اغتصب الحكم في الأندلس من بيت الملك غيطشة اتصلوا بطارق وحثّوه على دخول الأندلس، وقيل ان الذي حثّ طارقا هو يوليان حاكم سبتة وكان يَمُتُّ بصلة النسب الى اسرة الملك غيطشة مواليا لهم، وقد يكون يوليان اتصل بطارق باتفاق مع خصوم لذريق، وقيل ان يوليان اتصل بطارق لما جرى من لذريق واعتدائه على ابنة يوليان، ولعل رواية اعتداء لذريق على ابنة يوليان تحكي الخلاف السياسي الذي كان بين الجانبين أكثر مما تحكي السبب الحقيقي للخلاف[1].

قيل ان طارق بن زياد أخبر موسى بن نصير بما جرى من الاتصال به، فنقل موسى بن نصير الخبر الى الخليفة الوليد بن عبد الملك، فكتب الوليد اليه، خُضْها بالسرايا ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال، فكتب إليه موسى، انه ليس ببحر متسع وإنما هو خليج يبين ما وراءه، فكتب إليه الوليد، ان اختبرها بالسرايا ان كانت الامر على ما حكيت[2].

وبخصوص اتصال يوليان وخصوم لذريق بطارق بن زياد وموسى بن نصير فقد يكون تم حقيقة بين الجانبين، ويكون الاتصال عندها ذا أثر في توقيت انطلاقة الفتح، وربما عجّل فيها ولكنه ليس سر الفتح وسببه، ففتح الاندلس آت وهو استمرار لحركة الفتح التي انطلقت من شبه الجزيرة العربية نحو الشام ومصر وبلاد إفريقيا والمغرب.

بعث طارق بن زياد عن أمر موسى بن نصير طريفاً وُيَكَنّى ابازرعة في أربعمائة رجل معهم مائة فرس لاستطلاع احوال الأندلس واختبار قوتها، فسار طريف في أربعة مراكب هيّئها يوليان للحملة، فحطّوا في جزيرة تقع على الشاطىء الأسباني، فسميت الجزيرة جزيرة «طريف» نسبة الى قائد الحملةُ طريفٌ الذي نزل وجنده فيها.

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ٢٠٥.

(٢) ابن الاثير: الكامل في التاريخ: ٤/ ١٢٢.

أغار طريف بمن معه على الجزيرة الخضراء ومواضع أخرى من الجزء الجنوبي من الأندلس فلم يَلْقَ مقاومة تذكر، فغنم غنائم وفيرة وسبي ورجع سالما في رمضان سنة إحدى وتسعين للهجرة[١].

لما رأى موسى بن نصير ما حققته حملة طريف، وصحّ عنده ما نقل إليه من احوال الاندلس، بعث طارق بن زياد في سبعة الاف من المسلمين أكثرهم من البربر والموالي واقلهم من العرب، ولما احتاج طارق الى اعداد في فترة تالية أمدّه موسى بخمسة الاف فتمّ جيش طارق إثنى عشر الفا، وقيل بل كان جيش طارق إثنى عشر الفا لأول دخوله الاندلس[٢]. جهّز يوليان ما يلزم جيش طارق من السفن لنقل الجنود إلى بر الأندلس، وقد حرص القائمون على الحملة لاستكمال عملية نزول الجند أن يُعْمُوا أخبار الحملة على الناس.

لذلك احضر يوليان السفن الى سبتة ليلا وأخذت تنقل الجنود تباعا، ويبدو ان عملية ابحار الجند اقتضت اكثر من ليلة، فقيل ان الجند الذين نزلوا بر الأندلس كانوا يكمنون في النهار حتى لا يشعر بهم أحد، وكانت السفن تختلف بين سبتة والأندلس واهل الاندلس لا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت السفن تختلف به من المنافع والمتاجر، ولما علم أهل ألاندلس بالحملة كانت عملية الأبحار قد تمت بسلام في رجب من عام أثنين وتسعين للهجرة، ونزل طارق بالجند عند جبل كالبي، وهو الجبل الذي أخذ اسم طارق وصار يعرف بجبل طارق، وقيل لما ملك رئيس الموحدين عبد المؤمن الاندلس وعبر جبل طارق امر ببناء مدينة على الجبل وسماه جبل الفتح ولكن الاسم لم يثبت له وظل اسم جبل طارق جاريا على الألسنة[٣].

---

(١) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٤/ ١٢٢.

(٢) ابن عبد الحكم/ فتوح مصر: ٢٠٦، المقري/ نفح الطيب: ١/ ٢٣٩.

(٣) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ: ٤/ ١٢٢.

سار طارق بالجيش نحو الجزيرة الخضراء ففتحها، وكان لذريق في شمال الأندلس مشغولا في محاربة البشكنس، وقيل في محاربة الفرنسيين، فأرسل خليفته تدمير يُعْلِمُه بالهجوم الإسلامي، فعاد لذريق مسرعا لصدّه، وفي طريقه لقتال المسلمين عرّج على العاصمة طليطلة دون ان يدخلها وصالح اسرة غيطشة ودعاهم والقوط المخالفين له الى الانضمام إليه في حرب العدو المشترك، فساروا معه، وقيل ان لذريق عهد بقيادة ميمنة جيشه وميسرته الى ابني غيطشة.

لما سمع طارق بقدوم لذريق في الجيش الذي قيل انه كان كبيرا، كتب الى موسى بن نصير يستمدّه فأمدّه موسى بخمسة الاف رجل، ومما يروى عن طارق انه لما ايقن بلقاء لذريق وادرك خطورة الموقف قام بالجند خطيبا فَحضّهم على الجهاد، ورغّبهم في الشهادة، فقال: ايها الناس، اين المفرّ، البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، فليس ثم والله إلا الصدق والصبر، وقيل أحرق السفن ليستميت الجند في القتال[١].

ولكن المؤرخين المعاصرين يشكّونَ أن يكون طارق بن زياد صاغ خطبة كهذه أوْ انه احرق السفن، ويستندون في ذلك إلى أن طارقا لا يملك البيان العربي ولا يقدر على ارتجال خطبة ادبية رائعة، فضلا عن أن يخاطب بمثلها جيشا تَدُقُّ افهامهم عنها، وإضافة الى ذلك فإن المصادر التاريخية الأولية وبخاصة الاندلسية والمغربية منها لا تذكرها[٢].

التقى الجيشان على نهر لكة من أعمال شذونة لليلتين بقيتا من رمضان سنة ٩٢هـ، واتصلت الحرب بين الجانبين ثمانية أيام استشهد فيها ثلاثة الاف من المسلمين ولكن الهزيمة دارت على لذريق وجيشه، وقيل ان لذريق غرق وقتل كثير من جيشه، ومما يروى عن أبناء غيطشة أنهم خذلوا لذريق وتركوا هم وأنصارُهُمْ مواقَفَهم امام المسلمين ظنّاً منهم ان المسلمين إذا امتلأت ايديهم من الغنائم عادوا الى بلادهم وبقى المُلْك لهم[٣].

---

(١) انظر: الخطبة في كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة: ٢/ ٦١.

(٢) انظر: الحجي/ التاريخ الاندلسي: ٥٨-٦١، سالم/ تاريخ المسلمين واثارهم في الاندلس: ٧٨.

(٣) كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة: ٢/ ٦٠-٦١، ابن الاثير/ الكامل في التاريخ: ٤/ ١٢٢، المقري: نفح الطيب: ١/ ٢٥٨.

=

ولعل خذلان آل غيطشة وأنصارهم لذريق كان بدافع الإنتقام منه، ولا أظن أسرة الملك غيطشة كانت تعتقد ان المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنائم رحلوا من الأندلس فهم لا يجهلون فتح المسلمين بلاد المغرب واستقرارهم فيه ولا يجهلون نية المسلمين واغراضهم في بلاد الاندلس.

ارسل طارق بن زياد ببشارة النصر الى موسى بن نصير، وقيل بعث برأس لذريق اليه، وهو مالم يجر مثله من قبل ولعلّ ذلك من كلام الراوي، فوجّه موسى ابْنهَ في وَفْدٍ بالبشارة الى الخليفة الوليد بن عبد الملك، ففرض الوليد لابن موسى في الشرف وأجاز كل من كان معه[١].

أراد طارق ان يَحُول دون تجمع الجيش القوطي، فبادر الى الزحف بعد المعركة الى مدينة أستجة، وفي طريقه الى أستجة فتح مورور في منطقة أشبيلية، ثم مال الى مدينة قرمونة ففتحها، وتقدم الى مدينة اشبيلية ففتحها صلحا، ثم سار بعد ذلك الى مدينة استجة حيث دارت معركة حامية بين المسلمين والقوط وهزم القوط ودخل المسلمين المدينة[٢].

لما تَمّ لطارق فتح أستجة، قيل ان يوليان أشار على طارق أن يبعث جيشا الى قرطبة، فبعث جيشا بقيادة مغيث الرومي، وأن يبعث جيشا إلى غرناطة وجيشا الى مالقة، وجيشا الى تدمير، وأن يسير هو ومعظم الجيش الى جيان فطليطله[٣]، ولعلّ هذه الجيوش لم ترسل دفعة واحدة، فطاقة الجيش وبخاصة بعد أن خسر قسما منه في المعارك السابقة غير يسير، لاتكفي لسداد هذه المهمات مرة وحدة، ولا يعقل أن يفرّق طارق جيشه على هذا النحو في هذه البلاد الواسعة.

---

(١) كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة: ٢/ ٦١.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٤/ ١٢٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٤/ ١٢٢.

ويذكر ابن الأثير بعد ذلك، أن الجيوش التي فرّقها طارق فتحت البلاد التي وجهت اليها، ثم سار طارق بالجيش نحو طليطلة، فقيل أنه وجدها فارغة، فترك فيها حامية من أصحابه وضمّ اليهم اليهود، وهي اشارة إلى تعاون هؤلاء مع المسلمين لِمَا كانوا يلاقونه من العنت والإضطهاد على يد القوط، وسار طارق الى وادي الحجارة فوصل الى مدينة تسمى مدينة المائدة، فدخلها ووجد فيها المائدة التي يسمّيها ابن الأثير «مائدة سليمان» ويذكر انها من زبرجد اخضر حافّتها وأرجلها مكلّلة باللؤلؤ والمرجان والياقوت.(١)

وعند بلوغ طارق بن زياد هذا الحد من الفتوح في بلاد الاندلس تذكر المصادر ان موسى بن نصير وقد أكل الحسد قلبه، تحرّك من مقرّه في القيروان ليشارك طارق بن زياد في شرف الفتح.

وقيل ان موسى بن نصير لما اجتمع بطارق عند طليطلة ضرب طارقا بالسوط على رأسه ووبخه(٢)، وقيل بل شدّ طارقاً وثاقاً وحبسه وَهَمَّ بقتله لولا معتب الرومي غلام الوليد بن عبد الملك، ولعله مغيث الرومي الذي تحدثت الأخبار عنه، الذي كان حاضرا، وقيل ان طارقاً بعث الى معتب (مغيث) فقال له: إن رفعت أمري الى الوليد وأن فتح الاندلس كان على يدي وان موسى حبسني يريد قتلى أعطيتك مائة عبد، فلما اراد معتب (مغيث) أن ينصرف إلى الشام ودّع موسى وقال له، لا تعجل على طارق ولك اعداء، وقد بلغ أمير المؤمنين أمره وأضاف عليك وجدة، فلما قدم معتب (مغيث) على الوليد أخبره بالذي كان فكتب الوليد إلى موسى يقسم له بالله لئن ضربته لاضربّنك، ولئن قتلته لأقتلّن ولدك به، ووجه الكتاب معى معتب (مغيث) الرومي، فقدم به على موسى في الأندلس، فلما قرأ موسى الكتاب اطلق طارقا وخلّى سبيله(٣).

---

(١) ابن الاثير: الكامل في التاريخ ٤/ ١٢٢.

(٢) المصدر نفسه: ٤/ ١٢٢.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر: ٢١٠.

وَرَمْيُ موسى بالحسد وعَزْمُه على قتل طارق حسداً قول قد لا يستقيم، فطارق جندي من جنود موسى والانتصارات التي حققها طارق إنجازات تكتب في صفحة موسى القيادية وطارق مولى موسى ومن قبله والفتح له[1]، ولم تنقطع الاتصالات بينهما طيلة ايام الفتح، والقول بأن موسى ضرب طارقا بالسوط على رأسه ووّبخه يشير الى تبعية طارق لموسى لاندّيته له، وقيل ان موسى وّبخ طارقاً على ما كان من خلافه، وهذا من موسى ان صحّ فِعْلُ قائد يحاسب جنده لافعل حاسد.

وأما نيّة موسى بقتل طارق، فلا يعقل ان يتقدم موسى الى طارق بهذه العقوبة بعد النجاح الذي أحرزه، ولا شك أن موسى كان يعلم لو أنه فعلها لوجد الجند من حول طارق ينكرون ذلك عليه، ولو فعلها لكانت من موسى فعلة خرقاء لا يعلم أحد مداها في هذه البلاد.

وأما تعليق نجاة طارق من القتل على كتاب الخليفة الوليد فأمْرٌ فيه نظر، فذهاب الخبر الى الخليفة الوليد في دمشق وعودته الى طليطلة بالأندلس يستغرق اكثر من ستة اشهر، ولكن الاخبار لا تَذْكر ان الفتوحات توقفت هذه المدة إطلاقا، بل تَذْكر ان موسى سار وطارقا من طليطلة يفتحان المناطق الشمالية من بلاد الاندلس، وعند حساب المدة التي قضاها موسى بالأندلس من لدن دخوله في رمضان سنة ٩٣هـ وحتى خروجه منها في ذي الحجة ٩٥هـ، نجدها بالمقارنة بالفتوحات التي حققها في الاندلس والزمن الذي اقتضته هذه الفتوحات ، نجدها لا تحتمل مثل هذا التوقف، كما لم نجد موسى يعزل طارق بن زياد ويقصيه من طريق اكتساب الفخر والامجاد، وإنما ظل طارق الساعد الأيمن لموسى بن نصير في فتوحاته بالأندلس.

أما كتاب الإمامة والسياسة فيذكر أن طارق بن زياد كتب في هذه المرحلة أي بعدما بلغ طليطلة، كتب الى موسى بن نصير يقول، ان الأمم تداعت علينا من كل ناحية فالغوث الغوث فلما اتى موسى الكتاب نادى في الناس وعسكر يريد الأندلس وذلك

---

(١) محمد بن ابي نصر الاذري الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس: ٤.

في صفر من سنة ثلاث وتسعين للهجرة[١]، وهي رواية معقولة سيما وقد بلغ طارق في توغلّه حدّاً متقدّماً من وسط بلاد الاندلس تاركا الجانب الشرقي والجانب الغربي منها بيد القوط، ولعل تقدّم طارق وتوغله هذا كان موضع لوْم موسى لطارق، لذلك كتب موسى الى طارق ان لا يتجاوز مكانه حتى يلحق به[٢]، ولم يقصد موسى رأسا الى مكان طارق فيطفيء ما يجد في نفسه إن صحّ انه وَجَدَ عليه، بل سار يفتح الجانب الغربي من الاندلس وارسل ابنيه ليفتحا الجانب الشرقي ليضمن الخطوط الخلفية لقواته وقوات طارق المتقدمة شمالا الى طليطلة ويحفظ طرق الإمدادات الواردة اليه من افريقيا وبلاد المغرب.

سار موسى من القيروان في رجب من عام ثلاث وتسعين للهجرة في ثمانية عشر ألف رجل من العرب والموالي وعرفاء البربر، وكان معه حبيب بن أبي عبيدة الفهري وعبد الله ابن مغيرة بن أبي بردة، وعباس بن أخيل، وحنش بن عبدالله الصنعاني، وعبد الجبار بن سلمة الزهري، وعلي بن رباح اللخمي[٣]، وأولاده عبد الاعلى وعبد العزيز وعبد الملك خلا عبد الله الذي استخلفه موسى على القيروان[٤].

قسّم موسى الجيش الى وحدات واتخذ لكل وحدة راية معينة فزاد عدد الرايات على عشرين، وضمّ إلى كل وحدة اضافة إلى ما كان من العرب المسلمين أعدادا من البربر المسلمين فلم يتبّع التصنيف القبلي الذي كان يُتّبع من قبل في تقسيم الجيش، ولعله أراد بذلك ان يتجنب إثارة التكتلات العصبية سيما وقد كثر عدد المسلمين من غير العرب.

سار موسى بالجيش من إفريقيا حتى بلغ منطقة سبتة وأبحر من هناك الى الاندلس ونزل الجزيرة الخضراء في رمضان من عام ٩٣هـ، وفي الجزيرة أمر ببناء مسجد عرف

---

(١) كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة: ٢/ ٦.

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس: ٤.

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس: ٥-٦، المقري: نفح الطيب: ١/ ٢٧٨-٢٨٨.

(٤) المقري: نفح الطيب: ١/ ٢٧٧.

بـ (مسجد الرايات)[1]، وهي إشارة الى الإستقرار وتحويل البلاد الى ديار إسلامية.

وبعد الجزيرة الخضراء، سار موسى الى شذونة ومنها الى مدينة قرمونة، ومدينة قرمونة تعدّ من أحصن مدن الأندلس، ففتحها موسى بحيلة قام بها اتباع يوليان الذين كانوا يرافقون موسى في الجيش، فيروى ان هؤلاء التجأوا الى قرمونة، وفي الليل فتحوا الأبواب فدخلها المسلمون[2].

ومن مدينة قرمونة سار الى قلعة رعواق ففتحها، ثم سار الى أشبيلية وهي من أعظم مدائن الأندلس بنيانا وأعزّها اثاراً فحاصرها أشهراً وفتحها عنوة وترك من الجند حامية فيها معهم بعض اليهود ثم واصل السير إلى ماردة، وفي طريقة الى ماردة لأَحَقَ فلول المنهزمين الى نبلة واكشونية وباجة في جنوبي البلاد المسماة اليوم البرتغال، وبعد ان فتح هذه المدن سار الى لقنت ففتحها وتوجه من هناك الى ماردة، وقد واجه موسى من اهل ماردة مقاومة عنيفة، فقاتل اهلها قتالا شديدا، واتصل القتال والحصار أشهرا واستخدم المسلمون الدبابات لنقب الأسوار وما زالوا بها حتى فتحوها يوم الفطر من عام ٩٤هـ صلحا، وفي كتاب (فجر الاندلس) للمستشرق باسكوال دي جايا نجوس نص بالأسبانية يذكر هذا الصلح وهو صلح ماردة، فيقول:

فذهبوا ـ أي اهل ماردة ـ إليه وقالوا إنهم يتركون الكنائس وما فيها وكذلك ما تحويه من الأحجار الكريمة وغيرها من الأشياء الطيبة، وكل ممتلكات رجال الدين، وبعد أن تم التوقيع على ذلك في عهود صحيحة فتحوا له الأبواب وادخلوه البلد وأسلموه إياها، ولم يمس المسلمون من أقام في البلد من النصاري بأذى، وأما من اراد ترك البلد منهم فتركوه يمضي دون اذى[3].

(١) الحجي: التاريخ الاندلسي: ٧٤-٧٥، عبد الواحد طه: الفتح والإستقرار العربي الاسلامي: ١٧٦-١٧٧.

(٢) ابن الاثير: الكامل في التاريخ: ٤/ ١٢٣.

(٣) انظر. مصطفى الشكعة: مواقف المستشرقين من الحضارة الإسلامية في الاندلس، بحث منشور في العدد الذي صدر في إطار الاحتفال بالقرن الخامس الهجري: ٢/ ٢٩٩. =

وهذه المعاملة التي عومل اهل ماردة بها وَتَمّتْ على الوجه الذي طلبه أهل ماردة أنفسهم تدل على السماحة التي غرستها العقيدة الإسلامية في النفوس واحترام الإنسانية حتى في غمار الحروب وهو خلاف ما عُومِلَ به المسلمون يوم سقطت الأندلس. . .

والى جانب هذه الفتوحات التي أحرزها موسى في الجانب الغربي من الأندلس، أرسل موسى ولديه عبد الأعلى وعبد العزيز لفتح جنوب شرق الأندلس، ويبدو ان ذلك كان بعد فتح مدينة اشبيلية، ففتح عبد الأعلى مالقة والبيرة بينما هاجم عبد العزيز مقاطعة أوريولة التي كان يحكمها الدوق تدمير في رجب من عام ٩٤هـ وانتهى الأمر الى عقد صلح جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد العزيز الى تدمير:

انه نزل على الصلح، وأنه له عهدُ الله وذمّتُه أن لا يُنْزَع عنه مُلْكُه، ولا أحدٌ من النصارى عن أملاكه، وأنهم لا يُقتلَون ولا يُسْبَون: أولادهم ولا نساؤهم ولا يُكْرهُون على دينهم، ولا تُحترق كنائسهم ما تُعبّدَ وما نَصحَ، وأن الذي اشْتُرطَ عليه انه صالحَ على سبع مدائن: أوريولة، وبلنتلة، ولقنت، ومولة، وبقرة، وأنة، ولورقة، وأنه لا يأوي لنا عدواً، ولا يخون لنا أمْناً، ولا يكتم خبراً عَلِمهَ وأنه عليه وعلى أصحابه دينار كل سنة وأربعة أمداد قمح، واربعة أمداد شعير، وأربعة أقساط طلا، وأربعة اقساط خل، وقسط عسل، وقسط زيت، وعلى العبد نصف ذلك.

كتب في رجب سنة أربع وتسعين من الهجرة، شهد على ذلك عثمان بن عثمان بن ابي عبدة القرشي وحبيب بن عبيدة الفهري وعبدالله بن مسرة الفهمي وابو قائم الهندلي(١).

وهو مثل اخر للوجه الحضاري المشرق في حركة الفتوحات الإسلامية.

---

(١) مصطفى الشكعة: مواقف المستشرقين من الحضارة الإسلامية في الاندلس: ٢/٢٩٩-٣٠٠.

وفي أثناء ذلك تمرّد القوط في أشبيلية، وقتلوا من المسلمين ثمانين رجلا، فسيّر موسى إليهم جيشا بقيادة ابنه عبد العزيز فحاصر المدينة وفتحها وفتح نبلة وباجة ثانية، وهما المدينتان اللتان انطلقت العناصر القوطية المتمردة منها[1].

توجّه موسى بن نصير بعد ذلك الى طليطلة، فخرج طارق اليه يتلقّاه في مكان يدعى المعرض قرب طلبيرة غربي طليطلة وهناك قيل ان موسى ضرب طارقا بالسوط على رأسه ووبّخه على ماكان من خلافه، ولكن طارقا اظهر لموسى نواياه الحسنة وقّدم له ما اجتمع إليه من الغنائم، فرضي موسى عن طارق وقبل اعتذاره وسارا معا يواصلان مراحل الفتح التالية.

وفي هذه المرحلة من الفتح سُيِّرت الرسلُ الى الخليفة الوليد بن عبد الملك ببشائر الفتح مع غيث الرومي وعلي بن رباح اللخمي، أما موسى بن نصير فسار وطارق بن زياد في الجيش نحو الشمال الشرقي، ففتح مدينة سرقسطة والمناطق المجاورة لها، وأسس حنش بن عبدالله الصنعاني فيها مسجدا جامعا وعيّن قِبْلَتَه، كما أسس مساجد أخرى منها مسجدا في مدينة البيرة واخر في مدينة قرطبة[2].

اوغل الجيش الإسلامي شمالا ففتح مدن لاردة ووشقة وطركونة وبرشلونة، كما فتح بلنسبة وطرطوشة على الساحل الشرقي للأندلس، وفي هذا الوقت وصل مغيث الرومي مبعوثا من جانب الخليفة الوليد بن عبد الملك يحمل الى موسى بن نصير امر الخليفة بالقدوم الى دمشق، ولكن فتح الاندلس لم يكن قد اكتمل بعد، لذلك لاطف موسى مغيثا وسأله إنظاره الى ان ينفذ عزمه في دخول بلاد جليقية واشتوريش ويكمل فتح الاندلس ويكون مغيث شريكه في الاجر والغنيمة ـ اي يصبح له سهم في الغنيمة ـ ففعل مغيث ومشى في ركاب موسى الى منطقة جليقية والأشتوريش ففتحها،

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٤/١٢٣، ابن أبي دينار: المؤنس: ٣٧.
الصنعاني نسبة الى صنعاء الشام وهي قرية على باب دمشق دون المزة.

(٢) عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين واثارهم في الأندلس: ١٠١.

وتعقّب موسى وطارق فلول القوط حتى اضطرّ هؤلاء الى الفرار الى جبال كنتبرية في أقصى الشمال الغربي من الاندلس(١).

ولما تأخرت اخبار موسى قلق الخليفة الوليد على مصير الجيش الذي مضى على وجوده في البعوث ما يقارب اربع سنين، لذلك أرسل الوليد رسولا ثانيا، فوصل الرسول الاندلس وموسى في مدينةٌ لَكْ بُجليقية يُوجِّهُ السرايا والبعوث التي بلغت حتى صخرة بلاك التي تقع في الشمال الغربي على البحر الأخضر - خليج بسكاي - من المحيط الأطلسي، فاستجاب موسى الى الرسول وعاد الى طليطلة ثم غادرها الى قرطبة ومنها الى أشبيلية حيث استخلف فيها ولده عبد العزيز واليا واتخذ منها عاصمة للبلاد، ولكن أشبيلية لم تمكث طويلا عاصمة للبلاد وإنما استعيض عنها بقرطبة منذ عام ٩٧هـ وظلت قرطبة مركز الديار الأندلسية حتى نهاية عهد الخلافة في الاندلس(٢)، ويبدو ان موسى اختار اشبيلية عاصمة في هذه المرحلة من تاريخ الاندلس لوقوع اشبيلية في منطقة تتساوى عندها احتمالات الخطر والسلامة، وواجبات الحفاظ على البلاد وحمايتها، فهي لم تخرج إلى الاطراف بعيدا عن الوسط، ولم تقترب من خطوط المواجهة مع الاعداء بعيدا عن بلاد المغرب وإمدادتها.

غادر ركب موسى وطارق بن زياد الأندلس في ذي الحجة من عام ٩٥هـ، يحمل معه الأسرى والغنائم الوفيرة والهدايا الثمينة ومنها المائدة وغيرها من الكنوز، فلما بلغ طنجة ترك ابنه عبد الملك فيها حاكما، ثم انصرف منها الى القيروان فأقرّ ابنه عبدالله الذي كان قد استخلفه في اثناء غيابه في الاندلس(٣)، ثم سار من هناك يريد دمشق فوصلها في عام ٩٦هـ قبل وفاة الوليد.

---

(١) المقري: نفخ الطيب: ١/ ٢٧٥، الحجي: التاريخ الاندلسي: ٩٦-٩٨.

(٢) المقري: نفح الطيب: ٣/ ١٤.

(٣) ابن الاثير: الكامل في التاريخ: ٤/ ١٢٤، ابن ابي دينار: المؤنس: ٣٧.

وقيل ان سليمان بن عبد الملك بعث إلى موسى بن نصيرأن لا يدخل دمشق يريد ان ينتظر وفاة أخيه الوليد بن عبد الملك ثم يدخلها، فتكون علامات الفتح ودلائل النصر من الاسرى والغنائم والهدايا فاتحة عهده فيعظم مقامه عند الناس، ولكن موسى خالف سليمان ودخل، فلما ولي سليمان الخلافة حقد على موسى وعزله وحبسه واغرمه اموالا كثيرة(١).

ويبدو أن سعة البلاد التي صارت الى نظر موسى وتحت سلطانه وكانت تمتد من غرب مصر الى جنوب فرنسا، وقيام موسى بتوزيع الحكم فيها بين أبنائه، كان مما يثير الشكوك في نفوس أولي الامر، لذلك بادر سليمان حرصا على وحدة الدولة وسلامتها من الانقسام إلى عزل موسى بن نصير عما كان تحت يده من الأعمال، أما عبد العزيز بن موسى فنسب اليه انه وقع تحت تأثير زوجته التي حملته على ان يأخذ اصحابه ورعيته بما كان يفعل زوجها السابق لذريق، لذلك ثار عليه القادة من حوله وقتلوه(٢)، وقيل لما بلغ عبد العزيز بن موسى ما عومل به ابوه تكلم بكلام نُمِيَ الى سليمان، فخشي سليمان منه ان يخلع، ويبدو ان وضع عبد العزيز في الاندلس كان اقوى من وضع أخويه عبدالله وعبد الملك في بلاد أفريقية والمغرب، فعزل عبد الله وعبد الملك واحتيل في قتل عبد العزيز(٣)، وأما موسى فظل يعيش الى جانب سليمان بن عبد الملك حتى وافته المنية سنة ٩٧هـ وهو في طريقه مع سليمان الى الحج(٤).

وقيل أراد سليمان أن يولّي طارق بن زياد بلاد الأندلس فأشار مغيث الرومي عليه أن لا يفعل وقال له: لو أن طارقا أمر أهل الاندلس بالصلاة الى قبلة شاءها لتبعوه، ولم يروا أنهم كفروا، لذلك صرف سليمان النظر عن توليته، وقضى طارق اخر أيامه مغمورا(٥).

---

(١) ابن الاثير: الكامل في التاريخ: ٤/ ١٢٤، المقري: نفح الطيب: ١/ ٢٨١، ابن ابي دينار/ المؤنس: ٣٧.

(٢) ابن الاثير: الكامل في التاريخ: ٤/ ١٤٤.

(٣) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة: ٢/ ٧٩-٨٠، ابن الاثير: الكامل في التاريخ: ٤/ ١٤٤، المقري: نفخ الطيب: ٢٨١.

(٤) ابن الاثير: الكامل في التاريخ: ٤/ ١٩٧.

(٥) المقري: نفح الطيب: ٣/ ١٤.

لم تتوقف حركة الفتح بعد موسى وطارق، كما لم تقتصر على بلاد الأندلس، وإنما تجاوزتها شمالا إلى البلاد المعروفة اليوم باسم فرنسا، غير ان النزاعات القبلية التي أصيب الأندلس بها، والإضطرابات التي جرت في بلاد المغرب وانعكست اثارها السيئة على اهل الاندلس واصابت وحدتهم وقوتهم جعلت حركة الفتح تتوقف احيانا وتخسر منذ اواخر خلافة هشام بن عبد الملك ما كسبته من بلاد الفرنجة ـ فرنسا ـ.

كانت جبال البرت تشكل حاجزا يفصل بين بلاد الاندلس وبلاد غالة ـ بلاد الفرنجة او فرنسا اليوم ـ وكان الانتقال بينهما يتم عادة خلال ممرات او معابر في هذه الجبال تصل الى أربعة أو خمسة ممرات، وكان أهم هذه الممرات ممر (برت جاقة) الذي يقع في جهة برشلونة، وكان المسلمون يسلكونه في حملاتهم الى فرنسا[(١)].

فبعد مقتل عبد العزيز بن موسى ولي الأندلس أيوب بن حبيب اللخمي، وفي ولايته نقل مركز الولاية من اشبيلية الى قرطبة، وقد غزا أيوب القوط في الشمال الشرقي من الاندلس حتى يأمن شرهم ويحفظ سلامة الطريق الى بلاد الفرنجة، ثم خلفه الحر بن عبد الرحمٰن عام ٩٧هـ فغزا بلاد الفرنجة حتى بلغ مدينة أربونة، وتابع الغزو من بعده السمح بن مالك الذيولي والي الأندلس من قبل عمر بن عبد العزيز، فقاد الحملات الى بلاد الفرنجة واستولى على أربونة وطرسكونه وتقدم نحو طولوشة حيث وقعت معركة حامية قادها من الفرنجة دوق أوكيتانيا فاستشهد السمح في المعركة في ذي الحجة من عام ١٠٢هـ، وعاد المسلمون راجعين إلى مدينة أربونة يقودهم عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي[(٢)].

ثم ولي الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي منذ عام ١٠٣هـ، فصرف هَمَّه إلى أمور الأندلس حتى ضبطها، ثم تابع الغزو، فنازل مدينة قرقسونة وحصر أهلها فصالحوه على نصف اعمالها، وعلى جميع من فيها من أسرى المسلمين، وان يعطوا الجزية

---

(١) الحجي: التاريخ الاندلسي: ٩٨.

(٢) المقري: نفح الطيب: ٣/ ١٤-١٥.

ويلتزموا بأحكام الذمة ويحاربوا من حاربه المسلمون ويسالموا من سالموه، ثم استولى على مدينة نيمة وتوغل في إقليم برغندية يفتح مدنه حتى اضطرته الاضطرابات في الاندلس الى الرجوع، وفي اثناء رجوعه باغتته جموع من الفرنجة فاستشهد في اثناء الاشتباك معهم، وعاد الجيش يقوده عذرة بن عبد الله الفهري الى مدينة اربونة[1]، ولكن الاضطرابات شغلت الذين تولوا أمور الأندلس بعد عنبسة، فلا تذكر الأخبار شيئا عن حركة الفتح في ولايتهم حتى كانت ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي عام ١١١هـ.

كان عبد الرحمن قائدا شجاعا عرفته ميادين القتال مع الفرنجة من قبل، وقد وطّد العزم على حسم بوادر الفتنة والخلاف في الأندلس اولا، ثم سار من بعد ذلك الى غزو الفرنجة فوصل مدينة بواتيه، واشتبك المسلمون مع الفرنجة الذين كان يقودهم شارل مارتل ـ قارله ـ وحليفه دوق أوده، فانتصر المسلمون أول الأمر على الفرنجة، ولكن تغيّر قلوب بعض الجند لعبد الرحمن والعداوة المضمرة له، وقيام الجند الفرنجي بمهاجمة رَحْلِ المسلمين واثقالهم، جعل نظام جند المسلمين يتضعضع، واصيب عبد الرحمٰن بسهم أدى الى استشهاده، فَهُزِمَ المسلمون وأخذوا يتراجعون الى قاعدتهم في مدينة أربونة[2].

أدت هزيمة المسلمين في معركة (بلاط الشهداء) أو معركة (البلاط) كما يسميها المؤرخون المسلمون الى إهتزاز سلطان المسلمين في جنوب فرنسا وتغيّر موقف البشكنس في شمال الأندلس من المسلمين، لذلك بادر عبد الملك بن قطن الى غزو البشكنس وأوقع بهم عام ١١٥هـ، ثم عبر جبال ألبرت واخذ في تحصين المدن والمعاقل الإسلامية في إقليم سبتمانيا الذي كان في حوزة المسلمين، ثم غزا بلاد بروفانس، وخلفه على ذلك عقبة بن الحجاج السلولي عام ١١٧هـ، وكان عقبة محمود السيرة

(١) المقري: نفح الطيب: ٣/١٦-١٧، عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين واثارهم في الاندلس: ١٣٩.

(٢) المقري: فتح الطيب: ٣/ ١٥، تاريخ المسلمين واثارهم في الاندلس: ١٤٢-١٤٣.

مثابرا على الجهاد، فاطمأن المسلمون في ولايته الى سكنى مدينة اربونة، واستولوا على مدينة فالنس على نهر رودنة، وصار رباط المسلمين على هذا النهر، وكان عقبة اذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الاسلام ويبيّن له عيوب دينه، فأسلم على يده الفا رجل، ولكن قارله ـ شارل مارتل ـ خشي عاقبة الزحف الإسلامي وارسل الى ملك اللومبارديين يستنجده لحرب المسلمين، وقام يهاجم المواقع والمدن في اقليم سبتمانيا، وحاول ان يستولي على مدينة (أربونة) القاعدة الرئيسة للمسلمين في الإقليم ولكنه فشل، فأخذ رهائن من أهل الإقليم حتى لا يقفوا مع المسلمين وحارب دوق مارسليا يريد ان يحمله على قطع علاقاته مع المسلمين، ومات شارل عام ١٢٣هـ وانشغل المسلمون بالخلافات العصبية والحروب التي اجتاحت بلاد المغرب، واضطروا تحت طائلة هذه الظروف القاسية الى الرحيل من بلاد غالة (افرنجة او فرنسا) والتخلّي عما افتحوه في هذه البلاد، واستولى عليها (ببين) خليفة شارل، وثار اهل جليقية في الشمال الغربي من الاندلس وتغلب (بلاي) على اشتوريش[١].

وقد تولى امر الأندلس منذ عام ١٢٣هـ عدد من الولاة حالت الظروف السيئة دون إعادة عجلة الفتوح في ولايتهم الى سابق عهدها، ثم تلا ذلك قيام عبد الرحمن الداخل بتأسيس إمارة أموية في الأندلس انفصلت عن العباسيين، وصار للعلاقات الأندلسية الخارجية شأن اخر.

---

(١) ابن الاثير: الكامل في التاريخ: ٢١٥/٤. (٣) المقري: نفح الطيب: ١٨/٣-٢٣. عبد العزيز سالم. تاريخ المسلمين واثارهم في الاندلس: ١٤٧-١٤٩.

١

الانجازات

الإنجازات:

حفل العصر الأموي بكثير من الإنجازات على الصعيدين الفكري الحضاري والمادي المدني في المجالات المختلفة، وقد تأثرت هذه الإنجازات في مقدارها واتساعها ومستوى تنفيذها وإتقانها بسياسة الدولة، والقدرات البشرية، والموارد المالية، ومستوى التقنيات العلمية، والتحديات الداخلية والخارجية في ذلك العصر، وفيما يلي تعريف بأهم هذه الإنجازات:

المجال العسكري:

حافظت الدولة في العصر الأموي على أن تظل الأمة أمة جهاد، فأبقت القسم الأكبر من مواردها المالية يصرف في المجال العسكري، وإضافة الى إخراج الرواتب للجند والأرزاق للذرية والمعونة للمقاتلة، عملت الدولة على توفير وسائل القوة ووجوه المنعة للجيش، فأقامت المدن العسكرية في جميع جبهات القتال، وشحنتها بالجند، وشجعت الناس على الانتقال إليها والإقامة فيها، وأقطعتهم الأراضي الزراعية يستغلونها والمنازل يسكنونها، واتخذت اهراءات الطعام فيها ومخازن الاسلحة والكسوة، وحصَّنتها بالأسوار والخنادق، وبَنَت القلاع والحصون، واقامت المناظر والمنارات على طول الطريق بين الثغور والداخل، وجعلت المواقد عليها لتكون اخبار الثغور حاضرة على الدوام عندها. وقد تحوّل كثير من هذه المدن العسكرية إلى مراكز مدنية حافلة بالبناء وأماكن العبادة ومراكز الثقافة وأسواق التجارة، وأخذت تشهد نهضة طيبة في الوجوه المختلفة من النشاط البشري.

كما عززت الدولة القوة العسكرية بإنشاء سلاح البحرية، واقامت دور صناعة السفن في عكا ثم من بعدها في صور من بلاد الشام، وفي جزيرة الروضة في الفسطاط من بلاد مصر. وفي تونس، وزوّدت هذه المصانع بما يلزم من المواد والصنّاع[1].

---

(١) انظر: اليعقوبي، تاريخه ج٢، ص٣٢٤، البلاذري، فتوح البلدان، ص: ١٠٤، ١٥١، ١٥٢، ١٥٨، ١٩٥-١٩٩، ١٢٢، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٨، ٢٤٣، ٤٠٤، ٤٣٠، ٤٣١، ٤٦٢، المسعودي مروج الذهب، =

ولم تغفل الدولة أن تأخذ الجيش بالتدريبات وإقامة العروض، وفي حال القيام بالغزو، كانت تعطي الجنود أعطياتهم كَمَلاً، وتأخذهم بالخيول الروائع والسلاح الكامل، وتُوعِبُ فيه أهل النجدة والصبر والشجاعة، وتجعل القيادة إلى أهل الخبرة والرأي والبأس والشجاعة والفضل والدين(١)، وكان من شأن اهتمام وعناية الدولة بالجيش، واجتماع الجيش والدولة على صعيد فكري واحد في المنطلقات والوسائل والأغراض أن كان النصر حليف الجيش في أكثر معاركه، وقد أبدى «ابن كثير» إعجابه بما تم في عصر بني أمية في هذا الجانب فقال:

«فكانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية ليس لهم شغل إلا ذلك، عَلَتْ كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وبرها وبحرها، وقد أذلّوا الكفر وأهله، وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعباً، لا يتوجه المسلمون إلى قطر من الأقطار إلا أخذوه، وكان في عساكرهم وجيوشهم في الغزو الصالحون والأولياء والعلماء من كبار التابعين في كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينه»(٢).

نشر الإسلام والثقافة الإسلامية:

واصَلَتْ الدولة في هذا العصر الجهود السابقة في نشر الإسلام وتعميم ثقافته، وسارت على هدى سياسة جادّة شارك الأمراء والعلماء في تنفيذها، وقد أصبح القرآن الكريم والسنّة النبوية أساس الثقافة الإسلامية ومحور فروعها.

وبالنسبة للقرآن الكريم، كان الرسول ﷺ قد اتخذ كتّاباً يأمرهم بكتابة كل ما ينزل من القرآن، ولم يَمُت الرسول ﷺ حتى كان القرآن قد كتب كله، وتعاونت صحف القرآن التي حفظت في بيت الرسول ﷺ، والنسخ التي نسخها الكتّاب لأنفسهم من هذه

= ج٣، ص٢١٧، قدامة بن جعفر الخراج وصنعة الكتابة، ص:١٨٨، ٣١٧، ٣١٨، ٣٨٠. ابن خلدون، المقدمة ص:٣١٢، ابن أبي دينار، المؤنس، ص:١٥-١٦.

(١) انظر: أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٦، ص:٣٢٧.

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية، ج٩، ص:٩٤.

الصحف مع حافظة الصحابة الأمّيين وغير الأمّيين على حفظ القرآن الكريم وصيانته[1].

ولما كانت خلافة أبي بكر الصديق، تمّ جمع القرآن في صحف مرتّبة الآيات كما رُويت عن الرسول ﷺ، وحفظها عنده حتى توفّاه الله، ثم صارت إلى عمر، فلما توفّاه الله صارت إلى حفصة بنت عمر زوج الرسول ﷺ، فلما وقع الاختلاف في قراءة القرآن، أرسل عثمان بن عفان يطلب الصحف الموجودة عند حفصة، وكلّف لجنة رباعية مؤلفة من زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأمرهم أن ينسخوا تلك الصحف في المصاحف، فلما نُسخت ردَّ عثمان الصحف إلى حفصة، وارسل إلى كل مصر من الأمصار الإسلامية بمصحف ممّا نسخوا[2]، وأرسل مع كل مصحف قارئا حافظا يوافق قراءته، وكانت هذه المصاحف خالية من الشكل والإعجام.

ظل الناس يقرأون القرآن في مصحف عثمان حتى كثر وقوع الناس أيام الأمويين، وبخاصة في العراق، في اللّبْس في قراءة بعض كلمات وحروف القرآن بعد أن اختلطوا بغير العرب وبدأت العجمة تمسّ سلامة لغتهم، لذا فكّرت الدولة بتحسين الرسم القرآني لإزالة عجمة العربية وتيسير القراءة الصحيحة للقرآن عن طريق تمييز الحركات في شكل أواخر الكلمات أو ما يعرف بالنحو، وإزالة عجمة الحرف عن طريق تحديد اللفظ وتمييزه عن مثيله أو شبيهه بالرسم بوضع النقط أفرادا وأزواجا والمخالفة بين أماكنها[3]، وكان ممن ساهم في هذا العمل زياد بن أبيه في خلافة معاوية بن أبي سفيان ثم الحجاج ابن يوسف الثقفي في خلافة عبد الملك بن مروان، وَمِنْ جانِبِ العلماء أبو الأسود الدؤلي ظالم بن عمرو بن جندل (ت٦٩هـ) ونصر بن عاصم الليثي (ت٨٩هـ أو ٩٠هـ)

---

(١) صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص: ٧٣-٧٤.

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري ج٩، ص: ١٠-١١، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن.

(٣) السجستاني، كتاب المصاحف، ص: ٤٩، ١١٧، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي، ناصر الدين الأسد، النقط والحرف العربي، ص: ٩٢٧، بحث مخطوط.

ويحيى بن يعمر العدواني (ت ١٢٩هـ وقيل قبل ٩٠هـ)[١].

وقد أمر الحجاج بن يوسف بنسخ عدة نسخ من مصحف عثمان تحمل أعمال التحسين الآنفة الذكر على الرسم القرآني ووزّعها على الأمصار[٢]، فلما وجّه بمصحف منها إلى ولاية مصر، غضب الوالي عبد العزيز بن مروان من ذلك، وأمر بكتابة مصحف وبالغ في ضبطه، وجعل جائزة مقدارها جَمَلٌ وثلاثون ديناراً لمن يجد من القراء في المصحف خطأ، ثم وضع المصحف في المسجد الجامع[٣]. واستمر العمل في تحسين الرسم القرآني جيلا بعد جيل حتى بلغ ذروة الحسن والجمال في نهاية القرن الثالث الهجري[٤].

وأما بالنسبة للسّنة النبوية، فلم يكن الرسول ﷺ يأمر بكتابة ما كان يصدر عنه من الحديث خلافاً لما فعل بالقرآن الكريم، وذلك لما كان عليه العرب من الأمّية وقلة فشو الكتابة فيهم واعتمادهم في الحفظ على الذاكرة، فأراد عليه السلام بكتابة القرآن الكريم دون السنّة النبوية أن يمنع وقوع الاختلاط بينهما[٥]، ولكنه أجاز لمن كان يتقن الكتابة ويأمن الالتباس أن يكتب، غير أن ما كُتِب من الحديث في حياة الرسول ﷺ إلى ما لم يكتب منه كان قليلا.

ومع أن الجهود المبذولة في حفظ السنّة النبوية كانت تذهب في مجال رواية السنّة وتناقلها بالمشافهة والسمع، فإن عملية التدوين فيها استمرت جارية، وأخذت الحاجة إلى تدوين السّنة تبرز أكثر فأكثر بمرور الأيام على أثر تناقص حَفَظَةِ السّنة من الصحابة،

(١) انظر: ابن الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص:٢٢-٢٦، صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص:٩٠-٩٤.

(٢) ابن شبة، تاريخ المدينة، ج١، ص:٩.

(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص:١٧٧-١١٨.

(٤) صبحي الصالح/ مباحث في علوم القرآن، ص: ٩٤.

(٥) السباعي/ السّنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص:٥٩.

وتَعُّرضِ المسلمين للمستجدات المتزايدة من المشكلات، مما جعل الدولة تفكّر هذه المرّة في كتابة السّنة النبوية لتكون إلى جانب القرآن الكريم مصدراً ثانياً يسهل الرجوع إليه لحلّ ما يواجهها من المشكلات، وهو افتراض يؤيده أن الخليفة عمر بن الخطاب استشار الصحابة في تدوين الحديث، ولكنه عاد وعدل عن ذلك خشية أن يشوب كتاب الله شيء من جمع السنّة وإخراجها في كتاب، وما خشيه عمر بن الخطاب وردّه عن القيام بكتابة السنة خَشِيَهُ أبو بكر من قبل وعلي بن أبي طالب من بعد[1].

ثم وقعت الفتنة بين المسلمين، ونجمت الخلافات السياسية، وعملت وغيرها من العوامل على ظهور الكذب في الحديث عن الرسول ﷺ، فلما كان ذلك، اتجهت جهودالعلماء إلى تخليص السنّة النبوية من هذه العلل، وأخذت بالتأكيد على الإسناد ومعرفة رجال و رواة الحديث[2]، ولاشك أن المسلمين كرثتهم الفتن مرات، وعملت على إيجاد العوامل الداعية إلى الكذب في الحديث عن الرسول ﷺ، مما جعل العلماء يتشدّدون أكثر فأكثر في التأكيد على رجال السند، ثم بدت الحاجة إلى تدوين السّنة النبوية تحت تأثير الظروف والأوضاع الناشئة الآنفة الذكر أمراً لازماً ومطلباً لا حرج فيه، وصارت عملية التدوين تجري بعناية ورعاية الدولة بعد أن كانت جهوداً فردية.

فقد ورد عن معاوية بن أبي سفيان أنه كتب إلى عائشة أم المؤمنين يطلب منها أن تكتب إليه بشيء سمعته من أبي القاسم[3]، ووفد سالم بن سلمة الهذلي البصري رسولا من عند زياد بن أبيه على معاوية فلقى عنده عبد الله بن عمرو بن العاص، فكتب سالم ما أملى عبد الله من أحاديث الرسول ﷺ في صحيفة، وعندما عاد سالم، أخذ زياد الصحيفة وحبسها عنده[4]، ودعا مروان بن الحكم أبا هريرة، في أثناء ولاية مروان على المدينة،

---

(١) الخطيب البغدادي، تقييد العلم، ص:٤٩-٥٣، ابن عبد البر، جامع بيان العلم، ج١، ص:٦٣، ٦٤، ٦٥.

(٢) صحيح مسلم/ ج١، ص:١٥.

(٣) الجاحظ/ البيان والتبين، ج٢، ص:٣٠٣.

(٤) ابن عساكر/ تاريخ دمشق ترجمة سالم بن سلمة الهذلي.

وجعل يسأله وسالم مولى مروان، الذي كان يجلس خلف ستر، يكتب ما يقول أبو هريرة[1].

واهتم عبد الملك بن مروان بالسنة النبوية، وقرب إليه رجال الحديث من أمثال قبيصة بن ذؤيب، ورجاء بن حيوة الكندي، ومحمد بن مسلم بن شهاب الزهري، وكتب عبد العزيز بن مروان أمير مصر إلى كثيّر بن مرة الحضرمي، وكان أدرك سبعين بدرياً من أصحاب رسول الله ﷺ، أن يكتب إليه بما سمع من أصحاب رسول الله ﷺ من أحاديثهم، إلاّ حديث أبي هريرة فإنه عنده[2].

وأقام المحدّث سليمان بن موسى بن عبد الله مع الخليفة الوليد بن عبد الملك مدة شهرين أو ثلاثة في حوارين يحدّث الناس من علمه، وطلب الناس من ابن شهاب الزهري نسخته من الأحاديث التي حدثهم بها، فأشار الزهري أن يأخذوها من ديوان الخليفة الوليد[3].

فلما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز، أخذ يستقدم المحدثين ويأمر بتدوين الأحاديث التي يروونها، ومن هؤلاء إياس بن معاوية، وأبو بردة بن أبي موسى الأشعري، ومحمد ابن كعب القرظي، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أمير المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم يقول له: «أنظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، أو سنّة ماضية، أو حديث عمرة، فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب أهله»، وخصّ عمر بالذكر عمرة بنت عبد الرحمٰن الأنصارية والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وطلب من أبي بكر بن حزم أن يكتب ما عندهما من أحاديث رسول الله ﷺ[4]

(١) المصدر نفسه ترجمة سالم أبو الزعيزعة.
(٢) المصدر نفسه ترجمة كثيّر بن مرة الحضرمي الحمصي.
(٣) المصدر نفسه ترجمة سليمان بن موسى بن عبد الله وعقيل بن خالد الأيلي.
(٤) ابن سعد/ الطبقات الكبرى، ج٢، ص:٢٨٧، الخطيب البغداد/ تقييد العلم، ص: ١٠٥،١٠٦، الدارمي/ السنن، ج١، ص:١٢٦.

وطلب عمر بن عبد العزيز إلى ابن شهاب الزهري أن يكتب له السّنة في مواضع الصدقة[١]، وأرسل إلى المدينة يلتمس كتاب الرسول ﷺ في الصدقات، وكتاب عمر بن الخطاب في الصدقات، فوجد كتاب الرسول ﷺ عند آل عمرو بن حزم، وكتاب عمر ابن الخطاب عند آل عمر، وكان الكتابان متماثلين، ونسخ لعمر بن عبد العزيز ما في ذينك الكتابين[٢].

وبعث عمر بن عبد العزيز إلى علماء الأمصار الإسلامية يقول: «أنظروا إلى حديث رسول الله فاجمعوه»[٣]، وقد خضعت هذه العملية التي قادها عمر بن عبد العزيز إلى متابعة وتدقيق العلماء يرأسهم ابن شهاب الزهري الذي قال: «أَمَرَنَا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن، فكتبناها دفتراً دفتراً، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً»[٤].

كان ما قام به عمر بن عبد العزيز يمثّل المحاولة الأولى لقيام الدولة بجمع وكتابة الحديث النبوي بشمول واستقصاء، وقد فتح هذا العمل الطريق أمام العلماء الذين أثمرت جهودهم في خدمة السنّة النبوية عن ظهور مصطلح الحديث الذي كان لدقة منهجه وسلامة قواعده أن اتخذه العلماء منهجاً في التاريخ والفقه والتفسير واللغة والأدب وغيرها، وظهور علم الجرح والتعديل وعلوم الحديث الأخرى، وتصنيف المؤلفات في الأحاديث الموضوعة، وفي الوضّاعين الكذّابين، وفي الأحاديث المشتهرة وذلك لتنقية السنّة النبوية مما تعرّضت له وحمايتها من كل زيف[٥].

---

(١) أبو عبيد بن سلام/ الأموال، ص: ٧٦٤.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٤٩٧-٥٠١.

(٣) ابن حجر العسقلاني/ فتح الباري، ج١، ص: ١٩٥، ابن عساكر/ تاريخ دمشق ترجمة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم.

(٤) ابن عبد البر/ جامع بيان العلم، ج١، ص: ٧٦.

(٥) انظر: النبباعي/ السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص: ١٠٧، ١١٣.

لم يتوقف اهتمام الدولة بالقرآن الكريم والسنة النبوية عند هذا الحد، وإنما تعدى اهتمامها بهما إلى جعلهما المادة الأساسية في تربية وتعليم وتثقيف الكبار والصغار، وعدّ الاشتغال بهما تلاوة وتفقها من العبادات والأعمال الصالحة المأجورة.

فقد أخذ الخلفاء والأمراء الأمويون أنفسهم بتلاوة القرآن وخَتْمِه من وقت لآخر، وسأل الوليد بن عبد الملك أخاه عبد الله، كيف أنت والقرآن؟ فقال عبد الله: أختمه في كل جمعة، فأنت يا أمير المؤمنين؟ قال الوليد: وكيف مع ما أنا فيه من الشغل؟ إني أختمه مرة في كل ثلاث جمع[١]، ولم يكن الولاة في الأغلب بأقل من الخلفاء إقبالاً على قراءة القرآن وختمه، وكان ختمه يزداد مرات في شهر رمضان[٢].

واتخذ الأمويون لأولادهم المؤدبين من كبار العلماء والفقهاء القراء وأوصوهم بتربية أولادهم حسنا، فقال عتبة بن أبي سفيان أخو معاوية لمؤدب ولده، «... علّمهم كتاب الله... وروّهم من الحديث أشرفه... ومن الشعر أعفّه، ولا تُخْرِجْهم من بابٍ من العلم إلى غيره حتى يُحْكِمُوه»[٣].

وقال عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده: «علّم أولادي الصدق كما تعلمهم القرآن وعلّمهم الشعر»[٤]، وأوصى هشام بن عبد الملك مؤدب ولده أن يعلّمه القرآن، ويُروّه الأشعار وأيام الناس، ويأخذه بعلم الفرائض والسنن[٥]، وقيل أوصاه أن يأخذ ولده بكتاب الله ويُقريه في كل يوم عشر آيات ليحفظ القرآن، ويروّه من الشعر أحسنه، ويتخلل به مغازي رسول الله ﷺ، وطرفا من الحلال والحرام والخطب، ويصله بأهل الفقه والدين[٦].

---

(١) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ترجمة عبد الله بن عبد الملك.
(٢) ابن عبد الحكم/ فتوح مصر، ص: ٢٣٢، ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ترجمة الحجاج بن يوسف، الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة الوليد بن عبد الملك.
(٣) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ترجمة الوليد بن عبد الملك، ابن تغري بردي/ النجوم الزاهرة، ج١، ص: ١٢٣.
(٤) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ترجمة عبد الملك بن مروان.
(٥) أبو حنيفة الدينوري، الأخبار الطوال، ص: ٣٣٠.
(٦) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ترجمة سليمان بن سليم مولى كلب.

وكانت الدولة في عصر بني أمية تمتحن بالقرآن الكريم والسنّة النبوية والمعارف المتصلة بهما أرباب الوظائف وأصحاب المناصب والولايات وطلاب الحاجات من الناس، فلما دخل مروان بن الحكم مصر عام ٦٥هـ، سأل القاضي إن كان جمع القرآن وأحكم الفرائض[١]، وسأل عبد الملك بن مروان محمد بن مسلم بن شهاب الزهري إن كان قرأ القرآن بإعرابه وما ينبغي فيه من وجوهه وعلله، فلما تيقن عبد الملك ذلك من ابن شهاب، أمر له بجائزة وحثّه على متابعة طلب العلم[٢]، وعندما راح الحجاج بن يوسف يختار عرفاء الناس في الكوفة جعل قراءة القرآن، والعلم بالفرائض، والنظر في العربية، ورواية الشعر، والنظر في الحساب، ورواية مغازي الرسول ﷺ أساس المفاضلة في التعيين[٣].

وجاء رجل من بني مخزوم إلى الوليد بن عبد الملك يسأله في دينه، فقال له الوليد، أقرأت القرآن؟ قال الرجل: لا، فقرعه الوليد بالقضيب قرعات، وضمّه إلى من يقرؤه القرآن، وشكا عثمان بن يزيد بن عبد الملك بن خالد بن أسيد الأموي دَيْنا للوليد، فقال له الوليد: أقرأت القرآن؟ قال عثمان: نعم، فاستقرأه الوليد عشر آيات من الأنفال وعشر آيات من براءة، فلما قرأها، قضى عنه دَيْنه[٤].

وفي إطار العناية بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ظهر الاهتمام بالعربية والمغازي على نحو ما ورد في الشواهد السابقة، أما العربية فللصلة الوثيقة بينها وبين الكتاب والسّنة والحاجة إليها في فهمهما، ولذلك كان عبد العزيز بن مروان أمير مصر يعطي على العربية ويحرم على اللحن[٥]، وعد عبد الملك بن مروان من يلحن

(١) ابن عبد الحكم/ فتوح مصر، ص: ٢٣٤.
(٢) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ترجمة محمد بن مسلم بن شهاب الزهري.
(٣) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ترجمة عامر بن شراحيل الشعبي.
(٤) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص: ٤٩٦.
(٥) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ترجمة عبد العزيز بن مروان.

ولا يحسن العربية لا يصلح للخلافة[١]، وقال عمر بن هبيرة الفزاري أمير الجزيرة أيام عمر بن عبد العزيز، والله ما استوى رجلان دينهما واحد وعقلهما واحد ومروءتهما واحدة، أحدهما يلحن والآخر لا يلحن، إن أفضلهما في الدنيا والآخرة الذي لا يلحن، فقيل له: أصلح الله الأمير! هذا أفضل في الدنيا لفضل فصاحته، أما الآخرة فما باله أفضل فيها؟ قال عمر: أإه يقرأ كتاب الله على ما أنزله الله، وأن الذي يلحن يحمله لَحْنُه على أن يُدْخِلَ في كتاب الله ما ليس فيه ويُخْرِجَ منه ما هو فيه[٢].

وأما المغازي، فلكونها جزءاً من السنة النبوية، ولذلك تتّبعها رجال المغازي تتبّعهم لحديث رسول الله ﷺ، ودوّنوها ضمن كتب الحديث في بادىء الأمر، وامتدادا للإهتمام بالسيرة النبوية ومغازي الرسول ﷺ، نشأ في هذا العصر الاهتمام بالتاريخ أيضا استجابة للعوامل والبواعث الإسلامية والحاجات العملية المختلفة[٣].

والتفتت الدولة في هذا العصر إلى تعليم المسلمين عامة، وجعلته واجبا من واجباتها، وموّلته من خزينتها، ومن قبل، كتب والي الشام يزيد بن أبي سفيان إلى الخليفة عمر بن الخطاب يخبره حاجة أهل الشام إلى من يعلّمهم القرآن ويفقههم، فأرسل عمر ثلاثة من الصحابة هم أبو الدرداء وعبادة بن الصامت ومعاذ بن جبل، كان كل واحد منهم جمع القرآن في زمان النبي ﷺ، فَحَلّ عبادة في حمص، وأبو الدرداء في دمشق ومعاذ في فلسطين[٤]، وقاموا بما أوكل إليهم خير قيام، وانتظم الطلاب من حولهم في حلقات الدرس والتعليم، وقيل بلغ عددهم حول أبي الدرداء في دمشق ألفا وستماية ونيفا[٥]، وحول عبد الله بن مسعود في العراق أربعة آلاف[٦].

---

(١) الذهبي/ تاريخ الإسلام، حوادث ووفيات ٨١-١٠٠هـ، ترجمة الوليد بن عبد الملك، ص: ٤٩٧.

(٢) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ترجمة عمر بن هبيرة الغزاري.

(٣) أنظر: شاكر مصطفى/ التاريخ العربي والمؤرخون، ج١، ص: ٥٧-٦٧.

(٤) أنظر: ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ترجمة عبادة بن الصمت.

(٥) المصدر نفسه: ترجمة أبي الدرداء.

(٦) السرخسي/ المبسوط، ج١٦، ص: ٩٨-٩٩.

وقد أدت الجهود المبذولة في تعليم الناس القرآن وشرائع الإسلام إلى قيام نهضة علمية مباركة قادها من بعد هؤلاء الشيوخ علماءُ تخرّجوا على أيديهم واستعانت بهم الدولة في نشر العربية والإسلام بين الناس بَدْواً وحَضَراً، وفي صفوف الجند، وأهل البلاد المفتوحة.

فقد اختار حسان بن النعمان رجالا من علماء التابعين وجعلهم بين البربر يعلمونهم القرآن ويفقهونهم في الدين، واتخذ الكتاتيب لتعليم الصبيان القراءة والكتابة، واختار موسى بن نصير أهل الصلاح، وجعلهم يعلمون البربر القرآن والحلال والحرام، وترك في طنجة سبعة عشر رجلا من العرب لتعليم الناس القرآن وشرائع الإسلام(١)، وبعث عمر بن عبد العزيز يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن يمجد الأشعري يفقهان الناس في البادية، وأجرى عليهما رزقا فأخذ يزيد أجرا، وأبى الحارث أن يأخذ أجرا واحتسب عمله في سبيل الله(٢).

ووجه عمر بن عبد العزيز عام ١٠٠هـ عشرة من فقهاء التابعين إلى أفريقية كلهم ثقات برئاسة إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر لتعليم البربر مبادىء الإسلام وتفقيههم في الدين، فاختط كل واحد منهم دارا بالقيروان، وبنى بحذائها مسجدا لعبادته ومجالسه، واتخذ كُتّاباً لتعليم القرآن والعربية(٣)، وكان لهم ولمن سبقهم فضل كبير في دخول الكثير من البربر في الإسلام، وتبصير الناس بالحلال والحرام، وإعداد العلماء من العرب والمستعربة من أهل البلاد المفتوحة، وقد قاد هؤلاء العلماء النابتة حركة التعريب والإسلام، وعززوا بجهودهم الهوية الإسلامية لأهل البلاد المفتوحة، وأرسوا دعائم انتمائهم إلى أمة الإسلام في العقيدة والفكر.

(١) ابن عذارى المراكشي/ البيان المغرب، ج١، ص: ٤٢، ٤٣.

(٢) أبو عبيد/ الأموال، ص: ٣٧٢-٣٧٣.

(٣) أبو العرب/ طبقات علماء إفريقية وتونس، ص: ٢٠، ٢١. ابن عذارى المراكشي/ البيان المغرب، ج١، ص: ٤٨. المالكي/ رياض النفوس ج١، ص: ١٠٠، ١٠٣، ١١٠، ١١٢، ١١٤، ١١٦، ١١٨، ١٢١.

والأمثلة على الجهود التي بُذلت في أيام بني أمية لنشر الإسلام وثقافته كثيرة، وهي تشير إلى جِدّية الدولة وإخلاصها في القيام على حركة التعريب والإسلام وتجنيد العلماء في خدمة هذه الحركة وبذل النفقة في هذا الوجه بسخاء، وبَنَتْ ووسّعَتْ المساجد في المدن والأمصار الإسلامية المختلفة[1]، ناهيك عن جهود أهل الصلاح والخير والعلم الذين تطوعوا لنشر الإسلام وتعميم الثقافة الإسلامية احتسابا يبتغون بجهادهم من الله رضوانا.

الاقتصاد:

نظام الاقتصاد في الإسلام ليس جمعيا تباشر الدولة فيه كل شيء، وليس فرديا يباشر الأفراد فيه كل شيء، وإنما هو نظام وَسَطِيٌّ للفرد والجماعة والدولة فيه حظ بيّن، وعندما يقف الفرد عاجزا عن تلبية وخدمة مقتضيات الإنتاج وتوفير وسائله، تقوم الدولة تباشر حمل مسؤولياتها إزاء ذلك.

كان الأمن والحماية من أولى الواجبات التي تصدّت الدولة لتوفيرها لأصحاب الإنتاج من المزارعين والتجّار والصنّاع وأصحاب المهن المختلفة فدفعت عنهم أذى الخارجين على الدولة والمنشقّين من العساكر، وعملت على حمايتهم من تعدّياتهم، ووفّرت لهم الأمن النفسي والاجتماعي ليعطوا أفضل ما يقدرون عليه، وأخذت عمّالها باجتناب الإساءة إليهم، وحذرتهم عاقبة الظلم والجور على العمران، فقال: زياد بن أبيه لعمّال الخراج في ولايته، أحسنوا إلى المزارعين فإنكم لا تزالون سِمَاناً ما سَمِنُوا[2]، وكتب الحجاج بن يوسف الثقفي إلى عبد الملك بن مروان يستأذنه في أخذ الفضل

(١) انظر: ابن عبد الحكم/ سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: ١٦٠، الذهبي/ سير أعلام النبلاء، ترجمة الوليد بن عبد الملك، حيث ورد عن الوليد أنه كان يعطي القراء قصاع الفضة، وأما بناء المساجد والنفقة عليها ففي مساجد مكة والمدينة ودمشق وبيت المقدس والفسطاط والقيروان وتونس ومرو ونيسابور وسائر المساجد الأخرى التي أنفقوا في بنائها وتوسيعها الأموال الطائلة أمثلة على ذلك.

(٢) ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار ص: ١٠.

من أموال الفلاحين في العراق فكتب إليه عبد الملك، لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك، وابْقِ لهم لحوماً يعقدون عليها شحوما[١]، والأمثلة في هذا الاتجاه كثيرة، وهي تشير إلى حرص الدولة على حفظ التوازن بين أطراف العلاقة للإبقاء على عجلة الاقتصاد من جانب المنتجين، وقدرة الدولة على الرعاية مستمرة في الحركة، وعندما تعرض الاقتصاد للتدهور، والأمن الغذائي للجماعة بالتهديد، والموارد المالية للدولة للانكسار، بهجرة الفلاحين إلى المدن وترك زراعة الأرض مدفوعين بجاذبية سوق العمل في المدن وإغراءاته، والتخلّص من عناء الزراعة ومتعلقاتها، عمدت الدولة في ولاية الحجاج على العراق وقرة بن شريك على مصر إلى إعادة الفلاحين إلى قراهم[٢] لإقامة التوازن بين أطراف العلاقة، وحفظ الحقوق والواجبات الموزعة بينها وفق الشروط والمعاهدات وضمن المنظور الإسلامي العام للحياة.

ومّدت الدولة يد المساعدة والعون وتقديم القروض المالية للفلاحين عند وقوع الكوارث والفتن التي ألحقت الأضرار بالمحاصيل وتركت الفلاحين ضعفاء لا يقوون على استغلال الأرض، فأسلف الحجاج الفلاحين في العراق مليوني درهم، وعمل على توفير الأيدي العاملة، وحظر ذبح البقر لتكثر الحراثة والزراعة[٣]، وبقيت بقية في بيت مال المسلمين في العراق أيام عمر بن عبد العزيز فكتب عمر إلى والي العراق، «أنظر من كانت عليه جزية (خراج الأرض) فضعف عن أرضه، فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين»[٤].

(١) الماوردي/ الأحكام السلطانية، ص: ١٤٩.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه ج٦، ص: ٣٨١، جروهمان/ أوراق البردي، القاهرة، ١٩٥٢م.

(٣) ابن خرداذبة/ المسالك والممالك، ص: ١٥، ابن رستة/ الاعلاق والنفسية، ص: ١٠٥.

(٤) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ترجمة عمر بن عبد العزيز.

وَرَعَتْ الدولة تأمين وصول المياه إلى الأرض الزراعية من خلال كري وحفر الأنهار، وشق الترع والقنوات وسد البثوق، وتحمّلت النفقة عليها إن كانت النفقة على ذلك مما يلزمها(١).

وعملت الدولة على زيادة رقعة الأرض المزروعة، وتنشيط الحركة الاقتصادية، فاقطعت الأراضين من أراضي بلاد الشام ومصر والعراق لاستغلالها وزراعتها، واستخدمت أسرى الحروب في تنفيذ مشاريع استصلاح الأرض وتجفيف المستنقعات، وعلى سبيل المثال، حوّلت أرض الموات في بلاد الشام أيام معاوية بن أبي سفيان إلى حقول ومروج وحدائق وبساتين وكروم ذات عطاء عظيم(٢).

وبنى عبد العزيز بن مروان مدينة حلوان، وأقام فيها الدور والمساجد وعمّرها وأحسن عمارتها وأحكمها وغرس نخلها وكرمها(٣)، وشجع قرة بن شريك زراعة قصب السكر، وأحيا الأرض الموات، واستنبط بركة الحبش من الموات وأحياها وغرس فيها القصب، وشجّع التجارة في الفسطاط، وأعفى تجار الكور من الرسوم مقابل بيعهم نصف بضاعتهم في الفسطاط، وحارب الغلاء ومنع الاحتكار(٤)، وأوصى هشام بن عبد الملك عامله على مصر بالعمارة(٥).

وطلب عمر بن عبد العزيز من والي العراق أن يدفع الأرض غير المزروعة إلى من يزرعها، فإن لم يجد، فليزرعها ولينفق عليها من بيت مال المسلمين(٦).

---

(١) أبو يوسف/ الخراج، ص:٩٤-٩٨،١١٠. البلاذري/ فتوح البلدان، ص:٣٥٥-٣٥٦. أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص:١٠٢،١٥٢.

(٢) بليايف/ العرب والإسلام والخلافة العربية، ص:٢١١.

(٣) المقريزي/ الخطط، ج١، ص:٣٩٢.

(٤) المصدر نفسه،ج١،ص:٥٦٧.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص:١٨٢.

(٦) يحيى بن ادم/ الخراج، ص:٥٩.

وقد ساهم بناء المدن في العصر الأموي مثل القيروان وحلوان وواسط وتونس والرملة وبلخ وغيرها في تنشيط الحياة الاقتصادية، فوجود المحال والأسواق التجارية في المدن، وإنشاء المرافق المختلفة فيها لتقديم وتأمين الخدمات للناس من أهلها والوافدين عليها فَتَحَ باب العمل فيها وجذب الأيدي العاملة إليها، ووجد أهل الريف من حول هذه المدن مجالاً لتصريف وبيع إنتاجهم الزراعي فيها، ونشطوا في زراعتهم لتلبية حاجاتها من المواد الغذائية والتموينية، ونشطت تبعاً لذلك حركة التجارة الداخلية.

واهتمت الدولة بالتجارة الخارجية أيضا، وكان ما عمله عبد الرحمن بن حبيب الفهري مثالاً على ذلك، فقد اعتنى هذا الوالي بطريق القوافل الممتدة بين جنوب مراكش وأودغشت، وحفر عدة آبار ماء جديدة لتيسير وصول القوافل إلى أرض السودان الغربي من قارة أفريقيا للحصول على الذهب والموارد الأخرى ونشر الإسلام والعربية في تلك البلاد[1]، ولم يكن اهتمام الدولة بالطرق التجارية التي كانت تصل دار الإسلام ببلاد آسيا وأوروبا بأقل من ذلك، فقد بسطت رعايتها وحمايتها للتجار جميعا.

وفي خاتمة هذا الحديث الموجز، لابد من الإشارة الى أن العلاقة بين الدولة والقوى المنتجة الممثلة بالفلاحين والتجّار والصنّاع وأمثالهم لم تكن حسنة على الدوام، رغم ما قد تتركه قراءة الإنجازات الآنفة الذكر في ذهن القارىء من صورة حسنة لهذه العلاقة. فمحاولات القوى المنتجة للتخلص من التزاماتها وواجباتها المالية مع حرص الدولة على استيفاء الأموال المستحقة عليهم واللازمة لاستمرار رعايتها وقوامتها دفع الدولة إلى انتهاج الشدة في التعامل مع هذه الأطراف لمعالجة الموقف، مما أدى إلى اهتزاز العلاقة بين الجانبين في كل مرة اتّبعت الدولةُ الشدّةَ في استيفاء الأموال المستحقة لها عليهم.

---

(١) معهد البحوث والدراسات العربية/ تجارة القوافل ودورها الحضاري، ص: ٣٠،١٤٩-١٥٦.

النقود (العملة):

كانت النقود المتداولة بين العرب قبل الإسلام دنانير ذهب ودراهم فضة، أما الدنانير فكانت تَرِد إليهم من بلاد بيزنطة، وذُكِرَتْ باسم الدنانير الهرقلية والقيصرية والرومية، وأما الدراهم فكانت تأتيهم من بلاد الفرس، وذُكِرَتْ باسم الدراهم الكسروية والفارسية، وكانت تأتيهم دراهم حميرية من اليمن أيضاً ولكنها كانت قليلة[١].

لم تكن هذه الدنانير والدراهم مقدّرة بوزن معين واحد، وإنما كانت متفاوتة في الأوزان، ولذلك كان الناس يتعاملون بها بينهم وزنا، ولو كانت مقدرة بوزن معين واحد لتعاملوا بها عددا[٢].

فلما بعث الله محمدا ﷺ رسولا، أقرَّ النقود في الإسلام على ما كانت عليه من قبل، وتعلّقت بالنقود كثير من الأحكام الشرعية في أمور الزكاة والأنكحة والحدود وغيرها، فَفُرِضَتْ الزكاة، على سبيل المثال، في الأموال في كل خمس أواقي من الفضة الخالصة، أي في مائتي درهم، فُرِضَتْ خمسة دراهم، وفي كل عشرين دينارا فُرِضَ نصف دينار[٣]، وكان الدرهم الشرعي هو الذي تزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب، أي سبعة دنانير، وتزن الأوقية منه أربعين درهما، ويزن كل درهم منه ستة دوانق[٤]، وهو ما يساوي خمسين حبة شعير وخُمْسا حبة، ووزن المثقال من الذهب وهو الدينار، اثنتان وسبعون حبة من الشعير[٥].

---

(١) البلاذري/ فتوح البلدان، ص:٥٧١،٥٧٢. المقريزي/ إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص:٤٨،٥١. محمد المناوي/ النقود والمكاييل والموازين، ص:٤٥. انستاس الكرملي/ النقود العربية، ص:٢٣.

(٢) ابن خلدون/ المقدمة، ص:٣١٩-٣٢٠.

(٣) الشافعي/ الأم، ج٢،ص:٤. أبو عبيد بن سلام/ الأموال، ص:٥٥٩-٥٦٠. الماوردي/ الاحكام السلطانية، ص:١١٩.

(٤) الماوردي/ الأحكام السلطانية، ص:١١٩.

(٥) المقريزي/ إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص:٥٠. محمد المناوي/ النقود والمكاييل والموازين، =

كان الدرهم الشرعي والدينار الشرعي معلومي المقدار، ولكن ذلك كان في الذهن، ولم يكونا مشخّصين في الخارج، أي لم يكونا موجودين على شكل قطع نقدية متداولة بين الناس بالأوزان الشرعية الآنفة الذكر[1]، ولذلك كان المسلمون لأجل إخراج الزكاة من الدراهم على سبيل المثال، يُخْرِجون خمسة دراهم وَسَطاً من كل مائتي درهم من الدراهم التي يملكونها، وكانت في ذلك الوقت دراهم بغلية ويساوي الدرهم منها ثمانية دوانق، ودراهم طبرية ويساوي الدرهم منها أربعة دوانق، وقيل بالعكس، فكان الدرهم الوسط يساوي ما مقداره ستة دوانق وهو مقدار الدرهم الشرعي، وكانوا يحصلون على ذلك بالوزن، وعلى أساس هذا التقدير، وإجراء النسبة بين المقدار الشرعي للدرهم المعلوم في الذهن والمقدار المشخّص للدراهم الموجودة في التداول، كان يَتِمُّ إخراج الزكاة[2]، وفي ذلك بعض المشقة.

وأما عدم سك نقد شرعي في أيام الرسول ﷺ فربما كان يرجع إلى اشتغال الدولة بما هُوَ أَهمّ، وعدم ظهور الحاجة المُلحّة إلى ذلك، وضعف الإمكانيات المتوفرة اللازمة للقيام بعملية سك النقود.

واستمر الحال في خلافة أبي بكر على ما كان عليه في عهد الرسول ﷺ، وقدمت الوفود على عمر بن الخطاب، وكلّمَهُ وفد البصرة في مصالح أهل البصرة، فكان من وجوه الإرفاق بهم أن ضرب الدراهم حينئذ وكانت على نقش الكسروية، غير أنه زاد في بعضها «الحمد لله» وفي بعضها «لا إله الا الله وحده»، وكان وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل، وهذا يشير إلى أن الدولة لم تكن ممسكة بعملية سك النقود بعد، وأنها وسط ظروف الفتح والانتشار الواسع للمسلمين في البلاد المجاورة لم تعط سك النقود

= ص:٤٨. والدانق يساوي ثماني حبات وخمسا حبة من حبات الشعير المتوسطة التي لم تقشر، وقد قطع من طرفيها ما امتد.

(١) ابن خلدون/ المقدمة، ص:٣٢٢.

(٢) ابن خلدون/ المقدمة، ص:٣٢٢.

الاهتمام اللازم، وَسُكّت بعض الدراهم في خلافة عثمان، وكان نقشها «الله أكبر»، ولا إشارة إلى مقدارها[١].

وأول إشارة إلى سك النقود بالمقادير الشرعية تعود إلى خلافة معاوية بن أبي سفيان، ففي خلافة معاوية التي اتصفت بالاستقرار ضربت الدراهم من وزن ستة دوانق، وضرب زياد بن أبيه في العراق الدراهم وزن كل عشرة منها سبعة مثاقيل، ولما ناهض عبد الله بن الزبير الأمويين وقام بأمر الخلافة، ضرب بمكة الدراهم المستديرة، ونقش على أحد وجهيها «محمد رسول الله»، وعلى الوجه الاخر «أمر الله بالوفاء والعدل»، وضرب مصعب الدراهم بالعراق، وجعل كل عشرة منها سبعة مثاقيل، وأعطاها الناس في العطاء[٢].

ويبدو أن ما ضرب من هذه النقود حتى هذا الوقت لم يكن بالقدر الكافي الذي يحل محل النقود القديمة المتداولة بين الناس، وظلت القديمة موجودة في التداول إلى جانب النقود المضروبة الجديدة، وفي مثل هذه الحالة كان لإتمام المعاملات وأداء الحقوق، تجري المناسبة بين هذه الأوزان المختلفة والأوزان الشرعية، فعلى سبيل المثال، كانت الدراهم بالكوفة أيام زياد بن أبيه يزن الواحد منها ستة دوانق تقريبا ويزن الواحد من دراهم البصرة سبعة دوانق تقريبا، فجعل زياد الدراهم في الدِّيَة لأول مرة، وقَدَّرَ الدِّيَةَ بعشرة الاف درهم من دراهم البصرة، واثني عشر ألف درهم من دراهم الكوفة، وقوّم الجذعة وابن مخاض وما بينهما من الإبل بعشرين ومائة درهم للواحد منها من الدراهم التي يزن الدرهم الواحد منها ستة دوانق[٣].

(١) المقريزي/ إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص: ٥٢. المناوي/ النقود والمكاييل والموازين، ص: ٦٩-٧١. انستاس الكرملي/ النقود العربية، ص: ٣١-٣٢.

(٢) المقريزي/ إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص: ٥٢-٥٣. المناوي/ النقود والمكاييل والموازين، ص: ٧٢-٧٤، انستاس الكرميلي/ النقود العربية، ص: ٣٣-٣٤.

(٣) البلاذري/ أنساب الأشراف، ج٤، ق١، ص: ٢٠٤.

وبعد أن استوثق الأمر لعبد الملك بن مروان واجتمع المسلمون عليه عام ٧٤هـ، التفت إلى مسألة «النقود» وموضعها من الناس، وما يتطرق إليها من الغش والفساد، وما يلحق الناس من الغبن والحيف، وما يقع من الخلل والنقص في الوفاء بالواجبات والحقوق وأداء العبادات والتكاليف الشرعية، وعزم على ضبط عيارها، وسكها على المقدار الشرعي، وتعريبها، فاتّخَذَ دورَ ضربٍ خاصة بالدولة لسك النقود في المركز والولايات، وبدأ بضرب الدنانير الدمشقية منذ عام ٧٤هـ، وكتب إلى الحجاج بن يوسف الثقفي أن يضرب الدراهم في العراق، فضربها منذ عام ٧٥هـ(١).

استوفت النقود المضروبة المواصفات الشرعية، فكان كل سبعة مثاقيل فيها تزن عشرة دراهم، وكان الدرهم يساوي ستة دوانق، وبذلك وافقت سنة الرسول ﷺ، ونقش عليها اسم الله تعالى، وايات قرآنية، واسم رسول الله ﷺ كما نقش عليها اسم الخليفة، ومكان ضربها وزمانه، وللحفاظ على عيار الدينار من عوادي الأيام بالزيادة أو النقصان، جعل عبد الملك للدنانير مثاقيل من زجاج حتى لا تتاثر بالجفاف والرطوبة(٢)، فضمن بذلك أن تكون الدنانير المضروبة ذات أوزان واحدة وثابتة.

طرحت الدولة النقود الإسلامية المضروبة للتداول بين الناس، وأمرت بمنع التداول بالنقود القديمة، وطلبت إلى الناس أن يُقَدّموا ما في حوزتهم منها إلى دور الضرب لسكها على السكة الإسلامية(٣)، واتخذت العقوبات الصارمة بحق من يضرب على غير السكة الإسلامية، واتّبَعَ الخلفاء والولاة من بعد، الحزم والشدة في العيار وتخليص النقود من الغش وتجويدها، فعاقب عمر بن عبد العزيز مَنْ ضَرَب على غير سكة المسلمين وسجنه، وطرح حديدته في النار، وخلّص عمر بن هبيرة الفزاري والي العراق

---

(١) البلاذري/ فتوح البلدان، ص: ٥٧٥-٥٧٧. المقريزي/ إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص: ٥٣-٥٥.

(٢) ابن خلدون/ المقدمة، ص: ٣٢٢. محمد المناوي/ النقود والمكاييل والأوزان، ص: ٦١-٦٣، ٧٨-٨٠. انستاس الكرملي/ النقود العربية، ص: ٣٦.

(٣) محمد المناوي/ النقود والمكاييل والأوزان، ص: ٦٥-٦٦، ٧٣-٨٣.

الفضة أبلغَ من تخليص مَنْ قَبْلَهُ، وجوّد الدراهم واشتدّ في العيار، واشتدّ خالد بن عبد الله القسري من بعد أكثر من شدّة ابن هبيرة في النقود، وأحكم أمرهم أبلغ من أحكامه، وأفرط يوسف بن عمر الثقفي في الشدّة على الطبّاعين وأصحاب العيار وقَطَعَ الأيدي وضَرَبَ الأبشار، فكانت النقود الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود نقود بني أمية[1]. وقد أقام هذا الإنجاز في مجال الإصلاح النقدي العلاقات الاقتصادية بين الناس من معاملات وغيرها، وإجراء أحكام الشرعية في الأمور المختلفة على أسس واضحة، وتصريفها بسهولة ويسر، وبعث الاطمئنان في النفوس إلى التعامل بهذه النقود عَداً لا وزناً.

---

(١) البلاذي/ فتوح البلدان، ص: ٥٧٤-٤٧٨. المقريزي/ إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص: ٥٨-٥٩.

المكاييل والأوزان:

تناول الإسلام أمور الاقتصاد في الحياة كموضوع النقود كما رأينا، والمكاييل والموازين، وأكد على إقامة المكاييل والموازين بالقسط وعدم الطغيان والتطفيف فيها[١]، ودعا الرسول ﷺ للمدينة في مُدّها وصاعها، وقال: «اللهم بارك لهم في مكيالهم، وبارك لهم في صاعهم ومُدّهم»[٢]، يعني أهل المدينة، وروي عنه أنه قال: «المكيال مكيال المدينة، والميزان ميزان مكة»، وفي رواية أخرى «المكيال على مكيال أهل المدينة، والوزن على وزن أهل مكة»[٣].

اتخذ الرسول ﷺ الصاع مكيالا شرعيا علّق به بعض أحكام العبادات مثل صدقة الفطر وصدقة الأرضين وكفارة اليمين وفدية النسك[٤]، ولذلك قال أبو عبيد بن سلّام: «فعلى هذا الصاع تدور أحكام المسلمين في كل ما ينوبهم من أمر الكيل في دينهم: من ذلك زكاة الأرضين وصدقة الفطر وكفارة اليمين وفدية النسك»[٥]، وصار الوحدة الأساسية في تقدير المكاييل المختلفة الأخرى عند أداء الواجبات الشرعية، ومن هذه المكاييل ما ورد في الآثار المروية عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين كالفرق والعرق والوسق، والقسط والمختوم والقفيز والمكوك والمدي، وبعضها من مكاييل العراق مثل المكوك والقفيز، وبعضها من مكاييل الشام مثل المدي، وبعضها من مكاييل مصر مثل الويبة والأردب[٦].

---

(١) انظر: سورة هود الايتان: ٨٤، ٨٥، سورة يوسف اية ٧٢، سورة الرحمن الآيات ٧-٩، سورة المطففين الآيات ١-٣.

(٢) انظر: البخاري، صحيح البخاري، باب بركة صاع النبي، ج٢، ص: ٨٩، مالك الموطأ ج٢، باب الدعاء للمدينة وأهلها، ص: ٨٨٤-٨٨٥، صالح الرفاعي الاحاديث الواردة في فضائل المدينة، ص: ٢١٥-٢٣٢.

(٣) أبو داود، السنن، كتاب البيوع، أبو عبيد بن سلام، الأموال، ص: ٦٩٦.

(٤) انظر: الشافعي، الأم، كتاب الزكاة، ج٢، ص: ٢٥-٢٦، ٣٠، ٥٣، ٥٥.

(٥) أبو عبيد بن سلام، الأموال، ص: ٦٩٩.

(٦) انظر: البخاري، صحيح البخاري، باب الكفارات، مسلم صحيح مسلم، كتاب الصيام، =

وقد أعان تحديد وزن الصاع النبوي والمحافظة عليه وصونه من التغيير بالزيادة والنقص على أن يكون وحدة كيل أساسية في تقدير المكاييل المختلفة عند أداء التكاليف الشرعية، فالمثقال كان وزنه في اباد الدهر مؤقتاً محدوداً[1]، ولم يُخْتَلَف عليه من حين وُضِعَ في جاهلية ولا إسلام، وكل سبعة منه كانت تساوي وزن عشرة من الدراهم التي واحدها ستة دوانيق، وقد حسب وزنه بحبات معدودة من الشعير كما مَرّ أو من الخردل، وبمضاعفة عدد حبات الشعير أو الخردل المعدودة للمثقال الواحد أو تجزئتها إلى أجزاء متساوية كان يصنع صنجات من مضاعفات المثقال وأجزائه، وحسب النسبة السابقة الذكر بين المثقال والدرهم رُكِّبَ الدرهم، وسمي هذا الدرهم الدرهم الشرعي، ودرهم الكيل لأن الرطل الشرعي منه تَرَكَّبَ، ورُكِّبَ من الرطل المُدّ، ومن المُدّ الصاع[2]، وهذا الكيل والوزن هو الذي أقرّه الرسول ﷺ، وعندما دار النقاش في المدينة المنورة أيام الحج بين مالك بن أنس وأبي يوسف قاضي الرشيد أمام هارون الرشيد حول وزن الصاع النبوي[3]، أحضروا بعض الآصع التي كان أهل المدينة يخرجون بها زكاة الفطر أيام الرسول ﷺ، فوجدوا وزن الصاع منها خمسة أرطال

= كتاب الفتن، أبو داود، السنن، كتاب الخراج، أبو عبيد سلام، الأموال، ص:٦٨٨-٦٩٩، البلاذري، فتوح البلدان، ص:٣٢٩،٣٣٠، ابن حنبل، المسند، ج٢، ص:٢٦٢، ج٣،ص٣١٧،الكندي، الولاة، ص:٧٨-٧٩، ابن الرفعة، الإيضاح والتبيان، ص:٦٤-٧٥، فالصاح أربعة أمداد، والفرق ثلاثة اصع، والوسق ستون صاعا، والمختوم هو الصاع بعينه، والقفيز صاع، والمكوك صاعان ونصف، وقيل صاع ونصف، والعرق خمسة عشر صاعا، والقسط نصف صاع، والمدي خمس عشر مكوكا منها صاع ونصف فهو اثنان وعشرون صاعا ونصف الصاع، والأردب أربع وعشرون صاعا، والويبة اربع اصع، ولهذه المكاييل تقدير حسب أنظمة الموازين والمكاييل المستعملة في أيامنا الحاضرة.

(١) أبو عبيد بن سلام، الأموال، ص:٧٠١.

(٢) المناوي، النقود والمكاييل والأوزان، ص:٣٦،٤٨، ٥٠-٥٢، ٥٤، ٦٧، ٧٣.

(٣) كان الرشيد قد حج في الأعوام ١٧٠هـ، ١٧٣هـ، ١٧٤هـ، ١٧٥هـ، ١٧٧هـ، ومات في عام ١٩٣هـ، أما مالك بن أنس فمات في ربيع أول من عام ١٧٩هـ، ومات أبو يوسف قاضي الرشيد عام ١٨٢هـ.

وثلث الرطل البغدادي[1]، ولذلك رجع أبو يوسف إلى قول أهل المدينة في مقدار وزن الصاع النبوي بعدما كان يعتقد أن وزن الصاع النبوي ثمانية أرطال، وبخصوص وزن الصاع النبوي قال أبو عبيد بن سلام: وأما أهل الحجاز فلا اختلاف بينهم فيه أَعْلَمُه، أن الصاع عندهم خمسة أرطال وثلث، يعرفه عالمهم وجاهلهم، ويباع في أسواقهم ويحملُ عِلْمَهُ قَرْنٌ عن قَرْن[2]، أي أمّة بعد أمّة، وَبَربْط الكيلِ بالوزن عرف بالميزان حال المكيال، وبمعرفة وزن الصاع النبوي كان يسهل على الناس إجراء المناسبة والمعايرة بينه وبين المكاييل الأخرى.

وتواصت الدولة بالمحافظة على الصاع من التغيير زيادة أو نقصاً، ففي خلافة معاوية، قام أمير المدينة مروان بن الحكم بجمع الصيعان وعاير بينها حتى أخذ أعدلها، وأمر أن يكال به، فقيل صاع مروان، وليست بصاع مروان، وإنما هي صاع رسول الله ﷺ، ولكن مروان عاير بينها حتى قام الكيل على أعدلها، أي حتى أقامها على صاع الرسول ﷺ[3].

وعندما قام عبد الملك بن مروان بإصلاح النقود، فَحَصَ عن المكاييل والأوزان أيضا وقام الحجاج بن يوسف باتخاذ القفيز في العراق وجعله على مثال الصاع النبوي، وقد عرف بالمختوم الحجاجي، وأما وصفه بالحجاجي فنسبة إلى الحجاج، وأما المختومي فلأن الحجاج والأمراء من بعده كانوا يجعلون على أعلاه خاتما مطبوعا لئلا يزاد فيه ولا ينتقص منه[4]، وسرى اتخاذ المكاييل المختومة إلى الأمصار الإسلامية الأخرى[5].

---

(١) الرطل البغدادي يساوي ١٢٨ درهم، وهو الرطل الشرعي (أبو عبيد بن سلام، الأموال، ص: ٧٠٠).

(٢) أبو عبيد بن سلام، الأموال، ص: ٦٩٥.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج٥، ص: ٤٣.

(٤) أبو عبيد بن سلام، الأموال، ص: ٦٩٣، ٦٩٤، البلاذري، فتوح البلدان، ص: ٣٣٠.

(٥) سامح فهمي، المكاييل في صدر الإسلام، ص: ٣٧، ٨٢، ٨٤-٨٥، ٨٩، ١١٥-١٢٠.

ورفع إلى والي أرمينيا الجراح بن عبد الله الحكمي أيام يزيد بن عبد الملك اختلاف مكاييلها وموازينها، فأقامها الجرّاح على العدل والوفاء، واتخذ مكيالا يدعى الجرّاحي ظل ساري المفعول من بعده[1]، وكان مثل الصاع الذي كان على عهد الرسول ﷺ[2].

وهكذا رعت الدولة أيام بني أمية المكاييل والأوزان الشرعية صَوْناً لما تَعَلّق بها من الأحكام والمعاملات الشرعية في حياة الناس، وأخذت الناس بها عن طريق رجال الحسبة والشرط.

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص: ٢٤٣.

(٢) ابو جعفر الطبري/ اختلاف الفقهاء ص٢٢٣.

الإدارة:

عملت الدولة على تطوير الجهاز الإداري الذي ورثه من أيام الخلفاء الراشدين، وأحدثت من الدواوين بقدر ما كان يستَجِدّ من المصالح اقتضاء لرعاية أمور الناس وتسيير شؤون الدولة مثل ديوان البريد والرسائل والخاتم الصغير والخاتم الكبير والنفقات وبيوت الأموال والخزائن والمستغلات والطراز والصدقات والزمنى وغيرها، واستحدثت الدولة لمراقبة عمل هذه الدواوين ديوان الزمام، وبدأ العمل به منذ ولاية زياد بن أبيه على العراق[1]، وكان يعرف بمصر بديوان المحاسبة، وسماه عبد الملك بن مروان بن موسى ابن نصير الذي ولي مصر عام ١٣١هـ، ديوان الزمام[2].

وكانت دواوين الخراج في البلاد المفتوحة تستعمل في كتابة سجلاتها اللغات الرسمية في هذه البلاد، فكانت دواوين العراق وخرسان تستعمل الفهلوية (الفارسية)، وكانت دواوين الشام تستعمل اليونانية (الرومية)، وكانت دواوين مصر تستعمل اليونانية والقبطية، فلما اتجهت الدولة في خلافة عبد الملك إلى تعريب الإدارة، وعرّبت العملة كما رأينا، أخذت تعرّب هذه الدواوين انسجاما مع سياستها في بلوغ الوحدة في مجال الفكر والثقافة والإدارة والسياسة على أساس العربية والإسلام، ومن أجل رفع مستوى الإشراف على أداء هذه الدواوين، فعرّبت دواوين الخراج في العراق عام ٧٨هـ، وفي الشام عام ٨١هـ، وفي مصر عام ٨٧هـ، وفي خراسان عام ١٢٤هـ، ودوّن ونظّم حسان ابن النعمان الدواوين في بلاد أفريقية عام ٨٣هـ[3].

---

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٤، ق١، ص: ١٧٦، فتوح البلدان، ص: ٥٦٩.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق ترجمة عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير، الكندي، الولاة ص: ٦٧، البلاذري، فتوح البلدان، ص: ٣٦٨-٣٦٩، المقريزي، الخطط، ج١، ص: ١٨٢، ٥٦٧، ابن عذاري المراكش، البيان المغرب، ج١، ص: ٣٨.

(٣) انظر: خليفة بن خياط تاريخه، ص: ٢٩٩، الجهشياري، الوزراء والكتاب، ص: ٦٧، البلاذري، فتوح البلدان، ص: ٣٦٨-٣٦٩، المقريزي، الخطط، ج١، ص: ١٨٢، ٥٦٧، ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج١، ص: ٣٨.

إنشاء المدن والعناية بها:

المدينة مَعْلَمٌ من معالم الإسلام منذ أن تحولت يثرب إلى «المدينة» عند قيام الدولة الإسلامية فيها، تلاها قيام مدن البصرة والكوفة والفسطاط وغيرها في ظل الخلفاء الراشدين، ثم القيروان وتونس وواسط والمنصورة والرصافة وغيرها في ظل الخلفاء الأمويين، وكانت الدولة تُقْبِلُ على إنشاء المدن لأغراض إقامة الناس وتثبيت الفتح الإسلامي ونشر الإسلام وتلبية الحاجات الإدارية، وكانت تتخيّر عند إنشاء المدن ما اتّصف من البقاع بحسن الموقع وطيب الهواء وخصوبة الأرض ووجود المياه المستعذبة، وتعمل على تزويدها بما يلزم من الخدمات الضرورية للسكان، ومدينة واسط مثال على ذلك.

فقد أنشأ الحجاج بن يوسف مدينة واسط ما بين أعوام (٨٣هـ وحتى٨٦هـ) - في أرجح الأقوال - في مكان يتوسط بين الكوفة والبصرة والأهواز وبلاد الجبل، ويمتاز بخصوبة أرضه ووفرة مائه وكثرة زراعته، فبنى دار الإمارة والمسجد الجامع متلاصقين لاجتماع الامارة والامامة في الإسلام بشخص واحد وعدم انفصالهما إلى سياسة ودين، وجعلها مركز المدينة ليكون موضعهما قريبا من كل موضع في المدينة، وخطّ من حولها الخطط وجعل فيها المساجد ونظّم الشوارع والسكك والأزقّة الفرعية المتصلة بهذه الشوارع، وجعلها تتجه نحو المسجد الجامع ودار الإمارة كما هو الحال في مدن البصرة والكوفة والفسطاط، وأحاط المدينة بالأسوار، وحفر خندقا يطوف بالأسوار من جميع الجهات، وفتح أربعة أبواب في الأسوار تغلق وتفتح بإحكام، وتمتد من عندها أربعة شوارع رئيسة عرض الواحد منها ثمانون ذراعا وتتجه إلى المسجد الجامع ودار الإمارة.

ثم التفت الحجاج إلى من يقيم المرافق المختلفة في المدينة ويقوم بما يلزم من الخدمات، فأنزل فيها أصحاب الطعام (أصحاب الحبوب) والبزّازين (بائعي الأقمشة) والصيارفة والعطّارين والبقّالين والقصّابين وأصحاب السَّقطَ (بائعي الكوارع) وأصحاب الفاكهة والخرّازين والعمّال وأصحاب الحرف والصنّاع وأمثالهم، وجعل لكل تجارة

قطعة لا يخالطهم غيرهم، وجعل مع أهل كل قطعة صيرفيا، وخصّص أرضا في داخل الجانب الشرقي من المدينة لتكون مقبرة للمسلمين، واتَّخَذَ الشرط والحرس[(١)].

وكانت مدن الأمصار تضم أحيانا داراً مخصّصة لنزول الخلفاء إذا دخلوا هذه الأمصار، ومن هذا القبيل اتخذ معاوية دارا في مكة كان ينزلها إذا حجّ، وكان ينزلها من بعده الخلفاء الأمويون إذا حجّوا[(٢)]، ولما دخل مروان بن الحكم الفسطاط عام (٦٥هـ) أمر ببناء دار فيها وقال: ما ينبغي للخليفة أن يكون ببلد لا يكون له بها دار، فبنيت له في شهرين[(٣)].

وإضافة إلى ما خُصّص من الدور في المدن لنزول الخلفاء، اتّخذت الدولة بيوتا خصّصتها لنزول الضيوف عليها عرفت باسم دور الضيافة أو الضيفان[(٤)].

وأَوْلَتْ الدولة المرافقَ العامةَ في المدينة اهتماما كبيرا، ومن ذلك توفير مياه الشرب في المدينة، فقد أجرى معاوية في الحرم المكي عيونا[(٥)]، وبطلب من الخليفة الوليد بن عبد الملك استنبط خالد بن عبد الله القسري[(٦)]، في ولايته على مكة عام (٩١هـ)، الماء العذب من عين بأصل جبل ثبير في مكة، وعمل بركة وجرّ الماء إليها، ثم جرّه من هناك إلى ما بين زمزم والركن والمقام بقصب من رصاص[(٧)].

(١) ابن بحشل، تاريخ واسط، ص:٤٣، ٤٤، ٤٦، أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٦، ص: ٣٨٣-٣٨٤.

(٢) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص: ١٠٩-١١٠.

(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص: ١٠٧.

(٤) اليعقوبي، تاريخه، ج٢، ص: ٢٩٠، البلاذري، فتوح البلدان، ص: ٣٤١، ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص: ١٣٣.

(٥) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص: ٢٢٧.

(٦) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، (ترجمة خالد بن عبد الله).

(٧) أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٦، ص: ٤٦٤-٤٦٥، الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص: ١٠٧-١٠٩.

وأجرى مروان بن الحكم لأهل المدينة بأمر معاوية عْيناً تعرف بعين الأزرق جرّها إليهم من بئر كبيرة تقع غربي مسجد قباء[1]. وكتب الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز والي المدينة أن يحفر الأنهار بالمدينة ويعمل الفوّارة فيها فعملها[2].

وكانت ملوحة المياه من المشكلات التي واجهتها مدينة البصرة على الدوام، وكانت الدولة تعالجها بحفر الأنهار وجر المياه العذبة من شط العرب إليها، ولكن الأنهار كانت تندمل من حين لآخر بالطمي جزئيا أو كليا، مما كان يستدعي بذل الأموال لكري الأنهار وجر المياه إلى داخل المدينة، ولما اشتكى أهل البصرة إلى يزيد بن عبد الملك ملوحة مائهم أمر واليهَ أن يحفر لهم نهراً ولو بلغت النفقة خراج العراق[3].

واحتفر سليمان بن عبد الملك لأهل الرملة قناتهم التي تدعى بردة، واحتفر آباراً، وكانت الدولة تنفق من خزانتها على القناطر والآبار[4].

ورأى الحُرُّ بن يوسف أمير الموصل وهو يجلس في داره إمرأة تحمل على عاتقها جرة تنقل بها الماء من دجلة، وكانت تحملها ساعة وتضعها ساعة تستريح، فسأل عنها فقيل أنها امرأة حامل، فاستعظم ذلك، وكتب إلى هشام بن عبد الملك يخبره بذلك وببعد الماء عن أهل البلد، فكتب هشام إليه يأمره بحفر نهر في وسط البلد، فابتدأ بحفر النهر المسمى بالنهر المكشوف عام (١٠٧هـ)، وأتمه خليفته على الموصل الوليد بن تليد العبسي عام (١٢١هـ) بعد عمل استمر خمس عشرة سنة، ونفقة بلغت الأموال الطائلة، وأقام عليه ثمانية عشر حجرا لطحن الحبوب، وجعل ريعها للنفقة على هذا النهر وما يحدث فيه[5].

---

(١) السمهودي، وفاء الوفاء، ج٣، ص: ٩٨٥-٩٨٧.

(٢) الذهبي، تاريخ الإسلام، حوادث (٨١-١٠٠هـ).

(٣) البلاذري، فتوح البلدان، ص: ٤٥٥، ٤٣٨، ٤٥٤.

(٤) اا لاذري، فتوح البلدان، ص: ١٧٠.

(٥) الأزدي، تاريخ الموصل، ص: ٢٦-٤٣، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١، ص: ٣٣٠.

كان تأمين مياه الشرب لأهل المدن والاهتمام بهذا المرفق الحيوي سياسة ثابتة في رعاية الدولة للناس ابتداء بمدن خراسان في أقصى المشرق وحتى مدن الأندلس في أقصى المغرب، وإلى ذلك أشار الماوردي في أثناء حديثه عن أحكام الحسبة وحقوق الآدميين قال: «فأما الأمر بالمعروف وحقوق الآدميين فضربان عامّ وخاص، فأما العامّ فكالبلد إذا تعطّلَ شُرْبُه أو استهدم سُوُره أو كان يطرقه بنو السبيل من ذوي الحاجات فكفّوا عن معونتهم، فإن كان في بيت المال مال لم يتوجّه عليهم فيه ضرر، أمر المحتسب بإصلاح شربهم وبناء سورهم وبمعونة بني السبيل في الاجتياز بهم، لأنها حقوق تلزم بيت المال دونهم»(١).

وعقدت الدولة الجسور والقناطر على الأنهار التي كانت تشق المدن ومثال ذلك قنطرة قرطبة التي ابتناها السمح بن مالك الخولاني عام (١٠١هـ) بأمر الخليفة عمر بن عبد العزيز ـ على الوادي الكبير بقرطبة، وكانت إحدى أعاجيب الدنيا، طولها ثمانمائة ذراع، وعرضها عشرون ذراعا، وارتفاعها ستون ذراعا، وعدد حناياها ثماني عشرة حنيَّة، وعدد أبراجها تسعة عشر برجا، وأقيم سد يعترض الوادي، وأقيمت على السد ثلاثة بيوت أرحاء، وأقيم على كل بيت من الأرحاء أربع مطاحن لطحن الحبوب(٢).

كما اهتمت الدولة ببناء الأسواق في المدن، وبدأ تخطيط الأسواق وتصنيفها في هذا العصر كما رأينا في بناء مدينة واسط، وعيّنت المشرفين عليها وكان الواحد منهم يعرف باسم «المحتسب» وكان يعرف أيام الراشدين ب «عامل السوق»، وقد اختيروا من أهل العدالة والمهابة والصرامة والخشونة في الدين والعفة عن أموال الناس والمعرفة بالمنكرات الظاهرة والعلم بأحكام الشريعة، وكان يدخل في نطاق عملهم مراقبة العبادات من صلاة الجمعة وصلاة الجماعة في المساجد وإقامة الآذان وصيام رمضان والمعاملات

---

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص:٢٤٥.

(٢) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب، ج٢، ص:٢٦، المقري نفح الطيب، ج١، ص:٢٢٥، ٣٣٨، ٤٨٠.

من التجارة وما يتصل بها من الموازين والمكاييل والنقود وما يدخل فيها من الغش والبيوع الفاسدة والتدليس، ومراقبة الأطعمة والأشربة ومحلات تحضيرها وبيعها، والملابس والثياب والأقمشة ومحلات الصياغة والصرافة ونظام المرور ومنع المضايقة والتعدي على الطرق، والفنادق والحمامات، وغير ذلك مما يتصل بالمعايش والمصالح العامة للناس في المدينة، فكانوا يأمرون بالمعروف إذا ظهر تَرْكُه وينهوْن عن المنكر إذا ظهر فعلُه ويأخذون الناس بذلك[١]. وممن ذكر في القيام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في واسط العوام بن حوشب بن يزيد الشيباني (ت١٤٨هـ)، وإياس بن معاوية (ت١٢١هـ)[٢].

وكان من مظاهر اهتمام الدولة بالأسواق توسيع رقعتها وإعادة بناء ما ينهدم منها، وبناء المحلات التجارية وتأجيرها، فبنى معاوية بن أبي سفيان بِنَائيْن في سوق مدينة الرسول ﷺ وضرب عليهما الخراج أي الأجرة[٣]، وحينما بنيت مدينة واسط وضع على كل حانوت غلّة[٤]، وبنى عبد العزيز بن مروان القيساريات في الفسطاط[٥]، وبنى هشام بن عبد الملك الأسواق في المدن الإسلامية المختلفة، ووضع عليها الكراء، وجعل ما بناه في مدينة الرسول ﷺ يتألف من طابقين: حوانيت من أسفلها تكرى للتجارة وعلالي تكرى للسّكَنْ، وأحدث الأسواق المغطاة[٦]، وكان خالد بن عبد الله القسري أول من بنى الأسواق وسقفها في الكوفة، وجعل سقوفها أزاجا معقودة بالآجر والجص[٧]، وقد وفّر بناء الأسواق وتأجيرها مورداً مالياً يدرُّ ريعاً ثابتاً على الدولة[٨].

(١) الماوردي، الأحكام السلطانية، ص: ٢٤١-٢٥٩.

(٢) ابن بحشل، تاريخ واسط، ص: ١١٤-١١٥.

(٣) السمهودي، وفاء الوفاء، ج٢، ص: ٧٤٩-٧٥٠.

(٤) ابن بحشل، تاريخ واسط، ص: ٩٣.

(٥) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص: ١٣٦-١٣٧.

(٦) أنظر: السمهودي وفاء الوفاء، ج٢، ص: ٧٥٠-٧٥٣.

(٧) البلاذري، فتوح البلدان، ص: ٣٥٠.

(٨) انظر: محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، ص: ٢٥٤.

واهتمت الدولة بنظافة المدينة والمحافظة على السلامة فيها، والنظافة معلم من معالم الحياة التي حضّ الإسلام عليها، فكان زياد بن أبيه يأخذ في البصرة صاحب كل دار بعد المطر إذا أصحت برفع ما بين يدي فنائه من الطين، فمن لم يفعل، أمر بذٰلك الطين فألقى في محلّته، ويأخذ الناس بتنظيف طرقهم من القذر والكناسات، ثم أنه اشترى عبيداً ووكلهم به فكانوا يلمّونه وينحّونه عن الطريق[1]، وهو ما يشبه بعض مهام مؤسسة البلدية في أيامنا الحاضرة، وقد ورد عن عمر بن الخطاب أنه طلب إلى أهل المنازل بمكة أن يقمّوا منازلهم، أي يرفعوا القمامة منها، وعندما تلكأ أبو سفيان في الامتثال للطلب ضربه عمر بن الخطاب[2]، واتخذ عبد العزيز بن مروان وهو على مصر خمسمائة فاعل عدة لحريق إن كان في البلاد أو هدم، وجعل مقرّهم في جزيرة الروضة بالفسطاط[3]، وهو عمل يشبه ما تقوم به مؤسسة الدفاع المدني في هٰذه الأيام.

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي يعاقب من وُجد يُحدثُ في شوارع مدينة واسط، فسجن بدوياً وجده يبول في أصل المدينة، وعندما أُفرج عنه قال البدوي من الشعر:

إذا نحن جاوزنا مدينة واسط خرينا وَبُلنا لا نخاف عقابا[4]

ولا يبعد وجود الحمامات في المدينة عن أداء وظيفة ذات صلة كبيرة بموضوع النظافة[5]، وهي نظافة أبدان أهل المدينة، ونظراً لمظنة الأثر السيء للحمامات على الأخلاق أحياناً؛ كان الاذن باستحداثها يتوقف على موافقة الخليفة، فلما أراد توبة بن كيسان العنبري من أهل البصرة أن يتخذ حمّاماً في البصرة وبئراً بالخرنق من البادية

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ق٤ ج١، ص: ٢٠٦، ٢٣٧.
(٢) ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، ج٢٣، ترجمة (صخر بن حرب من بني عبد شمس).
(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص: ١٠٣.
(٤) ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٥، ص: ٤٦.
(٥) ابن سعد، ج٧، ص: ٢٤٠-٢٤١، الكندي، الولاة، ص: ٢٧٢، الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص: ٢٢٧.

على ثلاث مراحل من البصرة، احتاج أن يذهب إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك للحصول على الإذن لأنه لم يكن يفعل ذلك لأحد إلا بإذن من الخليفة[1]، وأنشئت المستشفيات في المدن، وقيل كان الخليفة الوليد بن عبد الملك أول من عمل البيمارستان للمرضى[2].

---

(١) ابن سعد، الطبقات، ج٧، ص: ٢٤٠-٢٤١.

(٢) اليعقوبي، تاريخ، ج٢، ص: ٢٩٠.

إنشاء المساجد والعناية بها:

أولى الأمويون المسجد الحرام في مكة والمسجد النبوي في المدينة عناية فائقة تتناسب وما لهما من المكانة، وخصّوهما بالنفقة الزائدة في مجال التوسعة والزيادة في البناء وكسوة البيت وتوفير مياه الشرب والطّيب والخَلُوق والمجامر والإضاءة وتعيين الخدم والمؤذنين وصرف الأموال في العلماء وأهل الحرمين[١].

فاهتم معاوية بن أبي سفيان بالمسجد الحرام، وأمر بتوسعته، وأجرى له القناديل والزيت من بيت المال وأضاء المصابيح فيه لأهل الطواف[٢]. واهتم بالمسجد الأقصى، وبويع بالخلافة في بيت المقدس[٣].

وقام مسلمة بن مخلد أمير مصر من قبل معاوية بالزيادة في المسجد الجامع بالفسطاط عام ٥٣هـ، وطلا جدرانه بالجص وزخرف بنيانه وبنى له أربع منارات شامخة وفرشه بالحصير، وأخذ أهل مصر ببنيان المنارات للمساجد، وأمر المؤذنين أن يكون أذانهم في الليل في وقت واحد، فكان مؤذنو المسجد الجامع يؤذنون للفجر، فإذا فرغوا من أذانهم أذّن كل مؤذن في الفسطاط في وقت واحد[٤].

ووسّع المغيرة بن شعبة المسجد الجامع بالكوفة، ثم قام زياد بن أبيه فبناه وزاد فيه وأحكمه وفرشه بالحصى، وكان يقول: أنفقت على كل أسطوانة من أساطين مسجد الكوفة ثماني عشرة مئة (درهم)، واتخذ فيه مقصورة جدّدها خالد بن عبد الله القسرى في أثناء ولايته على العراق، ثم قام عبيد الله بن زياد وزاد في المسجد الجامع وفرشه بالحصى[٥].

---

(١) انظر: اليعقوبي، تاريخه، ج٢، ص: ٢٦٠، ٢٧٢، عمر بن شبه، تاريخ المدينة، ج١، ص١٨، ٢٣، ٣٥، ج٣، ص: ٩٦١.

(٢) أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٦، ص: ٤٦٧.

(٣) أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٥، ص: ١٦١.

(٤) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص: ١٣١، الكندي، الولاة، ص: ٣٨-٣٩، سنية قراعة، مساجد ودول، ص: ٤٧-٤٨.

(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص: ٣٣٩-٣٤٠، ٤٢٧.

وزاد زياد بن أبيه في المسجد الجامع بالبصرة زيادة كبيرة، وبناه بالآجر والجص، واستعمل الأساطين في البناء، وسقفه بالساج وبنى منارته بالحجارة، وبنى في البصرة المساجد الكثيرة، ثم قام عبيد الله بن زياد فزاد في المسجد الجامع[١].

واهتم عبد الملك بن مروان بالمسجد الحرام والمسجد النبوي والمسجد الأقصى ببيت المقدس فبناه وبنى قبة الصخرة[٢]، وقام عبد العزيز بن مروان أمير مصر بتجديد بناء المسجد الجامع بالفسطاط عام ٧٧هـ واضطر إلى هدمه كله ما عدا قبلته، وأتم بناءه وزيّنه وجمّله[٣]. ووجد عبد الله بن عبد الملك بن مروان الذي خلف عمه عبد العزيز على إمارة مصر أن سقف المسجد الجامع منخفض فأمر برفع سقف المسجد كله عام ٨٩هـ[٤].

وأما أيام الوليد بن عبد الملك فكانت أيام المساجد، كتب إليه عماله على البلدان أن بيوت الأموال قد ضاقت من مال الخمس فكتب إليهم أن ابنوا المساجد[٥]، فقد أمر بتوسيع المسجد الحرام، وأحكم بناءه، واستخدم أساطين الرخام في بنائه، وسقفه بالساج المزخرف، ووضع الذهب على صفائح الشبه من الصفر وجعل ذلك على رؤوس الأساطين[٦]، وعلى باب الكعبة وعلى الأساطين التي داخلها وعلى الأركان والميزاب، وكان بعث بثلاثين ألف دينار إلى خالد بن عبد الله القسري وهو على مكة من أجل هذا الغرض، ووضعت المصابيح على زمزم[٧].

(١) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٤، ق١، ص٢٣٢، فتوح البلدان، ص: ٤٢٦-٤٢٧.
(٢) اليعقوبي، تاريخه، ج٢، ص: ٢٦١، البلاذري، فتوح البلدان، ص: ٦٢-٦٣.
(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص: ١٣١، سنية قراعة، مساجد ودول، ص: ٤٨-٤٩.
(٤) الكندي، الولاة، ص: ٦٠، المقريزي، الخطط، ج١، ص: ٥٦٧.
(٥) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص: ١٣٢.
(٦) الأزرقي، أخبار مكة، ج٢، ص: ٦٩-٧٢.
(٧) اليعقوبي، تاريخه، ج٢، ص: ٢٧٢، أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٦، ص: ٤٣٧، العباسي، عمدة الأخبار في مدينة المختار، ص: ١١٠-١١١.

وكتب الوليد إلى أمير المدينة عمر بن عبد العزيز يأمره بإدخال حجر أزواج النبي ﷺ في مسجد الرسول ﷺ، وأن يشتري ما في نواحيه حتى يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع، وبعث الفَعَلَةَ من الشام لبنائه، وجعل عُمَدَهُ من الحجارة وحشاها بالحديد والرصاص، واستخدم الذهب والفسيفساء في تجميله وتزيينه، وعمل له أربع منارات وعشرين بابا[١].

وفي دمشق بنى الوليد المسجد الذي يعرف اليوم بالمسجد الأموي، وأنفق في بنائه الأموال الجليلة[٢].

وكتب الوليد إلى أمير مصر قرة بن شبريك العبسي يأمره بتجديد بناء المسجد الجامع، فهدم قرة بناء المسجد كله وأعاد بناءه ووسّعه وطلاه وزوّقه وزخرفه وذهّب رؤوس العمد فيه وأتمه عام ٩٢هـ وقيل عام ٩٤هـ[٣].

وما تقدم لا يعدو أن يكون أمثلة على ما قامت به الدولة من اهتمام بالمساجد الجامعة في المركز ومدن الأمصار، أما المساجد في الخطط والقرى والأرياف فيصعب حصرها، وكانت الدولة تقيم المساجد في كل بلد من بلاد الإسلام لإقامة صلاة الجماعة فيها.

واهتمت الدولة بالطرق المؤدية إلى بيت الله الحرام، وأقامت عليها النُّزل، واتخذت المصانع والبرك لتزويد الحجاج بالماء، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله على ما وراء النهر أن يعمل الخانات أي النزل (الفنادق) في تلك البلاد لمن يمر به من المسلمين، وأن يجعل قراهم يوماً وليلةً ويتعهد دوابهم، ومن كانت به علّة فَقِرَاهُ يومان وليلتان، وإن كان منقطعا فمعونته بما يكفل وصوله إلى بلده[٤]، كما أمر هشام بن عبد الملك

(١) انظر: اليعقوبي، تاريخه، ج٢، ص: ٢٧٢، أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٦، ص: ٤٣٧، العباسي، عمدة الأخبار في مدينة المختار، ص: ١١٠-١١١.

(٢) اليعقوبي، تاريخه، ج٢، ص: ٢٨٤، البلاذري، فتوح البلدان، ص: ١٤٩، المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص: ١٦٦، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة دمشق.

(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص: ١١١، الكندي، الولاة، ص: ٥١، ٦٤-٦٥.

(٤) أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٦، ص: ٤٢٣، ٥٦٧، ج٧، ص: ١١١.

بابتناء الخانات على الطرق[1].

الإرفاق بالناس:

يتعرض الناس أفراداً وجماعات أحياناً لظروف وأوضاع وأحوال ومشكلات لا طاقة لهم بها، ولا يقدرون على دفعها وردّها أو الخروج منها أو التغلب عليها أو تخفيف آثارها إلا بمد يد المساعدة والعون لهم، وسنتعرض لبعض الأمثلة وبيان أثر الدولة في إزاحة العلة فيها.

١- تزويج العزاب:

يعدُّ الزواج من العوامل التي تساعد على مساندة الفضيلة ودحر الرذيلة وصون الأخلاق الرفيعة وحفظ صحة الأبدان والنفوس، وقد عملت الدولة عند وجود المال في خزانتها بعد سداد الواجبات المستحقة عليها على تزويج من لا يجد مالاً يستعين به على الزواج يريد الإحصان والعفة، فقد جاء عن عمر بن عبد العزيز لما علم بوجود بقية من المال بقيت في بيت مال المسلمين في العراق، أنه كتب إلى الوالي هناك أن ينظر كلَّ بِكْرٍ ليس له مال فشاء الزواج أن يزوّجه ويدفع المهر عنه[2].

٢- سداد الديون:

جعل الإسلام سداد الغارمين (المدينين) وجهاً من وجوه مصارف أموال الزكاة، ومما كتبه عمر بن عبد العزيز إلى والي العراق، أن انظر كل من أدّان من غير سَفَهٍ ولا سَرَف فاقض عنه[3]، وكتب إلى والي المدينة، أن كلَّ من هلك وعليه دين لم يكن دينه في خَرَقَه فاقض عنه دْينَه من بيت مال المسلمين[4]، ولم يجعل عمر امتلاك الغارم (المَدِين)

---

(١) البلاذري، فتوح البلدان، ص: ٥٢٤.

(٢) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة عمر بن عبد العزيز، ابن عبد الحكم، سيرة عمر بن عبد العزيز، ص: ٦٨.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

بيتا مؤثثا يسكنه، وخادما يكفيه مهنته، وفرسا يجاهد عليه عدوّه، يحول دون سداد ديْن الغارم، وعدَّ المسكن والخادم والفرس والأثاث من الحاجات الأساسية للإنسان في الحياة[1].

٣- البر بالأيتام وذوي العاهات:

يعد الاهتمام والعناية بالأيتام وذوي العاهات من معالم المجتمعات المتحضرة، وقد أولت الدولة في عصر بني أمية هذا الصنف من الناس اهتماماً كبيراً، فقد عمل الوليد بن عبد الملك البيمارستان للمرضى، وأعطى المجذّمين حتى أغناهم عن السؤال، وجعل لكلِّ مُقْعَدٍ خادما، وكلِّ ضريرٍ قائدا، وأجرى النفقة عليهم، واهتم باليتامى، ورتّب لهم المؤدبين، ورزق الفقراء والضعفاء، وحرّم عليهم سؤال الناس، وبالغ في الإحسان إلى الزّمنىٰ ليجعل الزَّمِنَ أحبَّ إلى أهله من الصحيح[2]، وأفردت الدولة ديوانا خاصا بالزّمْنىٰ أطلق عليه اسم «ديوان الزّمْنىٰ»[3].

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أمصار الشام أن يرفعوا إليه كل أعمى في الديوان، أو مُقعدٍ، أوْ مَنْ به الفالج، أو من به زَمَانةٌ (علة دائمة) تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة، وكل يتيم لا أحد له ممن كان والده مُسَجَّلاً في الديوان، فأمر لكل أعمى بقائد، ولكل اثنين من الزمنى بخادم، ولكل خمسة من اليتامى بخادم، وكان يفرّق فيهم الأموال[4].

---

(١) أبو عبيد بن سلام، الأموال، ص: ٧٣٨.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخه، ص: ٣٠٠، أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٦، ص: ٤٩٦، الذهبي، تاريخ الإسلام حوادث (٨١-١٠٠هـ)، المقريزي، الخطط، ج٢، ص: ٤٠٥.

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة اسحاق بن قبيصة بن ذؤيب الخزاعي.

(٤) أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٦، ص: ٥٧٠، ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة عمر بن عبد العزيز.

ومع أن الشواهد على هذا الجانب أو ذاك من جوانب الإرفاق بالناس تعود إلى أيام خليفة أو خليفتين من خلفاء بني أمية، فإن ذلك لا يعني أن هذا المرفق توقّف في أيام الخلفاء اللاحقين، فقد ورد ذكر الولاية والإشراف على العميان والأيتام والقواعد من النساء في خلافة أبي جعفر المنصور العباسي[1] الذي تولّى الخلافة بعد زوال سلطان بني أمية بأربع سنوات تقريبا، مما قد يعني الاستمرارية، وأن هذا الوجه من وجوه الإرفاق ظل قائما يؤدي خدماته الاجتماعية.

٤- إطعام الطعام وتوفيره:

ذكر أحمد بن حنبل في مسنده رواية ينتهي سندها إلى عبد الله بن زرير (رزين) الغافقي جاء فيها أن عبد الله قال: دخلنا مع على (علي بن أبي طالب) يوم الأضحى، فقرب إلينا خزيرة فقلنا، أصلحك الله، لو قربت إلينا من هذا البط (البط والإوز)، فإن الله عز وجل قد أكثر الخير، فقال علي: يا ابن زرير (رزين)، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يحلّ للخليفة من مال الله إلا قصعتان، قصعة يأكلها هو وأهله، وقصعة يطعمها (يضعها) بين الناس[2].

واتسعت دار الإسلام وفاضت الخيرات، واتسعت باتساعها القصعة التي يطعمها الخليفة بين الناس وتنوعت عليها المآكل، فكان زياد بن أبيه أمير العراق يغدي الناس ويعشيهم، وكانت له الف ناقة يؤتىٰ بلبنها (الحليب) وقد نثر التمر على الأنطاع، فيتمجّعون اللبن بالتمر، فإذا ارتفع النهار غُدّوا ثم يَعشّي بعد العصر، ويحضر غداءه وعشاءه الصحابة والشرط والمقاتلة ومن حضر، وكان لا يردّ عن طعامه أحدا، وكان يُطْعِمُ بالبصرة والكوفة، فإذا غاب عن إحداها قام عماله مقامة[3].

---

(١) المبرد، الكامل في اللغة، ج٢، ص: ١٤٦.

(٢) ابن حنبل، المسند، ج١، ص: ٧٨، ابن كثير، البداية والنهاية، ج٨، ص: ٢-٣.

(٣) البلادري، أنساب الأشراف، ج٤، ق١، ص: ٢١٠، ٢١٩، ٢٤٢، ٣٨٤، ج٤، ق٢، ص: ٨٦.

وكان لعبد العزيز بن مروان أمير مصر ألف جَفْنة تُنْصَبُ كل يوم حول داره، وله مائة جَفْنة يُطاف بها على القبائل في مصر، وفي ذلك قال الشاعر[١]:

كلُّ يوم كأنه يوم أضحى عند عبد العزيز أو يومَ فِطْرِ
وله ألف جَفْنة مُتْرعات كلَّ يومٍ تَمُدُّها ألف قِدْرِ

وقال آخر[٢]:

ذاك ابن ليلى عبد العزيز ببا بليون تغدو جِفَانُه رُذَّماً

وكان الحجاج بن يوسف الثقفي يطعم في كل يوم ألف مائدة ثريد وجنب من شواد وسمكة طرية، ويطاف به في محفة على تلك الموائد ليتفقد أمور الناس، وعلى كل مائدة عشرة، وله ساقيان، ساقي يسقي الماء والعسل، وأخر يسقي اللبن[٣].

وقال أمية بن خالد بن عبد الله الأموي أمير خراسان في خلافة عبد الملك: ما أكتفي بخراسان وسجستان لمطبخي[٤].

واتخذ يزيد بن المهلب أمير العراق في خلافة سليمان بن عبد الملك ألف خوان يُطْعِمُ الناسَ عليها[٥].

وكان يوسف بن عمر الثقفي أمير العراق في خلافة هشام بن عبد الملك يُطْعِمُ كل يوم على خمسمائة خِوَان[٦]، ولا بد أن تقديم الطعام في الولايات كان صدىً لما يجري في المركز.

---

(١) الكندي، الولاة، ص: ٥١-٥٢.
(٢) أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٦، ص: ١٤٥.
(٣) المبرد، الكامل، ج١، ص: ٣٠٥.
(٤) أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٦، ص: ٣١٥.
(٥) المصدر نفسه، ج٦، ص: ٥٢٤.
(٦) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة يوسف بن عمر بن محمد بن الحكم الثقفي.

وحظي شهر رمضان بتقديم الطعام فيه، وكان عثمان بن عفان وضع طعام رمضان للمتعبد الذي يتخلّف في المسجد وابن السبيل والفقراء من الناس[١]، وقدّمه الوليد بن عبد الملك أيضا[٢]، واتّخذ عمر بن عبد العزيز داراً لطعام المساكين والفقراء وابن السبيل[٣].

وفي حال غلاء الأسعار، كانت الدولة تعالج الغلاء بتوفير المواد التموينية للناس عن طريق ابتياعها وطرحها في الأسواق، فلما غلا الطعام على عهد زياد بن أبيه في العراق، دفع إلى التجار مالا، فابتاعوا به طعاماً وقال: زيدوه رُبْعاً رُبْعاً، فلما رخص الطعام وشَغَر برجْلِه ارتجع ماله أي مال الدولة[٤].

وأما في المجاعة، فكانت الدولة تخرج من بيت المال وتطعم الناس، وقد أصابت المجاعة في خلافة معاوية بن أبي سفيان مدينة الرسول ﷺ، فأطعمهم الوالي حتى أنفق ما في بيت المال وأدان، فأنكر عليه معاوية أن يستدين وعزله[٥]. ولأهل البادية على بيت المال حق المغوثة والمواساة في المجاعة أيضا، وأصابت المجاعة بادية البصرة، وتحمل أهلها إلى البصرة، فقال زياد بن أبيه لأهل البصرة، إن عشائركم قد وردت علينا، فاختاروا أن تأخذوا نصف أعطياتكم وأرزاقكم فنقويهم بهما مع مالهم عندنا، أو تكفينا كل عشيرة من فيها، فمنهم من ضم عشيرته ومنهم من طابت نفسه بنصف عطائه ورزقه وأرزاق عياله، وكان لكل عيل جريبان ومائة درهم، ومعونة الفطر خمسين درهما ومعونة الأضحى خمسين درهما، وكان زياد يعهدهم كل يوم ويشرف على رعايتهم بنفسه[٦]،

(١) أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٤،ص: ٢٤٦.
(٢) أبو هلال العسكري، الأوائل، ق٢،ص: ٣٣.
(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة عمر بن عبد العزيز.
(٤) البلاذري، أنساب الأشراف، ق١،ص: ٢٠٦.
(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق، ترجمة سعيد بن العاص بن أحيحة.
(٦) البلاذري، أنساب الأشراف، ج٤، ق١، ص: ٢٠٦-٢٠٧.

وسئل مالك بن أنس عن رجال من الموالي يأخذون صبيانا من صبيان الأعراب تصيبهم السنة (أي الجدب)، فيكفلون صبيانهم ويُرَبْونهم حتى يكبروا[١].

ولا شك أن ما كان يقدم في هذا الجانب من جوانب الإرفاق بالناس كان يتأثر في سويّته ومدى عمومه واستمراره بالأحوال والأوضاع المالية والسياسية للدولة[٢]، ولكن الأمثلة الآنفة الذكر تظل شواهد تشير إلى رغبة الدولة في أن تذيق الناس حلاوة العيش، وتشركهم فيما أفاض الله عليها من الخيرات، والتزامها بواجبات الرعاية الملقاة عليها، وأخذها بمبدأ التضامن الجماعي في مواجهة الجوائح ودرء الأخطاء التي تهدد المجتمع الإسلامي.

---

(١) مالك بن أنس، المدونة، م٢،ج٣،ص: ١٧٠، كتاب النكاح.

(٢) انظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج٤، ق١، ص: ٣٨٤، ج٤، ق٢،ص: ١٨٠.

زوال سلطان
بني امية

زوال سلطان بني أمية

في رمضان من عام (١٢٩هـ)، انطلقت الثورة العباسية من قرية سفيذنج قرب مروبخراسان، وبعد ثلاث سنين تقريبا، أكملت القوات العباسية الاستيلاء على خراسان، وزحفت نحو العراق فبلغت الزاب الأعلى أحد روافد نهر دجلة، ووقفت وجها لوجه مع قوات بني أمية بقيادة الخليفة مروان بن محمد، حيث كُتِبَتْ الغَلَبَةُ لها على جيش مروان لإحدى عشرة خلون من جمادى الاخرة من عام (١٣٢هـ).

انسحب مروان على أثر ذلك إلى حران، ثم رحل منها إلى قنسرين، ومنها إلى دمشق ثم إلى الأردن وفلسطين، ودخل من هناك إلى مصر، فأتى الفسطاط، ثم توجه إلى بوصير في بني سويف، وقوات بني العباس تلاحقه في كل مرة، فلما كان في بوصير هاجمته هذه القوات بقيادة صالح بن علي وقتلته لثلاث بقين من ذي الحجة لعام (١٣٢هـ)، فلما وصل خبر مقتل الخليفة مروان بن محمد إلى يزيد بن عمر بن هبيرة ومن كان ممتنعا معه من الجند بواسط دخلوا في طاعة الخليفة عبد الله السفاح العباسي، وانتهى بذلك سلطان بني أمية في المشرق، فَلِمَ زال سلطان بني أمية؟.

حدث عمرو بن يحيى بن سعيد الأموي عن جده سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص ابن أمية، أن جده سعيد كان جالسا مع أبي هريرة في مسجد الرسول ﷺ في المدينة ومعهم مروان بن الحكم، وذلك في زمن معاوية بن أبي سفيان، فقال أبو هريرة: «سمعت الصادق المصدوق (محمد ﷺ) يقول: هلكة (هلاك) أمتي (أهل ذلك العصر) على يدي غلمة من قريش، فقال مروان: لعنة الله عليهم غلمة» وكان عمرو بن يحيى يخرج مع جده سعيد إلى بني مروان حين ملكوا الشام، فإذا رآهم (أي جَدّه) غلمانا أحداثاً، قال (أي لأولاده وأتباعه)، عسى هؤلاء أن يكونوا منهم، فكانوا (أي أولاده وأتباعه) يقولون له: أنت أعلم[١].

---

(١) ابن حجر العسقلاني/ فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج١٣، ص٩.

والمعلوم أن عمرو بن سعيد والد جَدّ الراوي هو الملقب بالأشدق الذي قتله عبد الملك بن مروان سنة (٧٠هـ)[١]، وأن الجد سعيد بن عمرو وفد على الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وهذا يُشْعر بأن الرواية صدرت من عمرو بن يحيى في أواخر الدولة الأموية[٢].

وروي عن جابر بن سمرة، أنه قال: «سمعت النبي ﷺ يقول: يكون اثنا عشر أميرا، فقال كلمة لم أسمعها[٣]، فقال أبي، أنه قال: كلهم من قريش»، وفي لفظ: «لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة، وفي لفظ: لا يزال الإسلام عزيزا إلى اثني عشر خليفة». وورد منيعا، وقويا، وماضيا، أي ماضيا أمر الخليفة فيه ـ فلما رجع سمرة إلى منزله أتته قريش فقالوا: ثم يكون ماذا؟ قال: الهرج[٤].

وقد كان لورود الحديث بالفاظ مختلفة أوجدها تخليط الرواة فيها، أن تعددت معاني ومدلولات الحديث عند الشرّاح، ومن هذه المعاني أن يكون اثنا عشر خليفة في مدة عزة الخلافة، وقوة الإسلام، واستقامة أموره، والاجتماع على من يقوم بأمر الخلافة وإمضاء أوامر الخليفة، ثم يعقب ذلك فتنة وقتل ولا تجتمع الأمة كلها بعد ذلك على خليفة[٥].

وعند الجمع بين الجانب النظري والجانب التاريخي لتسمية الاثنى عشر خليفة، وقع الاختلاف والتكلّف عند شرّاح الحديث، وكان أثر الجانب التاريخي في محاولاتهم واضحا، ولكن عملهم لم يَخْلُ من الفائدة، وكانت الأيام الأخيرة من سلطان بني أمية عندهم في الأغلب نهاية فترة الاثني عشر خليفة، والحاضن للاضطرابات التي أسفرت

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص١١٨.
(٢) ابن حجر العسقلاني/ فتح الباري، ج١٣، ص١١.
(٣) لما سمع الناس كلام الرسول عليه السلام كبرّوا وضجّوا، ولذلك أشكل على جابر سماع بقية كلام الرسول عليه السلام.
(٤) ابن حجر العسقلاني/ فتح الباري، ج١٣، ص٢١١.
الهرج: القتل الناشيء عن الفتن.
(٥) المصدر نفسه، ج١٣، ص٢١٢-٢١٥.

عن انقضاء عز الخلافة وقيام دولة بني العباس، وابتداء مرحلة جديدة لم تجتمع الأمة كلها فيها على خليفة، وكانت أشد من السابق(١).

ومع أن الإعلام في هذا الحديث وأمثاله من الأحاديث الأخرى عن الأحداث الكائنة في المستقبل، يعدّ من علامات النبوة، فإن شرّاح هذه الأحاديث ربطوا بين انقضاء مدة الاثني عشر خليفة وعز الخلافة من جهة وبين طلب المُلْك والقتال من أجله وأسباب ذلك في فساد أحوال الناس وكثرة القتل وزوال أمر بني أمية، وقيام دولة بني العباس(٢).

وذكر المسعودي في الرواية عن المنقري، أن بعض شيوخ بني أمية ومحصّليها سُئِلَ عقيب زوال الملك عنهم إلى بني العباس، ما كان سبب زوال ملككم، قال: «إنا شغلنا بلذاتنا عن تفقد ما كان تَفَقّد ما كان تَفَقَدُه يلزمنا، فظلمنا رعيتنا، فيئسوا من انصافنا، وتمنّوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا، فتخلوا عنا، وخربت ضياعنا فخلت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا، فآثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أمورا دوننا اخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا، فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعادينا فتظافروا معهم على حربنا، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الاخبار عنا من أوكد أسباب زوال ملكنا»(٣).

والعلل الواردة في هذه الرواية من شأنها أن توهي الملك، وتقوّض دعائم السلطان، ولكننا لا ندري من الخلفاء من بني أمية الذين عنتهم الرواية بالانشغال في لذاتهم، وإهمالهم أمور الدولة، وإغفالهم تفقد شئون الرعية، ولو قمنا نستعرض خلفاء بني أمية، ما وجدنا هذا الحال ينطبق عليهم، وأما الذين استخلفوا منهم بأخرة، فالوليد بن يزيد لم تزد مدة خلافته عن سنة واحدة تقريبا وقتل، وقام مقامه ابن عمه يزيد بن الوليد الذي بدا في خطبة الخلافة مدركا لأمور الدولة وعالما بهموم الرعية، وأما مروان بن محمد اخر الخلفاء فما ترك الأحداث تمضي على وجهها ولا تركته.

---

(١) ابن حجر العسقلاني/ فتح الباري، ج١٣، ص٢١٢-٢١٥.

(٢) المصدر نفسه، ج١٣، ص٩،١١٦.

(٣) المسعودي/ مروج الذهب، ج٣، ص٢٤١.

وأما الوزارة والوزراء، فمسألة لم تعرف في العصر الأموي، وإنما كانت من استحداث العصر العباسي. واستبداد الوزراء والقادة العسكريين وغيرهم بالأمور دون الخلفاء أحيانا، والتفريط والإهمال لمصالح الدولة والرعية أحيانا أخرى، كان مما وقع في أيام بني العباس، ولعل الرواية جاءت تنبّه بلسان العصر الأموي على ما كان يجري من أعمال ضارة بالدولة والرعية في عصر المسعودي من أيام العباسيين التي شهدت تطاول وهيمنة الأتراك والبويهيين.

وأما ابن خلدون فإنه تعرض لأسباب زوال الدول بصورة عامة، وقدّر أن للدول أعماراً لا تتجاوز ثلاثة أجيال من البشر، ومن الزمن مائة وعشرين سنة تقريبا، بمقدار أربعين سنة لكل جيل[١].

فالجيل الأول يكون برأي ابن خلدون حدّه مرهف، وجانبه مرهوب، وسوْرة العصبية فيه محفوظة، وذلك لغلبة خلق وخشونة البداوة على هذا الجيل الذي هم عصبية الدولة.

وأما الجيل الثاني فيتحول بالملك من البداوة إلى الحضارة، ومن الشظف إلى الترف، وتنكسر فيهم سوْرة العصبية بعض الشيء، وتؤنس منهم المهانة والخضوع.

وينسى الجيل الثالث البداوة والخشونة، ويفقد العز والعصبية، ويبلغ الترف فيه غايته، وتسقط العصبية بالجملة، وتدخل الدولة مرحلة الانحطاط ويستولي عليها الهرم.

وتستطيع الدولة برأي ابن خلدون أن تعيش عمراً أطول إذا اختارت لها عصبية أي أنصارا وشيعة غير الأولين، يكونون أصحاب خشونة وصبر على الحرب، وقدرة على معاناة الشدائد.

والتفسير الذي يقدّمه ابن خلدون لا يعين على فهم زوال سلطان بني أمية، فدولة بني أمية لم تعش مائة وعشرين سنة، ولم تعاصر ثلاثة أجيال، إلا إذا حسبناها امتدادا لدولة الراشدين. وأما انحلال دولة بني أمية فقد بدا في السنوات القليلة الأخيرة من عمرها،

---

(١) ابن خلدون/ المقدمة، ج١، ص٢٢٠-٢٢٢.

ولم تشهد سيرتها قصة الأجيال المتعاقبة والتحولات والتغيرات التي تعتري هذه الأجيال على النحو الذي تحدّث ابن خلدون عنه. وكان مروان بن محمد اخر خلفاء بني أمية وقف ومن معه كالطود الشامخ يقاتل الخارجين عليه بلا ملل ولا كلل.

وفي العصر الحاضر، تناول بعض المشتغلين في مجال التاريخ الإسلامي مسألة زوال سلطان بني أمية، وذكروا عددا من العوامل التي ساهمت في إزالته، وهي عوامل تتفاوت في الأهمية بين مؤرخ وآخر، ويمكن تصنيفها إلى عوامل مباشرة وغير مباشرة.

أما العوامل المباشرة فتتمثل بمعركة الزاب التي أسفرت عن هزيمة الجيش الأموي أمام الجيش العباسي، وإنهاء الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية.

وأما العوامل غير المباشرة، فهي العوامل التي كانت جذورها تمتد إلى ما قبل معركة الزاب، وكانت من الأسباب التي أضعفت تماسك الجبهة الأموية في أثناء منازلة العباسيين في الزاب، وأدت إلى هزيمة جند الأمويين وانهيار وزوال الدولة الأموية، وتتمثل هذه العوامل في الأغلب بالشكاوى والمطالب والأغراض التي عبرت عنها اتجاهات ودعوات وأحزاب وحركات وثورات عملت على الإطاحة ببني أمية وأهمها:

الموالي:

كان «فان فلوتن» من أقدم المؤرخين في العصر الحاضر الذين تعلقوا بقضية الموالي في تفسير بعض الأحداث التاريخية في عصر بني أمية، وعنده أن المسلمين من غير العرب أُلْحِقُوا منذ اعتناقهم الإسلامي ببعض القبائل العربية على أن يكونوا موالي لتلك القبائل[(١)]، ولكن اعتناقهم الإسلام لم يأت، حسب رأيه، لهم بخير، فكان العرب يعتبرونهم طائفة كالرقيق، ومرتبتهم الاجتماعية، عندهم متدنية، ورفضوا أن يقاسموهم ثمرات ما يفتحون من البلاد[(٢)]، ولم يساوهم الأمويون الذين كانوا يتعصبون للعرب،

---

(١) فان فلوتن، السيادة العربية، ص٣٨، محمد الطيب النجار/ الموالي، ص: ١٤.

(٢) فان فلوتن، السيادة العربية، ص٣٧-٣٨، بلياييف/ العرب والإسلام، ص٢٤٠-٢٤٧، محمد الطيب النجار/ الموالي، ص٣٨، ٥٠، الدوري/ مقدمة في التاريخ الاقتصادي، ص٤٠-٤١.

في العطاء بالعرب، وكانوا يأخذون الجزية منهم رغم إسلامهم، واشتدوا في جباية الخراج منهم، فلما يئس الموالي من الإنصاف والمساواة، أخذوا يؤازرون كل معارض لبني أمية، ويساندون كل ثورة، فناصروا المختار الثقفي، وكانوا في صفوفه أكثر الناس عددا، وشاركوا ابن الأشعث في ثورته على الحجاج وبني أمية، وكانوا عماد الثورة العباسية التي أطاحت بالأمويين، وعليه كانوا كما يقول «فان فلوتن» السبب الأول الذي يُعَوّلُ عليه في سقوط الدولة الأموية(١).

إن تقسيم المسلمين في المجتمع الإسلامي إلى عرب وموال مخالف للحقيقة، فإضافة إلى أن المجتمع الإسلامي كان يتألف من المسلمين وأهل الذمة، فإن المسلمين كانوا عربا وفرسا وتركا وبربرا وأجناسا أخرى، وكان من يُسْلِمُ ويلتحق بالعرب ويواليهم أقلَّ بكثير ممن كان يسلم ويظل يعيش مستقلا خارج إطار الولاء، فليس كل من كان مسلما من غير العرب كان معدودا من الموالي(٢).

والناس في إطار المجتمع مسلمين وذمة، وفي إطار القوم عربا وغير عرب، وفي إطار القبيلة والعشيرة الواحدة، ليست حظوظهم جميعا من القوة المؤثرة في بناء المكانة الاجتماعية سواء، فهم درجات بعضهم فوق بعض في العلم والمال والسلطان والنسل والعدد وغيرها من مظاهر القوة، وبتفاوتهم فيها، وفي وجوه الانتفاع بها وتسخيرها تختلف النظرة بينهم ونحو بعضهم بعضا.

وقد وقع هذا عند العرب وعند غيرهم، ووقع في العلاقة بين العرب وبين غيرهم، وفي العلاقة بين العرب أنفسهم، من غير أن يتكوّن موقف واحد للعرب تجاه غيرهم،

---

(١) فان فلوتن/ السيادة العربية، ص٤٠، ٤١، ٤٤، ٥٣، ٥٩، محمد الطيب النجار/ الموالي، ص٦٨، ١٠٨، ١١١.

(٢) ذكر ابن عبد الحكم أن قوما من العجم يقال لهم الحمراء والفارسيون نزلوا الفسطاط مع عمرو بن العاص وانتحوا في سكناهم جانبا عن العرب، انظر: ابن عبد الحكم/ فتوح مصر، ص١٢٩، انظر: أبو عبيد/ الأموال، ص٣٣٦؛ البلاذري/ فتوح البلدان، ص٦٤٢.

أو موقف موحد لغير العرب بعامة والموالي بخاصة تجاه العرب، فمن العرب أهل بادية ومنهم أهل حاضرة، وهؤلاء ليسوا سواء، ومن غير العرب أشراف وعلماء وفقهاء وكتّاب وتجار وملاكون وأصحاب حرف وصنائع وغير ذلك، فهم ليسوا سواء أيضا.

وقد ورد أن أهل البادية كانوا يقدّرون الشجاعة والفروسية والحرب ويحترمون أهل الحرب والفروسية أيما احترام، ولكن أهل العلم والفقه والشرف والسلطان من الناس كانوا موضع احترام الجميع في الأغلب، وفي البصرة، لما توفي الحسن البصري (ت١١٠هـ) وهو من الموالي العلماء فيها، تبع أهل البصرة جنازته، واشتغلوا به ولم تقم صلاة العصر بالجامع، ولم تترك صلاة العصر من قبل منذ كان الإسلام إلا يومئذ، لأن الناس تبعوا الجنازة ولم يبق بالمسجد من يصلي العصر[(١)].

وذكر وكيع في «أخبار القضاة» من أزواج هميم بن عياض العنبري امرأة عربية هي ابنة عم له، وأخرى سقلابية، وملك يمين، فلما مات هميم أراد ابن العربية من أولاده أن يفاضل بين الورثة في قسمة الميراث، ويجعل النصيب الأوفى لأبناء العربية، ولكن قاضي البصرة أعلمه أن القَسْم بينهم للذكر منهم مثل حظ الأنثى مرتين، فلما راح ابن هميم يجادل القاضي انتهره القاضي وقال له: «إياك أن تعدو ما أمرك به فاجعل السجن لك دارا»[(٢)].

وهو مثال على أن الجميع بدواً وحضراً، عربا وغير عرب، كانوا أمام القضاء سواء، ولم تكن نظرة وموقف الفرد والجماعة سبيلا إلى الإضرار بحقوق الاخرين، وإنما كانوا يعيشون في ظلال مجتمع، كانت رعاية الحقوق فيه موكولة إلى نظر وأحكام الشرع لا إلى نظرة الناس بعضهم إلى بعض، وأما نظرة الناس بعضهم إلى بعض، فالثقافة، لا الثورة العسكرية كما ظن فان فلوتن، بعض وجوه تهذيبها وإصلاحها.

---

(١) ابن خلكان/ وفيات الأعيان، ج٢، ص٧٢.

(٢) وكيع/ أخبار القضاة، ج٢، ص٧٧-٧٨.

أما بالنسبة للدولة الأموية واتهامها بالتعصب للعرب ضد الموالي، واستغلال واضطهاد الموالي، فقول تخالفه الشواهد التاريخية.

فإضافة إلى أن الدولة اتخذت الشرع الإسلامي لا غيره أساس الفصل في الخصومات بين الناس فإنها استعانت بالموالي في مجالات الولاية على البلدان والقضاء والجهاز الإداري والجيش والشرطة وأمور المال وغير ذلك من أعمال الدولة.

ففي الولاية على البلدان[١]، استخلف عتبة بن أبي سفيان في خلافة معاوية فيروز الديلمي واليا على اليمن، فمكث ثماني سنين، كما عيّن معاوية سعيد بن دادويه واليا على اليمن وخلفه الضحاك بن فيروز وظل واليا حتى وفاة معاوية، واستخلف عبد الله بن الزبير الضحاك بن فيروز واليا على اليمن غير مرة[٢].

وولى مسلم بن سعيد بن أسلم والي خراسان جبلة بن عبد الرحمن مولى باهلة على كرمان عام (١٠٥هـ)[٣]، وولى مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر أبا المهاجر دينار مولى الانصار على أفريقيا عام (٤٧هـ) وقيل عام (٥٠هـ)[٤]، وتولى موسى بن نصير مولى لخم أمر المغرب كله عام (٧٨هـ)، وعيّن موسى مولاه طارق بن زياد على طنجة وابنه عبد العزيز بن موسى على الأندلس، واستعان بأولاده الاخرين في الولاية على بلاد أفريقية والمغرب[٥]، وولّى سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد مولى قريش على افريقية عام (٩٦هـ)، وولّى عمر بن عبد العزيز إسماعيل بن عبيد الله بن ابي المهاجر مولى بني مخزوم على أفريقية عام (١٠٠هـ)، وخلفه يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج

(١) أنظر: جدول الوحدات الادارية والولاة في العصر الأموي.
(٢) اسحاق بن يحيى الطبري الصنعاني/ تاريخ صنعاء، ص٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣١.
(٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخه ج٧، ص١٨.
(٤) ابن عبد الحكم/ فتوح مصر، ص١٩٧، أبو جعفر الطبري/ تاريخه ج٥، ص٢٤٠.
(٥) ابن عبد الحكم/ فتوح مصر، ص٢٠٣، ٢٠٥، ٢١٠، ٢١٣، الكندي/ الولاة والقضاة، ص٥٢-٥٣.

ولاه يزيد بن عبد الملك عام (١٠١هـ)، وولّى هشام بن عبد الملك عبيد الله بن الحبحاب مولى بني سلول عام (١١٦هـ) على أفريقية والمغرب والأندلس[١].

وفي مجال القضاء[٢]، استقضى الأمويون عدداً من الموالي ومنهم شريح بن الحارث الكندي الذي وُلّي القضاء في الكوفة منذ خلافة عمر بن الخطاب وحتى خلافة عبد الملك بن مروان، وسعيد بن جبير الذي تولى القضاء في الكوفة في خلافة عبد الملك، والحسن البصري الذي تولّى القضاء في البصرة في خلافة الوليد بن عبد الملك وخلافة عمر بن عبد العزيز، وعامر بن شراحيل الشعبي الذي تولّى قضاء الكوفة في خلافة الوليد ابن عبد الملك، ووهب بن منبه الذي تولى القضاء في اليمن في خلافة عمر بن عبد العزيز، والغطريف بن الضحاك بن فيروز الذي كان قاضيا في اليمن في خلافة هشام بن عبد الملك، وعبد الله بن يزيد بن خزامى الصنعاني الذي تولى القضاء في مصر في خلافة عمر بن عبد العزيز وخلافة يزيد بن عبد الملك، وغيرهم.

وفي مجال الجهاز الإداري[٣]، كان حظ الموالي الاوفى في شغل مناصب الحجابة والحرس والكتابة والرسائل والخاتم والجند والخراج وبيوت الأموال والرقيق والنفقات، وحركة التعريب للجهاز الإدراي التي بدأها عبد الملك بن مروان لم تكن ضربة للموالي كما يظن، وإنما كانت انسجاما مع أهداف الدولة في تحقيق الوحدة وصبغ الفكر والثقافة والإدارة والسياسة بصبغة العربية والإسلام ورفع مستوى الإشراف على الجهاز الإداري وأداء الأعمال، وظل الموالي يقومون بأعمال الجهاز الإداري بعد التعريب[٤]، لاسيما وأن الجيل الثاني من الموظفين الموالي كانوا في ذلك الحين يتقنون اللغة العربية[٥].

---

(١) ابن عبد الحكم/ فتوح مصر، ص٢٠٣،٢٠٥،٢١٠،٢١٣، الكندي/ الولاة والقضاة ص٥٢-٥٣.

(٢) أنظر: جدول «أشهر البلدان وقضاتها في العصر الأموي».

(٣) أنظر: جدول «الجهاز الإداري في المركز في العصر الأموي».

(٤) محمد بطاينة/ الحضارة العربية الإسلامية ص١٤٨.

(٥) بلياييف/ العرب والإسلام والخلافة، ص٢٣٥.

وفي مجال الجيش[1]، وردت الشواهد منذ العصر الراشدي على دخول الموالي في الجيش الإسلامي ومساواتهم بالمسلمين العرب في العطاء، وبعد أن كان الجند أيام أبي بكر في العطاء على السواء، جعلهم عمر بن الخطاب فيه على السابقة في الإسلام لا على الأحساب، ورتبهم فيه طبقات، وسوّى كل طبقة في العطاء عربهم وعجمهم[2]، ومضى على هذه السياسة كل من عثمان بن عفان وعلي بن ابي طالب[3].

وفي العصر الأموي، هناك شواهد عن حال الموالي لا تلغي ما كان متّبعا بحقهم في الأغلب أيام الراشدين، فقد وردت أسماء بعض الموالي مسجلة في ديوان العطاء مثل إبراهيم النخعي مولى النخع، وسعيد بن جبير مولى بني والبة، واشرس بن جبير مولى النخع، والجعد بن قيس مولى همدان، وأبو الشياطين مولى الأزد، وحماد الصائغ، وإبراهيم الصائغ، وثابت قطنة من الموالي الفرسان في خراسان، وعمرو الفادوسبان السنغدي البخاري من فرسان الموالي، والحسن بن سعد مولى قريش، وتوبة بن ابي أسيد مولى بني العنبر في البصرة، ويونس بن عبد ربه من الموالي في خراسان، ومسلم بن يسار وعطاء بن السائب وأبو البختري وعامر الشعبي في الكوفة[4]، وغيرهم كثير لاتَضُنّ كتب التراث على من يرتادها باحثا عنهم.

وإضافة إلى ذكر أسماء أفراد من الموالي، ورد ذكر جماعات من الموالي في المقاتلة والعطاء فقد فرض سليمان بن عبد الملك لأربعة الاف من قريش، وفرض معهم لأربعة الاف من حلفاء وموالي قريش[5]، وفرض هشام بن عبد الملك لعيال الأعاجم ولابناء

(١) انظر: جمال جودة/ الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالي في صدر الإسلام، مواضع متفرقة، هاني حسين أسعد/ العطاء في صدر الإسلام، مواضع متفرقة.
(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه ج٣، ص٦١٣-٦١٤.
(٣) الماوردي/ الأحكام السلطانية، ص٢٠١.
(٤) خليفة بن خياط/ تاريخه ص٢٨٢،٢٨٦،٢٨٧، ابن سعد/ الطبقات الكبرى، ج٦، ص٢٥٦، ٢٨٠،ج٧،ص٢٤١، ابو جعفر الطبري/ تاريخ ج٧، ص٣٥، ٢٣١،٢٨٥، ٣٣٢.
(٥) اليعقوبي/ تاريخه ج٢، ص٢٩٨.

الفرس من أهل بعلبك وأنطاكية في خمسة دنانير ولم يفرض لهم أحد قبله[١]، وهذا يعني أن اباء العيال من الأعاجم والفرس من أهل بعلبك كانوا في العطاء، وسار موسى ابن نصير على راس جيش من العرب والموالي والبربر لفتح بلاد المغرب، وكان أكثر جيش طارق بن زياد الذي فتح بلاد الأندلس من البربر[٢]، وكان بخراسان سبعة آلاف من الموالي المقاتلة عليهم حيان النبطي[٣].

وممن أسلم من أهل الذمة بمصر، رفع عمر بن عبد العزيز الجزية عنهم وألحقهم بالعطاء في عشائر من أسلموا على يديه، وكان بمصر مقاتلة من الموالي من أهل حمص، أمر الخليفة الوليد بن يزيد واليه حفص بن الوليد الحضرمي أن يخرجهم مع من بمصر من أهل الشام إلى أجنادهم[٤].

وإلى جانب هؤلاء الأفراد والجماعات من الموالي، ورد ذكر فرق قتالية من الموالي، كان عدد الفرقة الواحدة منها يقدر بالالاف، فقد روي أن عبيد الله بن زياد أحضر ألفين من البخارية عام (٥٤هـ) كلهم جيد الرمي بالنشاب، وفرض لهم العطاء، وسماهم المحاربة، وكان يستخدمهم في الأغراض الأمنية[٥]، كما ورد ذكر «القيقانية» الذين اشتركوا في القضاء على ثورة زيد بن علي في الكوفة عام (١٢٢هـ)[٦].

وقاد مسلم بن ذكوان مولى يزيد بن الوليد بن عبد الملك فرقة «الذكوانية» لإخضاع أهل حمص وفلسطين لصالح يزيد، ووقفت هذه الفرقة إلى جانب سليمان بن هشام بن عبد الملك ضد مروان بن محمد ثم دخلت في طاعة مروان[٧].

---

(١) تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول، ص٣٩٩.

(٢) ابن عبد الحكم/ فتوح مصر، ص٢٠٤، المقري/ نفح الطيب، ج١، ص٢٣١.

(٣) ابن عبد الحكم/ فتوح مصر، ص٢٠٤، المقري/ نفح الطيب، ج١، ص٢٣١.

(٤) الكندي/ الولاة والقضاة، ص٨٣.

(٥) البلاذري/ فتوح البلدان، ص٥٠٧، أبو جعفر الطبري/ تاريخه ج٥، ص٢٩٨، ٣٦٠، ٥١١.

(٦) أبو جعفر الطبري/ تاريخه ج٧، ص١٨٢.

(٧) أبو جعفر الطبري/ تاريخه ج٧، ص٢٦٥، ٢٦٧، ٢٨٢، ٢٨٣، ٣١٢.

واشترك «الوضاحية»[١] بقيادة الوضاح إلى جانب مسلمة بن عبد الملك في القضاء على ثورة يزيد بن المهلب عام (١٠٢هـ)، وكان عددهم قرابة ثلاثة الاف[٢]، وأرسلهم الخليفة مروان بن محمد عام (١٢٨هـ) مع الجند الذين سار بهم حوثرة بن سهيل الباهلي إلى مصر، وكان يقودهم انذاك عمرو بن الوضاح وعددهم سبعة الاف[٣].

وإضافة إلى هذه الفرق العسكرية ورد ذكر فرق أخرى مثل الزط والسيابجة والصحصحية والأساورة والمحمرة وغيرها[٤].

والأمثلة على وجود الموالي في الجيش والعطاء كثيرة، وهي شواهد تدل على أن الجيش في العصر الأموي لم يكن مؤسسة مقصورة على العرب، بل كانت مفتوحة أمام المسلمين، ولكن التجنيد في الجيش كان يخضع لضرورات المال والأمن، مما جعل كثيرا من المسلمين عربا وغير عرب، ليسوا مسجلين في المقاتلة والعطاء، واتخاذ الأمويين الفرق العسكرية الانفة الذكر لا يتفق واتهام الأمويين بالتعصب للعرب، واتباع سياسة عنصرية في التجنيد، وإنما يكشف عن حرص الأمويين على سلامة وحماية سلطان الأمويين وحفظ الأمن في ظلالهم، وهو ما قد يُفَسَّرُ بإعادة الامويين النظر في مستوى الاعتماد على العرب في حماية وحفظ السلطان الأموي، ولا شك أن هذا الاتجاه قد لا يعجب القائلين بالعصبية القبلية في فهم الأحداث التاريخية في عصر بني أمية واتهام الخلفاء الأمويين الأواخر بالسقوط في مصيدة القبلية، كما قد يكون هذا الاتجاه وَلّدَ الشعور عند العرب بعدم الرضا عن الأمويين، وجعل ثوارهم يصفون جيش الشام بخاصة بأنهم برابرة وجرامقة وأنباط وصقالبة وجراجمة[٥]، ونظراً لقيام هذه الفرق

---

(١) الكندي/ الولاة والقضاة، ص٨٤.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه ج٦، ص٥٩٥.

(٣) الكندي/ الولاة والقضاة، ص٨٨.

(٤) البلاذري/ فتوح البلدان، ص٤٥٩-٤٦٢، ابو جعفر الطبري/ تاريخه ج٧، ص٤٣٣.

(٥) الجاحظ/ البيان والتبيين، ج١، ص٢٩٣، ابو جعفر الطبري/ تاريخه ج٦، ص٣٦١،٥٨٨.

العسكرية التي لم تكن تعرف غير الولاء والإخلاص للحاكم الأموي، نظرا لقيامها بقمع المخالفين والمعارضين بلا شفقة ولا هوادة، وصف الحكم الأموي بالجور وسفك الدماء(١).

أما بالنسبة للعطاء فقد ورد انفا أن حفص بن الوليد جعل للجند الحفصية عطاء الفرض بين عشرين دينارا وخمسة وعشرين دينارا في السنة، وأرسل عبد العزيز بن مروان والي مصر بعثاً عام (٧٢هـ) إلى قتال عبدالله بن الزبير، وكان عبد الرحمن بن يحنس مولى تجيب في البعث، فقتل عبد الرحمن بن يحنس عبدَ الله بن الزبير، فجعله عبد العزيز عريفا على موالي تجيب وفرض له في شرف العطاء ومقداره مائتا دينار في السنة وذلك عام (٧٣هـ)(٢). وكان بعض موالي مسلمة بن مخلد في العطاء، ومن هؤلاء من كان عطاؤه مائتين(٣).

وورد عن عمر بن عبد العزيز أنه جعل العرب والموالي في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء، والأرجح أن ذلك كان ضمن الطبقة الواحدة من المقاتلة، لأن عمر بن عبد العزيز فاضل في العطاء. فجعل المولى المعتق أقل عطاء(٤)، وكتب إلى واليه على مصر بفريضة للجند وأمره أن يلصق بأهل البيوتات الصالحة في فرض العطاء، فإنما الناس معادن(٥).

وعندما فرض حوثرة بن سهيل الباهلي للجند في مصر، جعل لشيعة مروان بن محمد ومن كان يكاتبه فروضا في الخاصة، ففرض لزبان بن عبد العزيز في موالي بني أمية في الخاصة(٦)، وهذه شواهد على أن الولاء والصلاح من العوامل التي كانت تتدخل في تقدير العطاء للعرب والموالي على السواء.

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه ج٦ ص٢١٩، ٢٢٠، ٢٨٧.
(٢) الكندي/ الولاة والقضاة، ص٥١.
(٣) ابن حجر العسقلاني/ رفع الاصر عن قضاة مصر، القسم الاول، ص١٨١.
(٤) ابن سعد/ الطبقات ج٥، ص٣٧٥.
(٥) الكندي/ الولاة والقضاة، ص٦٩.
(٦) المصدر نفسه، ص٩٠.

واستعين بالموالي في أمور المال، وكان زياد بن أبيه ممن استعان بهم لأنهم أبصر بالجباية، وأوفى بالأمانة، وأهون في المطالبة من العرب[١]، وسار ابنه عبيد الله بن زياد على طريقته من بعد، واعتمد على الموالي في أمور الخراج وجبايته وإدارته أيضا[٢]، وظل استعمال الموالي في هذا المجال ملحوظا طيلة العصر الأموي، ولكن الدولة كانت تجعل عملهم خاضعا لإشرافها لئلا يظلموا أحدا[٣].

واهتمام الدولة بأمور الخراج والجباية جزء من واجب الرعاية الملقاة على عاتقها، وبخاصة أن الخراج كان يشكل عماد ماليتها التي كانت تستند إليها في القيام بواجبات الرعاية، وثبات مقدار الجباية عبر العصر الأموي عدا سني الفتن والكوارث دليل على وجود سياسة مالية للدولة الأموية قائمة على أصول وقواعد ثابتة وواضحة لدى أطراف العلاقة، وهذا ينفي اتهام الأمويين بزيادة المطالبات المالية وإرهاق الموالي بالضرائب المتزايدة.

اما الجباية فلم تسلم من تعدّيات عمال الخراج، وشارك عمال الخراج من الموالي في هذه التعدّيات، وقد أصابت اثارها السيئة كلاًّ من الدولة ودافعي الخراج، ولكنها كانت تقع موقع التنديد والإنكار والمعاقبة في أكثر الأحيان[٤].

وإضافة إلى ما كان يتمتع به الأشراف والعلماء والفقهاء والملاّك والتجار من الموالي من المكانة والاحترام، فإن من أسند إليه من الاعمال والمناصب منهم كان يتمتع بدرجة من النفوذ، فموسى بن نصير مولى لخم بلغ به الحال في المغرب مبلغا كبيرا، فكان يُوَلي ويعزل، وكان يخاطب في مكاتباته عبد العزيز بن مروان، فلما مات عبد العزيز وخلفه عبد الله بن عبد الملك بن مروان في ولاية مصر، صار موسى يخاطب الخليفة

---

(١) اليعقوبي/ تاريخه ج٢، ص٢٣٤.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه ج٥، ص٥٢٣.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) انظر: البلاذري/ أنساب الاشراف، قسم ٤، ج١، ص١١٥، ١٩٣، ٢٠١، ج٩، ص١٠٧-١١٠، ابن عبد الحكم/ سيرة عمر ابن عبد العزيز، ص٨٣.

عبد الملك في دمشق، فغضب عبد الله وتهدد موسى، فما كان من موسى إلا أن أجاب عبد الله قائلا: «. . .وأما تهددك إياي بأنك واضع مني ما رفعا[١]، فليس ذلك بيدك ولا إليك، فارعد وأبرق لغيري»، فبعث عبد الله كتاب موسى مع كتاب من عنده إلى أبيه عبد الملك فنظر الوليد في الكتاب[٢]، وقال: لقد كان عبد الله غنّيا أن يتعرضه وعزل الوليد أخاه عبد الله، وولي مكانه قرة بن شريك[٣].

وكانت أم عبدالله ابنة موسى بن نصير تحت الربيع صاحب خاتم الخليفة يزيد بن عبد الملك، فلما صحّ عند يزيد أن عبد الله بن موسى بن نصير حرّض على قتل الوالي يزيد بن أبي مسلم، أمر بشر بن صفوان الوالي على أفريقية أن يقتل عبد الله بن موسى، ولكن الربيع حصل على كتاب من الخليفة يزيد بعافية عبد الله، وقتل عبد الله قبل أن يصل الرسول إلى والي أفريقية بعافية عبد الله[٤].

وقد تعرضت العوامل التي شجعت الولاء أول الفتح الإسلامي إلى تبدل الأحوال في الأغلب، فتضعضعت دهشة الفتح الإسلامي في نفوس غير العرب، وتراجعت القبلية أمام تزايد قوة الدولة، وتغلغلت المفاهيم والأفكار الإسلامية في الحياة، وتحسنت أوضاع الموالي بما حققوه من مكاسب في المجالات المختلفة، الأمر الذي أثار الحس عندهم بعدم اللجوء إلى الولاء، ولكن الولاء لرجالات الدولة من القادة والولاة والأمراء والخلفاء وغيرهم من أصحاب النفوذ ظل مستمرا[٥]، ومن المعقول أن من كان يدخل في ولاء مع هؤلاء من أصحاب النفوذ يكون معهم في صلات وعلاقات أكثر مودة ومحبة، وكان الرجل من أصحاب النفوذ يُذْكُر وأهله ومواليه وكأنهم أسرة واحدة،

(١) يقصد ما نال موسى من الرفعة على يد عبد العزيز بن مروان ويد بشر بن مروان.

(٢) لأن عبد الملك بن مروان كان قد مات قبل وصول كتاب عبد الله إليه.

(٣) الكندي/ الولاة القضاة، ص٦١-٦٣.

(٤) الكندي/ الولاة والقضاة، ص٢١٥.

(٥) أبو جعفر الطبري/ تاريخه ج٧، ص١٨.

وكانت المولوية تتخذ سبيلا الى المنفعة وبابا إلى الولاية، فقد روي أن جبلة بن عبد الرحمن مولى بني باهلة لما ولاه والي خراسان مسلم بن سعيد بن أسلم على كرمان، قال: ما صنعت بي المولوية! كان مسلم يطمع أن ألي ولاية عظيمة فأُولّيه كورة، فعقد له على خراسان، وعقد لي على كرمان[1].

مما سبق نخلص إلى القول بأن الموالي، إذا استثنينا منصب الخلافة، شاركوا على مستوى الدولة من الرأس وحتى القاعدة، وكانت حظوظهم فيها متفاوتة بينهم تفاوت حظوظ العرب، ولم تكن أبواب الحياة العامة موصدة أمامهم، وليس هناك ما يشعر بوجود مواقف عدائية مبيّتة على مستوى الدولة أو على مستوى العرب ضدهم، ووقفوا والعرب يوالون الدولة الاموية، ويعارضونها في إطار الحركات والأحزاب السياسية، وكانت القيادة في الولاء والمعارضة عربية، ولم ير الموالي في تقدّم العرب وقيادتهم حرجا أو غضاضة، وكانت الثورة التي أطاحت بالأمويين من صنعهما تحت شعار حياة إسلامية[2] تستند إلى الكتاب والسنة بقيادة الرضا من آل محمد.

العصبية القبلية[3]؟

لقد تحدثنا عن ما ذهب إليه المؤرخون المعاصرون من قول عن العصبية القبلية وأثرها في الأحداث التاريخية بعامة في العصر الأموي وفي زوال سلطان بني أمية بخاصة، وبيّنا أبعاد هذه الأحداث استنادا إلى الروايات التاريخية، ووضّحنا ظروف هذه الأحداث ومنطلقاتها ودوافعها وأهدافها، وبدا أثر القبلية في أمور الخلافة والولاية والرعاية والفتح وأمثالها من القضايا التي تعد من هموم الأمة لا يتجاوز المظهر.

كان الوجود القبلي حقيقة تمثلت انذاك في اتباع الإطار القبلي عند تنظيم سكنى العرب في الأمصار، وفي اثناء اشتراكهم في ساح القتال، وفي تسجيلهم في ديوان

(١) البلاذري/ أنساب الأشراف، ج٤، قسم ٢، ص٣٢، الكندي/ الولاة والقضاة ص٨٨.
(٢) إبراهيم بيضون/ الدولة الاموية والمعارضة، ص٤٩.
(٣) أنظر ملاحق الكتاب.

العطاء وأمثال ذلك، ولكن الجهود المستمرة في تعميق الثقافة الإسلامية بين الناس، وتنفيذ أحكام الإسلام وسيادة مفاهيمه في حياتهم، وممارستهم شعائر الإسلام المنتظمة، وتهذيب عاداتهم وتقاليدهم وفقا لاتجاهات الإسلام وقيمه، وما حققه الإسلام للعرب من مكاسب جعلتهم أكثر ولاء له وافتخارا بالانتماء إليه، فضلا عن أنهم حملته ودعاته، ثم اختلاطهم بعضهم وبغيرهم من الشعوب عن طريق الجوار والمصاهرات وأعمال التجارة في البيئات الجديدة بعيدا عن مواطنهم الأصلية، واشتراكهم في حلقات الدرس والعلم وميادين الجهاد، والتحاقهم مع غيرهم بالثورات والأحزاب والدعوات المبدأية،عمل ذلك كله على خلخلة العصبية القبلية وإضعافها وتراجعها أمام قدّ الروح الإسلامية ونفاذ عقيدتها ومفاهيمها إلى حياة الفرد والأسرة والجماعة وجعل الأحداث تجري خارج السياق القبلي.

ولم تأل الدولة جهدا في نصرة الحياة الموجهة بالنظام والشرع، وإضعاف الروح القبلية، والسيطرة على القبيلة والزامها بطاعة الدولة، وجعلها رعية من رعاياها، فكانت سياسة الدولة من لدن زياد بن أبيه تتجه نحو تعزيز هيمنة الدولة وسيادة النظام والأمن، وهو بعض مدلولات ما قرفت به الدولة من أوصاف الشدة والجور والجبرية، ولا ننسى أن الدولة كانت بما تملكه من العوامل المادية والمعنوية وعناصر القوة المختلفة تتدخل في صنع القيادات القبلية، وتجعلها تدور في فلكها وتتخذ البدائل رقيبا على حسن طاعتها وضمان ولائها، وصار عِزّ القبيلة برضا الدولة يكبر، ومجدها بحظها من مناصب الدول يتأثل[١].

ولم تكن الإطاحة بدولة بني أمية من صنع القبلية أو انتصارا لها، ومظنة اتهام القبلية في قضية زوال سلطان بني أمية يعود في الأغلب إلى الخلافات التي كانت تجري على ارض خراسان بين الكرماني والحارث بن سريج ووالي خراسان نصر بن سيار تلك الخلافات التي جعلت الفرصة سانحة للدعوة العباسية أن ترفع راية الثوره على بني أمية في خراسان وتشق طريقها بنجاح وسط الفرقاء المتقاتلين.

(١) انظر: البلاذري/ أنساب الأشراف، ج٤، ق١، ص١٥٩-١٦٠.

كان الحارث بن سريج التميمي وجديع بن علي الكرماني ونصر بن سيار الليثي من كبار القادة في خراسان، وأظهر الحارث الخلاف عام (١١٦هـ)، وأخذ يدعو إلى العمل بالكتاب والسّنة، وعندما كثر أتباعه حارب والي خراسان عاصم بن عبد الله الهلالي، ثم حارب من بعد الوالي أسد بن عبد الله القسري، وكان نصر بن سيار وقتها عاملا على بلخ، ولما هزمه أسد، انسحب الحارث إلى بلاد الترك المشركين وأعداء المسلمين، وظل هناك حتى أمّنه الخليفة يزيد بن الوليد، فعاد إلى مرو لثلاث بقين من جمادى الأخرة سنة (١٢٧هـ) بعد اثني عشر سنة قضاها في بلاد الشرك[١].

عاد الحارث يدعو الناس إلى كتاب الله والعمل بالسنّة واستعمال أهل الخير والفضل، ولما مات الخليفة يزيد وقام مروان بن محمد، زعم الحارث أن مروان لا يجيز أمان يزيد له ولا يؤمّنه، فدعا الناس الى البيعة وأظهر أنه صاحب الرايات السود التي تستولي على دمشق وتزيل سلطان بني أمية، ورغم محاولات نصر في الصلح معه وقبوله ما يرضى من السنن ويختار من العمال، فإن الحارث أصرّ على اعتزال نصر وجعل الأمر شورى[٢].

وأما نصر بن سيار، فهو من كبار القادة في خراسان، وفضّله هشام بن عبد الملك على غيره من المرشحين لولاية خراسان عام ١٢١هـ، وكان مثال الوالي القوي، والقائد الفذ، والسياسي المحنك، ولما قتل الوليد عام ١٢٦هـ، أنكر نصر قتله، وامتنع من تسليم عمله للعامل الذي ولاّه منصور بن جمهور على خراسان، وكان منصور تولى العراق وخراسان من قبل يزيد بن الوليد.

ونهض نصر بأمور الولاية، ودعا الجند إلى البيعة فبايعوه، واستعان بالعمال على خراسان من بكر بن وائل وأسد وسليم وغيرها من القبائل، وأمرهم بحسن السيرة فقال الشاعر في ذلك[٣]:

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٣١٠.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٣٣١.

(٣) المصدر نفسه، ج٧، ص٢٧٨-٢٧٩.

دعـــوت الجنـــود إلـــى بيعـــة   فـــأنصفتهـــا كـــل إنصـــافهـــا
وطـــدت خـــراســـان للمسلميـــن   إنّ الأرض همّـــت بـــإرجـــافهـــا
وحتـــى تبـــوح قـــريـــش بمـــا   تَجُـــنُّ ضمـــائـــر أجـــوافهـــا
فنحـــن علـــى عهـــدنـــا نستـــديـــم   قـــريشـــا ونـــرضـــى بـــأحـــلافهـــا
سنـــرضـــى بظلـــك كِنّـــاً لهـــا   وظلـــك مـــن ظـــلّ أكنـــافهـــا
وجـــدنـــاك بـــرّاً رءوفـــاً بنـــا   كـــرأمـــة أم وألـطـــافهـــا

فلما حدث ذلك، وأنكر نصر قتل الوليد، وامتنع من تسليم عمله للعامل الذي أرسله منصور بن جمهور، قال جديع الكرماني لأصحابه، الناس في فتنة[1]، فانظروا لأموركم رجلا، فقالوا: أنت لنا[2].

والكرماني هو جديع بن علي بن شبيب المعروف بالكرماني نسبة إلى البلد الذي ولد فيه، وكان رأس الأزد، وسّرحه أسد بن عبد الله القسري والي خراسان إلى قلعة التبوشكان بطخارستان عام ١١٨هـ، وكان يتحصن بها أصهار الحارث بن سريج من بني برزي التغلبي، وثقل الحارث وأصحابه، فاستولى الكرماني على القلعة، واستخلفه أسد عام ١١٩هـ على بلخ عندما خرج أسد إلى قتال الترك[3].

ولما ولي نصر بن سيار خراسان، عزل الكرماني عن رئاسة الأزد وصيّرها إلى حرب ابن عامر الواشجي، فمات حرب، فأعاد نصر الكرماني عليها ثم عزله وصيّرها إلى جميل بن النعمان، ولما تباعد ما بين نصر والكرماني، قال جميل لنصر: إنك قد شرفته وإن كرهت قتله، فادفعه إلي أقتله، فرفض نصر[4]. ورغم ما ذكّر نصرٌ الكرماني به من

---

(١) الفتنة: الاسم الذي يطلق عادة على أيام الخلاف والفرقة والقتال بين المسلمين في أثناء غياب خليفة مجمع عليه.
(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٨٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٧، ص١٢١.
(٤) المصدر نفسه، ج٧، ص٢٨٧.

الإحسان إليه، وما بذله نصر من محاولات الصلح معه حفاظا على وحدة الجماعة وسلامة ثغر خراسان المسلحة في نحور الأعداء، ظل ما بينه وبين الكرماني متباعدا، وبذلك نكون في خراسان أمام قوى متنافرة عدة منها ما يمثّل اتجاها إصلاحيا كحركة الحارث بن سريج وشيبان بن سلمة الحروري الخارجي والدعوة العباسية، ومنها ما كان يتهم بالعصبية والسعي للإمارة كحركة الكرماني[1]، وأما نصر بن سيار فهو ممثل سلطان بني أمية في خراسان.

ولما رأى نصر بن سيار إصرار الحارث والكرماني على مخالفته وطمعهما في الاستيلاء على مرو، خرج منها إلى ابر شهر، فوقعت المواجهة بين الحارث والكرماني، وقتل الحارث، ثم قتل الكرماني من بعد في الحرب بينه وبين نصر، ومال ابناه عليّ وعثمان إلى الثورة العباسية من بعد مقتله، ولكن الثورة قتلتهما وقتلت رجالهما عام ١٣٠هـ، وقتلت شيبان بن سلمة الحروري وقضت على حركته، وأما نصر بن سيار فكان يرحل أمام زحف الجيوش العباسية من بلد إلى آخر من بلدان خراسان دون أن يظفر بعون أو نجدة من مروان بن محمد الذي كان مشغولا بالقضاء على الثورات في الجزيرة والشام وباقي بلاد الدولة الإسلامية، ومات نصر بن سيار وعلت راية الثورة العباسية على أرض خراسان.

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٨٧.

المعارضة الحزبية:

تعرّض بنو أمية على يد عبد الله بن الزبير إلى هزة كبيرة بعد وفاة يزيد بن معاوية طرحت البلاد عدا الأردن خارج سلطانهم، ولكنهم تمكنوا في عهد مروان بن الحكم ثم في عهد ابنه عبد الملك من القضاء على سلطان ابن الزبير وقتلوه، وأعادوا بسط سلطانهم على كل البلاد، ومع أن القتال بين الأمويين والزبيريين كان من العوامل التي أضعفت عصبية قريش بعامة والأمويين بخاصة فإن خطر الزبيريين لم يَعُدْ يهدد سلطان الأمويين من بعد، ولكن خطورة المعارضة كانت تظهر بين فترة وأخرى على يد أحزاب مثل الخوارج والشيعة والقدرية والمعتزلة.

الخوارج:

ناصب الخوارج الأمويين العداء وسلّوا السيوف عليهم منذ قيام سلطان الأمويين وحتى زواله.

ففي عام ٤١هـ، تحرك الخوارج الذين كانوا اعتزلوا علي بن أبي طالب بشهر زور وعددهم خمسمائة من الحرورية بقيادة فروة بن نوفل الأشجعي، وقالوا: قد جاء الان مالا شك فيه، فسيروا إلى معاوية فجاهدوه، وكان معاوية لا يزال في الكوفة على أثر الصلح الذي جرى بينه وبين الحسن بن علي، فهدد معاوية أهل الكوفة، وأمرهم بقتالهم، فقامت قبيلة أشجع إلى فروة وأخذته، فولّى الخوارج عليهم عبد الله بن أبي الحر الطائي، وقاتل أهل الكوفة الخوارج وقتلوهم[(١)].

ودعا الخوارج عام ٤٢هـ إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد المبطلين وقتال الولاة الظلمة الذين يجورون في الأحكام ويتركون سّنة الهدى ويعطّلون الحدود ويستأثرون بالفيء، وولّوا عليهم المستورد بن علّفة التيمي من تيم الرباب، فوجه إليهم المغيرة بن شعبة والي الكوفة ثلاثة الاف أكثرهم من شيعة علي وأمّر عليهم معقل بن قيس

---

(١) اليعقوبي/ تاريخه ج٢، ص٢١٧، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص١٧٤.

الرياحي، فقتل المستورد، وقتل أكثر أصحابه وذلك عام ٤٣هـ[١].

وثار سهم بن غالب الهجيمي ويزيد (زياد) بن مالك الباهلي المعروف بالخطيم عام ٤٦هـ فقتلهما زياد بن أبيه والي الكوفة، وقتل زياد قُريباً الأيادي وزحّافاً الطائي عام ٥٠هـ من ولايته، وانتقد عروة بن أدية عبيد الله بن زياد وهو يشهد سباق الخيل في الكوفة وَنَعَتَهُ بالظلم والبطش واقتفاء أثر الجبارين من الأمم السابقة فأخذه ابن زياد وقتله، وقتل ابن زياد عام ٦١هـ مرداس بن عمرو بن حدير ومن معه[٢].

وثار نافع بن الأزرق عام ٦٥هـ في البصرة واشتدت شوكة الخوارج في أثناء الاضطرابات التي وقعت بين بني أمية وعبد الله بن الزبير، ونهض المهلب بن أبي صفرة الأزدي لقتالهم في طاعة ابن الزبير ثم في طاعة عبد الملك بن مروان، وأوقع بهم الهزائم الكثيرة وَحَدَّ من خطرهم وتعدياتهم[٣].

وثار أبو فديك من بني قيس بن ثعلبة عام ٧٢هـ وغلب على البحرين[٤]، وكان صالح ابن مسرح التميمي من الخوارج الصفرية، وله أصحاب بدارا والموصل والجزيرة يقرئهم القرآن ويفقههم ويقص عليهم، ثم حضهم على الثورة وَذَكَرَ لهم أن السنّة لا تزداد إلا دروسا، ولا يزداد المجرمون إلا طغيانا مع ما يقع من انتهاك لمحارم الله، وأَخْذِ الأموال بغير حقها، فثار الخوارج بقيادته عام ٧٥هـ، ولما قُتِلَ بايعوا شبيب بن يزيد وذلك عام ٧٦هـ، واستطاع شبيب أن يدخل الكوفة ومعه زوجته غزالة وكان والي العراق وقتها الحجاج بن يوسف الثقفي، وقُتِلَ شبيب عام ٧٧هـ[٥].

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص١٧٣-٢٠٩.

(٢) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٢٠٤،٢٠٩،٢١٩،٢٥٦، اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٢٣٢، أبو جعفر الطبري/ تاريخه ج٥، ص٢٣٧،٢٣٨،٣١٢،٣١٤،٤٧١.

(٣) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٢٥٦،٢٧١، اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٢٦٤-٢٦٥، ٢٧٢، ٢٧٥، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٦١٣-٦٢٢،/ ج٦ ص١٩٥-١٩٨،ص٢١١-٢١٥.

(٤) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٢٦٧، اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٢٧٣، أبو جعفر الطبري/ تاريخه ج٦، ص١٧٤.

(٥) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٢٧٤-٢٧٧، اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٢٧٤-٢٧٥، =

وهدأت ثورات الخوارج فترة من الزمن حتى كانت ثورة شوذب عام ١٠٠هـ في ولاية عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب على الكوفة من قبل الخليفة عمر بن عبد العزيز، وقيل أن عمر بن عبد العزيز ناظرهم ولم يثوروا، فلما كانت ولاية سعيد بن عمرو الحرشي على الكوفة وذلك في خلافة يزيد بن عبد الملك ثاروا فقاتلهم سعيد وقضى عليهم(١).

وثار عام ١١٩هـ الصحارى بن شبيب الخارجي من الصفرية، وبايعه ثلاثون رجلا، ولكنه قُتل وقُتل جميع أصحابه بناحية المناذر من الكوفة، وثار سعيد بن بحدل الشيباني في الجزيرة ومعه مائتان وذلك عام ١٢٧هـ في خلافة الوليد بن يزيد، ودخل الكوفة ثم مات، فخلفه الضحاك بن قيس الشيباني، واغتنم الضحاك قتل الوليد وانشغال مروان بن محمد بالحروب في الشام، فسار بألف من أتباعه نحو الكوفة، وأعانته الخلافات المستمرة بين أهل الكوفة على أخذها، وسار من هناك الى واسط، وزاد جمعه، وقيل بلغ ماية وعشرين ألفا، فلما سمع بمسير مروان بن محمد، تحرك للقائه، فالتقى بمروان في كفر توثا من أرض الجزيرة عام ١٢٨هـ، فهُزم وقُتل وبايع الخوارج الخيبري خَلَفاً له، وقُتل الخيبري في المعركة فاستخلف الخوارج شيبان بن عبد العزيز اليشكري، فهزمه مروان، ورجع شيبان إلى الموصل، ثم انهزم من هناك إلى فارس ثم إلى عُمَان حيث قتله جلندى بن مسعود بن جيفر الأزدي(٢).

= أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٦، ص٢١٦-٢٨٤، البغدادي/ الفرق بين الفرق، ص٨٩-٩٢، الشهرستاني، الملل والنحل، ج١، ص١٢٧.

(١) أبو جعفر الطبري، تاريخه ج٦، ص٥٥٥، ٥٥٦، ٥٧٥-٥٧٨.

(٢) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٥-٣٨٠، ٣٩١-٣٩٥، الأزدي، تاريخ الموصل، ص٦٠، اليعقوبي، تاريخه، ج٢، ص٢٧٤-٢٧٥، أبو جعفر الطبري، تاريخه، ج٧، ص٣٥٠-٣٥٣.

وثار عام ١٢٢هـ عبد الأعلى بن حديج مولى موسى بن نصير في طنجة من بلاد المغرب وكان صفريا، وهزم الجيش الذي وجهه إليه والي الأمويين، وقتل قائده. وثار في نفس السنة ميسرة الملقب بالحقير وكثر جمعه، وهزم الجيش الذي أرسله إلى قتاله الوالي الأموي إسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب، كما وجّه ميسرة جيشا قتل عبد الاعلى بن حديج وهزم أصحابه، وهزم الجيش الذي بعثه اسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب ثانية لقتاله، وقتل كبار واشراف الجيش في الموقعة التي أطلق عليها غزوة الأشراف عام ١٢٣هـ، ولم يحالف الظفر الجيوش التي أرسلت من بعد لقتال ميسرة، ومات ميسرة عام ١٢٤هـ، وانقسم الخوارج، ولكن شوكتهم ظلت قوية، ولم تستطع الجيوش التي أُرْسلت إليهم أن تنجح في القضاء عليهم إلا عام ١٢٤هـ حيث تمكن جيش حنظلة بن صفوان الكلبي من قتل قائدهم عكاشة الفزاري وهزيمة جموعهم(١).

وكان المختار بن عوف الأزدي السليمي وهو المعروف بأبي حمزة من اهل البصرة يوافي مكة في موسم الحج كل سنة، ويدعو الناس إلى خلاف مروان وال مروان، ثم لم يلبث أن بايع عبد الله بن يحيى المعروف بطالب الحق على الخلافة عام ١٢٨هـ، وأظهر الخلاف في موسم الحج عام ١٢٩هـ في سبعماية رجل، واستولى على مكة ثم على المدينة مُتَّهِماً ال مروان بانتهاك الحرمات واستحلال المال الحرام والقتل بالظنّة، فأرسل مروان بن محمد أربعة الاف من أهل الشام لقتاله، وجعل عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية، فالتقى الجانبان في وادي القرى، فغلب الخوارج وقتل أكثرهم، وسار عبد الملك من بعد ذلك إلى المدينة وولى عليها الوليد بن عروة بن محمد بن عطية، ثم سار إلى مكة واستخلف عليها، ثم توجه إلى اليمن، فقتل عبد الله بن يحيى وبعث برأسه إلى مروان(٢).

---

(١) خليفة بن خياط، تاريخه، ص٣٠٣،٣٥٥.

(٢) خليفة بن خياط، تاريخه، ص: ٣٨٤-٣٨٧، اليعقوبي، تاريخه، ج٢، ص٣٣٩-٣٤٠، ابو جعفر الطبري، تاريخه، ج٧، ص٣٩٤-٤٠٠.

وثار في خراسان شيبان بن سلمة عام ١٣٠هـ، ولكن هزيمته ومقتله كان على يد أبي مسلم الخراساني[١].

والملاحظ أن حركات الخوارج بدأت تنطلق من الكوفة وما حولها، ثم أخذت تمتد إلى البصرة واليمامة والبحرين وعمان وحضرموت واليمن ثم إلى الموصل والجزيرة وإلى شرق العراق وخراسان وبلاد المغرب، وهي البلاد التي شهدت في الأغلب الاعداد والتحضير لإزالة سلطان بني أمية، ثم الأعمال العسكرية التي انهت سلطان الأمويين، وهو وإن لم تكن الدعوة والأعمال العسكرية التي أزالت دولة الأمويين، امتدادا عضويا لثورات الخوارج، فإن الجهود الفكرية والعسكرية التي قام الخوارج بها آذت القوة العسكرية الأموية، وزعزعت الولاء والثقة بالأمويين، وأضعفت هيبتهم في النفوس وَقَلَّ حماسُ الجند لنجدتهم حين الشدة والضيق.

فقد أحاط الخوارج بقيادة نافع بن الأزرق بالبصرة حتى ترحلّ أكثر أهلها منها، وكان الباقون على الرحلة، وأقام نافع من بعد بالأهواز وطرد عمال الأمويين، وبعث عماله في السواد يجبون الخراج[٢]. وأقام قطري عام ٦٨هـ بكرمان، واجتمعت إليه جموع كثيرة، وأكل الأرض واجتبى المال[٣]، وعندما كُلِّفَ المهلب بن أبي صفرة بحرب الخوارج انتخب اثنى عشر الف رجل من أخماس البصرة، ولم يكن ببيت المال سوى مئتي ألف درهم عجزت عن عطاء الجند وعن تجهيزاتهم، فبعث المهلب إلى التجار وقال لهم، أن تجارتكم منذ حَوْلٍ قد كُسِرتْ بانقطاع موارد الأهواز وفارس عنكم، فهلمّ فبايعوني وأخرجوا معي أُوفِيكُمْ إن شاء الله حقوقكم، فأخذ منهم من المال ما يصلح به عسكره، واتخذ لأصحابه ما يلزم من التجهيزات فلما انتصر المهلب على الخوارج، قام بجباية الخراج من الكور حتى قضى للتجار ما أَخَذَ منهم، واحتاجت الدولة للنفقة على الجيش

(١) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٣٨٧-٣٨٨، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٣٨٧.
(٢) المبرد/ الكامل في اللغة، ج٣، ص٢٨٤، ٢٩٣.
(٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخه ج٦، ص١٢٧.

الذي قاده مسلمة بن عبد الملك عشرين ألفا استدانتها من التجار، وتعهد مسلمة للتجار بحقوقهم[1]. وقد شعر الحجاج بن يوسف الثقفي بما يلحقه الخوارج من تحدّي وكَفٍّ يد وسلطان الدولة، فقال: لو ساغت المعصية لأهلها، ما قوتل عدو، ولا جبي فيء ولا عزّ دِينٌ[2].

وكان في جملة الخوارج لَدَدٌ واحتجاج (مخاصمة ومجادلة واستدلال بالحجج). فقيل أن عبيد الله بن زياد قال فيهم: «. . .لكلام هؤلاء، يعني الخوارج، أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع (القصب)»[3]، ودار حوار بين خارجي وعبد الملك بن مروان، فحبس عبد الملك الخارجي وقال له، لولا أن تفسد بألفاظك أكثر رعيتي ما حبستك[4]. وكانت فيهم عبادة ونسك وتقشف حملت بعض رجال الدولة إلى الحدب عليهم أحيانا، ومهما كانت درجة الشك بأخبار المدح والثناء على الخوارج، فإن تنديدهم باعمال الأمويين وأعمال ولاتهم، واتهامهم إياهم بالظلم والجور في الأحكام ودعوتهم إياهم إلى الالتزام بالكتاب والسّنة، وإجراء العدل في الأحكام وقسمة الفيء، وقولهم بجواز الخلافة في قريش وغيرهم من المسلمين واستخلاف الخليفة بالاختيار الحر من المسلمين، كان مما يلفت الأنظار، ولكن كثرة اختلافات الخوارج وانقسامهم إلى أزارقة وصفرية ونجدات وأباضية وغير ذلك، والحكم على المسلمين بالشرك والكفر، واستحلال دماء وأموال المسلمين بهذا السبب[5]، جعل المسلمين يرهبونهم ويسعون للخلاص منهم. ولذلك ظل عدد الخوارج قليلا، وأما كثرة عددهم في أواخر بني أمية، وقد دخل في صفوفهم من لم يكن منهم، فذلك كان من الملتحقين بهم

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخ ج٦، ص١٢٧.

(٢) المبرد/ الكامل في اللغة، ج٣، ص٣٦٦.

(٣) المصدر نفسه، ج٣، ص٢٤٨.

(٤) المصدر نفسه: ج٣، ص٢٣٢.

(٥) انظر: البغدادي/ الفرق بين الفرق، ص٥٥، ٦٢-٦٣، الشهرستاني/ الملل والنحل، ج١، ص١١٨، ١٢٧، ١٣٤-١٣٧.

في أيام الخلاف والاضطراب اتقاء شر، أو هروبا من تباعة، أو طلبا لمنفعة، وهو خلاف ما كان يدعو إليه الخوارج، ومع أن نهاية الأمويين لم تكن على أيدي الخوارج، فإن حركتهم أعانت في زوال دولة بني أمية.

الشيعة:

بعد الصلح بين الحسن بن علي ومعاوية بن أبي سفيان، وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية، دخل الشيعة في طاعة معاوية والجماعة، وكانوا من أهل العطاء، ويشاركون في الفتوحات وإخماد الثورات الداخلية.

ولكن الأمويين وولاتهم على العراق لم ينسوا ماضي الشيعة وعلاقتهم بعلي بن أبي طالب وموقفهم من معاوية بن أبي سفيان، ولذلك كانوا يتتبعون أخبارهم، وألقى زياد بن أبيه القبض على حجر بن عدي الكندي أحد كبار رجال الشيعة وبعث به وبعدد من أصحابه إلى معاوية بتهمة التدبير عليه وعلى معاوية وتحريض الناس على الثورة ثم الخلع ومفارقة الجماعة، فعفا معاوية عمن تاب منهم، وقتل الباقين وذلك عام ٥١هـ[١].

ولم يرض الشيعة في الكوفة عن استخلاف يزيد بن معاوية وكاتبوا الحسين بن علي ودعوه إليهم فأجابهم، وكتب إليهم يبين حقه في الخلافة فقال: إن الله اصطفى محمدا ﷺ على خلقه، وأكرمه بنبوته، واختاره لرسالته ثم قبضه الله إليه وقد نصح لعباده، وبلغ ما أرسل به فاستأثر علينا قومنا بذلك فرضينا وكرهنا الفرقة، وأحببنا العافية، ونحن نعلم أنا أحق بذلك الحق المستحق علينا ممن تولاه، وقد أحسنوا وأصلحوا، وتحروا الحق، فرحمهم الله وغفر لنا ولهم[٢].

---

(١) اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٢٣٠-٢٣١.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٣٥٧.

ثم ذكر الحسين سبب استجابته لدعوتهم فقال: إن رسول الله ﷺ قال: «من رأى سلطانا جائرا مستحلاّ لحرم الله، ناكثا لعهد الله، مخالفا لسّنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول كان حقا على الله أن يدخله مُدْخَله»، ألا وأن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، واحلّوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحق من غيّر[1]، وذكر الحسين رأيه فيمن يكون إماما فقال: فلعمري ما الإمام إلا العامل بالكتاب، والاخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله، ثم دعاهم إلى كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ[2].

ولكن عبيد الله بن زياد تمكن بوعوده ووعيده أن يحمل شيعة الحسين على التخلي عنه، فخذلوه وتركوه في قلة من أصحابه، وقتل الحسين عام ٦١هـ[3].

استعظم قتل الحسين كثير من أهل زمانه، وكان قتله من أسباب البغض والتشنيع على يزيد، وثورة أهل الحجاز عليه، وتعميق عداوة الشيعة لبني أمية.

ولم يلبث الشيعة بعد وفاة يزيد بن معاوية أن اجتمعوا تحت لواء سليمان بن صرد الخزاعي في الحركة المعروفة بحركة التوابين، وساروا نادمين على خذلان الحسين وطالبين بدمه، فالتقوا بجيش بني أمية من أهل الشام في عين الوردة عام ٦٥هـ وهزم التوابون وقتل كثير منهم[4].

---

(١) أبو جعفر الطبري: تاريخه، ج٥، ص٤٠٣.

(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٣٥٣، ٤٠٣.

(٣) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٢٣١-٢٣٥، اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٢٤٣-٢٤٦، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٤٥٠-٤٧٠.

(٤) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٢٦٢، اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٢٥٧، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٥٥١-٥٦٣.

وعلى أثر هزيمة التوابين، نهض المختار بن أبي عبيد الثقفي يقود الشيعة ضد بني أمية، وقد نجح المختار في قتل عبيد الله بن زياد قاتل الحسين، وقتل أكثر من شارك وأعان على قتل الحسين، وانهض المختار معه كثيرا من الموالي لتعزيز حركته ودحر خصومه، وكان إشراك الموالي ضد بني أمية سابقة أخذ بها أبو مسلم الخراساني من بعد[(١)]، ولكن المختار لم يكن مخلصا للإمامة الشيعية، وإنما اتخذها تكأة لأغراضه، وهزم المختار وقتل عام ٦٦هـ على يد مصعب بن الزبير[(٢)].

ولا تتحدث الأخبار عن ثورات للشيعة بعد ذلك حتى عام ١٢١هـ، ففي هذا العام، ثار زيد بن علي بن الحسين بالكوفة، وأيّده كثير من أهلها، وبايعوه على الدعوة إلى كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسم الفيء بين أهله على السواء، ورد المظالم، وإقفال المجمّر، ونصر أهل البيت على من نصب لهم وجهل حقهم[(٣)]. ولٰكن الشيعة لم يلبثوا أن انفضّوا عنه وتركوه يقتل في قليل من أصحابه عام ١٢٢هـ[(٤)]، ويلاقي المصير الذي لاقاه الحسين من قبل، ولٰكن أصحابه ندموا على خذلانه، وأقاموا بعد موته على موالاته، وصاروا فرقة عرفت بالزيدية نسبة إليه، ثم ثار يحيى بن زيد بن علي عام ١٢٥هـ في خراسان وقُتِل[(٥)].

وفي فترة الاضطرابات التي جرت في أواخر بني أمية، ثار عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب عام ١٢٧هـ، وهو ليس من أولاد علي بن أبي طالب، وكانت ثورته أكثر الثورات الشيعية نجاحاً، إذ غلب على الكوفة وحلوان والجبال والماهين وهمذان

---

(١) فلهوزن/ الخوارج والشيعة، ص٢٥٤.

(٢) خليفة بن خياط/ تاريخه ص٢٦٤، اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٢٥٩-٢٦١، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص٣٨-٦٦، ٧١-٧٧، ٨٦-١١٨.

(٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص١٧٨.

(٤) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٣٥٣، اليعقوبي/تاريخه، ج٢، ص٣٢٥-٣٢٦، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص١٦٠-١٧٣، ١٨٠-١٩١.

(٥) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٢٨-٢٣٠.

وقوس وأصبهان والري وفارس، وولّى العمّال، وجبى الأموال، ولٰكنه هُزم أمام يزيد بن عمر بن هبيرة ولحق بخراسان وقتل هناك[1].

والملاحظ، أن الشيعة اتهموا الأمويين بمثل ما اتهمهم به الخوارج من الفساد، والاستئثار بالفيء، وتعطيل الحدود، والجور في الأحكام، وغير ذٰلك، ودعوا إلى العمل بالكتاب والسنّة شأنهم في ذٰلك شأن الخوارج، ولٰكنهم كانوا يدعون إلى إمام من آل محمد ﷺ، يرونه أحق الناس في خلافة محمد ﷺ في الناس، ولا شك أن الدعوة إلى استخلاف رجل من آل محمد ﷺ، كان يلقى قبولاً، وكان الأمويون يرون أنفسهم من آل محمد ﷺ، ولكنهم كانوا يعلمون أن هناك من هم أقرب منهم إلى محمد ﷺ، فقد ورد عند ابن عساكر في تاريخ دمشق، أن معاوية بن أبي سفيان خطب الناس فقال: أيها الناس، أنا نحن أحق بهٰذا الأمر، نحن شجرة رسول الله ﷺ، وبيضته التي انتقلت عنه، ونحن ونحن، فقال صعصعة بن صوحان، فأين بنو هاشم منكم؟ قال معاوية: نحن أسوس منهم، وهم خير منا[2].

وقال أهل الكوفة لعبد الله بن معاوية بن جعفر، ادع إلى نفسك، فبنو هاشم أولى بالأمر من بني مروان[3]. وعليه، فإن دعوة الشيعة إلى بني هاشم آل محمد ﷺ، كانت تخيف بني أمية، ووجدت هذه الدعوة لها أتْباعاً في العراق وخراسان مهد الدعوة العباسية، وفي غيرهما من البلاد، ولكنها لم تتمكن من إزالة سلطان بني أمية لأسباب تتصل بوسائل الأمويين في محاربتها من جهة، وتتصل من جهة أخرى بانقسام الشيعة وضعف تضحياتهم وتبدل مواقفهم أمام الإغراءات والمصالح. ومع ذلك، فإن الحركة الشيعية ساعدت كثيراً في القضاء على الدولة الأموية، وانتفعت الدعوة العباسية بها، واستغلت الدعوة العباسية جهودها في نشر حق آل محمد ﷺ في الخلافة بين الناس،

(١) المصدر نفسه، ج٧، ص٣٠٢-٣٠٨، ٣٧٢.

(٢) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج٢٤، ص٩١، ترجمة صعصعة بن صوحان.

(٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٣٠٣.

وذهبت أبعد عندما ادعت أن أبا هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب أوصى إليها بخلافته في القيام بالدعوة[1]، ولو صح ذلك، فإن هذه إشارة إلى أن الدعوة العباسية استمرار للحركة الشيعية ولو في خط من خطوطها الدعوية على الأقل. وعدم صحة الوصية، لا ينفي العلاقة بين الحركتين الشيعية والعباسية أيضا، وعندما أظهر أبو مسلم أمره في خراسان، قال الناس قدم رجل من بني هاشم، فأتوه من كل وجه[2].

القدرية والمعتزلة:

قيل أن أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق كان نصرانياً فأسلم ثم تنصّر، وأُخذ عنه معبد الجهني، وعن معبد أخذ غيلان الدمشقي[3]، وقد عرف هٰؤلاء بالقَدَرِيّة، وسمّوا بذٰلك لقولهم بقدرة الناس على أكسابهم، وأنه ليس لله عزّ وجل في أكسابهم صنع ولا تقدير[4]، فالناس برأي القدرية لهم قدرة على أعمالهم، وهم مخيّرون ومسؤولون عن أفعالهم.

وكان واصل بن عطاء (٨٠-١٣١هـ) من متتابي مجلس الحسن البصري (ت١١٠هـ)، فاختلف مع الحسن في أصحاب الذنوب واعتزل مجلسه، ولم يلبث عمرو بن عبيد (٨٠-١٤٤هـ) أن انضم إلى واصلٌ بن عطاء، ودعا واصل في ما دعا إليه بدعوة القدرية وشاركه في ذٰلك عمرو بن عبيد، وكان واصل رأس ومؤسس المعتزلة[5].

---

(١) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ، ج٤، ص١٥٩.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٣٥٥.

(٣) صحيح مسلم/كتاب الإيمان، ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج٤٨، ص١٩٢، ترجمة غيلان الدمشقي.

(٤) البغدادي/ الفرق بين الفرق، ص٩٦، ٩٨، الشهرستاني/ الملل والنحل، ج١، ص٤٧.

(٥) البغدادي/ الفرق بين الفِرق، ص٩٧، ٩٨، ١٠١.

قاوم الأمويون القَدَريّة وتعقّبوهم، فقتل الحجاج بن يوسف الثقفي معبداً الجهني عام ٨٠هـ لقوله بالقَدَر(١)، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة عامله على البصرة أن يستتيب القَدريّة وينفي من لم يتب منهم(٢)، وامتحن غيلان الدمشقي في القَدرَ، وأظهر غيلان متابعته عمر بن عبد العزيز وأظهر براءته منهم خوفاً من القتل، ولٰكن غيلان عاد بعد خلافة عمر بن عبد العزيز يتكلم في القَدرَ بين الناس فامتحنه هشام بن عبد الملك وقتله(٣)، وكان هشام يتعقب القدريّة وينفيهم ويقتلهم، وسار الوليد بن يزيد فيهم سيرة هشام(٤)، والأمثلة على محاربة وتعقّب الأمويين القدَريّة كثيرة، فَلِمَ وقف الأمويون هٰذا الموقف من القدَريّة؟.

ذهب بعض الباحثين في تفسير هٰذا الموقف إلى القول بأن مذهب القَدَريّة في الدعوة إلى حريّة إرادة الإنسان ومسئوليته عن أفعاله يتعارض ومفهوم القَدَر عند الأمويين، ويشكّك في الأساس الذي اتخذه الأمويون، برأي هٰؤلاء الباحثين، لتبرير أعمالهم وتسويغ سلطانهم على الناس(٥).

وحسب الأخبار التي أوردها ابن عساكر عن المناظرات التي جرت بين عمر بن عبد العزيز وغيلان الدمشقي، ثم بين الأوزاعي وغيلان الدمشقي بأمر هشام بن عبد الملك، كان مفهوم القَدَر عند الأمويين يشير إلى أن علم الله يحيط بكل شيء، وأن الهداية والضلال،

---

(١) الجاحظ/ البيان والتبيين، ج١، ص٢٥١.

(٢) ابن الجوزي/ سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٨٥.

(٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٠٣، ابن عساكر/تاريخ دمشق، ج٤٨، ص٢١١، ترجمة غيلان الدمشقي.

(٤) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢١٢.

(٥) انظر: الدوري/ مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص٦٢، عبد الأمير دكسن/ مظهر من مظاهر الحكم في بلاد الشام، ص٥٧، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٧٤م، جورج عطية/ الجدل الديني المسيحي الإسلامي في العصر الأموي، ص٤٢٣، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولي الرابع لبلاد الشام، عمان، ١٩٨٦، فرد دونر/ تطور الوعي التاريخي في المجتمع الإسلامي المبكر، بحث ضمن أعمال مؤتمر كتابة التاريخ الإسلامي في الإشكالية والمنهج، الجامعة الإسلامية، بيروت، ١٤-١٦/ ١١/ ١٩٩٧م.

والصلاح والغواية، والخَلْق والأجل والرزق وغيرها أمور كلها بمشيئة الله[1]، أي أن هٰذه الأمور خيرها وشرها من الله، فالقَدَر بمفهوم الأمويين خيره وشره من الله تعالى.

وخرج عمر بن الخطاب عام ١٧هـ يريد الشام ومعه المهاجرون والأنصار، فبلغه خبر الطاعون فيها، فشاور من معه في مواصلة السير أو الرجوع، فاختلفوا، فلما اختلفوا، اختار عمر الرجوع، فقال له أبو عبيدة، أفراراً من قَدَر الله! قال عمر: فراراً من قَدَر الله إلى قَدَر الله، أرايت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عدوتان أحدهما خصبة والأخرى جدْبة، أليس أن رعيت الخصبة رعيتها بقَدَر الله، وإن رعيت الجدْبة رعيتها بقَدرَ الله[2]. وبهذا الفهم للقَدَر، استوى عند عمر الرجوع أوْ مواصلة السير في علم الله.

وذكر ابن عساكر أن عمر بن الخطاب لما خطب الناس في الجابية، حمد الله وأثنى عليه وقال: من يهدِ الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وكان الجاثليق رأس النصارى ممن يحضر الاجتماع، فأنكر الجاثليق كلام عمر وقال: إن الله يهدي ولا يُضلّ، فكذّبه عمر[3].

وجاء في كلام جبريل عليه السلام للرسول محمد ﷺ عن الإيمان: «وتؤمن بالقَدرَ خيره وشره»[4]، والشواهد كثيرة، وتدلّ على أن مذهب السلف في القَدرَ خيره وشره من الله تعالى[5]، ولم يكن مذهب بني أمية في القَدرَ بخارج عن ذٰلك.

ولما أظهر القَدَريّة مقالتهم في القَدَر متأثرين بأحكام الإسلام وأفكاره في الجدال، وبالأفكار الفلسفية اللاهوتية التي تسربت إلى المسلمين من خلال المنافذ

(١) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج٤٨، ترجمة غيلان الدمشقي.

(٢) صحيح البخاري/ كتاب الطب، باب الطاعون، صحيح مسلم/ كتاب السلام، باب الطاعون، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٤، ص٥٦-٥٨.

(٣) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ترجمة عبد الله بن الحارث بن نوفل.

(٤) صحيح مسلم/ كتاب الإيمان.

(٥) الشهرستاني/ الملل والنحل، ج١، ص٤٧.

المختلفة[١]، جاء رأيهم جديداً، وكان سابقة جريئة في العقيدة أثارت ثائرة المسلمين ودفعت العلماء إلى مهاجمتها، فتبرأ منها من عاصر القدريّة من متأخري الصحابة وأقرانهم[٢]، وهاجمها العلماء من بعدهم أمثال رجاء بن حيوة الكندي (ت١١٢هـ)، ومكحول الدمشقي (ت١١٦هـ) ومحمد بن شهاب الزهري(ت١٢٤هـ)، ونمير بن أوس (ت١٢١هـ)، وربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن (ت١٣٦هـ)، وعبد الرحمن الأوزاعي (ت١٥٩هـ)، ومالك بن أنس (ت١٧٩هـ)، وغيرهم كثير[٣].

وبسبب ما كان كلام غيلان الدمشقي القَدرَي يترك في النفوس من شكّ في العقيدة، شكاه أهل المدينة المنورة، وسعى به وببعض أصحابه أهل دمشق إلى هشام بن عبد الملك، فقتله هشام وقتل معه صالح بن سويد من أصحابه القَدَريّة[٤].

وظهر في هٰذه الفترة جهم بن صفوان (ت١٢٨هـ) مؤسس الجبرية، فردّ على القدريّة وذهب في ردّه إلى القول بأن الإنسان مجبور ولا اختيار له ولا قدرة، ولا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى، وأن علم الله حادث، ومع أن مقالة جهم بن صفوان تعزّز سلطان الأمويين على الناس وتبرّر أعمالهم، فإن الأمويين لم يحالفوا الجبرية، واشترك جهم مع الحارث بن سريج في الثورة على بني أمية في ولاية نصر بن سيار على خراسان وقتل جهم عام ١٢٨هـ[٥]، وقيل قُتِل جهم لآرائه[٦].

---

(١) انظر: أحمد أمين/فجر الإسلام، ص٢٨٤-٢٨٦، ضحى الإسلام، ج١، ص٣٤٣، جورج عطية/الجدل الديني المسيحي الإسلامي، ص٤٢٢-٤٢٦، الأثر السرياني في الحياة الفكرية والعلمية في بلاد الشام، ص١٤٦-١٧٣، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام في العهد البيزنطي، عمان ١٩٨٦م.

(٢) البغدادي/الفرق بين الفِرق، ص١٤-١٥.

(٣) ابن عساكر/تاريخ دمشق، ترجمة عبد الله بن الحارث بن نوفل.

(٤) ابن عساكر/تاريخ دمشق، ترجمة عبد الله بن الحارث بن نوفل.

(٥) البغدادي/ الفرق بين الفِرق، ص١٦، ١٠٥، ١١٩-٢٢٠، الشهرستاني/ الملل والنحل، ج١ص٨٦-٨٧.

(٦) الذهبي/سير أعلام النبلاء، ج٦، ص٢٧، ترجمة جهم بن صفوان.

والشواهد السابقة، تشير إلى أن موقف الأمويين من القدرية كان لبدعة القَدَريّة في العقيدة، وخروجهم على مذهب السلف في القَدَر، وهو الموقف الذي وقفه الأمويون من الجبرية، والاتجاهات الفكرية المخالفة لمذهب السلف.

ووقوف بني أمية إلى جانب مذهب السلف الذي تدين به جماعة المسلمين أولى أن يؤخذ به عند تفسير موقف الأمويين من القَدَريّة، لأن موقفهم هٰذا يجعلهم في نظر الجماعة ذادة وحماة لمذهب السلف في الدين مما يستجلب طاعة والتفاف الجماعة حول سلطانهم.

ومما يجدر ذكره، أن المسلمين في القرن الأول الهجري عاشوا، ومنهم من صحب الذين عاشوا الواقع الذي وصفته آيات القرآن والحقائق التي قررتها، واكتفوا بالمعنى الإجمالي لما تشابه من الآيات، ولم يروا تناقضاً فيها يثير فيهم الجدل العقائدي، وكان بينهم ما عرف بمذهب السلف في العقيدة، ويقوم على حفظه وتبيينه العلماء، وكان مرجعاً للأمة والخلفاء على السواء، وأمّا مَنْ كان يسخط ويثور أمثال من ثار من أهل الأمصار على عثمان بن عفان فإنهم ثاروا غير ناظرين إلى ما يشبه اجتهادات القَدَريّة والجَبْريّة في أفعال وقدرة الناس، وفَعَل مثل ذٰلك من خالف علي بن أبي طالب، ومن خرج على معاوية بن أبي سفيان، ومن ثار على يزيد بن معاوية، ومن شارك الأمويين رداء الخلافة، ومن وجّه الجيوش والزحوف نحو الحجاج، وغيرهم ممّن لم ينتظر في تحديد قبلة حياته قراءة صحيفة الخليفة الأموي[1].

ومع أن مُلْك بني أمية حتى الوليد بن يزيد هو مُلْكُهم بعد الوليد، فإن يزيد بن الوليد ابن عبد الملك قيل مَالَ إلى القَدَريّة، وقرّبهم، وأعان على نشر مقالتهم وبذل الأموال والصّلات لمن مدحه من شعرائهم[2]، ونسب مروان بن محمد إلى الجعد بن

(١) انظر: ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج٦، ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي، حيث ورد أن نفراً من العرب استفتوا الحسن البصري في قتال الحجاج فأفتاهم بعدم قتاله، ولكنهم لم يلتفتوا إلى فتواه وخرجوا لقتال الحجاج مع ابن الأشعث.

(٢) ابن عساكر/ تاريخ دمشق ترجمة أسباط بن واصل الشيباني، الذهبي/ تاريخ الإسلام، ج٨، ص٣١٢. =

درهم[1]، ونعت بالجعدي، مما يشعر بالأثر العقائدي في موقف ونظرة الجماعة إليهم.

ولا يمكن تقديم تعليل شامل للثورة على يزيد بن الوليد، وعزوف أهل الشام عن تلبية دعوة مروان بن محمد إياهم إلى المشاركة في حملة يزيد بن عمر بن هبيرة، وضعف نصرتهم إياه في أثناء تقهقره أمام العباسيين من غير استيعاب ارتجاج التلاحم المذهبي في العقيدة[2] بين الجماعة وبين هٰؤلاء الخلفاء، وأثر ذٰلك في برود حرارة الولاء في نفوس الناس لهم ضمن العوامل الأخرى التي أثّرت على العلاقة بين الجانبين.

وإضافة إلى ما سبق من أثر القَدَريّة على سلطان بني أمية، قام المعتزلة يدعون لآرائهم، فكان عمرو بن عبيد يذكر القَدَر ويظهره في البصرة، ولٰكنه أخذ يتستّر بعدما بلغه ما جرى لغيلان في دمشق على يد هشام بن عبد الملك[3]. وكان واصل بن عطاء يبعث بدعاته في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وإلى ذٰلك أشار صفوان الأنصاري في قصيدة جاء فيها[4]:

له خلْفَ شَعْب الصّين في كل ثُغرة ... إلى سوسها الأقصى وخَلْفَ البَرابر

رجالٌ دعاةٌ لا يَفلُّ عزيمتَهم ... تهكُّمُ جبّارٍ ولا كيدُ ماكر

وأوتادُ أرضِ الله في كل بلدة ... وموضعُ فُتياها وعلمِ التّشاجر

(١) الجعد بن درهم: مولى قيل من خراسان وقيل من حران، وكان مؤدباً لمروان بن محمدوكان قَدَرِيّا، وقتله خالد بن عبد الله القسري بسبب آرائه وذٰلك عام ١٢٠هـ. انظر: البغدادي/ الفرق بين الفِرق، ص١٤-١٥، ابن الأثير/اللباب في تهذيب الإنساب، ج١، ص٢٨٢-٢٨٣، ترجمة الجعد بن درهم، ابن حجر العسقلاني/ لسان الميزان، ج٢، ص١٣٤ ترجمة الجعد بن درهم، خالد العلي/ جهم بن صفوان، ص٤٧-٥٣.

(٢) إبراهيم بيضون/ الشام والدعوة العباسية، بحث ضمن أعمال المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام في العصر العباسي، عمان١٩٩٠م.

(٣) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج٤٨، ترجمة غيلان الدمشقي.

(٤) الجاحظ/ البيان والتبيين، ج١، ص٢٥.

وقد أشار الشهرستاني وياقوت الحموي إلى وجود جماعة واصلية في بلدة تاهرت من بلاد المغرب(١).

ولكن أكانت هٰذه الدعوة دينية أم كانت تخفي وراءها أغراضاً سياسية؟

لقد ذهب المستشرق السويدي نيبرج (Nyberg)(٢) (١٨٨٩-١٩٧٤م) إلى أن مذهب واصل «المنزلة بين المنزلتين» لم يكن وليد البحث النظري، وإنما يدل على حكمة وكياسة في الموقف نحو المسائل التي اختلفت فيها الفرق الإسلامية مثل مسألة فتنة عثمان ويوم الجمل وصفين وغيرها، وهو -أي قول واصل- التبلور النظري لبرنامج العباسيين السياسي في مرحلة الدعوة لكسب تأييد ومناصرة هٰذه الفرق في تقويض سلطان بني أمية، وكانت آراء واصل وآراء غيره من قدامى المعتزلة تمثل عقيدة الحركة العباسية، وتدل الصحبة والصداقة التي كانت تجمع بين عمرو بن عبيد وابي جعفر المنصور قبل الخلافة وبعدها، ورثاء أبي جعفر المنصور عمرو بن عبيد لما مات عمرو بحرّان وهو راجع من مكة بأبيات(٣):

صلّى إلا له عليك من متوسّد ... قبراً مررت به على حـرّان

قبـــراً تضمّـــن مـؤمنـاً متحنّفـاً ... صـدقَ الإلـهَ ودانَ بـالعـرفـان

لو أن هٰذا الدهر أبقى صالحاً ... ابقى لنا عمراً ابا عثمـــان

واتخاذ عقائد الاعتزال مذهباً رسمياً للدولة العباسية لمدة قرن من الزمان، لتدعو جميعها إلى القول بتضافر جهود المعتزلة والدعوة العباسية معاً في الإطاحة بدولة بني أمية.

---

(١) الشهرستاني/ الملل والنحل، ج١، ص٤٦، ياقوت الحموي/ معجم البلدان، مادة تاهرت.

(٢) The Encyclopaedia of Islam, Mu'tazila, Leiden, London, E.I. Brill, 1936.

(٣) ابن خلكان/ وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٦٠-٤٦٢، ترجمة عمرو بن عبيد.

إلا أن المستشرق الألماني ج. فان، أس (J. Van. Ess) يخالف نيبرج (Nyberg)، ويرى أن المعتزلة الأوائل لم يساندوا الدعوة العباسية، وأن كثيراً من المعتزلة انضموا عام ١٤٥هـ إلى ثورة إبراهيم بن عبد الله العلوي ضد أبي جعفر المنصور، ولم تكن الصداقة بين عمرو بن عبيد وابي جعفر المنصور إلاّ قصة مفتعلة نسجت في أيام المأمون على أثر اتخاذ عقيدة المعتزلة مذهباً رسمياً للدولة العباسية بعض الوقت، وينتهي إلى القول بأن دعوة المعتزلة كانت دعوة دينية خالصة[١].

ويدحض المستشرق الفرنسي كلود كاهن (C. Cahen) أيضاً قول نيبرج (Nyberg) بأن الاعتزال هو عقيدة الحركة العباسية السياسية[٢].

ولٰكن الفصل بين الدين والسياسة لم يعرفه المجتمع الإسلامي في ذٰلك العصر، وإنما هو من مخترعات الأيام الحاضرة، فمحاربة الأمويين غيلان الدمشقي ومعبد الجهني والجعد بن درهم وغيرهم كانت دينية وسياسية في آن واحد، ولا شك أن المعتزلة كانت تأمل أن ترى ظهور أفكارها على نحو ما تحقق لها أيام المأمون، وهو ما لا يكون إلاّ بسلطان، ولٰكن موقف الأمويين من المعتزلة من شأنه أن يحول دون سلطانهم أن يكون هو ذٰلك السلطان، وهٰذا يدعو إلى القول بوجود غرض سياسي لحركة المعتزلة تمثّل برأى بعض الباحثين في تبنّي واصل بن عطاء الحركة الشيعية الزيدية[٣]، مما أعان الجهود الرامية إلى إزالة دولة بني أمية.

---

(١) The Encyclopaedia of Islam, Mu'tazila, New Edition, Leiden, New York, E.J. Brill, 1993

(٢) فاروق عمر/طبيعة الدعوة العباسية، ص٧٥.

(٣) انظر: شاكر مصطفى/ الدعوة العباسية لم تكن الدعوة السرية الوحيدة ضد الامويين، بحث ضمن ابحاث تاريخية باسم الذكرى والتاريخ، جامعه الكويت، ١٩٧٨م، وقد استند الباحث في مقولته الى التشابه فى الفكر بين المعتزلة الواصلية والشيعة الزيدية، وتأييد المعتزلة فى البصرة لثورة محمد بن النفس الزكية واخيه ابراهيم عام ١٤٥هـ. =

العوامل الإجتماعية والإقتصادية:

ذهب بعض الباحثين إلى القول بأن الحركات والثورات التي قامت في وجه الأمويين كانت تنطوي على نقمة اجتماعية واقتصادية نظراً إلى عدم قيام الأمويين بمعالجة وافية وشافية للقضايا التي نشأت بعد عصر الفتوح، وجاء حديث هٰؤلاء الباحثين في أثناء الكلام عن الموالي والأعاجم بإزاء العرب وبخاصة في خراسان، وَذِكْر ما كان يتعرض له الأعاجم من مظالم اجتماعية واقتصادية وسياسية حفزتهم إلى المشاركة في الثورات التي أطاحت ببني أمية(١).

وأظهرت بعض الدراسات اللاحقة أن التميز الاجتماعي والضغط الاقتصادي إن وجدا لم يكونا خاصّين بالموالي والأعاجم، فقد اندمج بعض العرب مع السكان المحليين فى خراسان، وفقدوا امتيازاتهم كأعضاء في الكتلة العربية الحاكمة، وصاروا لانشغالهم بالزراعة يدفعون الضرائب للدهاقين ويتعرضون لتسلطهم كالسكان المحليين، وعارض العرب المقاتلة سياسة التجمير والاعتداء على الفيء والغنيمة والموارد المالية في الولاية، وغدا التذمر موجوداً بين العرب والأعاجم، وناصر بعضهم الثورة العباسية، وبعضهم ناصر الأمويين(٢).

---

(١) انظر: فان فلوتن/ السيادة العربية، ص٢٩، ٣٦-٣٨، ٤١، ٥٩، ٦١، ٦٤، ٦٨.
فلهوزن/ تاريخ الدولة العربية، ص٣٨٠، ٤٧١، ٤٧٢.
بلياييف/ العرب والإسلام، ص٢٤٠-٢٤٧.
كلود كاهن/ تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٤٤، ٤٥.

(٢) انظر: فاروق عمر/ طبيعة الدعوة العباسية، ص٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٣٩، ١٤٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٥.
محمد شعبان/ الثورة العباسية، ص٩٥، ٩٦، ١٤٦-١٥٠، ١٥٨، ١٥٩، ١٨٤، ١٨٨، ٢٤٧، ٢٤٨: صدر الإسلام والدولة الأموية، ص١٣٦-١٣٧، ١٨٨، ١٨٩.
عبد الله الخطيب/ الحكم الأموي في خراسان، ص٤١، ٤٢.

وفي تقدير أثر العوامل الإجتماعية والاقتصادية في زوال سلطان بني أمية، أشار بعض الباحثين إلى الأُسَر التي تكونت في العصر الأموي مثل المهالبة والجارودية والأشاعثة وغيرهم من ذوي المناصب الرفيعة وكان لها وللأسرة الأموية عبيد وخدم وأتباع وأموال وأملاك كثيرة وثراء واسع، أثار انتقاد الفئات الدنيا من أبناء المجتمع، وأحدث تناقضات وصراعات بين الطبقات العليا والدنيا في المجتمع هيأت الأسباب لقيام الثورات التي ساهم فيها الخوارج والموالي والفلاحون وغيرهم، وأدت إلى سقوط دولة بني أمية(١).

وهناك من ذهب إلى مدى أبعد فقال: لعلّ التغيّر البنيوي في المجتمع العربي الإسلامي وظهور الطبقة الوسطى من الموالي والعرب على السواء والاضطراب المالي في الدولة، وتحوّل طرق التجارة من شواطىء الشام إلى الخط الواصل بين الخليج العربي والقسطنطينية عام ٧٤٧م. وخروج العرب من بحر الروم. . . لعلّ لهٰذه العوامل الأثر الحاسم في هزّ الكيان الأموي بقدر ما كان للدعوة العباسية كدعوة، وللثورات المحلية الأخرى كتعابير نقمة، من أثر(٢).

اتهم الخوارج الأمويين بالاستئثار بالفيء، وأخذ الأموال بغير حقها، ولإزالة هٰذه المظالم، دعوا إلى العمل بالكتاب والسنة واختيار أفضل المسلمين للخلافة(٣).

ووجّه الشيعة التهمة نفسها للأمويين، ودعا زيد بن علي بن الحسين في ثورته بالكوفة على الأمويين عام ١٢١هـ إلى الدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسم الفيء بين أهله على السواء. وردّ المظالم، وإقفال المجمّر، وكان العمل بالكتاب

(١) أي، آشتور/ التاريخ الإجتماعي والاقتصادي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ص٣٢، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٣٩، ٧٥، ٨١، ٨٢.
وانظر: فان فلوتن/ السيادة العربية، ص٢١، ٢٣، ٢٤.
عبد الله الخطيب/ الحكم الأموي في خراسان، ص٦٦، ٦٨، ٧٠، ٧١.

(٢) انظر ما كتبه شاكر مصطفى في المقدمة للكتاب الذي كتبه سعدي أبو حبيب بعنوان: «مروان بن محمد وأسباب سقوط الدولة الأموية» ص٢١.

(٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص١٩١، ج٧، ص٣٩٤-٣٩٦.

والسّنة وجعل الخلافة في آل محمد عليه السلام مضمون دعوتهم إلى الإصلاح وإزالة المظالم[1].

والعمل بالكتاب والسّنة وجعل الأمر شورى بين المسلمين كان أيضاً منهج وطريق الإصلاح وإزالة المظالم عند من ثار على الأمويين مثل عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث شيخ الأشاعثة في عصره، ويزيد بن المهلب شيخ المهالبة في عصره، وغيرهم من الثائرين[2].

وبسبب احتمال أرض مصر الزيادة، زاد الأمويون الخراج، فثار الفلاحون الأقباط في الحوف الشرقي عام ١٠٧هـ، وفي الصعيد عام ١٢١هـ، وفي سمنود عام ١٢٢هـ، فسيّرت الدولة إليهم المقاتلة في كل مرة وأخضعتهم، وشجعت الهجرات العربية إلى تلك المناطق، والمعلوم أن القبط ذمّه، ولم يكن لهم في زوال سلطان بني أمية شأن يذكر، ولم تتوقف ثوراتهم في أيام العباسيين، ودعت زيادة الخراج إلى قيام الفلاحين قبطاً وعرباً بمنع الخراج ومحاربة جيوش الدولة الموجهة إليهم[3].

وبلغ عمر بن هبيرة الفزاري والي العراق (١٠٢-١٠٥هـ)، أن يزيد بن المهلب كان فرّق الأموال الكثيرة في أشراف خراسان، فأراد عمر أن يأخذها منهم وأصرّ على ذٰلك، فقال له وفد خراسان، أما والله لئن أخذته لتأخذنّه من قومٍ شديدة شوكتهم ونكايتهم في عدوك، وليضرّن ذٰلك بأهل خراسان في عدّتهم وكراعهم وحلْقتهم، ونحن في ثغر نكابد فيه عدوّاً لا ينقضي حربهم، . . . وأنتم في بلادكم متفضّلون في الرّقاق وفي المعصفرة، والذين قُرِفُوا بهٰذا المال وجوه أهل خراسان وأهل الولايات والكُلَف العظام في المغازي، وكان عمر بن هبيرة قال للوفد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾

(١) المصدر نفسه، ج٥، ص٤٠٣، ج٧، ص١٧٨.
(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص٣٢٦، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦١، ٥٨٧.
(٣) الكندي/ الولاة والقضاة، ص٧٦، ٧٧، ٨١، ٩٤، ١١٦، ١٢٥.
المقريزي/ الخطط، ج١، ص٧٩، ٨٠، ٨١.

[النساء:٥٨]، فقال الوفد: اقرأ ما بعدها ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨]، ولذلك ذكر الوفد لعمر من أخذ الأموال، فقالوا: وَقِبَلُنا قوم قدموا علينا... فَوَلُّوا الولايات فاقتطعوا الأموال، فهي عندهم موقرة، فقبل عمر منهم واستخرج الأموال ممن ذكر الوفد أنها عندهم[١].

وحديث الوفد يُشعر بالدّالّة للمقاتلة في ثغور خراسان، وإحساسهم بأهميتهم في تقديم التضحيات، والذود عن الحرمات، ونظرتهم الناقدة للحياة المتنعمة التي يحياها أهل العراق وأمثالهم.

وَرُمِي الأمويون بأخذ الجزية ممن كان يسلم، وهي قضية لم تُثَر في البلاد التي كانت الجزية فيها جزية رأس مثل بلاد شبه الجزيرة العربية، وإنما أثيرت في البلاد التي كانت الجزية فيها وظيفة مالية عامة مثل خراسان، فلما دعي أهل السغد وبخارى عام ١١٠هـ إلى الإسلام وإسقاط الجزية عمن يسلم منهم، أقبل الناس على الإسلام وبَيّن اتهام من أسلم بأن إسلامه كان تعوّذاً من الجزية، وبين التعلل بانكسار الخراج، لم تسقط الجزية أي الوظيفة المالية العامة، واستمر عمال الخراج يأخذونها ممن أسلم، فثار أهل السغد وبخارى واستعانوا بالترك ضد المسلمين، فلما كانت ولاية نصر بن سيّار، قام بتصنيف المال الذي كان يؤخذ منهم إلى جزية رأس وخراج، وأمر بإسقاط جزية الرأس عمّن يسلم وتحويلها إلى المشركين من المعاهدين، وأما الخراج فأمر بأخذه منهم على السواء[٢]، ومما يذكر أن السغد وبخارى وبلاد ما وراء النهر الأخرى لم تشترك في الثورة العباسية ضد الأمويين مما يشير إلى أن التميز الإجتماعي والضغط الاقتصادي لو بلغا الحدّ الذي صوّره بعض المؤرخين محيطاً بهم، لانتهز هٰؤلاء فرصة الثورة وشاركوا بها عن بكرة أبيهم[٣].

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص١٩-٢٠.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٥٥، ٥٦، ١٧٣.

(٣) فاروق عمر/ طبيعة الدعوة العباسية، ص١٣٣-١٣٤.

وكان مع الحارث بن سريج عام ١١٧هـ ناس من أهل القرى يأتون أبواب الترمذ فيبكون ويشكون بني مروان وجورهم، ويسألون أهل الترمذ أن يمالئوهم على حرب بني مروان فيأبون عليهم[(١)].

كانت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، رغم التفاوت بين الخلفاء الأمويين، موضع اهتمامهم منذ عهد معاوية بن أبي سفيان ضمن إطار نظرتهم إلى الإسلام في الحفاظ على الجماعة والسلطان وضمان قوامة الدولة ورعاية مصالح الناس، ومع التباين في الظروف والأحوال والمشكلات والتحديات القائمة عبر مسيرة الحكم الأموي، فإن خطبة يزيد بن الوليد بن عبد الملك عام ١٢٦هـ تشير إلى مستوى إدراك ووعي الدولة بهموم ومطالب الناس من جهة، وطبيعة المشكلات الموجودة في ذٰلك الوقت من جهة أخرى، قال يزيد:

«أيها الناس، إنّ لكم عليّ ألاّ أضع حجراً على حجر ولا لَبِنَة على لبِنَة، ولا أكري نهراً ولا أكثر مالاً، ولا أعطيه زوجة ولا ولداً، ولا أنقل مالاً من بلدة إلى بلدة حتى أسدّ ثغر ذٰلك البلد وخصاصة أهله بما يعينهم، فإن فضلَ فضلٌ نقلته إلى البلد الذي يليه ممن هو أحوج إليه، ولا أجمّركم في ثغوركم فأفتنكم وأفتن أهليكم، ولا أغلق بابي دونكم، فيأكل قويّكم ضعيفكم، ولا أحمل على أهل جزيتكم ما يجلّيهم عن بلادهم ويقطع نسلهم، وأن لكم أعطياتكم عندي في كل سنة وأرزاقكم في كل شهر، حتى تستدرّ المعيشة بين المسلمين، فيكون أقصاهم كأدناهم..»[(٢)].

ومع ما يستفاد من هٰذه الخطبة كما قلنا، فربما كان غرض يزيد فيها أقرب إلى كسب تأييد وبيعة الناس له بعدما أقدم على قتل ابن عمه الخليفة الوليد بن يزيد، فالقضايا التي عرضها في خطابه جدلية، والفصل فيها وبيان حدودها اجتهادي، ولا يصل الراعي والرعية إلى حلول مرضية تماماً فيها، فمستوى حاجة خراسان أو غيرها من بلاد الإسلام من المال، ومعرفة مقدار الفضل من مواردها المالية أمر خلافي مقارنة بمستوى حاجة

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص١٠٦.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٦٨-٢٦٩.

الدولة في المركز إلى المال، وتأثر هٰذه الحاجة بالوجائب المالية المستحقة الراتبة والمستجدة منها على الدولة، وكان من سبق يزيد من الخلفاء تداولوا هٰذه القضايا، وأجروا فيها سنناً معيّنة وظاهرة، وكان بعضها موضع خلاف وانتقاد في العلاقة بين الرعية والدولة، وسيبقى هناك خلاف ما، وعلى صعيد الفكر الواحد كالإسلام، بين ما يدعو إليه رجال الإصلاح والتجديد وقادة المعارضة في حلّ هٰذه القضايا وغيرها وبين ما تجريه الدولة من حلول وأحكام لها، ولا إشارة إلى ما أنفذ يزيد مما وعد في فترة خلافته التي بلغت قرابة ستة أشهر.

وهناك شواهد أخرى اجتماعية واقتصادية في مجال العلاقة بين الناس والدولة الأموية، ومما يلاحظ في هٰذا الجانب، أن الدولة وحركات المعارضة كانوا يتناولون هٰذه القضايا في إطار المبادىء الإسلامية، فالأمويون ومَنْ حولهم من علماء الإسلام، كانوا يسوسون الناس، برأيهم على أقل تقدير، سياسة إسلامية، وكانت حركات وأحزاب المعارضة تتهمهم بالجور في الأحكام، وتدعو إلى العمل بالكتاب والسّنة، وفي هٰذا الجو الذي كان الإسلام فيه سبيل الأطراف المختلفة إلى حل مشكلات الناس، بدا القول في تفسير زوال سلطان بني أمية بالعوامل الإجتماعية والإقتصادية التي أوجدت التناقض والصراع الطبقي والتغيّر البنيوي للمجتمع الإسلامي بعيداً عن فهم العوامل المؤثرة في حركة المجتمع الإسلامي[(١)].

ووقف العباسيون على رأس حركة تدعو إلى العمل بالكتاب والسنّة واختيار الرضا من أهل بيت الرسول ﷺ، وتستغل استياء وتذمّر الناس إزاء ما كان يقع من أخطاء وفساد في الإدارة الأموية وسوء تطبيق منهم في الأحكام في مختلف القضايا الاجتماعية والاقتصادية وغيرها لتحريك مشاعر الناس ضد الأمويين وكسب الأنصار والمؤيدين للدعوة العباسية، وكانت بيعتهم على الناس أن يبايعهم الرجل على كتاب الله وسنّة رسوله والطاعة للرضا من أهل بيت رسول الله وكانوا يأخذون على المُبايع عهد الله وميثاقه، والطلاق والعتاق،

(١) انظر: دانيل دينيت/ الجزية والخراج في صدر الإسلام، ص١٩٦.

والمشي إلى بيت الله، وعلى ألاّ يسأل رزقاً ولا طمعاً حتى يبدأه به ولاته، وإن كان عدوّه تحت قدمه فلا يهيجه إلا بأمر ولاته[1].

وسقطت دولة بني أمية، وقامت دولة بني العباس، ولٰكن المجتمع في ظل العباسيين كان استمراراً وامتداداً للمجتمع في ظل الأمويين.

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٨٠.

النزاع بين أبناء البيت الأموي

كان المُلْكُ موضع حديث بين أبناء البيت الأموي منذ زمن طويل، فقد شكت رملة بنت معاوية بن أبي سفيان إلى أبيها ما دار من حديث بين مروان بن الحكم وزوجها عمرو ابن عثمان بن عفان عندما جاء مروان يعوده من مرض ألمّ به، ومنه أن مروان قال لعمرو، «إنما ولي معاوية الخلافة بذكر أبيك، فما يمنعك من النهوض لطلب حقك، فنحن أكثر من آل حرب عددا»، وما زال مروان يَعَدّ فضل (كثرة وزيادة) رجال بني أبي العاص ـ قوم مروان وعمرو ـ، على بني حرب ـ قوم معاوية ـ، حتى تمنّت رملة أن ولديها عثمان وخالداً من عمرو بن عثمان ماتا[1].

وكان معاوية يستعين بمروان بن الحكم وسعيد بن العاص في الولاية على الحجاز دون غيرها، وكان لما يراه من طموحهما وتطلعهما إلى الخلافة، يداول ويغري بينهما في الولاية ليأمن مضاددتهما لأغراضه ومراميه[2]، ولم يحتج معاوية في مدافعته إياهم عن الملك إلى امتشاق السيف، وظل بنو حرب يتقدمون بني أمية في قيادة الأمة حتى خلا منصب الخلافة منهم عام ٦٤هـ، فاختار أهل الحل والعقد من أهل الشام مروان بن الحكم خليفة بإزاء عبد الله بن الزبير الذي بويع له بالخلافة خارج الشام، وقدّموا مروان على خالد بن يزيد بن معاوية الذي كان صغيرا[3]، وهكذا خرجت الخلافة من آل أبي سفيان بن حرب إلى بني مروان بن الحكم من غير أن تراق قطرة دم.

حرص بنو مروان بعد أن انتقلت الخلافة إليهم على الأصهار إلى بني أبي سفيان بن حرب وإكرامهم، فقد تزوج خالد بن يزيد بن معاوية عائشة بنت عبد الملك بن مروان،

---

(١) ابن سعد/ الطبقات الكبرى، ج٥، ص٣٨، ترجمة مروان بن الحكم، ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج٧، ترجمة سعيد بن العاص.

(٢) محمد بطاينة/ سياسة بني أمية في اختيار الولاة، بحث منشور في «أبحاث اليرموك» م١، ع٢، ١٩٨٥م، ص٢٩، ٣٢.

(٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٥٣٤-٥٣٧.

وتزوج عبد الملك بن مروان عاتكة بنت يزيد بن معاوية وولدت يزيداً، وكانت عاتكة تضع خمارها بين اثني عشر خليفة كلهم لها محرم، وتزوج يزيد بن عبد الملك عبدة بنت عبد الله بن يزيد بن معاوية، ثم تزوجها من بعده هشام بن عبد الملك[1]. ولم يقم آل أبي سفيان بمغالبة المروانيين على المُلْك، ولعلّهم رضوا من الخلافة بحظهم الفائت منها بعدما رأوا تحولَ أهل الشام عنهم إلى المروانيين.

وثار عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق، وأغلق دمشق في وجه عبد الملك ابن مروان، ولكن عبد الملك نجح في السيطرة على الثورة، ثم قتل عمرو بن سعيد من بعد، واستغل خطر عبد الله بن الزبير على ملك بني أمية في تجاوز هذه الفتنة[2]، وإذا استثنينا من الزمان سنتين هما فترة خلافة عمر بن عبد العزيز، فإن الخلافة استمرت في عبد الملك وأولاده قرابة ستين عاما، ظهر فيها التفاف أهل الشام حول بيت عبد الملك التفافهم حول معاوية من قبل، وقيامهم بشد سلطان آل عبد الملك ومحاربة خصومهم وأعدائهم، وكانوا رأس قوتهم وعصبتهم التي يهددون بها كل معارض ويضربون كل ثائر، وبات في نفوس بني عبد الملك وأكثر أهل الشام والناس أن بيت عبد الملك أحق بني أمية بالخلافة.

فلما ثقل عبد الملك بن مروان فى مرضه، بعث إلى خالد بن يزيد بن معاوية وخالد ابن عبد الله بن خالد بن أسيد بن العاص بن أمية يسألهما إن كانا يريدان أن يستقيلا بيعتهما لولديه الوليد وسليمان، فرفضا، فقال لهما، لو قلتما غير هذا لقدّمتكما أمامي[3]. وقال قيس بن هانىء العبسي ليزيد بن الوليد لما بايعه، إنك أخذت الخلافة بحبل صالح، وأخذها عمر بن عبد العزيز بحبل سوء[4]، ولما قام رجاء بن حيوة يقرأ

---

(١) انظر: ابن عساكر/ تاريخ دمشق، تراجم النساء، تحقيق سكينة الشهابي، ترجمة عائشة بنت عبد الملك بن مروان وعاتكة بنت يزيد بن معاوية وعبدة بنت عبدالله بن يزيد بن معاوية.

(٢) البلاذري/ أنساب الأشراف، ج٤، ص١٤٥، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٦٩.

(٣) ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج٥، ص٤٧٩-٤٨٣، ترجمة خالد بن عبد الله بن خالد.

(٤) أبو جعفرالطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٦٩.

كتاب العهد الذي سمى سليمان بن عبد الملك فيه من يخلفه، قال هشام بن عبد الملك، نسمع ونطيع إن كان فيه استخلاف رجل من بني عبد الملك، ولما وجدوا فيه اسم عمر بن عبد العزيز، تغيّرت وجوه بني عبد الملك، ولكنهم تراجعوا لما وجدوا اسم يزيد بن عبد الملك بعده(١).

ولم يهج آل عبد الملك في هذه الفترة أحدٌ من بني أمية إلا ما كان من أمر ولاية العهد، فقد روي أن عبد الملك بن مروان همّ أن يخلع أخاه عبد العزيز بن مروان ويعقد لابنيه الوليد وسليمان، وتردد في ذلك، وكان هناك من ينهاه ومن يشجعه، ولكن موت عبد العزيز أغلق باب الشر(٢)، وحاول الوليد بن عبد الملك أن يعزل أخاه وولي عهده سليمان ويجعل ابنه عبد العزيز مكانه، وأطاعه بعض رجال دولته، ولكنه لم ينجح، وفسّر البعض(٣) ما أقدم عليه سليمان بحق قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي وموسى بن نصير وأسرة الحجاج وما جرّ ذلك إليه من الخلل، فسّروه بموقف هؤلاء أيام الوليد وموافقتهم إياه على خلع سليمان، ولكن تفسير موقف وسياسة سليمان خلافي، ولم تؤد قلقلة ولاية العهد على أية حال إلى شرور تذكر بين بني مروان. وحاول هشام بن عبد الملك أن يعزل ابن أخيه الوليد بن يزيد بتهمة الفسق والمجون ويولّي ابنه مكانه، ولكنه لم يفلح في ذلك أيضاً(٤). وحتى عام ١٢٥هـ، وهو العام الذي توفي فيه هشام بن عبد الملك، لا نجد المروانيين يبلغ بهم الخلاف على المُلْك حدَّ النزاع الدموي.

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص٥٥١-٥٥٢، الذهبي/ تاريخ الإسلام، ج٧، ص١٩٣-١٩٤، ترجمة عمر بن عبد العزيز، عوض خليفات/ حول خلافة عمر بن عبد العزيز، بحث منشور، مجلة «دراسات» العلوم الإنسانية، م٣، ع٣، ١٩٧٦.

(٢) أنظر: الجاحظ/ البيان والتبيين، ج١، ص٤٨، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص٤١٢-٤١٧، ابن عساكر/ تاريخ دمشق، ج١٠، ص٣٩٠، ترجمة عبد العزيز بن مروان.

(٣) أنظر: حسن إبراهيم حسن/ تاريخ الإسلام السياسي، ج١، ص٣٢٤.

(٤) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٠٩.

ثم آلت الخلافة إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وخرجت بذلك من أبناء عبد الملك إلى أحفاده، فكان ذلك مما أثار الحسد بين أحفاد عبد الملك، وكان أكثرهم تحسسا أبناء الوليد بن عبد الملك، فكان للوليد بن عبد الملك تسعة عشر ولداً ذكراً(١)، وكان عمر بن الوليد يركب ويركب معه سبعون رجلا لصلبه(٢)، ولذلك كان آل الوليد يكاثرون بعددهم بني مروان، وكانوا يدلون بأبيهم أكبر أولاد عبد الملك حتى قيل كان آل الوليد أعداء بني مروان، وتشوفوا للخلافة، وقيل أشار العباس بن الوليد على عمه يزيد بن عبد الملك أن يعهد لعبد العزيز بن الوليد الذي كان أبوه الوليد أراد أن يجعله مكان سليمان، ولكن يزيد قال: ولد عبد الملك أولى وأحبّ إليّ من ولد الوليد بن عبد الملك، وعهد إلى هشام بن عبد الملك(٣).

فلما قام الوليد بن يزيد بالخلافة استعان بأخيه وباخوانه الثقفيين وببعض بني عبد الملك بن مروان وببعض بني مروان في أمور وولايات الدولة، ولم يستعمل أحداً من آل الوليد بن عبد الملك وجفاهم واشتد عليهم وعلى بعض بني عمه، ثم جعل الخلافة من بعده في ولديه الحكم وعثمان، فقام آل الوليد بن عبد الملك بالعمل ضده، وكان رأسهم في هذا الوجه يزيد بن الوليد بن عبد الملك، ومعه منهم ثلاثة عشر رجلا، ولما بلغ جمع يزيد عسكر الوليد دعوهم إلى الكتاب والسنّة وجعل الأمر شورى، وأخذوا يستميلونهم بالمال والولايات، وضعف أمر الوليد وقُتِل(٤)، وعندما عزا أحد الشعراء قتل الوليد إلى قبائل كلب ومذحج ثأرا بخالد بن عبد الملك القسري، كذّبه حسان بن جعدة الجعغري قائلا(٥):

---

(١) المصدر نفسه، ج٦، ص٤٩٦.

(٢) ابن قتيبة/ المعارف، ص١٥٧.

(٣) الأصفهاني/ الأغاني، ج٦، ص١٠١-١٠٢.

(٤) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٤٢-٢٤٩، محمد بطاينة/ «حول مصرع الوليد بن يزيد»، بحث منشور، مجلة كلية الاداب، جامعة الرياض، م٥، ١٩٧٧-١٩٧٨م، ص٢٢٩-٢٦٨.

(٥) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٦١.

إن امرأ يدّعي قتل الوليد سوى أعمامه لمليء النفس بالكذب

ما كان إلا امرأ حانت منيته سارت إليه بنو مروان بالعرب

وإذا استثنينا فئات المعارضة، كان الوليد بن يزيد خليفة مجمعا عليه، وعندما حوصر أراد أن يتأسى بعثمان بن عفان، فأخذ مصحفاً وقال، يوم كيوم عثمان ونشر المصحف يقرأ، ومع أن مقتله لم يستتبعه ما استتبع مقتل عثمان، ولم يفتن الناس به فتنتهم بمقتل عثمان، فإن هناك من هاج وأنكر قتله مثل أهل حمص والأردن وفلسطين الذين دعوا إلى الطلب بدمه وثاروا على يزيد رغم إظهار يزيد التنسك وتذرّعه بالدين في قتل الوليد، ووصفوا يزيد بالقَدَري ونسبوه إلى القَدَريّة الفرقة المتهمة في ذلك الوقت بزيغ العقيدة.

ويمكن القول أن استنكار الناس قتل الوليد كان انتصارا للخلافة التي تمثل وحدة الجماعة والدين والنظام وحفظ الأموال والأرواح وصيانة الأمن بإزاء الفتنة وشرورها والفرقة وعواقبها، ولذلك ثار من ثار واستنكر من استنكر في الشام وخارجها قتل الوليد.

ولكن قيام يزيد بقتل ابن عمه الوليد وجلوسه مجلسه في الخلافة، وضع سلطان بني أمية في قفص الإتهام، ورفع عنه أستار المهابة، ودفع به إلى السقوط، وهو ما كان بنو مروان يخشونه، فقد حذر العباس بن الوليد أخاه يزيد، وقال له: أخاف أن يكون بعض من حسدنا هذه النعمة من عدونا أراد أن يغري بيننا. وتمثل مرة قائلاً:

لا تلحمن ذئاب الناس أنفسكم إن الذئاب إذا ما ألحمت رتعوا

ولا تبقرن بأيديكم بطونكم فثم لا حسرة تغني ولا جزع[1]

ولكن العباس مال أخيراً إلى جمع أخيه يزيد الزاحف إلى الوليد، وأطعم بنو مروان أنفسهم للشانئين، وبقروا بطونهم بأيديهم، ولم يرتق فتقهم ولم تجتمع بعدها كلمتهم.

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٣٩، ٢٤٦، ٢٦٤، ٢٦٦-٢٧٠.

وصار لسان حالهم:

وساد الناقص القدَرَي فينا   وألقى الحرب بين بني أبينا[1]

وبعد أن كانت الخلافة تؤخذ بعهد من الخليفة القائم وبيعة الأمة، أخذت هذه المرة بالقوة، وتحركت في مروان بن محمد أمير الجزيرة وأرمينيا وأذربيجان وقائد جيوش ثغورها أحاسيس المُلْك والسلطان، وصار يرنو بنظره إلى دمشق.

وأدار نصر بن سيار ظهره ليزيد بن الوليد وواليه على العراق، وظل يمسك بمنصب الولاية في خراسان، وخالفه الكرماني الذي وصف هذه الحال بالفتنة، وقاد أتباعه ومؤيديه ضده، ودعاهم الحارث بن سريج إلى العمل بالكتاب والسنة وجعل الأمر شورى.

وتحركت الخوارج في الجزيرة ودخلوا العراق، وخرجوا في خراسان، وظهروا في البحرين وحضر موت واليمن واستولوا على الحجاز، وكثرت أعدادهم كثرة لا مثيل لها من قبل، وبايع أهل الكوفة عبد الله بن معاوية على أن بني هاشم أولى بالخلافة من بني مروان.

ثم سار مروان بن محمد من الثغور إلى دمشق، واظهر أنه يأخذ بثأر الوليد بن يزيد ويعيد الخلافة في ولده، فآزره أهل حمص، ثم استوى على كرسي الخلافة، وأبعد بني عبد الملك الذين مضت الخلافة فيهم قرابة ستين عاما، وهو ما لم يرضه أكثر الناس الذين كانوا حتى مقتل الوليد بن يزيد يوالون بني أمية[2].

ففي الشام، عارض أهل الغوطة وتدمر وحمص وفلسطين وغيرهم مروان بن محمد، واضطر مروان لإخضاع من ثار منهم أن يخوض معهم حروبا قاسية سالت فيها الدماء وقتل الكثير، وقاد بعض فصولها ضده بعض بني عبد الملك بن مروان مثل سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي كان برأي فريق من الجند أرضى عند أهل الشام من مروان[3].

---

(١) اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٣٣٧.

(٢) الأزدي/ تاريخ الموصل، ص٦١.

(٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٣٢٤.

وأرسل ثابت بن نعيم الجذامي من أهل فلسطين، وزامل بن عمرو السكسكي من اهل حمص، وكانا ممن يحرّض على مروان، أرسلا إلى أهل مصر يدعوانهم إلى خلع مروان، وأخرج أهل مصر والي الصلاة وعامل الخراج اللذين ولاهما مروان على مصر، واستبدّ أهل مصر بالأمور، فلما كان بداية عام ١٢٨هـ، أرسل مروان حوثرة بن سهيل الباهلي واليا، فاشتد حوثرة في قمع المعارضة وطلب وجوه ورؤساء الفتنة وقتلهم، وكان مما رثاهم به الشعراء قول بعضهم:

فلا خير في الدنيا ولا العيش بعدهم   فكيف وقد أضحوا بسفح المقطم

وقدم مروان عام ١٣٢هـ هاربا من وجه العباسيين، فأجمع جند مصر على أن يمنعوه من دخول مصر، ولكنهم لم يفعلوا، إلا أنهم لم ينصروه، وكانوا يعلنون الولاء للدولة الجديدة برفع الرايات السود، وتركوا مروان ومصيره على أيدي العباسيين[١].

ومنعت قبائل أسد وطيء في أجأ وسلمى من أرض الجزيرة العربية، الصدقة، وأعلنت عصيانها وتمردها على مروان، وعجز والي الحجاز عن إخضاعهم، وكتب معدان بن عبيد الطائي إلى مروان:

ألا من مبلغ مروان عني   على ما كان من نأي المزار
ألم تر للخلافة كيف ضاعت   إذا كانت بأبناء السراري

وأراد مروان أن يبعث جيشاً من أهل الشام إلى قتاله، ولكنه عدل وأرسل بالجيش إلى ميدان الحروب مع العباسيين، وكتب معدان إلى قحطبة بن شبيب الطائي قائد جيوش العباسيين فوافاه رسول معدان في همدان، وصّوب قحطبة أمر معدان ووعده إذا صار بالكوفة أن يبعث إليه بالجند، ولما قام أبو العباس بالخلافة وفد عليه معدان في مائتي رجل من طيء، فأجازهم أبو العباس وأعطاهم الأموال والهدايا[٢].

---

(١) الكندي/ الولاة والقضاة، ص٨٣-٩٦.

(٢) عبد القادر البغدادي/ خزانة الأدب، ج٥، ص٣١-٣٣.

وبعد صراع مرير امتد نحو ثلاث سنين خرج مروان منه منتصراً على خصومه ومخالفيه، وبدت الأمور منقادة له، كشفت معركة الزاب بالرغم من كثرة عدد وعدة جيش مروان أن صف مروان في الزاب لم يكن كصف جده مروان بن الحكم في مرج راهط، ولا كصف عبد الملك بن مروان أمام مصعب بن الزبير، وظهر التردد والتواكل بين جند مروان، وبدا السيف، وإن صنع الخضوع والانقياد، عاجزا عن أن يزرع المحبة والولاء في النفوس، والتضحية والوفاء والإخلاص في القتال، وهو حال امتد بمروان من الزاب وحتى بوصير في أرض مصر، وكان صدى مطالب ومظالم وشكاوى تجمعت على مدى قرن من الزمان هو عمر دولة بني أمية، وسعت تحتها حركات ودعوات، وساعدت عليها عوامل كان في مقدمتها قتل الوليد بن يزيد على أيدي بني عمه، الذي لم يمهل قتله سقوط دولة بني أمية أكثر من ست سنوات جرى فيها زعزعة الإيمان بحق بني أمية في الخلافة وضعف هيبتهم، وتفكك وانحلال عصبيتهم الشامية، وانفراط نظام العقد بين المركز والأطراف[1]، ومع أن مروان كان من أقدر الناس على حمل المسؤولية، فإنه لم يعمل لإصلاح الخلل وإعادة الثقة أفضل من ركوب السيف إلى أخذ الخلافة وقهر كل مخالف، وهو طريق زاد الخصوم عدداً، وأعطى المعارضين حجة وسندا، ودفع أهل الشام، عصبية بني أمية، إلى الابتعاد عنه أكثر، واتهامه باستلاب الخلافة، وكان يمكن أن تستمر دولة بني أمية لولا وجود دعوات مثل الدعوة العباسية كانت تخطط للوصول إلى الحكم، واستغلت هذه الظروف للإطاحة ببني أمية.

---

(١) فلهوزن/ تاريخ الدولة العربية، ص٤٥٧، نيه عاقل/ تاريخ خلافة بني أمية، ص٣٤٧.

الخاتمة

الخاتمة:

إحدى وتسعون سنة، تربّع فيها الأمويون على منصب الخلافة والإمارة والقيادة كانت تجربة تاريخية للأمة بجميع فئاتها، من الأمويين أصحاب الدولة وغير أصحاب الدولة، ومن رجالات الدولة من أهل الشورى والمعاونين والولاة والقادة والقضاة وعمال الخراج والإداريين والكتّاب، ومن عامة الناس تجاراً وزراعاً وصناعاً ومهنيين، ومن أنصار الدولة ومعارضيها وخصومها، ومن المترددين بين المشاركة وإيثار الحياد والصمت.

وإشراك هؤلاء جميعا في التجربة وتوزيع الأنصبة بينهم فيها لا يعني بخس القيادة الأموية حقّها من الفضل في ما أنجز، أو تقليل مسئوليتها عن ما وقع، أو تبرئتها منه، فالدولة في الإسلام ليست وحدات مؤسسية منفصلة تتباين المسئولية بينها، وإنما هي سلطان يمارسه الخليفة بتفويض الأمة إياه والبيعة له على العمل بالكتاب والسنة ورعايتها بهما، فالخليفة، أي القيادة الأموية، والأمة بجميع فئاتها شركاء في العقد، وفي المسئوليه، ولكن عظم المسئولية يقع على عاتق الدولة، أي على القيادة الأموية التي كانت تباشر التخطيط والتنفيذ ابتداء، وتضع الوسائل التي توصل إلى الأهداف والأغراض المرسومة، ولذلك كانت مسئوليتها أكبر جسامة وأكثر خطورة.

كانت الخلافة الأموية وليدة الأوضاع التي أفرزها مقتل عثمان بن عفان، والخلاف الذي دار بين مرشحي الخلافة، وتطوّرَ في مرحلة تالية إلى نزاع بين الخليفة علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وانكشف عن استيلاء معاوية على الخلافة.

ومع أن تفصيلات الأحداث وتطوراتها وترابط حلقاتها منذ إرهاصات الثورة على عثمان وحتى استيلاء معاوية على الخلافة شابتها شائبة التحريف والمبالغة والوضع، وتعرضت لعوامل الهوى والغرض والتأويل، مما يولّد التردد في قبول الأحكام المستنبطة ويضعف الثقة بها أحيانا، فإن التسويات التي واكبت الأزمة لم تكن مرضية لجميع الناس.

فقد أظهر الخوارج وشيعة علي بن أبي طالب سخطهم، ولم تطب نفس عبد الله بن الزبير بما حدث، وكان شارك في معركة الجمل وشهد مصرع أبيه على أثرها،

ودخل العباسيون في نهاية القرن الاول الهجري حلبة الصراع، وهكذا كان هؤلاء ظلا للصراع على الخلافة، ولم يكونوا صدى لاستخلاف بني أمية، ولكنهم كانوا شجى في خلق الأمويين، ونزلوا معهم منازل المعارضة الحقيقية والخصومة العنيدة ونالوهم باللسان والسنان، وأوغروا صدور الناس عليهم، وأوّلُوا اجتهاداتهم في سياسة الدولة ورعاية الناس على غير الدين، ورموهم بالظلم والفسق والكفر أحيانا، ونازعوهم رداء الخلافة، وجعلوا الإسلام والتقيّد به أساس التفاضل بين القابضين على الحكم والساعين إليه، ولم يزالوا بالأمويين حتى قعد العباسيون مقعدهم.

أما الأمويون، فكانوا مسلمين وصف أكثرهم بالورع والتقوى والعبادة، قادوا الفتوح، وأضافوا الكثير من البلاد إلى دار الإسلام، وزيّنوا وشجّعوا دخول الناس في الإسلام، وأجازوا على القران وأنفقوا على نشره وتثقيف الناس به، وأسْدُوا بتدوين السّنة النبوية خدمة جليلة إلى الشريعة الإسلامية وأهلها، وأنشأوا المدن وأقاموا معاهد العلم وبنوا المساجد ودور العبادة، وأحسنوا إلى الناس جميعا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، وكانت اثارهم في تنظيم الادارة وتطويرها وتعريبها مشهودة، وخططهم في الاقتصاد وتنميته واستقلاله وإصلاح العملة والمكاييل والموازين رائدة، وجهودهم في خفض النزعات الفردية والقبلية وأمثالها وإعلاء يد الدولة وبناء صرحها الشامخ جادّة وكبيرة، وكانت دولتهم امتداداً لعزّ الإسلام ومجده.

ومع أن عصر بني أمية تقبّل «حكم البيت الواحد»، فإن حصر الأمويين الخلافة فيهم جعل أخطاء السابق من خلفائهم تحمل على اللاحق منهم، وأضافت استماتتهم في الدفاع عن المُلْك والاقتتال عليه بينهم عاملاً آخرَ أوهن موقفهم أمام هجمة المعارضة عليهم وأضعف عصبتهم ودفع الناس إلى التخلي عنهم بالتدريج.

واخيرا، فإن الأخبار اللازمة للكشف عن أحداث الإحدى وتسعين سنة الانفة الذكر وإصابة الحكم فيها، غير كافية، ويعتريها النقص والانقطاع أحيانا، فضلا عن التشويه والتحريف والوضع، ومع ذلك فهناك جملة طيبة من الاخبار الموثوقة، وهناك جملة

أخرى من الاخبار يمكن أن نستنبط منها بعض ما ينفع في عملية البناء التاريخي، وكلما زاد تسلّح الباحث بالأخبار الموثوقة وقاوم الخضوع لإغراء إطلاق التعميمات، وتخلّصَ من الميل إلى إصدار الاحكام المطلقة القطعية، كلما كان عمله أكثر أمانا ونزاهة وعدلاً، وإزاء هذه الأوضاع يظل الباحث في العصر الأموي يشعر بالحاجة إلى إبقاء باب الدراسة مفتوحاً، ويتطلع إلى ما هو أفضل.

الملاحق

العصبية القبلية والاحداث التاريخية في عصر بني أمية

العصبية القبلية من القضايا التي أولتها الدراسات التاريخية المعاصرة أهمية كبيرة في مجال فهم الأحداث التاريخية في صدر الإسلام بعامة وعصر بني أمية بخاصة. وقد تفاوتت هذه الدراسات في تقدير أهمية العصبية القبلية في هذه الأحداث ومستوى انتشار هذه العصبية بين الناس في المجتمع الإسلامي في ذلك العصر.

كانت العصبية القبلية برأي البعض[1] مظهرا للطبيعة البدوية عند القبائل العربية، تلك الطبيعة التي اتصفت بالفردية والاستقلال ومحبة العيش ضمن الإطار القبلي دون غيره، وكراهية الرضوخ للنظام والحكم المركزي، وانتهى الحال إلى أن القبائل العربية انتظمت في العصر الأموي ضمن مجموعتين قبليتين هما عرب الشمال وعرب الجنوب، أو عدنان وقحطان، أو مضر أو قيس ويمن ومع يمن ربيعة أحيانا.

ويرى دوزي أن العصبية القبلية نشأت منذ أزمان بعيدة، ولكن يوليوس فلهوزن لم يوافقه على ذلك، ورأى أن نشوءها يعود إلى واقعة مرج راهط[2] (٦٤هـ/ ٦٨٤م) التي امتزج الخصام القبلي فيها بالسياسة العليا أي قضية الخلافة[3]، وهناك من رأى أن المصالح والمنافع والسلطان كانت محور الخصام القبلي[4]، ومنهم من ذهب أبعد من

---

(١) برنارد لويس/ العرب في التاريخ، ص٧٦، ١٠٢-١٠٣، الدوري/ مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص٥٣، ٥٧، ٦٠.

(٢) يوليوس فلهوزن/ تاريخ الدولة العربية، ص١٧٦، ١٧٧. وأنظر:
يوسف العش/ الدولة الاموية ص٢٢٨، نبيه عاقل/ خلافة بني أمية، ص١٢٣، جمال الدين سرور/ بنو أمية، ص١٠١، إبراهيم بيضون/ مؤتمر الجابية، بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، ص١٥٧.

(٣) فلهوزن/ الدولة العربية، ص١٧٧، نبيه عاقل/ خلافة بني أمية، ص١٣٠.

(٤) فلهوزن/ الدولة العربية، ص٦٥، لويس/ العرب في التاريخ، ص١٠٤، الدوري/ مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص٦٥، إبراهيم بيضون، مؤتمر الجابية، ص١٠٦، محمود إسماعيل/ قضايا في التاريخ الإسلامي، ص١٢٦، ١٣٠.

ذلك، ورأى أن العصبية القبلية كانت عاملا خطيرا وقف وراء كثير مما جرى في تاريخ صدر الإسلام وأثر في تحديد المواقف في كثير من القضايا السياسية المصيرية، وأنها نفذت، أي العصبية القبلية، إلى الحياة السياسية والاجتماعية والفكرية والأدبية، وتركت في حياة الأمة في عصر بني أمية ما لا نظير له في سائر العصور(١).

وحمّل هؤلاء المؤرخون الخلفاء الأمويين وولاتهم وعمالهم جانبا كبيرا في إثارة العصبية وزيادة حدتها بين القبائل العربية، وأنهم، أي الخلفاء الأمويين، لما اقحموا أنفسهم منذ الأواخر منهم في حومة النزاع القبلي، وغدت الخلافة طرفا فيه، تحولوا إلى رؤساء أحزاب وعصبيات بدل أن يكونوا رؤساء دول، وضعفت قيمة الخلافة، وانتقلت العصبية إلى مختلف أنحاء الولايات الإسلامية وتزلزل سلطان بني أمية، ثم زالت دولتهم(٢).

أما محمد شعبان فقد نحى في الحديث عن العصبية القبلية منحى مختلفا، وأنكر أن تحلل أحداث الفترة الاموية على أساس المنافسات القبلية، لأن ذلك يهمل مصالح العرب المنطقية، ويسيء إلى طاقاتهم البشرية، لأنهم كانوا رجال دولة معنيين بالمحافظة على دولتهم ونجاح سياستهم، وهي سياسة قائمة على خطوات منطقية لا على نزوات شخصية، وكانت سياسة الفتح والتوسع وعملية الانصهار في البلاد المفتوحة من القضايا المهمة التي اتخذ الناس بشأنها مواقف معينة، فالذين أيدوا الفتح والتوسع وعارضوا عملية الانصهار في البيئات الجديدة للحفاظ على هويتهم عرفوا بالقيسية المضرية،

---

(١) إحسان النص/ العصبية القبلية، ص٥،٦، نايف محمود/ الخوارج في العصر الاموي، ص٢٠.

(٢) فلهوزن/ الدولة العربية، ص٦٥،٦٦،١٧٨،٢٠٤،٢٥٣،٣١١، ٣١٢،٣٥٢،٣٥٣، ٣٦٤، ٣٨٠،٣٩٣،٤٥٨،برنارد لويس/ العرب في التاريخ، ص١٠٣،١٠٤، حتي/ تاريخ العرب مطول، ج١، ص٣٥١، الدوري/ مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، ص٦٥، حسن إبراهيم/ تاريخ الإسلام، ج١، ص٣٣٨، ٣٣٩، نبيه عاقل/ تاريخ خلافة بني أمية، ص١٣٠، جمال الدين سرور/ بنو أمية، ص١٠١، إحسان النص/ العصبية القبلية، ص٢٥٥-٢٧٤، إبراهيم بيضون/ مؤتمر الجابية، بحث، ص١٧٧، محمود إسماعيل/ قضايا في التاريخ الإسلامي، ص١١٥، ١٢٥:

واما الذين عارضوا سياسة الفتح والتوسع، وأيدوا عملية الانصهار بين المسلمين عربا وغير عرب (الموالي)، وتطبيق مبدأ المساواة بينهم في الحقوق والواجبات، عرفوا باليمنية، وأبدى شعبان أسفه إزاء اتخاذ القيسية والمضرية اسمين دالين على انقسامات قبلية عادية، فهما برأيه اسمان شملا مجموعات قبلية حقيقة، واستعملا للدلالة على مجموعتين عربيتين جمعت بين أعضاء كل منهما مصلحة مشتركة لا علاقة لها بالانقسامات القبلية[١].

ويرى شعبان أن الانهيار النهائي لدولة بني مروان يعود إلى عجز هاتين المجموعتين المضرية القيسية واليمنية عن الاتحاد معا في أنصار الثورة العباسية[٢].

وقد يكون شعبان في مفهومه للعصبية القبلية استفاد مما جاء عند فلهوزن وبلياييف. فقد ذكر فلهوزن أن عمر بن الخطاب نظّم الدولة الإسلامية على أساس من التمييز الديني والقومي على السواء بين طبقتين منفصلتين هما طبقة العرب المسلمين الغالبين وطبقة أهل الديانات الاخرى المغلوبين من غير العرب، وإن هذا الأساس غير ثابت وسيتصدع في عهد بني أمية الذين أخذوا به، وسيكون تصدعه بسبب دخول غير العرب في الإسلام شيئا فشيئا، وصبغهم بصبغته، وهي عملية طبيعية لا يمكن إيقافها، ولإزالة الحواجز الطبقية يجب أن يكون الإسلام لا القومية أساس الحقوق والواجبات[٣]. وقوله في أثناء الحديث عن مرج راهط: «وهكذا امتزج الخصام القبلي بالسياسة العليا، وكانت مجموعات القبائل المرتبطة برابطة النسب هي بالإجمال الاحزاب السياسية التي كانت في أصلها مستقلة عن القبائل»[٤].

---

(١) محمد عبد الحي شعبان/ صدر الإسلام والدولة الأموية، ص١١،١٢،١٣٤،١٣٥،١٥٠، الثورة العباسية، ص١٣٧،١٤٣،١٤٤،١٥٤،١٥٥،١٥٦.

(٢) شعبان/ صدر الإسلام والدولة الاموية، ص١٣٦.

(٣) فلهوزن/ الدولة العربية، ص٢٩٨.

(٤) المصدر نفسه، ص١٧٧.

أما بلياييف فقال: «الصراع بين القبائل العربية في الشام صراع يقوم على اختلاف في التفكير السياسي بين القيسيين، وهم يمثلون التقاليد البدوية القديمة في تنظيمها العسكري وفي سياستها القبلية، ويهتمون أول ما يهتمون بالغنائم والأسلاب وجمع الضرائب المفروضة على الشعوب المغلوبة، أما حضارة هذه الشعوب المغلوبة على أمرها ووسائل الانتاج فيها فلم تكن تعنيهم، أما الكلبيون (يمنيون)، فعلى الرغم من أنهم كانوا يعنون بأمر جمع الضرائب، فأنهم كانوا يبدون عطفاً على الشعوب المتحضرة ويميلون إلى التعاون معهم وإلى اقتباس حضارتهم»[1].

وفي الآونة الأخيرة، قامت «باتريشيا كرون» بدحض آراء شعبان، وكان أهم ما استندت إليه أن المضرية القيسية واليمنية شاركوا جنداً وقادة في عمليات الفتح والتوسع طيلة العصر الأموي بلا استثناء خلافاً لما يقوله شعبان، وانتهت إلى التأكيد على وجود العصبية القبلية المضرية القيسية واليمنية، وأن هذه العصبية تفجرت في موقعة مرج راهط، وكانت في نطاق القادة العسكريين لا غير، وسببها المنافسة على مناصب الدولة طمعاً بالجاه والنفوذ والمال، مما كان يجعل الوالي يتخذ العصبية القبلية وسيلة يتعزز بها، الأمر الذي زاد من حدة التنافس القبلي، وكانت العصبية أول الأمر ظاهرة إقليمية، ثم شملت كل البلاد الإسلامية بعدما أطاح العسكريون اليمنيون بالخليفة الوليد بن يزيد وقتلوه واستخلفوا يزيد بن الوليد في الحرب الأهلية الثالثة ١٢٦هـ/ ٧٤٤م، واستولوا على العاصمة دمشق وأخرجوا القادة العسكريين المضريين من الحكم، ثم لم يلبث العسكريون المضريون في خلافة مروان بن محمد أن أزاحوا العسكريين اليمنيين، ليعود العسكريون اليمنيون ثانية إلى الحكم وإقصاء المضرية في ظل الهاشمية (العباسيين)، والإطاحة بالدولة الاموية[2].

---

(١) اي. ا. بلياييف/ العرب والإسلام والخلافة العربية، ص٢١٣.

(٢) Patricia Crone, Were the Qays and yemen of the Umayyaed Period Political parties? Der lslam, Band 71 Heft, l. 1994, pp. 1-57.

هذا على وجه الإجمال ما قاله هؤلاء المؤرخون عن العصبية القبلية في العصر الأموي، فإلى أي مدى يتماشى قولهم والنصوص التاريخية؟.

إن المتمعن في حديث هؤلاء المؤرخين، وفي مقدمتهم فلهوزن الذي كان لأقواله جاذبية كبيرة جعلتها تنفذ إلى كتابات الاخرين، يجدهم جعلوا العصبية القبلية في المجتمع الإسلامي بإزاء الفكر الإسلامي، تنافسه وتسابقه إلى قيادة هذا المجتمع وتصريف أموره وصناعة أحداثه، بل أن فلهوزن لم يستطيع أن يخفي ما يجد في نفسه في هذا الجانب، فقال: « ويرى الإنسان أن العرب في أرض الشام والجزيرة لم يتغيروا في ظروفهم الجديدة عما كانوا عليه، فلا الإسلام ولا النصرانية استطاعا أن يحولا بينهم وبين وضع القبيلة»... إلى أن يقول: « وبعد أن كان القتال من أجل الخلافة قد انتهى، وكان السلام قد عاد، استمر القتال الوحشي أمام أبواب دمشق وتحت بصر الخليفة ومع الاستهانة بهيبته أحيانا»[(١)].

ومعلوم أن الدولة في الإسلام هي الوسيلة إلى رعاية الناس، بشرع الاسلام وتنفيذ أحكامه في حياتهم وإقامة معالمه في الأرض، وقد تم ذلك في حياة الرسول ﷺ الذي أقام الدولة الإسلامية في المدينة، وجعل العقيدة الإسلامية الرابطة بين الناس وأحلها محل رابطة القرابة والدم، وجعل السيادة في حياة الناس ومصالحهم للإسلام وشرعه، واكتمل في حياته عليه السلام كيان الدولة الممثل بمنصب الحاكم ومعاونيه ومجلس الشورى والولاة والجيش والقضاة والجهاز الإداري[(٢)].

ومهما كانت التفسيرات التي قدمها المؤرخون لحركة الردة كانت قبلية وغير قبلية، فإن الدولة خرجت في حروبها مع المرتدين منتصرة أيام أبي بكر وأخذت تباشر حمل الرسالة إلى الأمم والشعوب المجاورة، وتعززت مكانة الدولة في خلافة عمر بن الخطاب

---

(١) فلهوزن/ الدولة العربية، ص٢٠٢-٢٠٣.
وانظر: ص٢٠٤، حيث ذكر أن الفكرة السياسية للإسلام والنزعة القبلية متضادتان.

(٢) محمد بطاينة/ في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، ص٣٨، ٤٠.

أكثر وأكثر، واستمرت قوية في عهد عثمان، ولما قتل عثمان ووقعت الحرب الأهلية الأولى (٣٦هـ/ ٦٥٦م-٤١هـ/ ٦٦١م) أصيبت وحدة الدولة ووحدة الجماعة بأذى كبير، ولكن الوسائل المختلفة لدى أطراف النزاع كانت تتجه نحو التأكيد على وحدة الدولة ووحدة الجماعة والتعلق بها، وقد تحقق ذلك في عام الجماعة (٤١هـ/ ٦٦١م)، وآل الأمر إلى بني أمية.

وسنتناول موضوع العلاقة بين العصبية القبلية والدولة في حال الجماعة وحال الفرقة.

ابتدأ عام الجماعة بخلافة السفيانيين الذين طبع عهدهم من أيام بني أمية بطابع معاوية ابن أبي سفيان، ووسمت معالمه بميسمه، وقد وصف معاوية بأنه مربي دول، وسائس أمم، وراعي ممالك، وأنه ملك قوي[١]، وأول الملوك[٢].

واستخدام «ملك»، «وأول الملوك» بحق معاوية لإخراجه من دائرة الخلفاء، لا يبطل بحقه بعض معاني اللفظ ومدلولات المصطلح في الشدة والحرص على الملك.

وقد يستغرب أن يوصف من عرف عنه الحلم والعفو واللين إلى حد المداهنة برأي عبد الملك[٣]، أن يوصف بالشدة، ولكنها الشدة التي يبعثها الحرص على الملك عند معاوية لقوله، أني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا[٤]. ولذلك لم يكن معاوية يخش قعقعة الشنان القبلية، ولا من يحدثه أو يهدده بها، ما لم تكن دعوة إلى استخلاف غيره من آل علي أو آل الزبير مثلا أو إلى حرب يشهر فيها السلاح على الدولة، قال معاوية: «فأما القول يستشفي به ذو غمر فهو دبر أذني وتحت قدمي حتى يروم العوجاء»[٥].

---

(١) ابن الطقطقا/ الفخري في الآداب السلطانية، ص١٠٤، ١٠٦.

(٢) اليعقوبي/ تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص٢٣٢.

(٣) خليفة بن خياط/ تاريخ خليفة، ص٢٧٣.

(٤) أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبري، ج٥، ص٣٣٦.

(٥) البلاذري/ أنساب الأشراف، ج٤، قسم١، ص٤٩.

ففي مسألة حجر بن عدي الكندي وأصحابه، راح مالك بن هبيرة السكوني الكندي لما لم يهب له معاوية ابن عمه حجراً، يهدد ويقول: «والله لنحن أغنى من معاوية عنا، وأنا لنجد في قومه منه بدلا، ولا يجد منا في الناس خلفا، سيروا إلى هذا الرجل فلنُخلّه من أيديهم»، ولكن معاوية قال: «...إنما هي حرارة يجدها في نفسه وكأنها قد طفئت»، وبعث إليه معاوية مالا، وأعلمه أنه لم يمنعه أن يشفّعه في ابن عمه إلا شفقة عليه وعلى أصحابه أن يعيدوا لهم حربا أخرى. فقبل مالك المال، وطابت نفسه وأقبل إلى معاوية في جموع قومه راضيا[1]. وهذا بعض ما كان يفرق الدعوات التي تطلب الملك عن العصبية القبلية التي تطلب المنافع برضا الدولة وتنتهي عند نوالها من الأموال والألقاب، وهو ما كان معاوية به عارفا.

وقد استعان معاوية في تعزيز الدولة، وغرس هيبتها في النفوس بالأعوان والرجال الذين كانوا على مثل رأيه في الشدة وصون الملك، ونظرة إلى ما قام به زياد بن أبيه في البصرة والكوفة (٤٥هـ-٥٣هـ) نجد بياناً شافياً عن نكايته بالعصبية القبلية وإزالتها من طريق سيطرة الدولة، وسيادة النظام في الحياة.

فبعد أن خطب زياد في أهل البصرة وأنكر عليهم تقريب القرابة ومباعدة الدين، حذّرهم دعوى الجاهلية وجعل عقوبة من يدعو بها أن يقطع لسانه، وقطع أيدي الذين حصبوه، واتخذ التدابير واصطنع الوسائل التي تشد أزر السلطان،وتزرع هيبة الدولة في النفوس، وأعانه على ذلك ذكاء، وكفاية وولاء واستقامة، وعدل في الأحكام بين الناس فجعل الجماعة مسؤولة عن الفرد، وحمّل القبائل تقويم المخالفين من أفرادها، وأخذ رؤساء القبائل بتنفيذ أوامر الدولة، وإمضاء إجراءاتها بين أفرادها على السمع والطاعة لها، وأنشأ جيشاً من الشرطة لضرب أيدي المخالفين والعصاة المشاقيّن لحفظ الأمن وتأمين سيادة النظام، وجعل العطاء داراً على الطاعة بانتظام، محجوباً عن أهل المعصية والخلاف، وضرب زياد بقوة على أيدي الشعراء الذين يستهويهم تناول أعراض الناس،

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخ الطبراني، ج٥، ص٢٧٨.

وفعله بالفرزدق الذي ضاقت عليه الأرض ولفظه الصديق والناس خير مثال[١]. ولم يعد بمقدور أحد من الناس مهما علا شأنه بين قومه وشرفت مكانته فيهم أن يجير عليه عاصياً، وأعاد النظر في تنظيم البصرة والكوفة، فجعل الأولى أخماساً والثانية أرباعاً، واستمر هذا التنظيم حتى نهاية الدولة الأموية، وعين الرؤساء على هذه الأقسام من غير القبائل فيها، ووزع المقاتلة من القبيلة الواحدة في الفرق المختلفة[٢]، إضعافا للعصبية، وتقوية لروح الجماعة الإسلامية.

وقد تعرّضت إدارة زياد وسياسته إزاء العصبية القبلية لامتحان كبير وتحدٍّ صعب على يد حجر بن عدي الكندي في الكوفة، فقد نابذ حجر زياداً وطابقه جماعة كبيرة من الناس كانوا من قبائل مختلفة من قبائل الكوفة، منها: كندة وحضرموت وعبس وخثعم وبجيلة وهميم ومنقر وتميم وعجل وهوازن وهمدان، كانوا من شيعة على بن أبي طالب وهواهم في آل علي، فالتفت زياد إلى قبائل الكوفة قائلا: «...يا أهل الكوفة، أتشجّون بيد وتأسون بأخرى، أبدانكم معي، وأهواؤكم مع حجر... فوثبوا إليه قائلين: معاذ الله سبحانه أن يكون لنا فيما ها هنا رأي إلا طاعتك وطاعة أمير المؤمنين». وأخذ زياد حجراً وأصحابه من بين قبائلهم على أيدي قبائلهم، وشهد عليهم رؤوس أرباع الكوفة واخرون من مختلف القبائل بلغت عدة الجميع سبعين رجلاً، شهدوا على أن حجراً خلع الطاعة، وفارق الجماعة، ولعن الخليفة، ودعا إلى الحرب والفتنة، وجمع الجموع إلى نكث البيعة وخلع معاوية، وأرسلوا إلى معاوية في الشام فقتل بعضاً وترك بعضاً[٣].

وبدت هيمنة الدولة واضحة تضاءلت أمامها العصبية القبلية، ولاذ رؤساء القبائل بالدولة مستعطفين رضاها، وأغمض الجميع أعينهم عما لحق بحجر وأصحابه،

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٢٢٠، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٣، ص٥٩٣، ج٤، ٤٨، ج٥، ص٢٦٩-٢٧١، صالح العلي/ التنظيمات الاجتماعية، ص٥٢-٥٤.

(٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٢٦٩-٢٧٨.

وقال أحدهم يصف الحال، «لا تزال العرب تقتل صبراً بعده، يعني بعد حجر، ولو نفرت عند قتله لم يقتل رجل منهم صبرا، ولكنها أقرّت فذلت»[1]، وظن هذا وأمثاله أن القبيلة بنيان مرصوص وَهُوَ وَهْمٌ.

وثار بالبصرة رجل من إياد، وآخر من طيء في سبعين رجلاً، فخاطب زياد أهل البصرة قائلاً. . . والله لَتكْفُنّي هؤلاء أو لأبْدأنّ بكم، والله لئن أفلت منهم رجلٌ لا تأخذون العام من عطائكم درهماً، فثار الناس بهم فقتلوهم[2].

وتكررت الحادثة في عهد ابنه عبيد الله بن زياد الذي سار على سياسة أبيه، فاشتد وزاد أعداد الشرطة، واتخذ المحاربة ممن لا آل (قرابة) بينهم وبين العشائر مثل البخارية يقتل بهم أهل المعصية[3].

ففي ولايته كتب الحسين بن علي إلى رؤوس الأخماس في البصرة وأشرافها يدعوهم إلى البيعة له، فجاء المنذر بن الجارود بالكتاب ورسول الحسين إلى ابن زياد، فقتل ابن زياد رسول الحسين وتهدّد البصريين وأخذ العريف بمن في عرافته، ثم سار إلى الكوفة، وكان قد وصلها مسلم بن عقيل بن أبي طالب مرسلا من قبل الحسين يدعو أهلها إلى البيعة للحسين ونزل عند هانيء بن عروة المرادي المذحجي، فجمع ابن زياد الأشراف والرؤساء، وأمرهم أن يمنوّا أهل الطاعة الزيادة والكرامة ويخوّفوا أهل المعصية الحرمان من العطاء والعقوبة، فلما كلموا الناس بهذا الكلام أخذ الناس يتفرقون وينصرفون، وأخذ ابن زياد ابن هانيء، وقومه مذحج أعز أهل المصر، وكان هانيء يظن أن قومه سيمنعونه من ابن زياد، فما منعوه، وقدم المذحجيون يريدون أن يعرفوا ما بهانيء، فقيل لهم، أنه حي، وقد عاتبه سلطانه بضرب لم يبلغ به نفسه، ولا ينكر أن يعاقب الوالي رعيته، وأُمِرُوا بالانصراف فتفرقوا، ولما قُدّم هانيء لتضُربَ عنقه، استنجد قائلاً:

(1) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٢٩١.

(2) المصدر نفسه، ج٥، ص٢٣٨.

(3) الإمامة والسياسة، ج٢، ص١٩، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٥١١.

وامذحجاه، ولا مذحج لي اليوم، وامذحجاه، وأين مذحج مني، ولم ينصره أحد[1].

هذا حال العصبية في العلاقة بين الدولة والرعية في العهد السفياني، فما حالها في سياسة اختيار الولاة على البلدان؟.

استعان معاوية بن أبي سفيان بأهل الصحبة والكفاية والولاء، ولاةً على البلدان[2]، وكانوا من قبائل شتى منهم القرشي مثل عبد الله بن عامر (البصرة)، وسعيد بن عثمان بن عفان (خراسان)، والثقفي مثل المغيرة بن شعبة (الكوفة)، والأنصاري مثل النعمان بن بشير (الكوفة)، والعبدي مثل المنذر بن الجارود (السند وثغر الهند)، والكندي مثل معاوية بن حديج (مصر)، والحارثي مثل الربيع بن زياد (سجستان)، والشيباني مثل مصقلة بن هبيرة (طبرستان)، والسلمي مثل عبد الله بن خازم (خراسان)[3] وغيرهم كثير من مختلف القبائل.

وعندما سأل معاوية الأحنف بن قيس عن أعز أهل العراق، ذكر له بني الحارث بن كعب، وعدّد العمال منهم على البلدان، فراجع معاوية زياد بن أبيه في ذلك، فأجابه زياد، «وجدت فيهم خلتين لو كانتا في الزنج لوليتهم معهما الأمانة والكفاية»[4]، ولم يشذّ يزيد بن معاوية عن سياسة أبيه في إختيار الولاة على البلدان.

وتنازل معاوية عن الخلافة كما قيل، ووقعت الفرقة والخلاف، ولذلك ستتابع الحديث في أيام الفرقة على محاور الشام ومصر والبصرة والكوفة وخراسان.

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٣٧٠،٣٧٩.

(٢) محمد بطاينة/ سياسة بني أمية في اختيار الولاة، أبحاث اليرموك، المجلد الاول، العدد الثاني، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٣١.

(٣) انظر:

خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٢٠٤،٢٠٧،٢١٠،٢٢٤، اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٢١٧،٢١٨. ابن عبد الحكم/ فتوح مصر، ص١٩٤،١٩٧، البلاذري/ فتوح البلدان، ص٢١١،٢٤٢،٣٧٨،٤٨٨-٤٩٠، أبو جعفرالطبري/ تاريخه، ج٥، ص١٧٤،٢٠٩، ٣٠٤-٣٠٥.

(٤) البلاذري/ أنساب الأشراف، ج٤،ق١،ص١٥٩-١٦٠.

ففي الشام، وبعد تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة، بايع أهل دمشق الضحاك بن قيس الفهري أميراً يصلي بهم ويقيم لهم أمرهم حتى يجتمع أمر أمة محمد[(١)]، ويبدو أن الأجناد أوْكَلَت إلى أمرائها نفس ما أوكل أهل دمشق للضحاك، ثم طرحت قضية الخلافة في الشام البلد الذي كان اختيار الخليفة يتم فيه منذ معاوية، أو كما قال اليعقوبي دار الملك ومنزل الخلفاء[(٢)].

وإذا استثنينا أهل الحياد، انتهى الحال إزاء الخلافة إلى فريقين، فريق بايع لعبد الله بن الزبير، وفريق لمروان بن الحكم، ولم يتفق الجانبان على واحد منهما، واحتكما إلى السيف في مرج راهط عام ٦٤هـ.

وفي مرج راهط، وقف الضحاك بن قيس الفهري موالياً لابن الزبير في ثلاثين ألفاً، وقيل ستين ألفاً، منهم كثير من أهل دمشق، ومدد من أهل حمص أرسلهم إليه النعمان ابن بشير الأنصاري، ومدد من أهل فلسطين أرسلهم ناتل بن قيس الجذامي، ومدد من أهل قنسرين بعث بهم زفر بن الحارث الكلابي[(٣)]، وفي الجانب الاخر، وقف مروان بن الحكم في ستة الاف أو سبعة الاف أو ثلاثة عشر الفا[(٤)]، منهم ربع حسان بن مالك بن بحدل الكلبي، وأهل الأردن من كلب، والسكاسك، والسكون، وغسان، وتنوخ، وطي، وقين[(٥)]، ولكن الهزيمة حلت بالضحاك وصحبه، وقتل الضحاك وأكثر ممن معه، ولحق زفر بقرقيسيا وناتل بابن الزبير، وقتل النعمان في حمص وأطبقت الشام على مروان بن الحكم[(٦)].

---

(١) ابن سعد/ الطبقات، ج٥، ص٣٩، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٥٣٠، رواية الواقدي ابن عبد ربه/ العقد الفريد، ج٤، ص٣٩١.

(٢) اليعقوبي/ تاريخه، ج٢،ص٢٥٦.

(٣) ابن سعد/ الطبقات، ج٥، ص٤٠، أبو جعفر الطبراني/ تاريخه، ج٥، ص٥٣٥، رواية عوانة.

(٤) ابن سعد/ الطبقات ج٥،ص٤١، أبو جعفر الطبراني/ تاريخه، ج٥، ص٥٣٩، الأصفهاني/ الأغاني، ج١٧،ص١١١، ابن عبد ربه/ العقد الفريد، ج٤، ص٣٩٦.

(٥) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٥٣٨ رواية عوانه، ص٥٣٩، رواية أبي مخنف.

(٦) المصدر نفسه، ج٥، ٥٣٩-٥٤١، رواية أبي مخنف، ص٥٣٤، رواية الوافدي.

وقد حُمِلَ عمل أهل الشام على محمل العصبية القبلية، ومظنة الاتهام في هذا ما ورد عن وقوف القيسية إلى جانب ابن الزبير، ووقوف اليمانية إلى جانب مروان بن الحكم.

والمعلوم أن الخلافة من المفاهيم الإسلامية، ولا تمت بصلة إلى العصبية القبلية، ولم تَرْقَ العقلية القبلية يوما إلى مفهوم عالمي مثل الخلافة ولا تتسع له. والخلاف حول قضية هامة وأساسية مثل قضية الخلافة لا غرابة فيه، ويختلف الناس في المُحَقرات من الأمور، فكيف بأمر مثل أمر الخلافة!.

ولكن الجانب الذي يحتاج إلى مزيد من الإيضاح، ويلقي الضوء على هوية الفرقاء هو منهجهم في معالجة القضية.

كان الأمويون قد عرفهم أهل الشام ولاة وخلفاء، وهو سر هوى من كان يهوى هواهم، وخلا منصب الخلافة ممن كان يشغله، فأراد البعض متعلقاً بماضي الأمويين أن يختار خليفة منهم، وفضّل آخرون رجالاً من غيرهم، ولم تكن أسماء المرشحين للخلافة تقف عند عبدالله بن الزبير وخالد بن يزيد ومروان بن الحكم، وإنما شملت غيرهم مثل عبد الله بن عمر بن الخطاب.

فقد قام روح بن زنباع الجذامي[(١)]، وقال: أيها الناس، إنكم تذكرون عبد الله بن عمر ابن الخطاب، وصحبته من رسول الله ﷺ وقدمه في الإسلام، وهو كما تذكرون ولكن ابن عمر ضعيف، وليس بصاحب أمة محمدالضعيف[(٢)]. فالصحبة وخدمة الإسلام من العوامل التي شدّت الناس في الشام إلى ترشيح عبد الله بن عمر، ولكن ابتعاد ابن عمر عن الدخول في أمر الخلافة من قبل، وضعفه عن القيام بأمر الأمة حوّل الناس عنه.

---

(١) روح بن زنباع الجذامي تابعي جليل، قاتل مع معاوية يوم صفين.
ابن حجر العسقلاني/ الإصابة، ج٢، ص٢١٦، ابن الأثير/ أسد الغابة ج٢، ص٢٨٩.

(٢) ابو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥،ص٥٣٦، رواية عوانة.

وأما خالد بن يزيد، فكان مالك بن هبيرة السكوني قال لحصين بن نمير السكوني، هلّم فلنبايع لهٰذا الغلام الذي نحن ولدنا أباه، وهو ابن اختنا، فقد عرفت منزلتنا كانت من أبيه، فإنه يحملنا على رقاب العرب غداً[1]. ولكن الحصين بن نمير لم يوافقه على ذٰلك، وقال له: لا، لعمر الله لا تأتينا العرب بشيخ ونأتيهم بصبي[2]. واستمر مالك حسب قول عوانه، يظهر مخاوفه للحصين من استخلاف مروان، فمروان من قيس، وأبو عشيرة وعم عشيرة، وسيحسدونهم السوط والشراك والنعل وظل الشجرة التي يستظلون بها، وسيكونون عبيداً لهم[3].

وإذا قرئت العشيرة في رواية عوانة هٰذه عشرة، صار «مروان أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة»، وكان هٰذا الكلام الذي ينسبه عوانه إلى مالك هو ما روي عن الرسول ﷺ أنه قال: «إذا بلغ بنو أبي العاص (أي قوم مروان) أو قال بنو أبي الحكم (أي قوم مروان) ثلاثين رجلاً واتخذوا دين الله دخَلاً، وعباده خَوَلاً، وماله دُوَلاً[4]».

وعلى أية حال، فإن خالد بن يزيد مثل مروان بن الحكم في القيسية، والمخاوف التي أثارها مالك لم تقنع الحصين ولم تجعله يطاوع مالكاً، ومروان برأيه شيخ قريش، والطالب بدم عثمان بن عفان، ومروان سَيُدَبّرهُم، ويسوسهم، ولا يحتاجون إلى أن يدبّروه ويسوسوه، وغيره يحتاج إلى أن يُدبر ويساس[5]، وبذٰلك قدّم الحصين مروان بن الحكم، رغم أن مروان ليس ابن أخت القوم، على خالد بن يزيد، لأن مروان أفضل وأقدر من خالد على القيام بأمر المسلمين وسياستهم.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ابن سعد/الطبقات، ج٥، ص٤١، أبو جعفر الطبراني/تاريخه، ج٥، ص٥٣٦، رواية عوانة.

(٤) انظر: أحمد بن حنبل/ المسند، ج٣، ص٨٠، ابن حجر/المطالب العالية، ج٤، ص٣٣٢، رقم الحديث ٤٥٢١، أبو عبد الله الحاكم النيسابوري/المستدرك على الصحيحين، ج٤، ص٤٧٩-٤٨١، الهيثمي/مجمع الزوائد، ج٥، ص٢٤١-٢٤٣، المقدسي/البيان والتبيين، ص١٥٤.

(٥) البلاذري/أنساب الأشراف، ج٥، ص١٣٣-١٣٤ (مكتبة المثنى، بغداد).

واختار عبيد الله بن زياد مروان بن الحكم لأن له سناً وفقهاً وفضلاً، ويمكن أن يقارِعوا به ابن الزبير[1]، ولمروان رواية عن النبي ﷺ وكان الحسن والحسين يصليان خلفه ولا يعيدان الصلاة[2].

ومال روح بن زنباع الجذامي إلى مروان لأنه قاتل عن عثمان بن عفان يوم الدار وأنه لَكَبيرُ قريش، وشيخها وأفرطها عقلاً وكمالاً وديناً وفضلاً[3]. ولما رأى حسان بن مالك هٰؤلاء الناس يقدّمون مروان بن الحكم ويتجنبون خالد بن يزيد لحداثة سنّه مال معهم وأيّد مروان[4].

وقد كان هؤلاء يأخذون على عبد الله بن الزبير أنه شقّ عصا المسلمين وخرج على خليفة مجتمع عليه وواجب الطاعة وهو يزيد بن معاوية، وأيضاً على ابنه معاوية بن يزيد، وسفك الدماء، ووصفوه بهذا السبب بالمنافق، وقالوا، ليس المنافق بصاحب امر أمة محمد[5].

أما عبد الله بن الزبير، فهو ابن الزبير حواري رسول الله ﷺ، وابن أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين، وهو بعد من أهل الفضل والصلاح والقدمة في الإسلام، وله سِنّ وصلاح في دينه[6].

وقد يكون لِماَ قام به يزيد بن معاوية من توجيه الجيش إلى الحجاز وقتل أهل المدينة في الحرة، ثم حصار الكعبة وقتل الحسين بن علي، أثر في تحول البعض عن الأمويين

(١) المصدر نفسه، ج٥، ص١٤٤.
(٢) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ، ج٣، ص٢٤٨.
(٣) انظر: الإمامة والسياسة، ج٢، ص١٣.
(٤) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٥٣٧.
(٥) المصدر نفسه، ج٥، ص٥٣٦، رواية عرانة.
(٦) البلاذري/ أنساب الأشراف، ج٥، ص١٤٤، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٥٢٦، رواية عوانة.

إلى ابن الزبير، يدل على ذلك أن حسان بن مالك بن بحدل الكلبي طرح في أهل الأردن قضية الحرة ويزيد بن معاوية وابن الزبير على بساط البحث بعد خلو منصب الخلافة وظهور الانقسام في ولاة أهل الشام بين بني أمية وابن الزبير، وتمت شهادتهم على أن ابن الزبير منافق، وقتلى الحرّة في النار، وأن ابن الزبير وشيعته على الباطل، وأن قتلى جيش أهل الشام في الجنة، وأن يزيد بن معاوية وشيعته على الحق[١].

هذا بخصوص اراء الفريقين في مروان وابن الزبير، أما بخصوص عصبية الفريقين وانتمائهم القبلي فقد بايع عبد الله بن الزبير ودخل في طاعته منهم من كان قيسياً ومنهم من كان يمانياً:

فمدد أهل حمص الذين بعث بهم النعمان بن بشير إلى الضحاك بن قيس لا بد أن يكونوا من القبائل العربية التي كانت تسكن حمص، وهي قبائل كندة وقضاعة وطيء وحمير وكلب وهذه قبائل يمنية، وأقلية من إياد وقيس، وأشار عوانة صراحة إلى أن الذين بايعوا الضحاك بدمشق كانوا جلّ أهل دمشق من أهل اليمن (غسان، قضاعة، كندة) وغيرهم[٢]، ومدد أهل فلسطين الذين بعث بهم ناتل بن قيس الجذامي (يمني) إلى الضحاك كان من قبائل العرب فيها، وهم لخم وجذام وعاملة وبلقين وكندة وكلب وهي يمانية ومنها قيس، ومما يؤكد يمانية كثير ممن انضم إلى الضحاك أن عدد أصحاب الضحاك في مرج راهط كان أكثر بكثير من عدد أصحاب مروان بن الحكم الذين قيل أنهم كانوا يمانية، وهذه الكثرة تخالف النسبة العددية بين اليمانية والقيسية في الشام، فالعرب في الشام جلهّم يمانية، والقيسية قليل[٣].

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٥٣١، رواية عوانه، ابن الأثير/ الكامل في التاريخ، ج٣، ص٣٢٦.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٥٣٥، رواية عوانة.

(٣) من أجل القبائل العربية في الشام أنظر: اليعقوبي/ البلدان، ص٣٢٤-٣٢٧، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٣، ص٣٧، ٢٤٣، ٣٨٩، ٤٧٠، ٥٧٠، ج٥، ص٥٣١، الأزدي/ فتوح الشام، ص١٠٧، ١١١، ابن رسته/ الأعلاق النفية، ص٣٢٤-٣٢٩.

كما لم يكن الذين تولوا البيعة لابن الزبير فعلوا ذلك عن حاجة في الأغلب، فالنعمان ابن بشير الانصاري من أكابر الصحابة، ويكثر تلاوة القران ويحدّث عن الرسول ﷺ، واستعمله معاوية على حمص ثم ولاه الكوفة، وفي أثناء قدوم مسلم بن عقيل إلى الكوفة لأخذ بيعة أهلها للحسين بن علي اتهمه بعض الموالين ليزيد بأنه ضعيف أو يتضعف، فكان جوابه أن يكون ضعيفاً في طاعة الله أحب إليه من أن يكون قوياً في معصية الله، ورفض أن يهتك ستراً ستره الله، أي رفض أن يتتبع الناس ليعرف الذين يبايعون مسلم بن عقيل للحسين بن علي، وعمل والياً على حمص حتى تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة[١]، وكان يرى من قبل أن ابن الزبير أفضل من يزيد بن معاوية[٢].

وكان الضحاك بن قيس الفهري من أهل الطاعة والولاء لبني أمية فكان إلى جانب معاوية في صفين، وولاه معاوية على ما كان يتبعه من بلاد الجزيرة في خلافه مع علي بن أبي طالب، ثم ولاّه على الكوفة، ثم صيّره على الشرط في دمشق، وصلى على معاوية عند وفاته، وكان والياً على دمشق في خلافة يزيد وحتى تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة، فلما كان ذلك اختار أن يبايع لابن الزبير، وقتل في مرج راهط، وقتل معه ثمانون كلهم كان يأخذ القطيفة، والذي كان يأخذ القطيفة، كان يأخذ ألفين في العطاء، وهو شرف العطاء[٣]، ولا يكون ولاء هؤلاء الناس لابن الزبير إلاّ من باب اختيار الأفضل بحسب رأيهم واجتهادهم.

---

(١) المسعودي/ مروج الذهب، ج٣، ص٩٦.

(٢) من أجل النعمان بن بشير الأنصاري، أنظر: ابن قتيبة/ المعارف، ص٢٩٤، البلاذري/ أنساب الاشراف، ج١، ص١٤، ابن سعد، الطبقات ج٢، ص٣٧٦، ابو حنيفة الدينوري/ الأخبار الطوال، ص٢٦٥، ابن الأثير/ أسد الغابة، ج٥، ص٣٢٦-٣٢٨، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٣١٥، ٣٣٨، ٣٤٨.

(٣) من أجل الضحاك بن قيس الفهري، أنظر: اليعقوبي/ تاريخه ج٢، ص٢٣٨-٢٣٩، أبو حنيفة الدينوري/ الأخبار الطوال، ص١٥٤، ابو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٣٢٧،٥٣٧، الأصفهاني/ الاغاني، ج٧، ص١١١.

أما زفر بن الحارث الكلابي فكان ممن يوالي معاوية بن أبي سفيان في خلافه مع علي ابن أبي طالب وعمل أميراً على قنسرين[١]، وشهدت خلافة معاوية توازناً طيباً ومتقناً بين قبائل الشام، وكانت سياسة معاوية في حفظ التوازن بين قبائل الشام ظاهرة العهد السفياني الأول[٢]، وبالرغم من وقوع الأحداث التي غيّرت نظرة بعض الناس إلى بني أمية وأثرّت في مواقفهم منهم، مثل وقعة الحرّة، وحصار الكعبة، وقتل الحسين بن علي، فإن شيئاً من ذلك في خلافة يزيد لم يحدث في الشام ويضر بالتوازن بين قبائلها، ويجعل موقف زفر وتأييده لابن الزبير انتصاراً لقبيلته كلاب القيسية على قبيلة كلب اليمانية، وإنما كان زفر على رأس ألف رجل من قنسرين في جيش مسلم بن عقبة الذي وجهه يزيد إلى قتال أهل المدينة[٣]. وبعد مرج راهط سار زفر إلى قرقيسيا وتحصن فيها، وظل على بيعة ابن الزبير، ولما توجه التوابون بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي إلى قتال الأمويين واعوانهم في عين الوردة، مروا بقرقيسيا فأحسن زفر نزلهم، وفتح لهم الأسواق وبذل لهم الطعام، وعرض عليهم أن يقاتل وإياهم بني أمية صفا واحدا فلم يجيبوه لأن دعوته زبيرية ودعوتهم لآل البيت، واستضافهم زفر ثانية بعد رجوعهم مغلوبين ثلاثة أيام[٤]. وسار عبد الملك إلى قتال زفر، وضرب عليه الحصار، ثم راح يفاوضه على الصلح، فاستجاب له زفر شريطة أن لا يعين عبد الملك على قتال عبدِ الله بن الزبير، ولا يبايع عبد الملك ما دام ابن الزبير حيا للبيعة التي له في عنقه[٥].

---

(١) عبد القادر البغدادي/ خزانة الأدب، ج١، ص٣٩٣، الطبعة الأولى.

(٢) إبراهيم بيضون/ مؤتمر الجابية، ص١٥٣.

(٣) اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٢٥١.

(٤) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٣٩٣-٣٩٤، ابن الأثير/ الكامل في التاريخ ج٣، ص٣٤٢-٣٤٣، ج٤، ص١٨.

(٥) ابن اعثم/ الفتوح ج٦، ص٣٧٥-٣٧٦، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٣٩٤، ابن الاثير/ الكامل في التاريخ، ج٤، ص١٨.

وفي مصر لانجد الأخبار تتحدث عن وقوع خلافات بين القبائل العربية في مصر رغم وجود قبائل كثيرة منها اليمانية وهي الأكثرية ومنها المضرية القيسية وهي الأقل[(١)]. واستقبل الجميع عبد الرحمن بن جحدم الفهري والياً من قبل عبد الله بن الزبير، وتابعوا الدعوة لابن الزبير مع ما قيل عن الحب لبني أمية في قلوب شيعتهم في مصر[(٢)].

وبعد أن استقام الأمر لمروان في الشام سار إلى مصر، فاستعد ابن جحدم له، واشتبك الجانبان في عين شمس، واستحر القتال في المعافر من قبل قبائل مصر، وقتل من غيرها كثير، ثم وقع الصلح، ودخل مروان، ووضع العطاء، وبايعه الناس إلا بعض المعافر (يمانية) قيل كانوا ثمانين، دعاهم مروان إلى أن يبايعوا له، فأبوا وقالوا، أنا قد بايعنا ابن الزبير طائعين، فلم نكن لننكث بيعته، فقدّمهم رجلاً رجلاً فضرب أعناقهم وضرب عنق الأكدر بن حمام بن عامر سيّد لخم (يمانية) وشيخها[(٣)].

وفي البصرة، فقدت ولاية عبيد الله بن زياد بموت يزيد بن معاوية وتنازل ابنه عن الخلافة حجيتها، لذلك دعا زياد أهل البصرة إلى أن يختاروا رجلاً يرتضونه لدينهم وجماعتهم فبايعوه، ثم نابذوه[(٤)].

وعند متابعة رواية أبي عبيدة نجد تفسيرا لما حدث بعد بيعة البصريين لابن زياد، فقد ذكر أبو عبيدة أن رجلاً ـ هو سلمة بن ذؤيب من بني تميم ـ جاء على فرس شهباء ومتقنعاً بسلاح، وفي يده لواء يدعو أهل البصرة إلى العائذ بالحرم ـ يعني عبد الله بن الزبير[(٥)]، فشكا ابن زياد ذلك إلى أهل البصرة، واستعد الأحنف بن قيس واخرون أن يأتوه به،

(١) من أجل القبائل في مصر، أنظر: ابن عبد الحكيم/ فتوح مصر، ص٩٨-١٢٦.

(٢) الكندي/ الولاة والقضاة، ص٤١، ابن تغري بردي/ النجوم الزاهرة، ج١، ص١٦٥-١٦٦.

(٣) الكندي/ الولاة والقضاة، ص٤٥.

(٤) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٥٠٥، رواية ابن شبة، ص٥٠٧، رواية أبي عبيدة، ص٥٢٤ رواية عوانة، ص٥١٢، رواية وهب بن جرير، ص٥٢٤، رواية الهيثم بن عدي.

(٥) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٢٥٨، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ص٥٠٨، رواية أبي عبيدة.

ولكنهم وجدوا جمع سلمة قد كثف فقعدوا عن ابن زياد ولم يأتوه[١].

ولما رأى ابن زياد تضعضع الوضع في البصرة، وضعف سلطانه، التجأ إلى الأزد وكانوا أعانوا أباه زياداً من قبل، واستجار بمسعود بن عمرو الأزدي، فأجاره وأقام ابن زياد عنده[٢]، وفي هذه الأثناء قام الأحنف بن قيس بحماية بيت المال والسجن والديوان[٣].

فلما فقد عبيد الله بن زياد الأمل في إصلاح الوضع في البصرة، ورأى الأحداث تجري على غير ما يهوى، عزم على الرحيل إلى الشام، فأرسل مسعود بن عمرو الأزدي معه الرجال حتى أوردوه الشام[٤]، واستخلف عبيد الله بن زياد حين رحيله إلى الشام مسعود بن عمرو الازدي[٥]، وقيل إن بكراً والأزد أرادوا إعادة عبيد الله بن زياد إلى دار الإمارة فقال لهم ابن زياد:

انطلقوا فمسعود عليكم. . .فإن ظفرتم رأيتم حينئذٍ رأيكم[٦]، وفي الحالين، صار مسعود على الجمع الذي توجه إلى دار الإمارة، فعارضهم الذين رأوا أن تعود القضية ثانية إلى رأي الجماعة كما بدأت أول مرة لتختار للإمارة من ترضاه، ورافق ذلك ظهور من يدعو إلى ابن الزبير مما قوّى عزم المعارضة لمسعود وإبطال مسعاه، ووقع القتال، ثم فاء المتقاتلون إلى الصلح، ودفن الخلاف، واجتمعوا على أمير يصلي بهم وهو عبد الله بن الحارث الهاشمي وأمه هند بنت أبي سفيان بن حرب، ولكنه لم ينهض بالأمور نهوضاً محموداً، وكثرت الخوارج في إمارته فخلفه عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي الذي تلقى عهداً من عبد الله بن الزبير بالإمارة على البصرة[٧].

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٥٠٨، رواية أبي عبيدة.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٥١٠-٥١٢، رواية أبي عبيدة وابن شبة.

(٣) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٢٥٨.

(٤) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٥٢١-٥٢٢، رواية ابن شبة.

(٥) المصدر نفسه، ج٥، ص٥٢٥، رواية عوانة.

(٦) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٢٥٨.

(٧) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٥٢٨، رواية ابن شبة، ص٥٢٥-٥٢٦، رواية عوانة.

والملاحظ أن الروايات التي تناولت الأحداث في البصرة بعد موت يزيد بن معاوية جعلت طرفي النزاع قبيلتي تميم والأزد، والحق بعضها قيساً بتميم وبكراً بالأزد تالياً، أما حضور القبائل البصرية الأخرى في هذه الأحداث فلا يكاد يذكر، مع أن عبد القيس من كبرى القبائل في البصرة، ولا تغيب عن مثل هذه الأحداث، وأهل العالية يشكلون خمساً كبيراً من أخماسها[(١)].

واستخدمت هذه الروايات أحيانا ألفاظ مضر ويمن وربيعة للدلالة على أطراف النزاع، وكان إيراد هذه الألفاظ غير منسجم مع سير الأحداث والعناصر المشاركة فيها، فللوصول بالنسب من الأحنف وهو صخر بن قيس إلى مضر، إذا صدقنا شجرة الانساب، نحتاج إلى مرور بعشرين من أجداد الأحنف، وهؤلاء تندرج تحت أسمائهم في قائمة النسب أسماء لا حصر لها، وقبائل عديدة فيها بنو تميم، ومن بني تميم فروع وبطون كثيرة، ومنها بنو مرة، بن عبيد رهط الأحنف بن قيس الذي ذكرته الروايات رئيس مضر في النزاع، علماً بأن بين الأحنف ومرة بن عبيد سبعة جدود[(٢)]. وقل الشيء نفسه بالنسبة للأزد وغيرها من القبائل.

فهل كان شعور الفرد من بني مرة بن عبيد رهط الأحنف بالانتماء القبلي يصل إلى عدنان، أو إلى نزار، أو إلى مضر؟ وهل كان هذا الشعور له من التأثير في نفوس الأفراد ما يجعلهم جماعة واحدة إزاء أبناء النسب الاخر؟.

ولمَ وقفت القبائل العربية تحت تأثير رابطة النسب القبلي عند مجموعتين فحسب ولم تمض قدماً وتصبح أمة واحدة في رباط النسب؟ وما هو الموروث الفكري والثقافي لقبائل عدنان أو نزار أو مضر الذي يملك القدرة السحرية على جمعها وتوحيدها؟ وَبِمَ كان يختلف عن الموروث الفكري والثقافي لقبائل قحطان ليكون كل واحد منهما أمة دون الآخر؟.

---

(١) ناجي حسن/ القبائل العربية في المشرق، ص٩٩، ومن أهل العالية: قريش، بنو عامر، عقل، تيم، غني، باهلة، غطفان، أسد، سليم، هوازن، محارب، ضبة.

(٢) ابن قتيبة/ المعارف، ص٣٦.

وهل كان هذا الموروث القبلي نصوصاً تتلى في الكتاتيب والمساجد والمجالس وحلقات الذكر، وتقام به صلوات وتؤدى عبادات، وفقهاً يعكف عليه الكبار والصغار حتى يعرف العدناني العدناني، والقحطاني القحطاني ويؤدي كل واحد ما عليه من حق للآخر؟.

لما كتبت الوثيقة بين المهاجرين والأنصار واليهود، ذكر فيها قريش وبنو عوف وبنو الحارث وبنو ساعدة وبنو. . . ولم يزد التعريف بهم على ذلك[١].

وأمر زياد حاجبه أن يدعو له الحكم ليعقد له على خراسان، فدعا الحاجب له الحكم ابن عمرو الغفاري وكان زياد يريد الحكم بن أبي العاص الثقفي، ولا ذكر هنا لقيسية أو مضرية[٢].

واراد الفرزدق أن يخرج إلى الحجاز هربا من زياد، قال الفرزدق: «وكلموا لي مقاعساً أحد بني تيم الله بن ثعلبة وكان وكيلا يسافر للتجارة[٣]، ولم يزد في التعريف به عن ذلك.

وجاء سلمة يدعو إلى ابن الزبير، فقال: ألا من أرادني فأنا سلمة بن ذؤيب[٤]. ولم يزد على ذلك، وهو من بني يربوع بن حنظلة، والأمثلة كثيرة وعديدة.

واستخدام الألفاظ التي تتجاوز حدود رهط الفرد وعشيرته هي من ترف رواة النسب وظلال صناعتهم، ولا يعني انقسام العرب في ظل المجتمع الإسلامي زمن بني أمية إلى عدنانيين وقحطانيين، أو مضريين ويمانيين، فألفاظ مضر ويمن التي وردت في الروايات هي من إسقاط الرواة النسابين، ولا تعني في الأغلب أبعد من تميم والأزد وأمثالهما من قبائل العرب.

---

(١) ابن هشام/ السيرة النبوية، ج٢، ص١٤٩-١٥٠.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٢٢٥.

(٣) المصدر نفسه/ ج٥، ص٢٤٦.

(٤) المصدر نفسه، ج٥، ص٥٠٧.

أما الكوفة، فكانوا رفضوا أن يبايعوا عبيد الله بن زياد لما أرسل إليهم يُعْلِمهُم اجتماع أهل البصرة عليه، ويسألهم أن يبايعوه، واجتمعوا على عامر بن مسعود القرشي يصلي بهم إلى أن يجتمع الناس على إمام يرضونه، ثم بايع عامر وأهل الكوفة لابن الزبير، وأرسل ابن الزبير من بعد أميراً على الكوفة(١).

ثم ظهر التوابون في الكوفة يقودهم سليمان بن صرد الخزاعي يدعون إلى آل البيت وقتل قتلة الحسين بن علي، ولما التقوا بجيش الأمويين في عين الوردة دعوا أهل الشام إلى خلع عبد الملك بن مروان، وتسليم عبيد الله بن زياد قاتل الحسين، وردّ الأمر إلى أهل بيت النبي ﷺ، ودعاهم أهل الشام إلى الجماعة والدخول في طاعة عبد الملك بن مروان، وغُلِبَ التوابون(٢).

ثم ظهر المختار بن أبي عبيد الثقفي يدعو في الكوفة إلى آل البيت، فأيده من بقي من أصحاب سليمان بن صرد الخزاعي ومنهم البجلي والكندي والعبدي والفزاري والأزدي والمزني والتيمي والأشعري والحنفي وغيرهم من أبناء القبائل من الكوفة(٣)، ومن أبناء هٰذه القبائل من كان مع ابن الزبير وعلى طاعته أيضاً(٤).

وأرسل المختار المثنى بن مخربة العبدي، وكان أحد من بقي من التوابين، أرسله إلى البصرة داعية له، فأجابه رجال من قومه من بني عبد القيس وغيرهم، ولما أخرج المختار عامل ابن الزبير من الكوفة، اتخذ المثنى في البصرة مسجداً ودعا إلى المختار، فوجه أمير البصرة من قبل ابن الزبير إلى المثنى الشرط والمقاتلة، فهزمهم وقتل رجالاً منهم، ثم سار إلى بني عبد القيس فاعترض زياد بن عمرو العتكي رئيس الأزد على ذٰلك،

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٥٢٩، ٥٦٠، ٥٧٧.

(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٥٩٨.

(٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٥٥٢، ٥٥٧، ٥٦١، ٦٠٠، ٦٠٧، ج٦، ص٦، ١١، ١٤-١٧، ٣٦، ٤٧، ٧١، المسعودي/ مروج الذهب، ج٣، ص١٠٢-١٠٣.

(٤) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص١٨، ٢٢، ٢٩، ٤٧.

وهدّد إن لم يردّ الأمير خيله عن أخوانهم بني عبد القيس ليقاتلها، فدفع أمير البصرة الأحنف بن قيس وعمر بن عبد الرحمن المخزومي ليصلحا الناس، فكانت البيعة التي لابن الزبير في أعناق الناس من بكر وأزد وغيرهم، وسلامة أمن البصرة وحفظ مصالح أهلها من الفساد، كلمة المودة في الإصلاح، وإخراج المثنى بن مخربة وصحبه من بين أهله وقبيلته إلى المختار في الكوفة[1].

وعندما وقع القتال بين مصعب والمختار، كان عبّاد بن الحصين الحبطي من تميم على مقدمة جيش مصعب، وعمر بن عبيد الله بن معمر التيمي القرشي على الميمنة، والمهلب بن أبي صفرة الأزدي على الميسرة، ومالك بن مسمع على خمس بكر بن وائل، ومالك بن المنذر على خمس عبد القيس والأحنف بن قيس على خمس تميم، وزياد بن عمرو العتكي على خمس الأزد، وقيس بن الهيثم السلمي على خمس أهل العالية، أما على جيش المختار فكان أحمر بن شميط قائداً، وعبد الله بن كامل الشاكري على الميمنة، وعبد الله بن وهب الجشمي على الميسرة، ورزين السلولي على الخيل، وكثير بن إسماعيل الكندي على الرجال، فلما تقابل الجيشان قال أصحاب ابن الزبير لأصحاب المختار:

«إنما ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، وإلى بيعة أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير» وقال أصحاب المختار: «إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، وإلى بيعة الأمير المختار، وإلى أن نجعل هٰذا الأمر شورى في آل الرسول»[2]. وغُلب المختار وقتل، وصارت البلاد الإسلامية عامة موزعة بين الخليفة عبد الله بن الزبير وبين الخليفة عبد الملك بن مروان وكل منهما يدعو الآخر إلى الجماعة والدخول في الطاعة، وتقابل مصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان بدير الجاثليق من مسكن عام ٧١هـ أو ٧٢هـ، وقتل مصعب، وَلِيمَ في خذلانه جميع قبائل البصرة والكوفة من تميم

(١) المصدر نفسه، ج٦، ص٦٧-٦٨.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص٩٦.

وبكر وغيرها[1]، ثم تمت الغلبة اخر الامر لعبد الملك بن مروان، والتأمت الجماعة على خليفة واحد عام ٧٣هـ/ ٦٩٢م.

أما في خراسان، فقد دعا والي خراسان سلم بن زياد بعد موت يزيد إلى البيعة على الرضا حتى يستقيم أمر الناس على خليفة، فبايعوه، ثم نكثوا به بعد شهرين[2]، وخرج سلم من خراسان، وغلب كل قوم على ناحية، ومن هؤلاء المتغلبين عبد الله بن خازم السلمي[3] في مرو، وسليمان بن مرثد بن قيس بن ثعلبة (بكر بن وائل) في مرو الروذ، وعمرو بن مرثد بالطالقان، وأوس بن ثعلبة (بكر بن وائل) في هراة[4].

وقيل نال هؤلاء هذه المواقع بالعصبية، فسلمان بن مرثد (من بكر بن وائل) لام ابن زياد على تعيين المهلب بن أبي صفرة الأزدي (من اليمانية) على خراسان وقال له: ضاقت عليك نزار حتى وليت رجلاً من اليمن، وتقرّب سليمان إلى سلم بنزار حسب قول الرواية لأن سليمان وسلما يجتمعان نسباً في نزار، فجعلت الرواية نزارا بإزاء اليمن، فولاه مسلم مرو الروذ والفارياب والطالقان والجوزجان، فصار عمرو بن مرثد أخو سليمان على الطالقان، وولى سَلْمٌ أوس بن ثعلبة على هراة، وأما عبدالله بن خازم فلقي سلماً في نيسابور فلام سلماً وقال له: «أما وجدت في مضر رجلاً تستعمله حتى فرقّت خراسان بين بكر بن وائل يعني (سليمان وعمرو ابنا مرثد، وأوس بن ثعلبة)

(١) المصدر نفسه، ج٦، ص١٥٧، ١٦١.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٥٤٥.

(٣) عبد الله بن خازم السلمي من أشجع العرب، كان مع عبد الرحمن بن سمرة في سجستان يشارك في الفتوح، وفتح فتوحا كثيرة في خراسان ووليها سنين من ايام عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وكلفه معاوية بلقاء زياد بن أبيه في اثناء قدومه من فارس وأخذه، عام ٤٢هـ، وولاه عبد الله ابن عامر عام ٤٣هـ خراسان، ويبدو أن هذا الماضي الحافل لابن خازم شجعه على التعريض للقيام بأمور خراسان في أثناء الفرقة. أنظر: ابن قتيبة/ المعارف، ص١٨٤، البلاذري/ فتوح البلدان، ص٤٨٨، ٤٩٩-٥٠١، ٥٠٥، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٤، ص٢٦٦-٢٦٧، ج٥، ص١٧٨-١٧٩، ١٨٩.

(٤) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٥٤٦-٥٤٧.

ومزون عمان» يعني (المهلب بن أبي صفرة الأزدي)، وتَوَسُّل ابن خازم إلى سَلْم بمضر لأن بن خازم وسلما يلتقيان في النسب بمضر، فأعطاه سلم عهداً على خراسان، ولما سمع المهلب بن أبي صفرة بالخبر خرج من خراسان واستخلف رجلا من بني جشم من بني تميم[1] (مضر)، وتعيين المهلب وهو أزدي يماني رجلا من بني جشم وهو مضري لا يخدم التفسير القبلي للأحداث، والرواية إجمالاً ذات نزعة قبلية.

أما عند البلاذري[2]، فيذكر بسند جمعي أن عبد الله بن خازم لما أظهر نفسه بمرو احتج على الناس بعهد من سلم بن زياد إليه بالإمارة، ولكن سليمان بن مرثد لم يذكر بالمقابل عهدا من سلم، وإنما أنكر ومن يؤيده من بكر بن وائل حجية عهد سلم، بمعنى أن الخليفة الذي كان باسمه سَلْمٌ أميراً قد مات، ولو كان سَلْمٌ الذي أعطى العهد لابن خازم استطاع أن يقيم بخراسان لم يخرج منها، وَقَبِلَ أن يحتكم الاثنان إلى ابن الزبير، فأيهما أقرّه ابن الزبير فهو الأمير، ولما اختار ابن الزبير عبد الله بن خازم أميرا على خراسان لم يرض سليمان بذلك لأن ابن الزبير ليس خليفة برأيه، وإنما هو رجل عائذ بالبيت، وانتهى الحال إلى القتال بينهما.

ومما يستغرب أن اتهام عبد الله بن خازم بالتحايل في أخذ الولاية على خراسان قد تكرر غير مرة، ففي أخبار عام ٢٩هـ، ذكر سيف أن قيس بن الهيثم السلمي والي خراسان زمان عثمان أرسل عبد الله بن خازم السلمي (ابن عم قيس) وفداً إلى أمير البصرة عبد الله بن عامر، وان ابن خازم طلب من عبد الله بن عامر وكان كريما على ابن عامر، ؛ أن يكتب له عهدا على خراسان إن خرج منها قيس ففعل ابن عامر، فلما كانت فتنة عثمان أشار ابن خازم على قيس أن يمضي وينظر ما فيه الناس ويستخلفه، فلما فصل قيس من خراسان، أخرج ابن خازم العهد، وثبت على خراسان وادّعى أنه أحق من قيس[3].

---

(١) المصدر نفسه، ج٥، ص٥٤٦، رواية أبي جعفر الأزدي.

(٢) البلاذري/ فتوح البلدان، ص٥١١.

(٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٤، ص٢٦٦-٢٦٧، ابن الأثير/ الكامل في التاريخ، ج٣، ص٥١. =

والملاحظ، أن الرواية لما فسرت عهد ابن عامر إلى ابن خازم لم تقدم تفسيرا مقنعا، إذ لا يعقل أن يعطي ابن عامر، مهما كرمت مكانة ابن خازم عنده، عهدا بولاية مستقبلية لابن خازم على خراسان.

وتتكرر القصة ثانية عام ٤٣هـ في الرواية التي يرويها المدائني عن أبي عبد الرحمن الثقفي، ولما كان الأشخاص في رواية المدائني هم أنفسهم في رواية سيف، وكان موضوع الروايتين واحداً، وهو قيام ابن خازم بالتحايل في أخذ عهد بالولاية على خراسان من عبد الله بن عامر وإخراج قيس منها، صارت الروايتان تتحدثان عن حادثة واحدة، واعتماداً على رواية أبي مخنف التي تذكر أن عبد الله بن عامر، لما عزل قيسا عن خراسان عام ٤٣هـ، بعث على خراسان أسلم بن زرعة الكلابي، بات من الأرجح أن ولاية ابن خازم على خراسان لم تكن عام ٤٣هـ وإنما كانت عام ٢٩هـ وبعدها، أي في أيام الفرقة التي أعقبت فتنة عثمان، حيث خرج قيس من خراسان، وكان أول العمال خروجا منها(١)، فلما خرج منها، استخلف ابن خازم الذي عينه عبد الله بن عامر والياً. وأما التفصيلات الأخرى، وتكرار اتهام ابن خازم، فهو من قبيل وصف ابن خازم بحب الإمارة والسعي إليها، وقد يكون شعور ابن خازم بالكفاية، ومشاركته في أمور خراسان على صعيد الإدارة والفتوحات، وعلمه بأحوالها، هو مبعث طموحه وتصديه لحمل الأعباء في الملمات.

أما المرة الثالثة التي ذكر فيها ابن خازم متحايلا فهي في رواية أبي عبد الرحمٰن الأزدي الانفة الذكر التي تحدثت عن أمور الولاية والعمال في خراسان في أثناء الفرقة التي أعقبت موت يزيد وتنازل ابنه عن الخلافة عام ٦٤هـ، ويبدو أن ابن خازم ذهب هذه المرة إلى خراسان بعهد من ابن الزبير وليس من سلم بن زياد، والقرينة الدالة على ذلك هي احتكام ابن خازم ومعارضيه إلى ابن الزبير دون غيره، ثم حكم ابن الزبير لابن خازم بالولاية على خراسان.

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٤، ص٢٦٦.

ووقفت بكر بن وائل في هذا القتال إلى جانب سليمان، ووقفت تميم إلى جانب عبد الله بن خازم السلمي وقتل سليمان، ثم قتل عمرو بن مرثد من بعد في الطالقان، والتقى ابن خازم في هراة بأوس بن ثعلبة ومع أوس بكر بن وائل، فتمت الغلبة لابن خازم، وصفت خراسان له[1]. ومما يلاحظ أنه لم تدفع ديات للقتلى في هذا القتال وذلك لأنه قتال بين الدولة (ابن خازم نائب ابن الزبير) والمخالفين عليها (بكر بن وائل)، وفي مثل هذا القتال لا ديةَ لمقتول فيه خلافاً لما جرى في البصرة، كما لم يخلُ الخلاف بين ابن خازم وبكر بن وائل في خراسان من تدخل القوى المتصارعة على الخلافة مما كان يحفزهما على المغالبة.

ثم ساءت العلاقة بين عبد الله بن خازم وبني تميم كثيراً رغم مضرية الجانبين، وبعد مقتل مصعب بن الزبير، أرسل عبد الملك بن مروان إلى ابن خازم يوليه على خراسان ويطلب إليه أن يبايع له، فرفض ابن خازم، وأبى أن ينكث بيعة ابن الزبير، فبعث عبد الملك عندها إلى بكير بن وشاح (من تميم) بالإمارة على خراسان، وقتلت تميم عبد الله بن خازم السلمي، ولكن وحدة الجماعة بعد أن وقع التشعب حتى في حمى القبيلة الواحدة مثل تميم، اقتضت أميرا على خراسان لا يعدّه أي طرف فيها نصرا على الاخر، فولى عبد الملك على خراسان بطلب من أهلها أمية بن عبد الله بن خالد الأموي القرشي[2].

وأما ما كان من الحروب بين قيس وتغلب وكلب، فهؤلاء أعراب وأهل بادية لم تتهذب طباعهم كثيرا، وظلت الأعرابية وهي موضع المثل في الجفاء والغلظة فاشية فيهم، فلم يكونوا يحضرون محاضر المسلمين، ولا يشهدون مشاهدهم، واكثر هذه الحروب كانت بين قيس وتغلب (ربيعة)، وكانت حروباً قبلية اتصفت بالثارات، وابتعدت عن مرامي جمع الكلمة ووحدة الصف واختيار الأفضل للخلافة، على نحو ما

---

(١) البلاذري/ فتوح البلدان، ص٥١٢-٥١٤، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص١٧٦-١٧٨.

(٢) البلاذري/ فتوح البلدان، ص٥١٣، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص١٩٩-٢٠١.

شاهدناه في الحواضر الإسلامية، ولم نجد عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان يعيرانها اهتمامهما في فترة الخلاف بينهما، وإن كانت ظلالهما لم تغب عن الخلافات بين الجانبين، فقد حقد مصعب بن الزبير على عبيد الله بن زياد بن ظبيان الذي انضم إلى تغلب وقتل أخاه[1]، وعندما غلبت تغلب يوم الحشاك وقتلت عمير بن الحباب السلمي، أرسلت راسه إلى عبد الملك بن مروان، فأعطى عبد الملك الوفد وكساهم[2]، وهي إشارة إلى تأييد معنوي من جانب عبد الملك لتغلب التي تظهر الولاء لبني أمية.

واستنجد عمير بن الحباب السلمي بتميم وأسد في حربه مع تغلب، فلن ينجده منهم أحد[3]، ولم ينضم زفر بن الحارث الكلابي مراراً إلى هذه الحروب باعتبارها حروباً قبلية، ولكنه لما وجد أن تغلب أخذت تتفوق على خصومها، وأنها ستهدده وهو على الولاء لابن الزبير دخل الحرب ضدهم يوم الكحيل[4]، ولكن هذه الحروب توقفت بعد عام الجماعة، وألقت الدولة بثقلها في أخمادها وتسوية الخلاف بين الجانبين، باعتبار ذلك واجباً على الدولة، وحقاً من حقوق أهل البادية عليها في الجائحة والفتق وغلبة العدو من المشركين[5].

من خلال النصوص والشواهد السابقة، وجدنا المسلمين في الحواضر الإسلامية تداعوا عند خلو منصب الخلافة إلى اختيار أمراء لهم يصلون فيهم، وتنتظم بهم كلمتهم وتصان جماعتهم إلى أن يتم اختيار خليفة للأمة جميعاً، وهو ما فعله أجناد الشام ومصر والبصرة والكوفة وخراسان وباقي الأمصار الإسلامية، أما أهل الشام فقد ندبوا أنفسهم لخصيصة حبتهم بها الشام دار الملك ومنزل الخلفاء، وهي اختيار خليفة للأمة،

---

(١) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٤.
(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص٦-٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص٤.
(٤) المصدر نفسه، ج٤، ص٧.
(٥) أبو عبيد/ الأموال، ص٢٩١-٢٩٥.

وقد اختلف اهل الشام بين عبد الله بن الزبير وبين مروان بن الحكم، وجرت نقاشاتهم بينهما في فلك الفكر الإسلامي ومفاهيمه، وانطلقت من منطلقاته، وكانت مواقفهم في هذه المسألة تصدر عن اراء واجتهادات، لا عن نزعات وعصبيات قبلية.

واتجهت الجهود في الحواضر الإسلامية جميعاً نحو صون الجماعة والتئام وحدتها في ظل الخلافة وأحكام الإسلام، وتهيّبت القبائل شر الخلاف والفرقة، وخافت عاقبة المحاور القبلية، وآثارها الفاسدة، ووبالها على الأموال والأرواح والمنعة أمام الأعداء، وحيث كان الالتجاء إلى القبيلة، كان ذلك عن اضطرار في غياب الدولة وهجمة الفرقة. وهدأت القبائل في البصرة، والكوفة، وخراسان أخيراً، على أمير قرشي لا يحسده أحد منها، واستقبلت قبائل مصر عامل ابن الزبير على ما في نفوسهم من حب لبني أمية، حرصاً من أهل الحواضر على العيش في ظل الجماعة، وظلت في مدّ وجزر يتوزعها الولاء لابن الزبير، ومروان بن الحكم ثم ابنه، وآل البيت، على مستوى الأفراد والقبائل ضمن منظور الرأي، والاجتهاد، والموقف التاريخي السابق في ظل الإسلام حتى آل أمر قيادتها إلى خليفة واحد، وكان للبيعة سلطان كبير على النفوس، وقفت عندها النزعات والولاءات القبلية، وقدّم البعض تمسكاً بالبيعة أرواحهم لها فداء، وكان الكتاب والسنة والالتزام بها في رعاية مصالح الناس، شعار كل دعوة وحركة وحزب وثورة، إيماناً منهم بأن مصالحهم لا تصان بمثل الجماعة، ولا تربو وتحرس بمثل الدولة، ولا يعدل بينهم فيها بمثل أحكام الإسلام.

وخاف الأعراب في أيام الفرقة بعضهم بعضاً، وتركت صولاتهم فيهم كلوماً، ولكنهم لم يعدموا أيام الجماعة ريح الدولة وسلطانها في حياتهم، وكانوا في ظلها أسعد حالاً.

ولما صار الخوارج يهددون أهل البصرة، سأل أهل البصرة الأحنف بن قيس أن يقاتل بهم الخوارج فأشار عليهم بالمهلب بن أبي صفرة فهو أقوى منه على حربهم، ووقف الأزد وتميم الخصماء بالأمس في الميمنة، وبكر وعبد القيس في الميسرة،

وأهل العالية في القلب[1]، وعادت جيوش المقاتلة تخرج إلى ساح الجهاد، وعاد الناس أمة رعية في ظل خليفة راعٍ، وأما الذين كانوا يعيشون خارج هذا الإطار، فهم خوارج.

واصل المروانيون سياسة السفيانيين في الحفاظ على السلطان واشتدوا في هذا الوجه شدّة بالغة، اعتقاداً منهم بأن سياسة السلطان تدور مع الناس[2]، وما دام أهل زمانهم ليست أعمالهم كأعمال المهاجرين الأولين، فلا سبيل لهم بها عليهم في سياسة الخلفاء الراشدين[3]، فمنع عبد الملك بن مروان الناس عن كثرة الحديث بحضرته، وكانوا يتجرأون على الخلفاء قبله[4]، وأخذ هو وعماله الناس بسياسة الإخافة، وخدشوا بأسهم بأظفار التأديب، وكسروا سوْرته بسيف الغلَب، فكان الحجاج يتشبه بزياد[5]، وكانت سياسته استمراراً لسياسة زياد، فكبت القبلية، وراحت القبائل تنتظم في فلك الدولة وطاعتها، ورضي أغلب الخلفاء والولاة من بعد، الشدة طريقاً لحماية الملك وحراسة السلطان[6].

أما إذا كان الأمر عقد راية، أو وثوب على منبر، فليس لذٰلك إلا السيف دواء لكل داء، وأباحوا حطم جماجم الذين أبدوا صفحتهم لهم، وقطع أعضاد الذين حملوا السيف في وجههم من الأقارب والأباعد[7].

وعلى طريق صيانة السلطان، جاءت حماية الكلمة من الافتراق، ووحدة الجماعة من الانقسام، والتمسك بالإسلام لا العصبية منهجاً للحياة، وتوفرت الأسباب لرعاية

(١) أبو جعفر الطبري / تاريخه، ج٥، ص٦١٦، ٦١٨، ٦٢١.

(٢) ابن سعد/ الطبقات، ج٥، ص٢٣٣.

(٣) ابن شاكر الكتبي/ فوات الوفيات، ج٢، ص٤٠٣.

(٤) ابن الطقطقا/ الفخري، ص١٢٢.

(٥) الجاحظ/ البيان والتبيين، ج٢، ص٦٦، الأبشيهي/ المستطرف، ج٢، ص٩٤.

(٦) اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٢٧٣، المسعودي/ مروج الذهب، ج٣، ص٩٩.

(٧) انظر: خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٢٧٣، اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٢٧٤، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص١٤٤، ١٤٨.

مصالح الناس، ولمّ شملهم، وإشاعة مشاعر المودة بينهم أيام الجماعة منذ عبد الملك لبن مروان وحتى هشام بن عبد الملك.

ففي إطار المصاحلة بين عبد الملك وزفر بن الحارث الكلابي، تمّ تزويج مسلمة بن عبد الملك من الربّاب بنت زفر، وصار ابنا زفر الهذيل والكوثر يؤذن لهما في أول الناس، وصارت مجالس عبد الملك تعمر بخصوم الماضي أولياء الحاضر من أمثال زفر ابن الحارث وولديه(١). كما أنهى عبد الملك الصراع بين قيس وتغلب، وأحلّ بسياسته الوئام بين الخصوم(٢)، وصارت القبيلة ترى عزّها بريح الدولة(٣).

هٰذا ما فعلته الدولة في هٰذا المجال، فهل كان للعصبية القبلية وجود في مجال حيوي آخر في مجالات سيادة الدولة، وأعني به مجال الولاية على البلدان؟

جرى الخلفاء في مجال اختيار الولاة على البلدان في هٰذا العهد على نحو ما كان في السابق يستعملون على البلدان ولاة من بين العرب على اختلاف منابتهم وأصولهم غير ناظرين إلى عصبية مضرية ويمانية، جاعلين عوامل الكفاية والولاء والصلاح وما يحفظ السلطان أساساً للاختيار في الأغلب،

فكان من ولاة عبد الملك:

على سبيل المثال الحجاج بن يوسف الثقفي/ العراق، وقتيبة بن مسلم الباهلي/ خراسان، وسعيد أسلم الكلابي/ السند، والوليد بن عبد الملك/ دمشق، وعبد العزيز بن مروان/ مصر، ووكيع بن بكر الأزدي/ سجستان، والمهلب بن أبي صفرة الأزدي/ خراسان، وحسان بن النعمان الغساني/ أفريقية، وموسى بن نصير مولى لخم/ أفريقية(٤).

---

(١) الجهشياري/ الوزراء والكتّاب، ص٣٥، ابن الأثير/ الكامل في التاريخ، ج٤، ص١٨.
(٢) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٩، دكسن/ الخلافة الأموية، ص١٣٩، ١٦٢.
(٣) انظر: أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص٣٤٧.
(٤) خليفة بن خياط/ تاريخه، ٢٩٣-٢٩٥، اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٢٧٦-٢٧٧.

ومن ولاة الوليد بن عبد الملك:

الحجاج بن يوسف الثقفي/ العراق، سليمان بن عبد الملك/ فلسطين، وقرّة بن شريك العبسي/ مصر، وخالد بن عبد الله القسري/ مكة، والجراح بن عبد الله الحكمي من قبل الحجاج/ البصرة، وموسى بن نصير مولى لخم وأولاده وطارق مولاه/ أفريقية والأندلس[١].

ومن ولاة سليمان بن عبد الملك:

عبد العزيز بن حاتم الباهلي/ أرمينية، وعبيد الله بن بلال الكلابي/ البصرة، وسفيان بن عمرو العقيلي/ اليمامة، وعبد الملك بن رفاعة الفهري/ مصر، ويزيد بن المهلب/ العراق، ويزيد بن الحصين السكوني/ حمص، ويزيد بن أبي كبشة السكسكي/ السند، ومحمد بن يزيد مولى قريش/ أفريقية[٢].

ومن ولاة عمر بن عبد العزيز:

عدي بن أرطأة الفزاري/ البصرة، وعبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب/ الكوفة، وعبد العزيز بن حاتم الباهلي/ الجزيرة، والوليد بن هشام بن الوليد الأموي/ قنسرين، والجراح بن عبد الله الحكمي/ خراسان، وعبادة بن نسيّ الكندي/ الأردن، وأيوب بن شرحبيل بن الصباح/ مصر،وعبد الله بن مهاجر مولى الأنصار/ افريقية، وإسماعيل بن عبيد الله مولى بني مخزوم/ أفريقية[٣].

ومن ولاة يزيد بن عبد الملك:

عمر بن هبيرة الفزاري/ العراق، وعبد العزيز بن الحارث الأموي/ خراسان، ومسلم بن سعيد بن أسلم الكلابي/ خراسان، وبشر بن صفوان الكلبي/ مصر،

---

(١) المصدر نفسه، ص٣١٠-٣١١، المصدر نفسه، ج٢، ص٢٨٤-٢٨٥.

(٢) المصدر نفسه،ص٣١٧-٣١٨، المصدر نفسه، ج٢، ص٢٩٣-٢٩٦.

(٣) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٣٢٢-٣٢٣، اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٣٠٢.

والجراح بن عبد الملك الحكمي/ أرمينية، وسعيد بن عمرو الحرشي/ خراسان، ويزيد بن أبي مسلم مولى قريش/ أفريقية[١].

ومن ولاة هشام بن عبد الملك:

مسلمة بن عبد الملك بن مروان/ أرمينية وأذربيجان، ويوسف بن عمر الثقفي/ العراق الذي استعان على الكوفة بالحكم بن الصلت الثقفي، ثم من بعده بيوسف بن محمد الثقفي، ثم من بعده بمحمد بن عبد الله الثقفي، ثم من بعده بزياد بن صخر اللخمي، ثم من بعده بعبد الله بن العباس الكندي، وخالد بن عبد الله القسري/ العراق، وبشر وصفوان ابنا حنظلة الكلبي/ مصر وأفريقية، وخالد بن عبد الله الهمذاني/ سجستان، وعبيدة بن الحبحاب مولى بني سلول/ أفريقية[٢].

فالولاة في عهد الخلفاء المذكورين كانوا رجالاً من المضريين.واليمانيين على حد سواء، واختير أهل الولاء والكفاية الأفذاذ من الموالي، واستعين بالموالي في الخراج، وكانوا لحمة الجهاز الإداري وسداه، وكان لهم في الجيش نصيب أيضاً، وهذا اتجاه يشير إلى أن القيادة الأموية كانت في اختيار الرجال تضع مصلحة السلطان ورعاية الناس اساساً للاختيار في الأغلب.

ولكن الذين اتخذوا العصبية القبلية أساساً في تفسير الأحداث التاريخية، رأوا تعيين الوالي إن كان من النسب المضري ضربة لليمانية، وإن كان من اليمانية كسر شوكة للقيسية، وعزل الوالي المضري إساءة للمضرية، وعزل اليماني إثارة لليمانية، وأما معاقبة الدولة لهذا أو ذاك من الولاة فإعلانُ الحرب على جذمه، وتربّعُ الدولةِ شيخاً قبلياً على رأس الجذم الآخر[٣]، وهو تفسير قد ينسجم مع تقسيم العرب إلى مضر ويمن، وعدّهما قبيلين متعاديين.

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٣٢-٣٣٤، المصدر نفسه، ج٢، ص٣١١-٣١٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٥٧-٣٥٩، المصدر نفسه، ج٢، ص٣١٧-٣١٨، ٣٢٨.

(٣) انظر: فلهوزن/ الدولة العربية، ص٣١١-٣١٢.

ولكن الولاة كما رأينا، كانوا يختارون في عهد كل خليفة من شتى القبائل، ومنهم من كان من الموالي، وإن كان عدد الولاة الموالي قليلاً، ولم يكن اختيار الولاة يجري وفق نسبة معينة يمليها ميزان العصبية القبلية، وإنما كانت الكفاية والولاء والصلاح وراء هذا الاختيار في الأغلب، ونظراً لذلك، ظل بعض الولاة في عملهم مدداً طويلة، وأعطوا صلاحيات واسعة، وأقصي آخرون لم تمضِ أشهر معدودة على ولايتهم واصاب التعيين والعزل الولاة من مضر ويمن بصورة متعاقبة في ظل نفس الخليفة، وفي نفس البلد الواحد على نحو ما حدث في خلافة هشام بن عبد الملك والولاة على العراق، وتفاوتت أعداد الولاة من مضر ويمن بين خليفة وخليفة، وتكونت بيوتات ظلت قائمة حتى نهاية العصر الأموي تخدم في ركاب سلطان الامويين، ومن شذ وأخر ولاءه دالّة على هذا الخليفة أو ذاك مبدياً صفحته، طيح به كما فعل بآل المهلب أيام يزيد بن عبد الملك.

وكان التعيين والعزل يجري وفق سياسة لدى القيادة الأموية واعية ومعنيّة بالحفاظ على الدولة ورعاية مصالح الناس، وهو ما تضافرت علىتأكيد صحته النقول التاريخية، ومعاوية بن أبي سفيان كان يولّي ويعزل، وكذلك فعل الخلفاء من بعده، ولكن أتباع التفسير القبلي اتجهوا إلى إعْمال تفسيرهم في التعيين والعزل بعد مرج راهط لتأييد قولهم إنها، أي وقعة مرج راهط، كانت بداية العصبية القبلية في العصر الأموي، ولم ينظروا إلى مسألة التعيين والعزل من منظور قاعدة الكفاية والولاء والصلاح في إطار مصلحة الدولة ورعاية الناس،مع أن الاتجاه العام للنصوص التاريخية وهي كثيرة جداً تدعم هذاالمنظور، وهي طافحة بالمعاني والقيم الإسلامية على مستوى الخلفاء والولاة وغيرهم من أولي الأمر.

واسوق بعض الشواهد للمثال لا الحصر، فذكر ابن خلدون في المقدمة أن مروان وابنه وإن كانوا ملوكاً لم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي، وإنما كانوا متحرّين مقاصد الحق جهدهم، إلاّ في ضرورة تحملهم على بعض، مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد، ويشهد لذلك ما كانوا عليه من الاتّباع

والاقتداء، وما عَلِمَ السلف من أحوالهم ومقاصدهم، فقد احتجّ مالك في الموطأ بعمل عبد الملك. وأما مروان فكان من الطبقة الأولى من التابعين، وعدالتهم معروفة، ثم تدّرج الأمر في ولد عبد الملك، وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه، وتوسطهم عمر بن عبد العزيز فنزع إلى طريقة الخلفاء الأربعة والصحابة جهده[1].

وروي عن عبد الملك وهو يحدثّ ولديه عن احتمال صيرورة الخلافة إليهما، أنه قال لهما، هل قارفتما حراماً قط! قالا، لا والله، فقال عبد الملك، نلتماها وربّ الكعبة[2].

وكان هشام بن عبد الملك لا يُدْخِل بيت المال شيئاً من المال حتى يشهد أربعون قسامةً، أنه أُخذ من حقّه وقد أُعْطي الناس حقوقهم[3]. وقد ظهر بعض آثار النصوص التاريخية في هذا الجانب في كتاب فلهوزن، فقال: «قويت الروح الإسلامية في الأسرة الحاكمة، كما رأينا، فمنذ معاوية وعبد الملك إلى الوليد وسليمان نراها في ازدياد مستمر، وعمر بن عبد العزيز يقف على رأس هذه السلسلة من خلفاء بني أمية[4].

ومن يكن هذا حاله، فلا يبعد أن تكون الجماعة ورعايتها وحفظ مصالحها وصيانة وحدتها عنده في إطار سلطانه في المقام الأول، وليس ركوب العصبية القبلية في اختيار الولاة وعزلهم مما يخدم هذا الغرض.

وأما ما قيل عن أن الوالي كان يستنهض رجال قبيلته، ويشركهم معه في الجاه والسلطان والثروة، حتى إذا استوى على كرسي الإمارة، جاء الذي يخلفه على الولاية ومعه قبيلته أيضاً، يسومونه وقومه سوء العذاب، فيشتد العداء القبلي، وتزداد العصبية حدة[5]، فمعلوم أن استعانة الوالي بالرجال كانت تجري تحت بصر وسمع الخليفة،

---

(١) ابن خلدون/ المقدمة، ج١، ص٢٦٠-٢٦١.

(٢) ابن تغري بردى/ النجوم الزاهرة، ج١، ص١٧٤.

(٣) السيوطي/ تاريخ الخلفاء، ص٢٤٧.

(٤) فلهوزن/ الدولة العربية، ص٢٥٩-٢٦٠.

(٥) فلهوزن/ الدولة العربية، ص٦٥، Crone, were the Qays,PP.50-54.

ولم يكونوا جميعاً بغائبين عن نظر الخليفة ومراقبته، وكان الوالي يختار الرجال من أهل الكفاية والولاء والصلاح، ومن قومه أقربهم إليه لحمة ونسباً مثل أولاده وإخوته ليمحضوه النصيحة في العمل، وأما قبيلته فلم تكن بأقلّ الناس حسداً له ولبطانته، وربما كانت إطاحة الدولة بهؤلاء تقع موقع التشفي من نفوس الناس الأقارب وغير الأقارب، فلقد مضى قتيبة بن مسلم الباهلي ومحمد بن القاسم الثقفي وعمال الحجاج بن يوسف الثقفي على يد خصومهم من ولاة سليمان بن عبد الملك، فلم يجدوا لهم من الناس ناصراً، ولّما أطيح بخالد بن عبد الله القسري، كان ابن عمه كلثوم بن عياض القسري اشد الناس تعقباً له ولمواليه، وقتل خالد ولم ينجده أحد بيدٍ ولا بلسان، وقيل ذكره رجل من عبس[1].

وقد فات اتباع التفسير القبلي ملاحظة وجود خطة واضحة وسياسة بيّنة وعامة عند الأمويين ليس في اختيار الولاة فحسب، وإنما في توزيعهم على البلدان أيضاً، فقد أسندت القيادة الأموية للرجالات القرشية بعامة، والأموية بخاصة الولايات في الشام ومصر والعراق وخراسان والثغور الرومية، وكانت بلاد الحجاز مقصورة عليهم في الأغلب، وولّت الرجالات العراقية خراسان وسجستان والسند والهند وثغور طبرستان وقزوين والجزيرة في الأغلب وكان ميدان الرجالات المصرية مصر وافريقية وبلاد المغرب وأعمالها، واعتمدت على الثقفيين كثيراً في العراق واليمن وخراسان أحياناً، وشارك الموالي في الولاية على أفريقة واليمن، ولا شكّ أن الظروف والأحوال الطارئة كانت تترك آثارها في هذا الاختيار وهذا التوزيع ولو إلى حين.

وقد قامت في هذه الفترة من أيام الجماعة في عهد الخلفاء الذين مرّ ذكرهم حركات وثورات مثل ثورة عبد الله بن الجارود العبدي، وثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي، وثورة يزيد بن المهلب الأزدي، وثورة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب إضافة إلى ثورات الجوارح، فهل اتخذت هذه الثورات مضر ويمن لها أساساً؟

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٥٥-٢٥٧.

وهل كانت العصبية القبلية التي قيل بعثتها مرج راهط، وتعيين وعزل الولاة الذين قيل كان يجري في إطارها، لهذه الثورات باعثاً ومحركاً؟ وهل هناك تكتلات أخرى غيرها انطلقت من منطلق العصبية القبلية أو كانت أثراً من آثارها في هذه الفترة؟.

أما ثورة عبد الله بن الجارود العبدي فقد حدثت في البصرة عام ٧٥هـ، ففي تلك السنة، سار الحجاج من الكوفة إلى البصرة ليحمل الناس على الخروج مع المهلب لحرب الخوارج، وتوّعد من يتخلف عن ذلك، وقام ذات مرة في أهل البصرة خطيباً، وأعلن إلغاء الزيادة التي زادهموها مصعب بن الزبير، فاعترض عليه عبد الله بن الجارود العبدي محتجاً بأنها زيادة أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، مما غاظ الحجاج وهدده بالقتل. ثم صبر الحجاج أشهراً وأعاد الحديث عن إلغاء الزيادة، فأيّده مصقلة بن كرب العبدي من أقارب عبد الله، وأنكر مصقلة على الرعية أن يكون لها غير السمع والطاعة للراعي فيما أحبّت وكرهت، فشتمه عبد الله، وتعاهد عبد الله وآخرون على أن يكتبوا إلى عبد الملك بن مروان بخلع الحجاج، فإن أبى خلعوه، وبايع الناس عبد الله سراً، وأعطوه المواثيق على الوفاء.

وقع القتال بين الجانبين، ووقف مع الحجاج عباد بن الحصين الحبطي في قومه، وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف الأزدي، ومسمع بن مالك من بكر بن وائل، وسمرة ابن علي الكلابي، وسعيد بن أسلم بن زرعة الكلابي، وقتيبة بن مسلم الباهلي، وأتاه قوم من أهل البصرة خائفين من محاربة الخليفة، وتلاحق الناس من مختلف القبائل بالحجاج، وهزم ابن الجارود وقتل مع بعض اصحابه[1].

وأما عبد الرحمٰن بن محمد بن الأشعث الكندي الذي قاد الثورة في العراق على الدولة أعوام (٨١هـ-٨٢هـ) فكان من رجالات الدولة وقائداً من قوادها، أرسله الحجاج عام (٨٠هـ) في أربعين ألفاً من أهل البصرة والكوفة لقتال الترك في سجستان بعد مصاب

(١) انظر أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص١٢٠-٢٢١، ابن الأثير/ الكامل في التاريخ، ج٤، ص٣٦-٣٨.

المسلمين فيها. وقد اتّبع ابن الأشعث في قتال الترك هناك خطة المطاولة وتنقّصهم شيئاً فشيئاً، وهو ما لم يوافقه عليه الحجاج، وعدّه ضعفاً وعجزاً، وأمره بالمناجزة، وإلاّ فإن اسحاق بن محمد بن الأشعث أخاه أميراً على الناس(١).

استاء ابن الأشعث من ذلك، وحمله موقف الحجاج منه على العصيان، وأغرى الجند بالحجاج، ووصفه باللامبالاة بتجميرهم وهلاكهم ليسعد بالغنيمة والفتح وعلوّ الشأن عند عبد الملك. ودارت الأحاديث بينهم عن شدّة الحجّاج وظلمه، وجوره في الحكم، واستذلاله الضعفاء، وعن تعطيل الأحكام، وظهور المنكر(٢).

طابق الجند ابن الأشعث، وبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه، وخلع أئمة الضلال، وجهاد المحلّين، وخلعوا الحجاج وعبد الملك، فلما بلغ المهلب بن أبي صفرة الأزدي، وكان على خراسان، ما فعل ابن الأشعث، كتب إليه: «. . . الله الله فانظر لنفسك لا تهلكها، ودماء المسلمين فلا تسفكها، والجماعة فلا تفرقها، والبيعة فلا تنكثها»(٣).

وقف مع ابن الاشعث في قتاله مع الحجاج الكثير من العلماء، والقرّاء، والموالي، والناس من قبائل العراق جميعاً (٤)، ولكنّ الهزيمة حاقت أخيراً بابن الأشعث وصحبه، وهي وإن عدّها البعض مصافاً بين العراق والشام، فإنها كانت تعبيراً عن عدم الرضا عن شدة وقسوة وآراء الحجاج في سياسة أهل العراق ورعاية مصالحهم.

أما يزيد بن المهلب بن ابي صفرة الأزدي فهو من رجالات الدولة وولاتها، ولاّه الحجاج على خراسان عام ٨٢هـ بعد وفاة ابن المهلب، ثم عزله عام ٨٥هـ، وعزل إخوته وحبسهم وطالبهم بستة آلاف ألف درهم، وسجنهم بها عام ٨٦هـ، وهرب يزيد

(١) ابو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص٣٢٦، ٣٣٥.

(٢) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٢٨٠، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص٣٣٦، ٣٥٨.

(٣) ابن أعثم/ الفتوح، م٤، ص٨٧، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦ ص٣٣٨.

(٤) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٢٨٦-٢٨٩، البلاذري/ فتوح البلدان، ص٤٦٠، ٤٩٢، الدينوري/ الأخبار الطوال، ص٣١٨، ٣٢٣، ابو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص٣٦٧.

وإخوته مستجيرين بسليمان بن عبد الملك في فلسطين فأجارهم وشفع فيهم عند أخيه الوليد. ولّما قام سليمان بأمر الخلافة ولّى سليمان يزيد على العراق عام ٩٦هـ، وأمره ببسط العذاب على آل أبي عقيل أهل الحجاج، فكان عبد الملك بن المهلب يلي عذابهم. وفتح يزيد جرجان عام ٩٨هـ، وكتب إلى سليمان يخبره أن خُمس ما أفاءه الله عليه من الفتح ستة آلاف ألف درهم وأنه سيحملها إليه، فلما قام عمر بن عبد العزيز بأمر الخلافة عام ٩٩هـ، طالبه بالأموال وسجنه بها(١).

ومات عمر بن عبد العزيز عام ١٠١هـ، وخلفه يزيد بن عبد الملك، فهرب يزيد بن المهلب من السجن خوفاً من يزيد ولحق بالبصرة موطنه. واجتمع ليزيد في البصرة من لم يحسن من إخوته، ورجال من أهل بيته وناس من مواليه، ثم أتاه بعض الناس طمعاً بالمال، ومالت إليه ربيعة وبعض بني تميم وقيس، وبعد مناوشة بسيطة استمرت لهنيهة بينه وبين والي البصرة عدي بن أرطأة الفزاري ظهر يزيد على البصرة، وخلع يزيد بن عبد الملك(٢).

ولما ظهر يزيد على البصرة،أخذ رؤوس أهل البصرة من تميم وقيس والأزد وعبد القيس وغيرهم من الناس يلحقون بالكوفة والشام، أما هو، فأخذ يبايع الناس على كتاب الله وسنة رسوله، وجهاد أهل الشام الذي هو عنده أعظم من جهاد الترك والديلم، ودعا إلى أن لا يطأ جنود أهل الشام بلادهم وأن لا تعاد عليهم سيرة الفاسق الحجاج(٣). تأثر الإقبال على دعوة يزيد والانضمام إليه بخشية الناس أن يعنّيهم ابن المهلب كما عنّاهم ابن الأشعث(٤)، كما لم ينسوا أنه وأمثاله شركاء في السياسة التي يثورون

---

(١) اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٢٧٦، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص٣٥٥، ٣٩٣، ٤٢٦، ٤٤٨، ٤٥١-٤٥٢، ٥٠٦، ٥٤٤، ٥٧٧.

(٢) اليعقوبي/ تاريخه، ج٢، ص٣١٠-٣١١، أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص٥٨٢-٥٨٣.

(٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٦، ص٥٨٧، ٥٩٢، ابن الأثير/ الكامل في التاريخ، ج٤، ص١٧٠.

(٤) أبو جعفر الطبري/تاريخه، ج٦، ص٥٩٢.

عليها[1]، ولما أرسل يزيد أخاه مدركاً إلى خراسان ليستنفر أهلها معه قام بنو تميم والأزد خوفاً على ما هم فيه من العافية والجماعة بردّه[2]. ومع ذٰلك استجاب له كثير من الناس أملاً بسياسة أفضل التزاماً بالكتاب والسنة.

وفي عام ١٠٢هـ، قُتل يزيد في المعركة التي دارت بينه وبين مسلمة بن عبد الملك، وتبددت حركته، وقضى فيها وبعدها على أكثر أهل بيته، ولم يكن أصحاب يزيد ومناصروه ينتمون إلى مضرية أو يمانية مثلاً، بل كانوا من الأزد وتميم وبكر بن وائل وربيعة وغيرهم من البصرة وأهل الكوفة والجبال والثغور، ووقف مثلهم من هٰذه القبائل، ومن هٰذه البلاد وغيرها يناصرون الدولة في حال قريب الشبه من حركة ابن الأشعث.

وأما زيد بن علي بن الحسين فمن قوم يطلبون الخلافة وهو آل هاشم، وكان زيد أمام الزيدية وحدّث نفسه بالخلافة، وبايعه خمسة عشر ألفاً من أهل الكوفة سوى من استجاب لدعاته من أهل السواد والمدائن والموصل وخراسان والري وجرجان والجزيرة. وكانت بيعته على كتاب الله، وسنّة رسوله، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، وقسّم الفيء بين أهله[3]، وقتل زيد عام (١٢٢هـ) وقُتل يحيى ابنه عام (١٢٥هـ) من بعده على نفس المبدأ. ولا نجد في هذه الحركة دعوة قبلية، ولا عصبية مضرية أو يمانية.

وأما الخوارج فكانت حركة سبق ظهورها وصول بني أمية إلى الخلافة، وعادَت معاوية بن أبي سفيان ابتداءً، واستمرت تعادي من خلفه من بني أمية، وانضم إليها أعداد من شتى القبائل من شيبان وعبد القيس وبني حنيفة وبكر بن وائل ويشكر من قبائل ربيعة، وآخرون من تميم وأسد وطيء وعبس وسليم وباهلة وهجيم وأشجع وإياد وغيرها[4].

---

(١) المصدر نفسه، ج٦، ص٥٨٧.

(٢) المصدر نفسه، ج٦، ص٥٨٦، ابن الأثير/ الكامل في التاريخ، ج٤، ص١٧٠.

(٣) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٣٥٣، ابو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص١٧٢، ابن الطقطقا/ الفخري، ص١٣٢-١٣٣.

(٤) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٢٠٤، ٢٠٩، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٥٦، ٢٧١، ٢٧٤-٢٧٩، =

وبالرغم من مرور قرن من الزمان تقريباً على حركتهم، فإن دعوتهم إلى الخروج على بني أمية ومحاربتهم إياهم ظلت تردد الأفكار نفسها على لسان قادتها منذ المستورد بن عُلّفة الطائي عام (٤٣هـ)و وصالح بن مسرح عام (٧٦هـ)، وشبيب بن يزيد عام (٧٦هـ) وغيرهم رغم إختلاف فرقهم، وكانت هذه الافكار تدور حول إتهام الخلفاء الأمويين وولاتهم بالجور في الأحكام، وتعطيل الحدود، والاستئثار بالفيء، وأخذ الأموال بغير حقها، وترك سنّة الهدى، واتباع الهوى، والأخذ بالظنّة، والقتل على الغضب، وسفك الدماء بغير حلّها، ووصفوا الخلفاء والولاة بأنهم أئمة ضلال وسوء، وظلمة وجبابرة، ولهذا دعوا إلى الخروج عليهم التماس مرضاة الله ونيل ثوابه[١]، ولا دليل من النصوص التاريخية على وجود عصبية أو نزعة قبلية تجمع بين أعضاء هذه الحركة أو تحكم العلاقة بينها وبين الدولة.

أما في خراسان، فقد شهدت الفترة منذ عهد عبد الملك بن مروان وحتى هشام بن عبد الملك بعض الأحداث التي كانت للحديث عنها بعض الصلة بالعصبية القبلية، ومن ذلك تعيين خالد بن عبد الله القسري والياً على العراق، واعتبار اليمانية سبباً في تعيينه.

فقد ذكر أبو جعفر الطبري في الرواية[٢] عن محمد بن سلام الجمحي أن عمر بن يزيد الأسيدي دخل إلى مجلس هشام بن عبد الملك فوجد خالد بن عبد الله القسري يذكر طاعة أهل اليمن، فاعترض عمر على قول خالد، وصفّق بيديه تصفيقه دقّ الهواء منها، وذكر الفتن التي فتحت بأهل اليمن كقتلهم عثمان بن عفان وخلع عبد الملك بن مروان، وأن سيوف المضرية تقطر من دماء آل المهلب، ولكن هشام بن عبد الملك لم يطع قول عمر في خالد وعيّنه على العراق، ولم يكن تعيين الولاة نواباً عن الخلفاء في البلدان

= ابو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص٨٧، ١٦٦، ١٧٣، ٥٦٦، ٦١٤، ج٦، ص١٢٨، ٢١٨، ٢١٩، ٢٨١، ٥٥٥، ٥٧٦، مؤلف مجهول/ العيون والحدائق، ج٣، ص١٤، ٣٦، ١١١.

(١) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٢٥٧، ابو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٥، ص١٥٧، ١٩١، ٢١٨، ٢١٩، ج٦، ص٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩٣، ٢٩٧، فهم من آل هاشم يطلبون الخلافة.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٦.

يجري على هذا النحو من البساطة والسذاجة الذي قدمته الرواية. ولكنّ الرواية تبدو مَعنية بتقديم قصة على شاكلة المساجلات انتزعت عناصرها من أرفع المجالس وهو مجلس الخليفة الذي لا يسمح بوقوع مثل ما جاء في الرواية.

وذهبت رواية ثانية(١) عن حماد بن سعيد الصنعاني إلى القول بأن الفتى يقال له زياد ابن عبيد الله المدان (يماني)، جاء إلى الشام يقترض، وقادته رجله إلى باب الخليفة هشام، فالتقى عند الباب برجل يخرج من عند هشام، فسأله الرجل عن اسمه، فأخبره الفتى، فطلب الرجل منه أن يذهب إلى ناحية العسكر، ويخبر أصحابه (أصحاب الرجل)، بأن الخليفة رضي عنه، وأمره بالمسير (أي بالمسير إلى العراق والياً)، وعندها سأل الفتى الرجلَ عن اسمه، فأخبره بأنه خالد بن عبد الله القسري، وتمضي الرواية بأن الفتى سار إلى العراق من بعد على موعدة من خالد، فوصله خالد بالمال، وولاّه على الري، ثم لم يلبث أن جعله على شرطه في العراق.

والرواية كما نرى، مليئة بالمفاجآت التي تجعلها إلى القصة اقرب منها إلى الخبر التاريخي.

ومنها ما ذكر أبو جعفر الطبري في أحداث عام ١٠٦هـ قال: «وفي هذه السنة، كانت الوقعة التي كانت بين المضرية واليمنية وربيعة بالبروقان من أرض بلخ(٢)، بينما ذكر ابن الأثير الخبر وحذف اسم ربيعة»(٣).

وعند النظر في الرواية التي ساقها أبو جعفر، وكررها ابن الأثير، نجد الرواية تتحدث عن الغزوة التي قام بها والي خراسان مسلم بن سعيد الكلابي إلى ما وراء النهر عام ١٠٦هـ، وتخلّف بعض الناس عن الغزو، فلما وقع ذلك، أرسل مسلم نصر بن سيار في جماعة لاستنفار المتخلّفين، فأتاهم أهل الصغانيان، ومسلمة العقفاني من بني تميم

---

(١) المصدر نفسه، ج٧، ص٢٧.

(٢) ابو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٣٠.

(٣) ابن الأثير/ الكامل في التاريخ، ج٤، ص١٩٣.

في خمسمائة، وحسان بن خالد الأسدي في خمسمائة، والحجاج بن هارون النميري في أهل بيته، وأناس آخرون.

وأراد نصر ومن معه أن يدخلوا مدينة بلخ، لاستنفار أهلها، فمنعهم عاملها عمرو بن مسلم الباهلي (مضري)، ووقف معه قوم من بكر والأزد وربيعة، وقيل عادت بكر واعتزلت، ووقعت الحرب بين نصر وأصحابه وعمرو بن مسلم ومن معه، وهزم جمع عمرو، وحملوا على اللحاق بالجيش. ومن المستغرب، أن الرواية تأخذ في أثناء ذلك بالحديث عن باهلة (مضرية) ونسبها من قبيلة تغلب (ربعية) وهو ما رفضته حسب قول الرواية قبيلة بكر (ربعية) حتى لا تكثر قبيلة تغلب، وهو حديث يقع خارج السياق، مما يدل على أن الميسم القبلي الذي وسم به عنوان الرواية يمثل قراءة متأخرة للحادثة ضمن تفسير قبلي لها.

أما رواية المدائني، فتذكر أن مسلم بن سعيد الكلابي لّما تخلف عن الغزو من تخلف، وقف خطيباً، وقال: «ما أخلّف بعدي شيئاً أهمّ عندي من قوم يتخلّفون بعدي مخلّقي الرقاب، يتواثبون الجدران على نساء المسلمين، اللهم افعل بهم وأفعل، وقد أمرت نصراً الاّ يجد متخلّفاً إلا قتله وما أرثى لهم من عذاب ينزله الله بهم -يعني عمرو ابن مسلم وأصحابه-[1]».

فالقضية تتمثل بحمل المتخلفين عن الغزو على اللّحاق بالجيش عنوة بالسيف، وقد وقع، ولا يقال نهضت المضرية للجهاد، وقعدت بكر والأزد وربيعة عنه وتخلّفت، فقد كان ممّن نهض وممّن تخلّف أقوام من شتى القبائل، وقد لحق بعض من تخلّف عند الاستنفار كما رأينا، وحمل البعض الآخر على اللّحاق عنوة بالسيف، وليس الموضوع حرباً بين مضر ويمن.

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٣٢-٣٣.

ثم برز عامل جديد أخذ يؤثر على الأحداث في خراسان وهو ظهور الدعوة العباسية، وقد ذكرت الروايات أن الدعاة كانوا يأخذون إلى جانب اليمانية، والي خرسان على جماعة منهم عام (١١٧هـ)، قال قائلهم له: تدري ما قصتنا؟ صيدت والله العقارب بيدك أيها الأمير، إنا أناس من قومك، وإن هٰذه المضرية إنما رفعوا إليك هٰذا لأنّا كنّا أشدّ الناس على قتيبة بن مسلم (الباهلي)، وإنما طلبوا بثأرهم[1].

ولٰكن تلك الوسيلة لم تنجهم من القتل، وكان الولاة على اختلاف أنسابهم، إذا ثبتت على أحد تهمة الدعوة لبني العباس والإطاحة بالدولة، ولم يتبرأ من ذٰلك قتلوه؛ فالعلاقة بينهم وبين هٰؤلاء كانت علاقة دولة ورعية، فمن خلع الطاعة وفارق الجماعة بإصرار لا رجعة فيه قتل.

وبالتالي فإن الدعوة العباسية لم تكن دعوة قبلية[2] وإنما كانت دعوة إلى الكتاب والسنة والرضا من آل محمد، وكان الحديث بين الناس عن جور بني أمية، وسوء سيرتهم، وزرع الشكوك بين أنصارهم لفصم وحدتهم وتوهين قوتهم، وغير ذٰلك، كانت من الوسائل التي اتخذتها الدعوة للوصول إلى تحقيق أهدافها.

ومنها أنه لمّا تولّى خالد العراق، عزل مسلم بن سعيد الكلابي عن خراسان وولاها أخاه أسد بن عبد الله عام ١٠٦هـ، فرمي أسد بالعصبية، فهل ساس أسد الناس في خراسان بالعصبية؟

جرت العادة من قبل، أن يقوم الوالي الجديد بالقبض على الوالي المعزول ويحبسه ويحبس معه عماله، ثم يأخذ بمحاسبتهم، واستخراج ما يقدر عليه من الأموال منهم، وهي سياسة لها ما يشبهها في السابق، فقد كان الخلفاء والولاة يحاسبون أنفسهم على الشطر من أموالهم بعد أن يخرجوا من العمل ليطيب لهم الباقي. ومارست الدولة زمن الأمويين هٰذه السياسة، ووجدتها تنفع بصورة ملموسة في حراسة الأموال العامة،

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٤٩، ١٠٧، ١٠٨.
(٢) يوسف العش/ الدولة الأموية، ص٢٢٠.

وإخافة الولاة، وتعزيز هيبة الدولة في نفوسهم، وجعل اليد العليا لها في الأمور.

ولٰكن أسداً لم يعرض للوالي المعزول مسلم الكلابي (مضري)، ولم يحبسه، وكان له مُكرِّماً، وحمله إلى أخيه خالد بالعراق الذي لم يعرض لابن هبيرة والي العراق المعزول بأذى[١].

ونقل أسد الجند من البروقان إلى بلخ، وبذل لهم المساكن، وكان يريد أن يجعلهم أخماساً، ثم عدل بهم عن ذٰلك وخلط بينهم مخافة العصبية[٢].

ولٰكن المسألة في خراسان، أن خراسان ثغر من أعظم ثغور الإسلام خطراً، والحرب فيه مع الترك مشقة ومكابدة، وكان ميزان الحكم ومعيار العلاقة بين أهله وبين الولاة يتأثران بعوامل الشجاعة والإقدام وسداد الرأي والنصر ويمن النقيبة للولاة، وأكثر الناس تلمساً وتحسّسا لذٰلك هم قادة الجند الذين عركتهم ساحات الجهاد، فلما حضر أسد، صادف أن أغار الترك على المسلمين وانصرفوا قبل أن يصل إليهم أسد بالجيش، فاتهمه الناس بالتباطؤ وعابوه، فدعا عليهم، فشتموه في أنفسهم.

اتجهت شكوك أسد إلى بعض القادة أمثال نصر بن سيار، وعبد الرحمن بن نعيم الغامدي وآخرين، وَوُشِيَ بهم أنهم يريدون أن يثوروا به، فأخذهم وضربهم وسيّرهم إلى أخيه خالد. ولذٰلك وصفت هٰذه العلاقة بين الوالي والقادة بالعصبية، واقتضى الحال عزل أسد فعزل، وولى هشام مكانه أشرس بن عبد الله السلمي[٣].

كان أشرس فاضلاً، ويسميه أهل خراسان لفضله عندهم «الكامل»، ولكن يحيى ابن حضين من بكر بن وائل أحد كبار قادة الجند لم يرض أشرس وقال فيه من الشعر.

---

(١) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٤٠.

(٢) المصدر نفسه، ج٧، ص٤١.

(٣) المصدر نفسه،ج٧، ص٤٩.

لقد ضاع جيش كان جفر أميرهم فهل من تلافٍ قبل دوْس القبائل[1]

وعزل أشرس وولى الجنيد بن عبد الرحمن المزني (مضري) عام (١١هـ)، وقد تعثّر في حربه مع الترك، وكانت إدارته في معركة «الشعب» غير مرضية، وقتل من المسلمين أعداد كثيرة، وابلى يومها بعض القادة بلاء طيباً، وكان ممن أبلى في هذه المعركة المجشّرين مزاحم السلمي، وابن بسطام الأزدي، والوجف بن خالد العبدي وغيرهم، وكان نصر بن سيار أكثرهم بلاء، ولكن الجنيد لم يشكر لنصر بلاءه فأثنى ابن عرس العبدي على نصر وقال[2]:

فـرّجت عن كل القبائل كربة بالشعب حين تخاضعوا وتضعضعوا
ما زلتَ ترميهم بنفس حرة حتـى تفرّج جمعهم وتصدعـوا

وذمّ الجنيد فقال[3]:

ليتـك يـوم الشعـب فـي حفـرة مـرمـوسـة بـالمـدر الجـامـد
طـار لهـا قلبـك مـن خيفـة مـا قلبـك الطـائـر بـالعـائـد

ومات الجنيد عام (١١٦هـ)، وخلفه عاصم بن عبد الله الهلالي، فواجه ثورة قادها الحارث بن سريج، فهل كانت ثورة الحارث قبلية؟

كان الحارث من قادة الجند الذين ورد ذكرهم في جيش أشرس السلمي عام ١١٠هـ يقاتل الترك ويبلى بلاء حسناً، ولا شكّ أنه في الحروب التالية، وقد ضربه عامل الجنيد على بلخ أربعين سوطاً[4]، ثم تحوّل الحارث عام ١١٦هـ إلى ثائر يدعو إلى كتاب الله وسنة رسوله، وتبعه كثير من الناس من بني تميم والأزد وتغلب والدهاقين وأهل القرى

(١) ابو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٥٢، وجفر هو لقب اشرس بخراسان.
(٢) المصدر نفسه، ج٧، ص٨٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٧، ص٩٤.
(٤) المصدر نفسه، ج٧، ص٩٥.

حتى قيل بلغ جمع الحارث قرابة ستين ألفاً [١].

وهذا الجمع بعدده ونسبه ينفي صفة القبلية عن حركة الحارث. فالحارث في خضّم التهديد التركي وخطره على المسلمين:

إذا دبّ خاقان وسارت جنوده   أتتنا المنايا عند ذلك شرّع [٢]

وشكاوى الذين يسلمون من أهل بخارى وسمرقند والسغد وغيرهم، ولا يزالون يجبرون على دفع الجزية، وفرار بعضهم إلى بلاد الترك واستجاشتهم على المسلمين، والمنافسات بين قادة الجند، والحاجة المالية المتزايدة بين الجند ومطالبهم وبين الدولة ونفقاتها، وظهور الدعوة العباسية، ثم طموح الحارث إلى السلطان مع ما لحقه من الإهانة، جعله يتحدث عن الجور والفساد، ويرفع لواء الإصلاح، ويدعو إلى الكتاب والسنة والبيعة للرضا، وهو ما أنكره البعض عليه بقوله، يا حارث، أنت تدعو إلى كتاب الله والسنة! واتخذ السواد، على شاكلة الدعوة العباسية [٣]. وقد نسب الحارث إلى المرجئة، ولعلّ إرجاء الحارث كان حلاً للمعاناة النفسية التي ربما أخذ يحس بها بعدما لجأ إلى الترك وصار يستجيشهم على المسلمين، ففي الإرجاء لا ينفع مع الشرك عمل، ولا تضر مع الإيمان معصية، والإيمان لا العمل مدار التمييز بين الناس، ولذلك نصحه نصر بن سيار فقال [٤]:

فامنح جهادك من لم يرجّ آخرةً   وكن عدوّاً لقوم لا يصلّونا

أرجاءكم لــزّكم والشرك في قَرَنٍ   فـأنـتم أهل إشراك ومرجونا

---

(١) المصدر نفسه، ج٧، ص٩٦، ٩٧، ٩٨، ١٠١، ١٠٣، ١٠٦.

(٢) ابو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٨٥.

(٣) المصدر نفسه، ج٧، ص٥٥-٥٧، ص٩٥، ٩٧، ١٠٠.

(٤) المصدر نفسه، ج٧، ص١٠١.

وإزاء هذا الوضع نصح عاصم بن عبد الله الخليفة هشام نصيحة الرائد الذي لا يكذب أهله بأن يجعل خراسان تابعه لصاحب العراق لا للخليفة في دمشق لتكون معونتها من قريب، فولى هشام اسداً للمرة الثانية عام ١١٧هـ.

وقد جرّد اسد نفسه للقتال هذه المرة أكثر من ذي قبل، وحارب الحارث بن سريج وهزمه، والتجأ الحارث إلى خاقان الترك وصار يحارب المسلمين إلى جانبه[(١)]، وكان أسد في علاقته مع قادة الجند أكثر حذراً، وفي اثناء الخروج لقتال الترك عام ١١٩هـ، خلّف في بلخ نصر بن سيار الليثي، والقاسم بن بخيت الأزدي، ومحمد بن عبد العزيز العتكي الأزدي والبختري بن أبي درهم البكري، وسعيد الصغير مولى باهلة وغيرهم، فطلب هؤلاء منه أن يأذن لهم ولا يهجّن طاعتهم فأذن لهم[(٢)].

ومات اسد عام ١٢٠هـ، فاستشار هشام فيمن يولي على خراسان فرفعت إليه بعض أسماء القادة في خراسان مثل عثمان بن عبد الله بن الشّخيّر الحرشي، والمجشّر ابن مزاحم السلمي، ونصر بن سيار الليثي، ويحيى بن حضين من بكر بن وائل وقطن بن قتيبة بن مسلم الباهلي، فاختار نصراً لعفّته وتجربته وعقله، وهو بعد ذلك أرجل القوم وأعلمهم بالسياسة، وأعرض عن الباقين لأمور قرفوا بها[(٣)].

وسارت الأمور في ولاية نصر سيراً حسناً، وقام بغزوات موفقة، وإصلاحات مبتكرة في مجال المال والسياسة للقضاء على الصعوبات التي كانت تواجه الدولة في خراسان[(٤)].

---

(١) خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٣٤٧.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص١٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ج٧، ص١٥٤-١٥٨.

(٤) المصدر نفسه، ج٧،ص١٧٣، ١٩٢.

وحتى وفاة هشام بن عبد الملك عام ١٢٥هـ، لا نجد وليداً للعصبية القبلية في أي مصر من الأمصار الإسلامية يدبّ ويكبر ويصير قوة تناهض الدولة وتأخذ زمام القيادة من يدها، وإنما ظلت العلاقة حتى هذا الوقت علاقة بين رعية وراعٍ، وبين أمة وخليفة، ثم بدأ أمر بني أمية عند قتل الوليد بن يزيد وكأنه ينحلّ، فهل أُصيب أمرهم بداء العصبية القبلية؟

قيل استبطن الوليد بن يزيد المضريةو وجفا اليمانية واطّرحهم(١)، ولما مات خالد بن عبد الله القسري نظم الوليد شعراً يوبّخ به أهل اليمن في تركهم نصرة خالد، فلما سمع من كان بأقطار الشام من اليمانية هذا الشعر أنفوا أنفاً شديداً، واجتمعوا من مدن الشام وساروا نحو دمشق، وأخرجوا محمد بن خالد القسري من سجن الوليد ورأّسوه عليهم، وبايعوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك، وخلعوا الوليد بن يزيد، ثم ساروا إليه وقتلوه(٢). وإذا صحّ ذلك، تكون العصبية القبلية شقّت طريقها إلى ارفع وأسمى المناصب في الدولة وهو منصب الخلافة، تعزل وتقتل من تشاء، وتولّي من تشاء.

أما استبطان الوليد المضرية واطّراح اليمانية، فإن التغييرات التي أحدثها الوليد في جهاز الدولة كانت محددة. فقد عيّن على مكة والمدينة والطائف خاله يوسف بن محمد الثقفي، وعزل محمد بن هشام بن إسماعيل المخزومي خال هشام بن عبد الملك، وأخذه وأخاه إبراهيم الذي كان قبله عليها والياً، وأقامهما في المدينة لأخذ حقوق الناس منهما، ثم بعثهما إلى والي العراق، وكان رفع إليه أنهما أخذا مالاً في ايام هشام، فحبسهما وعذبهما وماتا مع خالد القسري تحت العذاب(٣).

---

(١) المسعودي/ التنبيه والإشراف، ص٢٨٠.

(٢) أبو حنيفة الدينوري/ الأخبار الطوال، ص٣٤٧-٣٤٩.

(٣) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٣٤.

وهرب الوليد بن القعقاع العبسي والي قنسرين، وهرب أخوه عبد الملك والي حمص، وكانا أثيرين عند هشام، وبينهما وبين الوليد بن يزيد وحشة، وولى الوليد يزيد ابن عمر بن هبيرة الفزاري على قنسرين ودفع إليه ابني القعقاع، وكان الوليد بن القعقاع ساط ابن هبيرة، فحبسهما يزيد بن عمر وعذبهما وماتا في الحبس[١]. وولّى الوليد على دمشق عبد الملك بن محمد بن الحجاج بن يوسف الثقفي، ومروان بن عبد الملك بن عبد الله بن عبد الملك على حمص[٢].

وإذا نظرنا إلى من عزل الوليد من الولاة وعيّن، وجدناهم ابناء نسب واحد وهو النسب المضري، وظل الجهاز الإداري على حاله التي كان عليها أيام هشام، وما استعانة الوليد بالثقفيين إلاّ للخؤولة[٣] مظنة الولاء والإخلاص له، وتقوّى بهم وبمن استعان به لشدّ ملكه إزاء ما يُدبّر له من مكائد على أيدي بني عمه.

أما بخصوص العصبية اليمانية فقد ذكر المدائني أن الوليد لم يقل الشعر، وإنما قاله بعض شعراء اليمن على لسان الوليد يحرّض عليه اليمانية، ومع ما قاله المدائني تظل اليمانية صاحبة الباع في الإطاحة بالخليفة الوليد. فإلى أي مدى كان ذلك صحيحاً؟

إن وصف الثورة بأنها ثورة اليمانية بأقطار الشام غير دقيق، إذ لّما قتل الوليد وثب أهل حمص وهدموا دار العباس أخي يزيد بن الوليد وانتهبوها، وأخذوا بنيه وحبسوهم وطلبوا العباس، ورفضوا البيعة ليزيد وطردوا رسله واستعدّوا لحربه. ووثب أهل الأردن وبايعوا يزيد بن سليمان بن عبد الملك واستعدّوا لقتال يزيد[٤]. ووثوب هذه الاقطار على يزيد ينفي أن تكون اليمانية بأقطار الشام غضبت لمقتل خالد وسارت لقتل الوليد، وإنما غضبت لمقتل الخليفة الوليد.

---

(١) ابن العديم/ زبدة الحلب من تاريخ حلب، ج١، ص٤٨، العيون والحدائق، ص١٣٢.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٤٢، ٢٦٢.

(٣) أم الوليد بن يزيد هي أم الحجاج بنت محمد بن يوسف بن الحكم الثقفي، ابن قتيبة/ المعارف، ص١٧٣.

(٤) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٦٣، ٢٦٦، ٢٦٧.

ولكن الوليد لم يكن قد أحسن التعامل مع بني عمه، وتعجّل واساء إلى بني هشام بن عبد الملك وبني الوليد بن عبد الملك، وكان بنو الوليد بخاصة يُدلّون على بني عبد الملك بأبيهم الوليد أكبر أولاد عبد الملك، وبكثرة عددهم، ويتطلعون إلى الخلافة، ولما نجح يزيد بن عبد الملك دون إخوته في استخلاف ابنه الوليد، واستخلف الوليد ابنيه الحكم وعثمان، انقلبت المنافسة بين أحفاد عبد الملك إلى خصومة قادها يزيد(١)، وكان معه من بني أبيه الوليد في الثورة على ابن عمه الوليد بن يزيد ثلاثة عشر رجلاً (٢)

دبّ يزيد بن الوليد يدعو من حوله الناس من أهل دمشق وضواحيها مثل المزّة، وكانوا ينتمون إلى كلب والسكاسك ولخم وعذرة وسلامان وجهينة وهؤلاء يمانية، وإلى عبس وهم مضرية، وأخوال الوليد بن عبد الملك والد يزيد، وإلى تغلب وهم ربعية(٣)، وبين هؤلاء وبين يزيد جوار وصهر، وللجوار والصهر أثر ملموس في العلاقة بين الناس وحصول المودة وتقبّل الآراء والتأييد وانتظار المنافع، واستجابة الناس للجوار والصهر عند ذوي السلطان أكثر.

وإضافة إلى الجوار والصهر، كان بين يزيد وبين هؤلاء علاقة فكرية تتصل بالقدرية، وهو ما عابه على يزيد أهل حمص والأردن وفلسطين(٤). وكان يزيد يظهر التواضع والنسك، وإضافة إلى ما ذكرنا، استغل يزيد شدّة وتضييق الوليد على بني عمه، وعداوة الوليد للقدرية، والشائعات حول فسقه ومجونه، وربما ساهم وأعوانه في ذلك، وفعله بمن قتل من رجالات الدولة، فاستجاب له من استجاب، ولو كان هؤلاء الذين دعاهم حوله مضرية، لاستجابوا له بالأسباب المذكورة لا بالعصبية القبلية.

---

(١) محمد بطاينة/ مصرع الوليد بن يزيد، بحث منشور، مجلة كلية الأداب، جامعة الملك سعود، م٥، ١٩٩٧-١٩٩٨، ص٢٥٢-٢٥٥.

(٢) أبو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٤٢.

(٣) المصدر نفسه، ج٧، ص٢٤٢.

(٤) ابو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٣٢و ٢٦٦-٢٦٧، ابن عساكر /تاريخ دمشق، ج١٣، ص٢٣٦، ترجمة عمرو بن شراحيل.

فالنسب وإن كان طبيعياً فإنما هو وهمي، والعشرة والصحبة وطول الممارسة والمدافعة من وسائل الالتحام بين الناس(١).

وقُتل الوليد، وقام يزيد مقامه ووقعت الفرقة. واستعان يزيد ببعض من ناصره من أهل بيته وغيرهم مثل إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك الذي ولاّه على الأردن، ومسرور بن الوليد بن عبد الملك الذي ولاّه على قنسرين، وبشر بن الوليد بن عبد الملك الذي خلف مسروراً على قنسرين، ومنصور بن جمهور الكلبي الذي ولاّه على العراق، ثم عزله لجفائه في الدين وولّى مكانه عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، وعزل يوسف بن محمد الثقفي عن مكة والمدينة والطائف، وولّى عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وظل ولاة الأمصار الأخرى على ما كان الحال عليه سابقاً (٢).

ولم يلبث أن أعلن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم والي أرمينيا وأذربيجان الخلاف على يزيد والطلب بدم الوليد، وتغلب مروان على الخلافة عام ١٢٧هـ، وكان يزيد قد مات، واضطرب الأمر على مروان اضطراباً شديداً، فدخل في قتال مع بني عبد الملك بن مروان بقيادة سليمان بن هشام وإخوته وولده ومواليه يؤيدهم نحو عشرة آلاف من الجند يرونه أرضى لأهل الشام، وأولى بالخلافة من مروان(٣). ودخل في قتال مع أهل الشام، والخوارج، وأهل العراق، ثم مع بني العباس من بعد، وزال على أيديهم سلطان بني أمية.

وهٰكذا، وقع الانشطار في الرأس الذي أضاع ثقة أهل الشام به ركضاً وراء شهوة الملك والسلطان، ونظراً لذٰلك انقسم الناس أوزاعاً بين خليفة أموي متغلّب وآخر يسعى إلى الخلافة، وخوارج، ودعوة عباسية، وانفرط عقد الجماعة بين هٰذه القوى وَلَوْ إلى حين.

---

(١) ابن خلدون / المقدمة، ج١، ص٢٢٧.

(٢) انظر: خليفة بن خياط/ تاريخه، ص٣٧٠، ٣٨٢، ابو جعفر الطبري/ تاريخه، ج٧، ص٢٦٨، ٢٧١و ٣٠٠، الكندي/ الولاة والقضاة، ص٨٤، ٨٥.

(٣) أبو جعفر الطبري/تاريخه، ج٧، ص٢٢٤.

المصادر

المصادر:

- **القرآن الكريم**.

- **ابن الآبار**، محمد بن عبد الله، (ت٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)، «الحلة السيراء»، تحقيق، حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٣م.

- **ابن الأثير**، أبو الحسن علي بن محمد الشيباني، (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م)، «الكامل في التاريخ»، مراجعة نخبة من العلماء، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٦٧م.

- «الكامل في التاريخ»، تحقيق، عبد الوهاب النجار، المطبعة المنيرية، القاهرة، ١٣٥٧هـ.

-«أسد الغابة في معرفة الصحابة»، تحقيق وتعليق، محمد إبراهيم البنا، المجلد الرابع، الشعب.

- **ابن آدم**، يحيى بن آدم، (ت٢٠٣هـ/ ٨١٨م)، «كتاب الخراج»، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م.

- **الازدي**، محمد بن عبد الله (ق ٢هـ/ ق ٨م)، «تاريخ فتوح الشام»، تحقيق، عبد المنعم عامر، مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٠م.

- **الأزدي**، أبو زكريا يزيد بن محمد، (ت٣٣٤هـ/ ٩٤٥م)، «تاريخ الموصل»، تحقيق، علي حبيبة، القاهرة، ١٩٦٧م.

- «تاريخ الموصل»، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٧م.

- **الأزرقي**، محمد بن عبد الله، (ت٢٤٤هـ/ ٨٥٨م)، «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار»، تحقيق، رشدي ملحس، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٣م.

- **ابن اسحاق**، محمد بن اسحاق، (ت١٥١هـ/ ٧٦٨م)، «كتاب المبتدأ والمبعث والمغازي (سيرة ابن اسحاق)»، تحقيق، محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث، الرباط، ١٩٧٦م.

- **الأصطخري**، الكرخي، إبراهيم بن محمد (ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، «المسالك والممالك»، تحقيق، محمد جابر عبد العال، دار العلم، ١٩٦١م.

- **الأصفهاني**، أبو نعيم، أحمد بن عبد الله، (ت٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م)، «حلية الأولياء وطبقات الاصفياء»، مكتبة الخانجي، بمصر، ١٩٣٢م.

- **الأصفهاني**، حمزة الأصفهاني، (ت٣٦٠هـ/ ٩٧٠م)، «تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء»، مكتبة الحياة، بيروت، ط٣، ١٩٦١م.

-**الأصفهاني**، ابو الفرج علي بن الحسين، (ت٣٥٦هـ/ ٩٦٦م)، «مقاتل الطالبيين».

«الأغاني»، مصور عن طبعة دار الكتب، مؤسسة جمال للطباعة، بيروت، ١٩٧٦م.

-**ابن أبي اصيبعة**، أحمد بن القاسم الخزرجي، (ت٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»، تحقيق، نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.

-**ابن أعثم**، أحمد بن أعثم الكوفي (ت٣١٤هـ/ ٩٢٦م)، «الفتوح»، حيدر اباد، ١٩٧٠م.

«الفتوح»، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.

-**الأنباري**، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد، (ت٥٧٧هـ/ ١١٨١م)، «نزهة الألباء في طبقات الأدباء»، تحقيق، إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٩٨٥م.

-**البخاري**، أبو عبد الله محمد بن اسماعيل، (ت٢٥٦هـ/ ٨٦٨م)، «صحيح البخاري»، مطابع الشعب، القاهرة.

«صحيح البخاري»، تقديم، أحمد محمد شاكر، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٠م.

-**ابن بطريق**، افتيشيوس المكنى بسعيد ابن بطريق، (ت٣٢٨هـ/ ٩٤٠م)، «كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق»، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٩م، ومعه تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكي.

-**البغدادي**، عبد القادر بن عمر، (ت٤٨٥هـ/ ١٠٩٣م)، «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب»، تحقيق، عبد السلام هارون، الهيئة المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م.

«خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب»، دار صادر، بيروت.

-**البغدادي**، عبد القاهر بن طاهر، (ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م)، «الفرق بين الفرق»، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.

-**البكري**، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، (ت٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع»، تحقيق، مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، ١٩٤٥م.

-**البلاذري**، أحمد بن يحيى، (ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م)، «فتوح البلدان»، تحقيق، صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٦م.

-«أنساب الأشراف»، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٩م.

-«أنساب الأشراف»، ق٢، ج٣، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٠م.

-«أنساب الأشراف»، ج٤، ق٢، ١٩٧٠م، طبع بالقدس، ١٩٣٨م.

-«أنساب الأشراف»، ج٥، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٩١م.

-«أنساب الأشراف»، ق٤، ج١، بنو عبد شمس، معاوية، زياد، يزيد، عثمان، تحقيق، إحسان عباس، فرانتس شتايز ڤيسبادت، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٤٠٠هـ-١٩٧١م.

-**البياسي**، يوسف بن محمد، (ت٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م)، «الإعلام بالحروب الواقعة في صدر الإسلام»، تحقيق، شفيق جاسر، عمان، ١٩٨٧م.

-**البيهقي**، أبو بكر أحمد بن الحسين، (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)، «دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة»، تحقيق، عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٨٥م.

-**ابن تغري بردي**، جمال الدين يوسف بن تغري بردي الأتابكي، (ت٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)، «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة»، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٧١م.

-**ابن تيمية**، أبو العباس، تقي الدين، أحمد بن عبد الحليم، (ت٧٢٨هـ/ ١٣٢٨م)، «منهاج السنة النبوية»، تحقيق، محمد سالم، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

-«الحسبة في الإسلام»، دار الأرقم، الكويت، ١٩٨٣م.

- **الجاحظ**، عمرو بن بحر، (ت٢٥٥هـ/ ٨٦٨م)، «البيان والتبيين»، تحقيق، عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.

-«العثمانية»، تحقيق، عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٣٧٤هـ-١٩٧٥م.

- **الجهشياري**، محمد بن عبدوس، (ت٣٣١هـ/ ٩٤٣م)، «الوزراء والكتاب»، تحقيق، مصطفى السقا، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٣٨م.

-**ابن حبيب**، محمد بن حبيب، (ت٢٤٥هـ/ ٨٥٩م)، «المنمق في أخبار قريش»، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م.

- المحبر، المكتب التجاري، بيروت.

-**ابن حجر**، أحمد بن علي العسقلاني، (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، «المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية»، تحقيق، حبيب الأعظمي، المطبعة العصرية، الكويت، ١٩٧٣م.

-«لسان الميزان»، تحقيق، عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م.

-«رفع الأصر عن قضاة مصر»، تحقيق، حامد عبد المجيد، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧م.

-«فتح الباري بشرح صحيح البخاري»، تحقيق، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

-«فتح الباري»، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، وإخراج، محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٦٠م.

-**ابن حزم الظاهري**، أبو محمد علي بن أحمد، (ت٤٥٦هـ/١٠٦٣م)، «الفصل في الملل والأهواء والنحل»، تحقيق، محمد إبراهيم نصر، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٥م.

-«الفِصَل في الملل والأهواء والنحل»، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

-«المحلى»، تحقيق، أحمد محمد شاكر، المكتب التجاري، بيروت.

-**الحميدي**، محمد بن أبي نصر، (ت٤٨٨هـ/١٠٩٥م)، «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس»، الدار المصرية، القاهرة، ١٩٦٦م.

-**ابن حنبل**، أحمد بن محمد الشيباني، (ت٢٤١هـ/٨٥٥م)، «المسند»، بيروت، المكتب الإسلامي، بيروت.

-«المسند»، وبهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، مجلد٢، المكتب الإسلامي.

-**ابن حوقل**، محمد بن علي، (ت بعد ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)، «كتاب صورة الأرض»، مكتبة الحياة، بيروت.

-**ابن خرداذبة**، عبيد الله بن عبد الله، (ت حوالي٣٠٠هـ/ ٩١٢م)، «المسالك والممالك»، مكتبة المثنى، بغداد عن طبعة بريل، ١٨٩٩م.

-**الخطيب البغدادي**، أحمد بن علي، (ت٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، «تقييد العلم»، تحقيق، يوسف العش، دار إحياء السنة النبوية، ط٢، ١٩٧٤م.

- «تاريخ بغداد»، مكتبة الخانجي بالقاهرة، والمكتبة العربية، بغداد، ١٩٣١م.

- **ابن خلدون**، عبد الرحمن بن محمد، (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م)، «المقدمة»، الدار التونسية»١٩٨٤م.

- «العبر»، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ١٩٥٨م.

- «العبر»، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط٧، ١٩٧١م.

- **ابن خلكان**، أحمد بن محمد، (ت٦٨١هـ/ ١٢٨٦م)، «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان»، تحقيق، إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.

- **خليفة بن خياط**، (ت ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م)، «تاريخ خليفة بن خياط»، تحقيق، أكرم العمري، دار طيبة، المدينة المنورة، ط٢، ١٩٨٥م.

-**الدارمي**، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن، (ت٢٥٥هـ/ ٨٦٨م)، «سنن الدارمي»، دار إحياء السنة النبوية.

- **ابن أبي دينار**، (ت١١١٠هـ/ ١٦٩٨م)، «المؤنس في أخبار أفريقية وتونس»، تحقيق، محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، ط٣، ١٩٦٧م.

- **الدينوري**، أبو حنيفة أحمد بن داود، (ت٢٨٢هـ/ ٨٩٥م)، «الأخبار الطوال»، تحقيق، عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب، القاهرة، ١٩٦٠م.

- **الذهبي**، محمد بن أحمد بن عثمان، (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)، «ميزان الاعتدال في نقد الرجال»، تحقيق، علي البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٣م.

-«المغني في الضعفاء»، تحقيق، نور الدين عتر، دار المعارف، حلب، ١٩٧١م.

-«تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام»، تحقيق، عمر تدمري، دار الكتاب، بيروت، ١٩٨٩م.

-«سير أعلام النبلاء»، تحقيق، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨١م.

-«كتاب دول الإسلام»، تحقيق، فهيم شلتوت، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م.

- **ابن رسته**، أحمد بن عمر، (كان حياً عام ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م)، «الأعلاق النفيسة»، ومعه كتاب البلدان لليعقوبي، ليدن، ١٨٩١م.

- **ابن الرفعة**، نجم الدين أبو العباس ابن الرفعة الأنصاري، (ت٧١٠هـ/ ١٣١٠م)، «الإيضاح والتبيان في معرفة المكيال والميزان»، تحقيق، محمد أحمد الخاروف، مركز البحث العلمي، مكة.

- **الرقيق**، أبو اسحاق إبراهيم بن القاسم، (ت٤١٧هـ/١٠٢٦م)،«تاريخ افريقية والمغرب»، تحقيق، المنجي الكعبي، تونس، ١٩٦٨م.

- **الزمخشري**، محمود بن عمر،(ت٥٣٨هـ/ ١١٤٣م)، «ربيع الأبرار ونصوص الأخبار»، مكتبة العاني، بغداد، ١٩٧٦م.

- **السلوسي**، مؤرج بن عمرو، (ت١٩٥هـ/ ٨١٠م)، «كتاب حذف من نسب قريش»، تحقيق، صلاح الدين المنجد، دار العروبة، القاهرة، ١٩٦٠م.

- **ابن سعد**، محمد بن منيع، (ت٢٣٠هـ/ ٨٤٤م)، «الطبقات الكبرى»، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.

- **ابن سلام**، أبو عبيد القاسم بن سلام، (ت٢٢٤هـ/ ٨٣٧م)، «الأموال»، تحقيق، محمد هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٦٨م.

- **السمهودي**، نور الدين علي بن أحمد، (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، «وفا الوفا بأخبار دار المصطفى»، تحقيق، محمد يحيى الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٩٥٥م.

- **السيوطي**، عبد الرحمن بن أبي بكر، (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، «تاريخ الخلفاء»، تحقيق، محمد محيي الدين عبد الحميد، دار نهضة مصر، القاهرة، ط٤، ١٩٧٥م.

- **الشافعي**، محمد بن ادريس، (٢٠٤هـ/ ٨٣٥م)، «الأم»، دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٨م.

- **ابن شبة**، ابو زيد عمر بن شبه البصري، (ت٢٥٢هـ/ ٨٧٦م)، «تاريخ المدينة المنورة»، تحقيق، فهيم شلتوت، دار الأصفهاني، جدة، ١٩٧٩م.

- **ابن شداد**، محمد بن علي، (ت٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)، «الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة»، تحقيق، يحيى زكريا، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩١م.

- **ابن أبي شيبة**، إبراهيم بن عثمان، (ت٢٣٥هـ/ ٨٤٩م)، «المصنف في الأحاديث والآثار»، الدار السلفية، بومباي، ١٩٨٣م.

- **الطبري**، إسحاق بن يحيى، (ت٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، «تاريخ صنعاء»، تحقيق، الحبشي، مكتبة السنحاني، صنعاء.

- **الطبري**، أبو جعفر محمد بن جرير، (ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م)، «تاريخ الرسل والملوك»، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دارالمعارف، ١٩٦٧م.

- **ابن الطقطقا**، محمد بن علي بن طباطبا، (ت٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)، «الفخري في الآداب السلطانية»، دار صادر ، بيروت، ١٩٦٦م.

- **ابن عبد البر**، يوسف بن عبد الله، (ت٤٦٣هـ/ ١٠٧١م)، «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»، تحقيق، علي البجاوي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٠م.

-«جامع بيان العلم وفضله»، تحقيق، عبد الرحمن حسن محمود، دار الكتب الحديثة، عابدين.

- **ابن عبد الحكم**، عبد الرحمن بن عبد الله، (ت٢٥٧هـ/ ٨٧٠م)، «فتوح مصر وأخبارها»، ليدن، ١٩٣٠م.

- **ابن عبد الحكم**، عبد الله، (ت٢١٤هـ/ ٨٢٨م)، «سيرة عمر بن عبد العزيز»، تحقيق، أحمد عبيد، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٦٧م.

- **ابن عبد ربه الأندلسي**، أبو عمر أحمد بن محمد، (ت٣٢٨هـ/ ٩٣٩م)، «العقد الفريد»، تحقيق، أحمد أمين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٨٤م.

- «العقد الفريد»، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٢م.

- **ابن العديم**، كمال الدين ابن العديم ابن جرادة، (ت٦٦٠هـ/ ١٣٦١م)، «زبدة الحلب في تاريخ حلب»، تحقيق، سامي الدهان، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٥١م.

-«بغية الطلب في تاريخ حلب»، ميكروفيلم، جامعة اليرموك -الأردن، إربد.

- **ابن عذارى المراكشي**، أحمد بن محمد، (ت نحو ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م)، «البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب»، مكتبة صادر، بيروت، ١٩٥٠م.

- **ابن العربي**، القاضي أبو بكر، (ت٥٤٣هـ/ ١١٤٨م)، «العواصم من القواصم»، تحقيق، محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ط٢، ١٣٧٥هـ.

- **ابن عساكر**، علي بن الحسن (ت٥٧١هـ/ ١١٧٥م)، «تاريخ دمشق»، مخطوط، تصوير مكتبة الدار، المدينة المنورة.

-«تاريخ دمشق»، مخطوط، دار البشير، عمان، ١٩٨٠م.

- **العسكري**، الحسن بن عبد الله، (توفي بعد ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م)، «الأوائل»، تحقيق، محمد المصري، وليد قصاب، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٧٥م.

- **ابن العماد الحنبلي**، عبد الحي بن العماد، (ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)، «شذرات الذهب في أخبار من ذهب»، المكتب التجاري، بيروت.

- **ابن العمراني**، محمد بن علي بن محمد، (ت٥٨٠هـ/ ١١٨٤م)، «الأنباء في تاريخ الخلفاء»، تحقيق، قاسم السامرائي، ليدن، ١٩٢٣م.

- **ابن قتيبة الدينوري**، أبو محمد عبد الله بن مسلم، (ت٢٧٦هـ/ ٨٨٩م)، «المعارف»، تحقيق، الصاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٩٧٠م.

-«الإمامة والسياسة»، تحقيق، طه الزيني، مؤسسة الحلبي، القاهرة، ١٩٦٧م.

-«عيون الأخبار»، دارالكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٥م.

- **قدامة بن جعفر**، الخراج وصناعة الكتابة، (ت٣٢٨هـ/ ٩٣٩م)، تحقيق، محمد حسين الزبيدي، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨١م.

- **القلقشندي**، أحمد بن علي بن أحمد، (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨)، «صبح الأعشى في صناعة الإنشا»، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر.

- **ابن كثير**، أبو الفداء اسماعيل بن عمر، (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، «البداية والنهاية»، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٣٢م.

«البداية والنهاية»، تحقيق، أحمد عبد الوهاب فتيح، دار المعرفة، القاهرة.

- **ابن الكلبي**، هشام بن محمد الكلبي، (ت٢٠٤هـ/ ٨١٩م)، «جمهرة النسب»، تحقيق، محمود فردوس العظم، دار اليقظة العربية، دمشق.

- **الكندي**، محمد بن يوسف، (ت ٣٥٠هـ/ ٩٦١م)، «كتاب الولاة وكتاب القضاة»، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.

- **مالك بن أنس**، (ت١٧٩هـ/ ٧٩٥م)، «الموطأ»، تحقيق، محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥١م.

«المدونة»، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.

- **المالكي**، عبد الله بن أبي بكر، (ت٤٩٥هـ/ ١١٠٢م)، «رياض النفوس»، ج١، تحقيق، حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١م. ج٢، تحقيق، بشير البكوشي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

- **الماوردي**، علي بن حبيب، (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م)، «الأحكام السلطانية»، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ط٣، ١٩٧٣م.

-**المبرد**، أبو العباس محمد بن يزيد، (ت ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م)، «الكامل في اللغة»، تحقيق، أبو الفضل إبراهيم، دار نهضة مصر.

-«التعازي والمراثي»، تحقيق، محمد الديباجي، مجمع اللغة العربية، بدمشق.

-**المسعودي**، علي بن الحسين، (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م)، «مروج الذهب ومعادن الجوهر»، تحقيق، محمد محيي الدين، القاهرة، ط٤، ١٩٦٤م.

-«التنبيه والإشراف»، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨١م.

- **المقدسي**، عبد الله بن أحمد بن قدامة، (ت ٦١٠هـ/ ١٢٢٣م)، «التبيين في أنساب القرشيين»، تحقيق، محمد الدليمي، المجمع العلمي، العراق، بغداد، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

- **المقدسي**، مطهر بن طاهر، (ت ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م)، «البدء والتاريخ»، باريس، ١٨٩٩م.

- **المقري**، أحمد بن محمد المقري التلمساني، (ت١٠٤١هـ/ ١٦٣١م)، «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، ١٩٦٨م.

-«نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، تحقيق، إحسان عباس، دار صياد، بيروت.

- **المقريزي**، أحمد بن علي، (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، «إغاثة الأمة بكشف الغمة»، تحقيق، محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٤٠م.

-«النزاع والتخاصم فيما بين أمية وبني هاشم»، مكتبة الأهرام، القاهرة، ١٩٣٧م.

-«الخطط والآثار»، مكتبة المثنى، بغداد.

-«الخطط والآثار»، طبعة بولاق، دار التحرير، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

- الخطط، دار صادر، بيروت.

- **مؤلف مجهول**، (ق٤هـ/ ١١م)، «تاريخ الخلفاء»، تحقيق، بطرس غرياز نيويج، دار النشر، موسكو، ١٩٦٧م.

- **ابن هشام**، عبد الملك بن هشام، (ت٢١٨هـ/ ٨٣٣م)، «السيرة النبوية»، تحقيق، السقا، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٧١م.

- **الهيثمي**، نور الدين علي بن أبي بكر، (ت٨٠٧هـ/ ١٤٠٢م)، «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد»، دار الكتاب، بيروت.

- **وكيع**، محمد بن خلف، (ت٣٠٦هـ/ ٩١٨م)، «أخبار القضاة»، عالم الكتب، بيروت.

- **اليافعي**، عبد الله بن أسعد اليافعي اليمني، (ت٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م)، «مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان»، تحقيق، عبد الله الجبوري،مؤسسة الرسالة، ١٩٨٤م.

- **ياقوت الحموي**، ياقوت بن عبد الله، (ت٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)، «معجم البلدان»، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م.

- **اليعقوبي**، أحمد بن أبي يعقوب بن جعمر، (ت٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)، «تاريخ اليعقوبي»، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠م.

- **أبو يعلى الفراء**، محمد بن الحسين الفراء، (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م)، «الأحكام السلطانية»، تصحيح، محمد حامد الفقي، مطبعة ومكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٩٦٦م.

المراجع العربية:

-**إسماعيل**، محمود، «قضايا في التاريخ الإسلامي»، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ١٩٨١م.

- **الأعظمي**، عواد مجيد، «مسلمة بن عبد الملك»، منشورات اتحاد المؤرخين، بغداد، ١٩٨٠م.

- **أمين**، أحمد، «فجر الإسلام»، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٩، ١٩٦٤م.

-«ضحى الإسلام»، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٧، ١٩٦٤م.

- **بخيت**، عبد الحميد بخيت، «ظهور الإسلام»، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٧م.

- **بطاينة**، محمد ضيف الله، «بحوث في التاريخ الإسلامي»، دار مجدلاوي، عمان، ١٩٨٣م.

-«في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية»، دار الفرقان، عمان، ط٢، ١٩٨٥م.

-«دراسات وبحوث في جوانب من التاريخ الإسلامي»، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٩٨٦م.

-«الحياة الاجتماعية في صدر الإسلام»، دار الكندي، إربد، دار طارق، عمان، ط٢، ١٤١٨هـ-١٩٩٧.

- «الحياة الاقتصادية في العصور الإسلامية الأولى»، دار الكندي، اربد، دار طارق، عمان ١٩٩٨م.

- «الإيجاز والإيناس باخبار بني العباس»، دار الهلال، اربد ١٩٩٩م.

- **بيضون**، إبراهيم، «الدولة الأموية والمعارضة»، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٨٥م.

-«الدولة الأموية والمعارضة»، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٠م.

-«تكوين الاتجاهات السياسية في الإسلام الأول»، دار اقرأ، بيروت، ١٩٨٥م.

-«الحجاز والدولة الإسلامية»، المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٩٨٣م.

- **الثعالبي**، عبد العزيز، «سقوط الدولة الأموية»، تحقيق، حمّادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٥م.

- **جعيط**، هشام، «الفتنة»، ترجمة، خليل أحمد، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م.

- **جودة**، جمال، «الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للموالي في صدر الإسلام»، دار البشير، عمان، ١٩٨٩م.

- **أبو جيب**، سعدي، «مروان بن محمد»، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٢م.

- **حتى**، فيليب، «تاريخ العرب (مطول)»، دار الكشاف، بيروت، ط٤، ١٩٦٥م.

- **الحجي**، عبد الرحمن، «التاريخ الأندلسي»، دار القلم، بيروت، ١٩٧٦م.

- **حسن**، حسن إبراهيم، «تاريخ الإسلام السياسي»، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٧، ١٩٦٤م.

-«النظم الإسلامية»، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٢م.

- **حسين**، ناجي، «القبائل العربية في المشرق»، اتحاد المؤرخين العرب، بغداد، ١٩٨٠م.

- **حسين**، صابر محمد، «أرمينية من الفتح الإسلامي إلى مستهل القرن الخامس الهجري»، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٨م.

- **الحوفي**، أحمد محمد، «أدب السياسة في العصر الأموي»، دار العلم، بيروت، ١٩٦٥م.

- **الخضري**، محمد الخضري، «محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية»، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط٨، ١٣٨٤هـ.

-«تاريخ التشريع الإسلامي»، المكتبة التجاري، القاهرة، ط٧، ١٩٦٠م.

- **الخطيب**، عبد الله مهدي، «الحكم الأموي في خراسان»، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧٥م.

- **خليف**، يوسف، «شعراء أمويون، في الشعر الأموي»، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٩١م.

- **خماش**، نجدة، «الشام في صدر الإسلام من الفتح حتى سقوط خلافة بني أمية دراسة للأوضاع الاجتماعية والإدارية»، دار طلاس، دمشق، ١٩٨٧م.

-«الإدارة في العصر الأموي»، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٠م.

- **دبوز**، محمد علي، «تاريخ المغرب الكبير»، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٣م.

- **دكسن**، عبد الأمير عبد حسين، «الخلافة الأموية»، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٣م.

- **الدوري**، عبد العزيز، «مقدمة في تاريخ صدر الإسلام»، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٦١م.

-«مقدمة في التاريخ الاقتصادي»، دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٩م.

- **الراوي**، ثابت الراوي، «العراق في العصر الأموي»، مطابع النعمان، النجف، ١٩٧٠م.

- **الرفاعي**، صالح بن حامد، «الأحاديث الواردة في فضائل المدينة»، مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، المدينة المنورة، ١٩٩٢م.

- **الريس**، محمد ضياء الريس، «النظريات السياسية الإسلامية»، دارالمعارف بمصر، القاهرة، ط٥، ١٩٦٩م.

- **زكّار**، سهيل، «تاريخ العرب والإسلام»، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.

- **زيدان**، جورجي، «تاريخ التمدن الإسلامي»، دار الهلال، القاهرة، ١٩٢٦م.

- **سالم**، عبد العزيز سالم، «تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس»، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٨٢م.

- **السباعي**، مصطفى، «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي»، المكتب الإسلامي، دمشق، ط٢، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

- **سرور**، محمد جمال الدين، «الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية»، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٠م.

- **شعبان**، محمد عبد الحي، «صدر الإسلام، والدولة الأموية»، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧م.

-«الثورة العباسية»، ترجمة، عبد المجيد القيسي، دار الدراسات الخليجية، أبو ظبي، ١٩٧٧م.

- **شمس الدين**، محمد مهدي، «نظام الحكم والإدارة في الإسلام»، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر»، بيروت، ط٤، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

- **الصالح**، صبحي، «مباحث في علوم القرآن»، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٧٢م.

-النظم الإسلامية، دارالعلم للملايين، بيروت، ط٨، ١٩٩٠م.

- **صالحية**، محمد عيسى، «المعجم الشامل للتراث العربي المطبوع»، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٩٢م.

- **ضيف**، شوقي، «العصر الإسلامي»، دار المعارف، القاهرة، ط٧، ١٩٦٣م.

- **طه**، عبد الواحد ذنون، «الفتح والاستقرار العربي في شمال افريقية والأندلس»، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٢م.

- **عاقل**، نبيه، «تاريخ خلافة بني أمية»، دارالفكر، بيروت، ط٤، ١٩٨٣م.

- **العباسي**، أحمد بن عبد الحميد، «كتاب عمدة الأخبار في مدينة المختار»، تصحيح حمد الجاسر، الناشر، أسعد الحسيني، ط٥.

- **العدوي**، إبراهيم أحمد، «الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم»، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٥٨م.

- **العش**، يوسف، «الدولة الأموية»، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٦٥م.

- **العلي**، خالد، «جهم بن صفوان»، المكتبة الأهلية، بغداد، ١٩٦٥م.

- **العلي**، صالح أحمد العلي، «التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة»، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٦٩م.

-«دراسات في الإدارة»، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٤١٠هـ-١٩٨٥م.

-«محاضرات في تاريخ العرب»، بغداد، ط٦، ١٩٥٦م.

- **عمارة**، محمد عمارة، «الخلافة»، دار الهلال، ١٩٨٣م.

- **العمد**، إحسان، «الحجاج بن يوسف الثقفي»، دارالثقافة، بيروت، ١٩٧٢م.

- **عمر**، فاروق، «طبيعة الدعوة العباسية»، دار الفكر العربي، بغداد.

-«بحوث في التاريخ العباسي»، مكتبة النهضة، بغداد، ١٩٧٧م.

«الاستشراق والتاريخ الإسلامي»، الأهلية للنشر، بيروت، ١٩٩٨م.

- **العمري**، أكرم، بحوث في تاريخ السّنة المشرفة، مؤسسة الرسالة، دمشق، ط٣.

-«السيـرة النبـويـة الصحيحـة»، مكتبـة العلـوم والحكـم، المـدينـة المنـورة، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.

- **عنان**، محمد، «دولة الإسلام في الأندلس»، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٩٦٩م.

- **عواد**، محمود أحمد محمد، «الجيش والقتال في صدر الإسلام»، مكتبة المنار، الزرقاء، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

- **فهمي**، سامح عبد الرحمن، «المكاييل في صدر الإسلام»، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة.

- **قراعة**، سنية، «مساجد ودول»، دار أخبار اليوم، القاهرة، ١٩٥٨م.

- **القيسي**، نوري حمودي، شعراء أمويون، ١٣٠٦هـ-١٩٧٦م.

- **الكبيسي**، عبد المجيد محمد، «عصر هشام بن عبد الملك»، مطبعة سلمان الأعظمي، بغداد، ١٩٧٥م.

- **كرد علي**، محمد، «الإسلام والحضارة العربية»، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٥٩م.

- **اللميلم**، عبد العزيز محمد، «حسان بن النعمان الغساني»، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

- **محمود**، اسماعيل، «قضايا في التاريخ الإسلامي»، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٨١م.

- **مصباح**، أحمد مجاهد مصباح، «تاريخ الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامي»، دار الطباعة المحمدية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤م.

- **معروف**، ناجي، «أصالة الحضارة الغربية»، مطبعة التضامن، بغداد، ط٢، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

- **معهد البحوث والدراسات العربية**، «تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر»، بغداد، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

- **ملكة**، أبيض، «التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة»، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م.

- **المنجد**، صلاح الدين المنجد، «معجم بني أمية»، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٠م.

-«شعر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان»، جمع وتحقيق، صلاح الدين، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٢م.

- **نايف**، محمودنايف، «الخوارج في العصر الأموي»، دارالطليعة، بيروت، ١٩٧٧م.

- **النجار**، عبد الوهاب النجار، «الخلفاء الراشدون»، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩م.

- **النجار**، محمد الطيب، «الموالي في العصر الأموي»، دار النيل، القاهرة، ١٩٤٩م.

- **النص**، إحسان، «العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي»، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٩٧٣م.

- **النقشبندي**، ناصر السيد محمود، «الدرهم الإسلامي»، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٣٨٩هـ-١٩٦٩م.

- **الهادي**، صلاح الدين، «اتجاهات الشعر في العصر الأموي»، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م.

المراجع المعربة:

- ارشيبالد، ر. لويس، «القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط، ٥٠٠-١١٠٠م»، ترجمة، أحمد عيسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م.

- آشتور، ايلياهو، «التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى»، ترجمة، عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥م.

- بليايف، ي.أ.، «العرب والإسلام والخلافة العربية»، تعريب، أنيس فريحة، ومراجعة، محمود زايد، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ١٩٧٢م.

- جرونيباوم، جوستاف أ. فون جرونيباوم، «حضارة الإسلام»، تعريب، عبد العزيز توفيق جاويد، ومراجعة، عبد الحميد العبادي، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٥٦م.

- جوليان، شارك اندري، «تاريخ افريقية»، تعريب، محمد مزالي، الدار التونسية، ط٣، ١٩٧٨م.

- دينيت، دانيل، «الجزية والخراج»، ترجمة، فوزي جاد الله، مؤسسة فرنكلين للطباعة، ١٩٥٩م.

- زامباور، «معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي»، إخراج، زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود، مطبعة جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥١م.

- فلهوزن، يوليوس فلهوزن، «تاريخ الدولة العربية»، تعريب، محمد أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٨م.

- «الخوارج والشيعة»، ترجمة، عبد الرحمٰن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨م.

- فلوتن، فان، «السيادة العربية»، ترجمة، حسن إبراهيم، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥م.

- كاهن، كلود كاهن، «تاريخ العرب والشعوب الإسلامية»، تعريب، بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، بيروت.

- لويس، برنارد، «العرب في التاريخ»، ترجمة، نبيه فارس، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٤.

- هنتس، ڤالتر، «المكاييل والأوزان الإسلامية»، ترجمة، كامل العسلي، مطبعة القوات المسلحة، عمان، ١٩٧٠م.

الرسائل الجامعية (غير منشورة):

- أسعد، هاني، «العطاء في صدر الإسلام»، الجامعة الأردنية، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

- الحجيلي، عبد الرحمٰن بن رباح، «انتشار الإسلام في بلاد مصر والمغرب في صدر الإسلام»، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

- عبابنة، علي بن إبراهيم، «خلافة سليمان بن عبد الملك»، جامعة اليرموك، إربد ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

- العزام، صبحي بن محمود، «خلافة مروان بن الحكم»، جامعة اليرموك، إربد ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

- العزام، طارق بن محمد، «النفقات المالية في عهد عثمان بن عفان وأثرها في الأحداث السياسية»، جامعة اليرموك، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

- الغامدي، صالح بن عبد الله، «حركة عبد الرحمٰن بن محمد الأشعث الكندي»، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

- أبو قمر، إحسان بن عبد القادر، «الأحداث التاريخية في العصر الأموي وأثرها في نشأة الخوارج وآرائهم»، جامعة اليرموك، إربد ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

- كنعان، محمد بن حمدان، «جند حمص منذ الفتح الإسلامي وحتى نهاية الدولة الأموية»، جامعة اليرموك، إربد ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

- محفوظ، البان، «الموارد المالية للدولة الإسلامية في العصر الأموي»، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

- المزيني، علي بن عايش، «القبائل العربية وأثرها في سلطان بني أمية»، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

- مشعور، فراس بن محمد، «النفقات المالية في عهدي أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب»، جامعة اليرموك، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

- المومني، محمود بن عبد الله، «خلافة يزيد بن عبد الملك»، جامعة اليرموك، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

- الهزايمة، نوال بنت عباس، «المغيرة بن شعبة الثقفي»، جامعة اليرموك، إربد، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

الأبحاث والمؤتمرات:

- بطاينة، محمد، «سياسة بني أمية»، بحث، مجلة أبحاث اليرموك، م١، ع٢، ١٩٨٥.

- «حول مصرع الوليد بن يزيد»، بحث، مجلة آداب جامعة الرياض، م٥، ١٩٧٧ - ١٩٧٨.

- «قتله عثمان بين علي بن أبي طالب ومعارضيه»، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، ع١٣، م٤، ١٩٨٤م.

- بيضون، إبراهيم.

- «الشام والدعوة العباسية»، بحث، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٩٠م.

- «مؤتمر الجابية»، بحث، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٧م.

- دكسن، عبد الأمير، «مظهر من مظاهر الحكم في بلاد الشام»، بحث، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٧٤م.

- دونر، فرد، «تطور الوعي التاريخي في المجتمع الإسلامي المبكر»، بحث، مؤتمر كتابة التاريخ الإسلامي في الإشكالية والمنهج، الجامعة الإسلامية، بيروت، ١٩٩٧م.

السيد، رضوان السيد، «الخلافة والملك في الرؤية الأموية للسلطة»، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام في العهد الأموي.

- رضوان، هناء رضوان، النقود الإسلامية القديمة، مجلة الاجتهاد، ع٣٤ و ٣٥، السنة التاسعة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

- الشكعة، مصطفى، «مواقف المستشرقين من الحضارة الإسلامية في الأندلس، بحث منشور في العدد الذي صدر في إطار الاحتفال بالقرن الخامس عشر الهجري، إشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومكتب التربية العربي لدول الخليج باسم، «مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية»، الرياض، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

- عطية، جورج، «الجدل الديني المسيحي الإسلامي في العصر الأموي»، بحث، المؤتمر الدولي الرابع لبلاد الشام، عمان، ١٩٨٦م.

- العلي، صالح أحمد العلي، «إدارة الحجاز في العهود الإسلامية الأولى»، بحث، مجلة أبحاث، الجامعة الأميركية، السنة ٢١، ج٢، ٣، ٤، ١٩٦٨م.

-ـــــــــــــــ، «تنظيمات الرسول الإدارية في المدينة»، بحث، مجلة المجتمع العلمي العراقي، المجلد السابع عشر ١٩٦٩م، ص: ٥٠-٦٩.

-ـــــــــــــــ، «موظفو بلاد الشام في العهد الأموي»، بحث، مجلة أبحاث، الجامعة الأمريكية، بيروت، السنة ١٩، ج١، ١٩٦٠م.

- المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، «بلاد الشام في صدر الإسلام»، من أوراق الندوة الثانية، ٢٤-٣٠ جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ، ١٦-٢٢ آذار ١٩٨٥، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك، المجلد الثاني، المجلد الثالث، عمان، ١٩٨٧.

المراجع والمقالات باللغة الإنجليزية:

-Arnold, T., The Preaching of Islam, SH. M. A., Kashmiri Bazar, Lahore Pakistan.

- Bell, R., The Origins of Islam in Its Christian Environment, Edinburgh Univ. Frank Cass and Co. L.td 1968.

- Butler, A.J., The Arab conquest of Egypt: The last thirty years of the Roman Dominion, Second edition, printed in Great Britain at the Univ. press, Oxford.

- Donner, F. Mc. The Early Islamic conquest, Princeton Univ. press, Princeton, 1981.

- Haddad, G.. The Fall of Damascus in the Hands of the Saracens, Beirut, March, 30, 1928.

- El - Hajji, A. A., Andalusian Diplomatic Relations with Western Europe, Dar AL - Irshad, Beirut, 1970.

- Humphreys, R. S., Islamic History, revised edition, princeton Univ. press, Princeton, 1991.

- Issawi, C., The Arab world's Legaey, The Darwin press, Princeton, 1981.

- Lassner, J., The shaping of Abbasid Rule, Princeton University press, Princeton, 1980.

- Mottahedeh, R. P., Loyalty and Leadership in an Early Islamic Society, Princeton Umiv. press, Princeton, 1986.

- Muir, W., The Caliphate: Its Rise, Decline and Fall, Beirut, Khayats, 1963.

- Patricia Crone/ Were the Qays and Yemen of the Umayyed period Political Parties? Der Islam, Band 71, Heft, I, 1994, PP. 1-57.

- Trimingham, J. S., Chrisianity among the Arabs in pre - Islamic times, Longman. London and New York.

- Triton, A. S., The Caliphs and Non - Muslim Subjects.

- Udovitch, A. L., The Islamic Middle East (700-1900). The Darwin press, Princeton, 1981.
- Vasiliev. A., The Byzantine Empire, Madison, 1952.
- Watt, W. M., Muhammad at Mecca, The Clarendon press, London, 1953.
- Muhammad at Medina, Oxford, The Clarendon press, London, 1956.
- Muhammad Prophet and stateman oxford Univ. press, London, 1961.
- Kharijite thought in the Umayyed period, Der lslam, Band, 36, Heft 3, 1994, pp. 215-231.
- The Encyclopaedia of lslam,
- Leiden, London, E. I. Brill, 1936.
- New edition, Leiden, New York, E. J. Brill.

فهرس محتويات الكتاب